رسائل الجاحظ

وهى رسائل منتقاة من كتب للجاحظ لم تنشر قبل الآن

جمعها ونشرها

حسن السندوبى

وجعلها من لواحق كتابه « أدب الجاحظ »

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

الطبعة الأولى

سنة ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م

المطبعة الرحمانية بمصر
شارع الخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥١٥٣٢



رسائل الجاحظ

وهى رسائل منتقاة من كتب للجاحظ لم تنشر قبل الآن

جمعها ونشرها

حسن السندوبى

وجعلها من لواحق كتابه « أدب الجاحظ »

الطبعة الأولى —

سنة ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
شارع الخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥١/٢٢



مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى العربى المبين

وبعد فقد أشرنا فى آخر كتابنا « أدب الجاحظ » إلى أننا سنلحق به رسائل للجاحظ لم تنشر قبل الآن. وها نحن أولاء نحقق هذه الاشارة ونقدم للقراء هذه الرسائل، وهى منتقاة من كتب الجاحظ ومن كتب أخرى أكثرها فى غير متناول الايدى. وهذه الرسائل فى التاريخ والأدب والاجتماع والجدل. وقد ألحقنا بها طائفة صالحة من رسائله الخاصة التى يسميها العرف « الاخوانيات » فجاءت مجموعة جيدة ترضى أهل الأدب وتشبع نهمته ذوى البحث ومحبى الاطلاع. وقد كانت فى أصولها المخطوطة أو المطبوعة كثيرة التصحيف والتحريف والمسخ والسقط والتشويه. ولهذا فقد بذلت فى تقويمها وتحريرها جهداً ألله وحده هو المسئول عن جزائه والمكافأة عليه وهو حسبى ونعم الوكيل ؟

حسن السندوبى

القاهرة فى { ٢٩ صفر سنة ١٣٥٢
٢٢ يونيه سنة ١٩٣٣

١

خلاصة كتاب العثمانية

قال أبو عثمان :

١ — قالت العثمانية : أفضل الأمة وأولاها بالإمامة ، أبو بكر بن أبى قُحَافة لإسلامه على الوجه الذى لم يُسلم عليه أحد فى عصره . وذلك أن الناس اختلفوا فى أول الناس إسلاما ، فقال قوم : أبو بكر ، وقال قوم : زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ ، وقال قوم : خَبَّابُ بنُ الأَرَتّ . . وإذا تفقدنا أخبارهم وأحصينا أحاديثهم وعددنا رجالهم ونظرنا فى صحة أسانيدهم ، كان الخبر فى تقدم إسلام أبى بكر أعم ورجاله أكثر وأسانيده أصح ، وهو بذلك أشهر واللفظ فيه أظهر ، مع الأشعار الصحيحة والأخبار المستفيضة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته . وليس بين الأشعار والأخبار فرق إذا امتنع فى مجيئها وأصل مخرجها التباعد والاتفاق والتواطؤ . . ولكن ندع هذا المذهب جانباً ونضرب عنه صفحاً ، اقتدارا على الحجة ووثوقا بالفَلَجِ والقوة ، ونقتصر على أدنى نازل فى أبى بكر ، وننزل على حكم الخصم فنقول :

إنا وجدنا من يزعم أنه (يعنى عليا) أسلم قبل زَيْدٍ وَخَبَّابٍ ، ووجدنا من يزعم أنهما أسلما قبله . وأوسط الأمور أعدلها وأقربها من محبة الجميع ورضا المخالف أن نجعل إسلامهم كان معاً . إذ الأخبار متكافئة والآثار متساوية على ما يزعمون . وليست إحدى القضيتين أولى فى صحة العقل من الأخرى . ثم نستدل على إمامة أبى بكر بما ورد فيه من الحديث وبما أبانه به رسول الله صلى الله عليه وسلم من غيره .

قالوا : فمما روى من تقدم إسلامه ما حدث به أبو داود بسنده (١) عن أبي هُريرة ، قال : قال أبو بكر : أنا أحقكم بهذا الأمر — يعنى الخلافة — ألست أول من صلى ؟ !

وروى عَبَّاد بن صُهيب عن يحيى بن عمير عن محمد بن المنكدر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله بعثنى بالهدى ودين الحق إلى الناس كافة فقالوا : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت .

وروى يعلى بن عبيد قال : جاء رجل إلى ابن عباس فسأله : من كان أول الناس إسلاما ؟ فقال : أما سمعت قول حسَّان بنِ ثَابتٍ :

إِذَا تَذَكَّرْتَ شَجْوًا مِنْ أَخِي ثِقَةٍ ... فَاذْكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا
الثَّانِيَ التَّالِيَ المحمودَ مَشْهَدُهُ ... وَأَوَّلُ الناسِ مِنْهُمْ صَدَّقَ الرُّسُلَا

وقول أبي مِحْجَنٍ :

سَبَقْتَ إِلَى الإِسْلَامِ وَاللهُ شَاهِدٌ ... وَكُنْتَ حَبِيبًا بِالْعَرِيشِ مُشَهَّرَا

وقول كعب بن مالك :

سَبَقْتَ أَخَا تَيْمٍ إِلَى دِينِ أَحْمَدٍ ... وَكُنتَ لَدَى الْغِيرَانِ فِى الكَهْفِ صَاحِبَا

وروى ابن أبي شَيبَةَ بسنده عن النخعى قال : أبو بكر أول من أسلم .

وعن عَمْرِو بنِ عَنبَسَةَ . قال : أتيت النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو بِعكاظٍ فقلت له : من بايعك على هذا الأمر ؟ فقال : بايعنى حر وعبد . فلقد رأيتنى يومئذ وأنا رابع الأسلام .

قال بعض أصحاب الحديث : يعنى بالحر أبابكرٍ و بالعبد بلالاً .

وروى اللَّيثُ بنُ سَعدٍ بسنده عن أبي أمامة . قال : حدثنى عمرو بن عَنْبَسَةَ أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم وهو بعكاظ فقال له : من تبعك ؟ فقال : تبعنى حر وعبد ، أبو بكر وبلال

---

(١) حذفت الاسانيد فى كل الروايات إلا ماقرب منها

وعن أُسيد بن صفوان صاحب النبى صلى الله عليه وسلم قال : لما قُبض أبو بكر جاء على بن أبى طالب فقال : رحمك الله أبا بكر ، كنت أول الناس إسلاما .

وعن عِكْرِمَةَ مولى ابن عباس قال : إذا لقيتُ الهاشميين قالوا : على بن أبى طالب أول من أسلم ، وإذا لقيتُ الذين يعلمون قالوا : أبو بكر أول من أسلم .

قال أبو عثمان : قال العثمانية : فان قال قائل : فما بالكم لم تذكروا علىّ بن أبى طالب فى هذه الطبقة ، وقد تعلمون كثرة مقدميه والرواية فيه ؟ ! قلنا قد علمنا الرواية الصحيحة والشهادة القائمة أنه أسلم وهو حدثٌ غَرِيرٌ وطفلٌ صغير فلم نكذب الناقلين ولم نستطع أن نلحق إسلامه باسلام البالغين ، لأن المقلل زعم أنه أسلم وهو إبن خمس سنين ، والمكثر زعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين ! فالقياس أن يؤخذ الأوسط بين الروايتين و بالأمر بين الأمرين ؟ ! وإنما يُعرف حق ذلك من باطله بأن نحصى سنيه التى ولى فيها الخلافة وسنى عثمان وسنى عمر وسنى أبى بكر ومقام النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ومقامه بمكة عند إظهار الدعوة ، فان فعلنا ذلك صح أنه أسلم وهو ابن سبع سنين . فالتاريخ المجمع عليه أنه قتل فى شهر رمضان سنة أربعين.

٢ — فإن قالوا : فلعله وهو ابن سبع سنين أو ثمانى سنين قد بلغ من فطنته وذكائه وصحة لُبه وصدق حَدسه وانكشاف العواقب له — وإن لم يكن جرب الأمور ولا فاتح الرجال ولا نازع الخصوم — ما يعرف به جميع ما يجب على البالغ معرفته والإقرار به ؟ ! قيل لهم : إنما نتكلم على ظواهر الأحوال وماشاهدنا عليه طبائع الأطفال ! فإنا وجدنا حكم ابن سبع سنين أو ثمان — مالم يُعلم باطن أمره وخاصة طبعه — حكم الأطفال . وليس لنا أن نزيل ظاهر حكمه والذى نعرف من حال أبناء جنسه ، بلعل وعسى ؟ ! لأنا وإن كنا لاندري لعله قد كان ذا فضيلة فى الفطنة فلعله قد كان ذا نقص فيها ! هذا على تجويز أن يكون علىٌّ فى الغيب قد أسلم وهو ابن سبع أو ثمان إسلام البالغ ! غير أن الحكم على مُجرى أمثاله وأشكاله الذين أسلموا وهم فى مثل سنه ! إذا كان إسلام هؤلاء عن

تربية الحاضن وتلقين القيم ورياضة السائس ، فأما عند التحقيق فإنه لا يجوز لمثل ذلك ، لأنه لو كان أسلم وهو ابن سبع أو ثمان وعرف فضل ما بين الأنبياء والكهنة ، وفرق ما بين الرسل والسحرة ، وفرق ما بين خبر النبي والمنجم ، وحتى عرف كيد الأريب وموضع الحجة ونقد التمييز ، وكيف يلَبِّسُ على العقلاء وتُستمال عقول الدهماء ، وعرف الممكن فى الطبع من الممتنع ، وما يحدث بالاتفاق مما يحدث بالأسباب ، وعرف قدر القُوى وغاية الحيلة ومنتهى التمويه والخديعة ، وما لا يحتمل أن يحدثه إلا الخالق سبحانه ، وما يجوز على الله فى حكمته مما لا يجوز ، وكيف التحفظ من الهوى والاحتراس من الخداع ، لكان كونه على هذه الحال — وهذا مع فرط الصبى والحداثة وقلة التجارب والممارسة — خروجا من العادة ومن المعروف مما عليه تركيب هذه الخلقة

وليس يصل أحد إلى معرفة نبي وكذب متنبىء حتى تجتمع فيه هذه المعارف التى ذكرناها والأسباب التى وصفناها وفصلناها . ولو كان عليٌّ على هذه الصفة ومعه هذه الخاصيَّةُ لكان حجة على العامة وآية تدل على النبوة ! ولم يكن الله عز وجل ليخصه بمثل هذه الأعجوبة إلا وهو يريد أن يحتج بها ويجعلها قاطعة لعذر الشاهد وحجة على الغائب . ولولا أن الله أخبر عن يحيي بن زكريا أنه آتاه الحكم صبيا ، وأنه أنطق عيسى فى المهد ، ما كانا فى الحكم إلا كسائر الرسل وما عليه جميع البشر ، فإذا لم ينطق لعلى بذلك قرآن ولاجاء الخبر به مجيء الحجة القاطعة والمشاهدة القائمة فالمعلوم عندنا فى الحكم أن طباعه كطباع عميه حمزة والعباس ، وهما أمَسُّ بمعدن جماع الخير منه ! أو كطباع جعفر وعقيل من رجال قومه وسادة رهطه؟ ولو ان إنسانا ادعى مثل ذلك لأخيه جعفر أو لعميه حمزة والعباس ما كان عندنا فى أمره إلا مثل ما عندنا فيه .

٣ — ولو لم يعرف باطل هذه الدعوى من آثر التقوى وتحفظ من الهوى إلا بترك عليٍّ ذكر ذلك لنفسه والاحتجاج به على خصمه — وقد نازع الرجال

وناوأ الأكفاء وجامع أهل الشُّورى وولى عليه — لـكان كافياً . ومتى لم تصح لعلى هذه الدعوى فى أيامه ولم يذكرها أهل عصره فهى عن وُلده أعجز ومنهم أضعف . ولم ينقُل إلينا ناقل أن علياً احتج بذلك فى موقف ولا ذكره فى مجلس ولا قام به خطيباً ولا أدلى به واثقاً ، لاسيما وقد رضيه الرسول صلى الله عليه وسلم عندكم مفزعاً ومعلماً وجعله للناس إماما ! ولا ادعى له أحد ذلك فى عصره كما لم يدّعه لنفسه حتى يقول إنسان واحد به : الدليل على إمامته أن النبى صلى الله عليه وسلم دعاه إلى الاسلام أو كلفه التصديق قبل بلوغه ليكون ذلك آية للناس فى عصره وحجة له ولوُلده من بعده ! فهذا كان أشد على طَلحةَ والزُّبير وعائشةَ فى كل ما ادعاه من فضائله وسوابقه وذكر قرابته ؟ !

٤ — فلو أن علياً كان بالغاً حيث أسلم لـكان إسلام أبِى بَكرٍ وَزَيْدِ ابن حارثةَ وَخَبَّابِ بن الأرَتِّ أفضل من إسلامه ، لأن إسلام المُقْتَضَب الذى لم يَعتَدْ به ولم يعوده ولم يُمَرَّنْ عليه أفضل من الناشىء الذى رُبِّىَ فيه ونشأ عليه وحُبِّبَ إليه ، وذلك لأن صاحب التربية يبلغ حيث بلغ وقد أسقط إلفهُ عنه مُؤْنةَ الروية والخاطر وكفاه علاج القلب واضطراب النفس ، وزيدٌ وخبابٌ وأبو بكرٍ يعانون من كلفة النظر ومؤُنة التأمل ومشقة الانتقال من الدين الذى قد طال إلفُهم لهما هو غير خاف !

ولو كان علىٌّ حيث أسلم بالغا مقتضباً كغيره ممن عددنا لـكان إسلامهم أفضل من إسلامه ، لأن من أسلم وهو يعلم أن له ظهراً كأبى طالب وَرِدْأً كبنى هاشم وموضعاً فى بنى عبدمناف ، ليس كالحليف والمولى والتابع والعسيف(١) وكالرجل من عرض قريش ؟ ! أو لست تعلم أن قريشاً خاصة وأهل مكة عامة لم يقدروا على أذى النبىِّ صلى الله عليه وسلم ما كان أبوطالب حيا ؟ وأيضاً فإن أولئك اجتمع عليهم مع فراق الإلف مشقة الخاطر ، وعلىٌّ كان بحضرة الرسول يشاهد الأعلام فى كل وقت ويحضر مُنْزَل الوحى. فالبراهين له أشد انكشافا والخواطر

(١) العسيف : الخادم بأجر

على قلبه أقل اعتلاجا ، وعلى قدر الـكلفة والمشقة يعظم الفضل و يكثر الأجر .

٥ — ولأبى بكر فضيلة فى إسلامه ، أنه كان قبل إسلامه كثير الصديق عريض الجاه ذا يسار وغنى ، يُعظم لماله ويستفاد من رأيه ، فخرج من عز الغنى وكثرة الصديق إلى ذل الفاقة وعجز الوحدة . وهذا غير إسلام من لا حراك به ولا عز له ، تابع غير متبوع ، لأن من أشد ما يُبتلى الـكريم به السبّ بعد التحية والضرب بعد الهيبة والعسر بعد اليسر . . ؟ ثم كان أبو بكر داعية من دعاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان يتلوه فى جميع أحواله ، فـكان الخوف إليه أشد والمـكروه نحوه أسرع ، وكان ممن تحسن مطالبته ولا يُستحيى من إدراك الثأر عنده ، لنباهته وبعد ذكره ، والحدث الصغير يُزدرى ويحتقر لصغر سنه وخمول ذكره .

٦ — وكان أبو بكر من المفتونين المعذبين بمكة قبل الهجرة ، فضربه نَوْفَلُ ابنُ خُوَيْلِدٍ المعروف بابن العدوية مرتين حتى أدماه . وشده مع طلحة بن عُبَيْدِ اللهِ فى قَرَنٍ وجعلهما فى الهاجرة عُمَيْرٌ بن عثمان بن مرة بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، ولذلك كانا يدعيان : القرينين . ولو لم يكن له غير ذلك لـكان لحاقه عسيراً وبلوغ منزلته شديدا ، ولو كان يوماً واحداً لـكان عظيما . . وعلىُّ بنُ أبى طالب رَافِهٌ وادعٌ ، ليس بمطلوب ولا طالب . . وليس أنه لم يكن فى طبعه الشهامة والنجدة وفى غريزته البسالة والشجاعة ! ولـكنه لم يكن قد تمت أداته ولا استكملت آلته ، ورجال الطلب وأصحاب الثأر يغمضون ذا الحداثة ويزدرون بذى الصِّبا والغرارة إلى أن يلحق بالرجال ويخرج من طبع الأطفال .

٧ — ولأبى بكر مراتب لا يَشركه فيها علىٌّ ولا غيره ، وذلك قبل الهجرة . فقد علم الناس أن عليا إنما ظهر فضله وانتشر صيته وامتُحن ولقىَ المشاق منذ يوم بدر ، وأنه إنما قاتل فى الزمان الذى استوى فيه أهل الاسلام وأهل الشركة وطمعوا فى أن يكون الحرب بينهم سجالا ، وأعلمهم الله تعالى أن العاقبة للمتقين . وأبو بكر

كان قبل الهجرة معذباً مطرودا مشردا فى الزمان الذى ليس بالاسلام وأهله نهوض ولا حركة ، ولذلك قال أبو بكر فى خلافته : طوبى لمن مات فى نأناة الإسلام .

يقول : فى ضعفه .

٨ — وإن بين المحنة فى الدهر الذى صار فيه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مقرنين لأهل مكة ومشركى قريش ومعهم أهل يثرب أصحاب النخيل والآطام والشجاعة والصبر والمواساة والإيثار والمحاماة والعدد الدَّثِر والفعل الجذل ، وبين الدهر الذى كانوا فيه بمكة يُفتنون ويُشتمون ويُضربون ويُشرَّدون ويُجوَّعون ويُعطَّشون ، مقهورين لا حراك بهم وأذلاء لاعز لهم وفقراء لامال عندهم ومستخفين لا يمكنهم إظهار دعوتهم ، لفرقاً وَاضِحًا . . ولقد كانوا فى حال أحوجت لوطاً وهو نبىٌّ ، إلى أن قال : « لوْ أنَّ لى بِكُمْ قوَّةً أوْ آوى إلى رُكْنٍ شَدِيد » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : عَجبتُ من أخى لوط كيف قال أو آوى إلى ركن شديد وهو يأوى إلى الله تعالى ؟ ؟ . . ثم لم يكن ذلك يوما ولا يومين ولا شهراً ولا شهرين ولا عاما ولا عامين ولكن السنين بعد السنين ؟ ! وكان أغلظ القوم وأشدهم محنة، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبو بكر . لأنه أقام بمكة ما أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثلاث عشرة سنة ، وهو أوسط ماقالوا فى مقام النبى صلى الله عليه وسلم .

٩ — فان احتج محتج لعلى بالمبيت على الفراش ، فبين الغار والفراش فرق واضح ! لأن الغار وصحبة أبى بكر للنبى صلى الله عليه وسلم قد نطق به القرآن فصار كالصلاة والزكاة وغيرهما مما نطق به الكتاب . وأمر على ونومه فى الفراش ، وإن كان ثابتا صحيحا ، إلا أنه لم يذكر فى القرآن وإنما جاء مجىء الروايات والسير . وهذا لا يوازن هذا ولا يكايله .

١٠ — وفرق آخر ، وهو أنه لو كان مبيت علىٍّ عَلَى الفراش جاء مجىء كون أبي بكر فى الغار ، لم يكن له فى ذلك كبير طاعة . لأن الناقلين نقلوا أنه صلى الله عليه وسلم قال له : نم فلن يخلُصَ اليكَ شىء تكرهه . ولم ينقُل ناقل أنه قال لأبى بكر

فى صحبته إياه وكونه معه فى الغار مثل ذلك ، ولا قال له : انفق واعتق فإنك لن تفتقر ولن يصل إليك مكروه ؟ !

١١ — ومن جحد كون أبى بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كفر ، لأنه جحد نص الكتاب . ثم أنظر إلى قوله تعالى : « إِنَّ اللهَ مَعَنَا » من الفضيلة لأبى بكر ، لأنه شريك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كون الله تعالى معه ؟ ! وإنزال السكينة ، قال كثير من الناس إنه فى الآية مخصوص بأبى بكر ، لأنه كان محتاجا إلى السكينة لِمَا تداخله من رقة الطبع البشرى ، والنبى صلى الله عليه وسلم كان غير محتاج اليها لأنه يعلم أنه محروس من الله تعالى ، فلا معنى لنزول السكينة عليه . وهذه فضيلة ثالثة لأبى بكر .

١٢ — وإن كان المبيت على الفراش فضيلة ، فأين هى من فضائل أبى بكر أيام مكة من عتق المعذبين وإنفاق المال وكثرة المستجيبين ، مع فرق ما بين الطاعتين لأن طاعة الشاب الغرير والحدث الصغير الذى فى عز صاحبه عزه ، ليست كطاعة الحليم الكبير الذى لا يرجع تسويد صاحبه [إلا] إلى رهطه وعشيرته .

١٣ — وعلى أنا لو نزلنا إلى ما يريدونه جعلنا الفراش كالغار ، وخلصت فضائل أبى بكر فى غير ذلك عن معارض .

١٤ — ثم الذى لقى أبو بكر فى مسجده الذى بناه على بابه فى بنى جُمَح ، فقد كان بنى مسجداً يصلى فيه ويدعو الناس إلى الإسلام ، وكان له صوت رقيق ووجه عتيق ، وكان إذا قرأ بكى فيقف عليه المارة من الرجال والنساء والصبيان والعبيد ، فلما أوذى فى الله ومنع من ذلك المسجد استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة فأذن له ، فأقبل يريد المدينة [فاعترضه] الكِنَانِيُّ فعقد له جواراً وقال : والله لا أدع مثلك يخرج من مكة . فرجع إليها وعاد لصنيعه فى المسجد ، فمشت قريش إلى جاره الكنانىّ وأجلبوا عليه فقال له : دع المسجد وادخل بيتك واصنع فيه ما بدا لك ؟ .

١٥ — وحين رد أبو بكر جوار الكنانى وقال : لا أريد جاراً سوى الله ؟ لقى من الأذى والذل والاستخفاف والضرب ما بلغكم . وهذا موجود فى جميع السير . وكان آخر مالقى هو وأهله فى أمر الغار وقد طلبته قريش وجعلت فيه مائة بعير كما جعلت فى النبى صلى الله عليه وسلم ، فلقى أبو جهل أسماء بنت أبى بكر فسألها فكتمته فلطمها حتى رمت قُرطاً كان فى أذنها .

١٦ — ثم الذى كان من دعائه إلى الإسلام وحسن احتجاجه حتى أسلم على يديه طلحة والزبير وسعد وعثمان وعبد الرحمن ، لأنه ساعة أسلم دعا إلى الله وإلى رسوله .

١٧ — وقالت أسماء بنت أبي بكر : ما عرفت أبى إلا وهو يدين بالدين ولقد رجع إلينا يوم أسلم فدعانا إلى الإسلام فما رِمْنا حتى أسلمنا وأسلم أكثر جلسائه . ولذلك قالوا : من أسلم بدعاء أبى بكر أكثر ممن أسلم بالسيف . ولم يذهبوا فى ذلك إلى العدد بل عنوا الكثيرة فى القدر ، لأنه أسلم على يديه خمسة من أهل الشُّورَى كلهم يصلح للخلافة ، وهم أكفاء علىٍّ ومنازعوه الرياسة والامامة ، فهؤلاء أكثر من جميع الناس .

١٨ — ثم أعتق أبو بكر بعد ذلك جماعة من المعذبين فى الله وهم ست رقاب منهم بلال وعامر بن فُهيرة وزبيرة النهدية وابنتها ، ومرّ بجارية يعذّبها عمر بن الخطاب فابتاعها منه وأعتقها ، وأعتق أبا عيسى ، فأنزل الله فيه « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » إلى آخر السورة .

١٩ — وقد علمتم ما صنع أبو بكر فى ماله ، وكان ماله أربعين ألف درهم ، فأنفقه فى نوائب الإسلام وحقوقه ، ولم يكن خفيف الظهر قليل العيال والنسل فيكون فاقد جميع اليسارين ! بل كان ذا بنين وبنات وزوجة وخدم وحشم ، ويَعولُ والديه وما ولدا . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك مشهوراً فيخاف العار فى ترك مواساته فكان إنفاقه على الوجه الذى لا نجد فى غاية الفضل مثله ،

ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : ما نفعنى مال كما نفعنى مال أبى بكر .

٢٠ — وقد تعلمون ما كان يلقى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ببطن مكة من المشركين ، وحسن صنيع كثير منهم كصنيع حمزة حين ضرب أبا جهل بقوسه ففلق هامته ؟ وأبو جهل يومئذ سيد البطحاء ورئيس الكفر وأمنع أهل مكة ، ولقد علمتم أن الزبير سل سيفه واستقبل به المشركين لما ارْجِفَ أن محمدا قد قُتل ، وأن عمر بن الخطاب قال حين أسلم : لا يُعبدُ الله سراً بعد اليوم ، وأن سعداً ضرب بعض المشركين بلَحى جمل فأراق دمه . فكل هذه الفضائل لم يكن لعلى ابن أبى طالب فيها ناقة ولا جمل . وقد قال الله تعالى « لا يَسْتوى مِنكم مَنْ أَنفقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقاتَلَ أولئكَ أعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الذينَ أَنفقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتلوا » فإذا كان الله تعالى قد فضل من أنفق قبل الفتح لأنه لاهجرة بعد الفتح على من أنفق بعد الفتح ! فما ظنكم بمن أنفق من قبل الهجرة ومن لدن مبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة وإلى ما بعد الهجرة ؟ ! !

٢١ — والحجة العظمى للقائلين بتفضيل علىٍ قَتْلُه الأقرانَ وخوضُه الحروب. وليس له فى ذلك كبير فضيلة ، لأن كثرة القتل والمشى بالسيف إلى الأقران لو كانَ من أشد المحن وأعظم الفضائل وكان دليلا على الرياسة والتقدم ، لوجب أن يكون للزبير وأبى دُجانَة ومحمد بن مَسْلَمَة وابن عفراء وَالبَراءِ بن مالك من الفضل ماليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ! لأنه لم يقتل بيده إلا رجلا واحداً ولم يحضر الحرب يوم بدر ولا خالط الصفوف ، وإنما كان معتزلا عنهم فى العريش ومعه أبو بكر. وأنت ترى الرجل الشجاع قد يقتل الأقران ويجندل الأبطال وفوقه من العسكر من لا يقتل ولا يبارز ، وهو الرئيس أو ذو الرأى والمستشار فى الحرب، لأن للرؤساء من الاكتراث والاهتمام وشغل البال والعناية والتفقد ما ليس لغيرهم ، ولأن الرئيس هو المخصوص بالمطالبة وعليه مدار الأمور وبه يستبصر المقاتل ويستنصر وباسمه ينهزم العدو ، ولو لم يكن له إلا أن الجيش لو ثبت وفر هو لم يغن ثبوت

الجيش كله وكانت الدَّبْرَةُ عليه ، ولو ضيع القوم جميعاً وحفظ هو لانتصر وكانت الدولة له ، ولهذا لا يضاف النصر والهزيمة إلا إليه. ففضل أبي بكر بمقامه في العريش مع رسول الله يوم بدر أعظم من جهاد علي ذلك اليوم وقتله أبطال قريش ؟

٢٢ — على أن مشي الشجاع بالسيف إلى الأقران ليس على ما توهمه من من لا يعلم باطن الأمر ، لأن معه في حال مشيه إلى الأقران بالسيف أموراً أخرى لا يبصرها الناس وإنما يقضون على ظاهر ما يرون من إقدامه وشجاعته ، فربما كان سبب ذلك الهوج ، وربما كان الغرارة والحداثة ، وربما كان الإحراج والحمية ، وربما كان لمحبة النفج والأحدوثة ، وربما كان طباعا ، كطباع القاسي والرحيم والسخي والبخيل ! ؟

٢٣ — فصاحب النفس المختارة المعتدلة يكون قتاله طاعة وفراره معصية ، لأن نفسه معتدلة كالميزان في استقامة لسانه وكفتيه ، فإذا لم يكن كذلك كان إقدامه طباعا وفراره طباعا .

٢٤ — ووجه آخر ، إن عليا لو كان كما يزعم شيعته ، ما كان له بقتل الأقران كبير فضل ولا عظيم طاعة ، لأنه قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ستقاتل بعدى الناكثين والقاسطين والمارقين . فإذا كان قد وعده بالبقاء بعده فقد وثق بالسلامة من الأقران وعلم أنه منصور عليهم وقاتلهم ، فعلى هذا يكون جهاد طلحة والزبير أعظم طاعة منه ! . .

٢٥ — ثم قصد الناصرون لعلي والقائلون بتفضيله إلى الأقران الذين قتلهم فأطروهم وغلوا فيهم ، وليسو هناك ، فمنهم عمرو بن عبد ود ، زكوه أشجع من عامر ابن الطفيل وعتيبة بن الحارث وبسطام بن قيس ! وقد سمعنا بأحاديث الفِجَار وما كان بين قريش ودَوْسٍ وحلف الفضول ، فما سمعنا لعمرو بن عبد ود ذكرا في ذلك ؟ ! !

٢٦ — وقد أكثروا في الوليد بن عتبة بن ربيعة قتيله يوم بدر ! وما علمنا

الوليد حضر حربا قط قبلها ولا ذكر فيها ؟ !

٢٧ — وقد ثبت أبو بكر مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد كما ثبت علىٌّ ، فلا فخر لأحدهما على صاحبه فى ذلك اليوم ؟

٢٨ — ولأبى بكر فى ذلك اليوم مقام مشهود . خرج ابنه عبد الرحمن فارسا مكفراً فى الحديد يسأل المبارزة ويقول : أنا عبد الرحمن بن عتيق ! فنهض إليه أبو بكر يسعى بسيفه فقال له النبى : شِمْ سيفك وارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك ؟

٢٩ — على أن أبا بكر ، وإن لم تكن آثاره فى الحرب كآثار غيره ، فقد بذل الجهد وفعل ما يستطيعه وتبلغه قوته ، وإذا بذل المجهود فلا حال أشرف من حاله .

خلاصة نقض كتاب العثمانية

لأبي جعفر الاسكافى

قال أبو جعفر الاسكافى :

لولا ماغلب على الناس من الجهل وحب التقليد لم نحتج إلى نقد ما احتجت به العثمانية ، فقد علم الناس كافة أن الدولة والسلطان لأرباب مقالتهم ، وعرف كل أحد علو أقدار شيوخهم وعلمائهم وأمرائهم وظهور كلمتهم وقهر سلطانهم وارتفاع التقية عنهم ، والكرامة والجائزة لمن روى الأخبار والأحاديث فى فضل أبى بكر وما كان من تأكيد بنى أمية لذلك وما ولده المحدثون من الأحاديث طلباً لما فى أيديهم ، فكانوا لايألون جهداً فى طول ماملكوا أن يُخملوا ذكر على عليه السلام وولده ويطفئوا نورهم ويكتموا فضائلهم ومناقبهم وسوابقهم ويحملوا على سبهم ولعنهم على المنابر ، فلم يزل السيف يقطر من دمائهم مع قلة عددهم وكثرة عدوهم فكانوا بين قتيل وأسير وشريد وهارب ومستخف ذليل وخائف مترقب ، حتى أن الفقيه والمحدث والقاص والمتكلم لَيُتقَدَّمُ إليه ويُتوعد بغاية الايعاد وأشد العقوبة أن لايذكروا شيئاً من فضائلهم ولا يرخصوا لأحد أن يطيف بهم وحتى بلغ من تقية المحدث أنه إذا ذكر حديثاً عن على عليه السلام كنى عن ذكره فقال : قال رجل من قريش ، وفعل رجل من قريش ، ولا يذكر علياً ولا يتفوه باسمه

ثم رأينا جميع المختلفين قد حاولوا نقض فضائله ووجهوا الحيل والتأويلات نحوها ، من خارجى مارق ، وناصبى حَنِقٍ ، ونابت مستبهم ، وناشىء معاند ، ومنافق مكذب ، وعثماني حسود يعترض فيها ويطعن ، ومعتزلى قد نظر فى الكلام وأبصر علم الاختلاف وعرف الشبه ومواضع الطعن وضروب التأويل ، قد التمس الحيل فى إبطال مناقبه وتأول مشهور فضائله ، فمرة يتأولها بما لايحتمل

ومرة يقصد أن يضع من قدرها بقياس منتقص ، ولا يزداد مع ذلك إلا قوة ورفعة ووضوحاً واستنارة . وقد علمت أن معاوية ويزيد ومن كان بعدهما من بني مروان أيام ملكهم — وذلك نحو ثمانين سنة — لم يدعوا جهداً في حمل الناس على شتمه ولعنه وإخفاء فضائله وستر مناقبه وسوابقه . روى عن عبدالله بن ظالم[١] أنه قال : لما بويع لمعاوية أقام المغيرة بن شعبة خطباء يلعنون علياً ، فقال سعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل : ألا ترون إلى هذا الرجل الظالم يأمر بلعن رجل من أهل الجنة ! ؟ وروى عن عبد الرحمن بن الأخنس أنه كان يقول : شهدت المغيرة ابن شعبة خطب فذكر علياً فنال منه . وعن رباح بن الحارث قال : بينما المغيرة ابن شعبة بالمسجد الأكبر وعنده ناس إذ جاءه رجل يقال له قيس بن علقمة فاستقبل المغيرة فسب علياً . وعن على بن الحسين قال : قال لى مروان : ما كان فى القوم أدفع عن صاحبنا من صاحبكم ! قلت : فما بالكم تسبونه على المنابر ؟ قال إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك . وعن ابن أبى سيف قال : خطب مروان ، والحسن جالس — فنال من على فقال الحسن : ويلك يا مروان ، أهذا الذى تشتم شر الناس ؟ قال : لا ، ولكنه خير الناس . وقال عمر بن عبدالعزيز : كان أبى يخطب فلا يزال مستمراً فى خطبته حتى إذا سار إلى ذكر على وسبه تقطع لسانه واصفر وجهه وتغيرت حاله ، فقلت له فى ذلك فقال : أوقد فطنت لذلك ! إن هؤلاء لو يعلمون من على ما يعلمه أبوك ما تبعنا منهم رجل . وقام رجل من ولد عثمان إلى هشام ابن عبدالملك يوم عرفة فقال : إن هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبى تراب . وعن أشعث بن سوار قال : سب عدى بن أرطاة علياً على المنبر فبكى الحسن البصرى وقال : لقد سب هذا اليوم رجل إنه لأخو رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة . وقال إسماعيل بن إبراهيم : كنت أنا وإبراهيم بن يزيد جالسين فى الجمعة مما يلى أبواب كندة فخرج المغيرة فخطب فحمد الله ثم ذكر ما شاء أن

---

(١) حذفت الاسانيد فى جميع الروايات إلا ماقصر منها

يذكر ثم وقع فى على ، فضرب إبراهيم على فخذى وركبتى ثم قال : أقبل علىَّ فحدثنى فانا لسنا فى جمعة ألا تسمع مايقول هذا ؟

وقال ابن لعامر بن عبد الله بن الزبير لولده : يابنى لاتذكر عليا إلا بخير ، فإن بنى أمية لعنوه على منابرهم ثمانين سنة فلم يزده الله بذلك إلا رفعة ، إن الدنيا لم تبن شيئاً قط إلا رجعت عَلَى ما بنت فهدمته ، وإن الدين لم يبن شيئاً قط وهدمه .

وعن أبى بكر بن عبد الله الاصبهانى قال : كان لبنى أمية دعى يقال له خالد ابن عبد الله(١) لايزال يشتم عليا فلما كان يوم جمعة وهو يخطب الناس قال : والله إن كان رسول الله ليستعمله وإنه ليعلم ماهو ولكنه كان ختنه — وقد نعس سعيد بن المسيب ففتح عينيه ثم قال : ويحكم ! ماقال هذا الخبيث ؟ رأيت القبر انصدع ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كذبت ياعدو الله . وعن السُّدى قال : بينما أنا بالمدينة عند أحجار الزيت إذ أقبل راكب على بعير فوقف فسب عليا فحف به الناس ينظرون إليه فبينا هو كذلك إذ أقبل سعد بن أبى وقاص فقال : أللهم إن كان سب عبدا لك صالحا فأر المسلمين خزيه . فمالبث أن نفر به بعيره فسقط فاندقت عنقه . وعن أبى عبد الله الجدلى قال : دخلت على أم سلمة رحمها الله فقالت لى : أيسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكم وأنتم أحياء ؟ قلت : وأنى يكون هذا ؟ قالت : أليس يسب على ومن يحبه ! ؟ وعن الزهرى قال : قال ابن عباس لمعاوية : ألا تكف عن شتم هذا الرجل ! قال : ما كنت لأفعل حتى يربو عليه الصغير ويهرم فيه الكبير . فلما ولى عمر بن عبد العزيز كف عن شتمه فقال الناس : ترك السنة ! قال : وقد روى عن ابن مسعود — إما موقوفا عليه وإما مرفوعا — كيف أنتم إذا شملتكم فتنة يربو عليها الصغير ويهرم فيها الكبير يجرى عليها الناس فيتخذونها سنة فإذا غير منها شيء قيل : غيرت السنة ؟ ؟

قال أبو جعفر : وقد تعلمون أن بعض الملوك ربما أحدثوا قولا أو ديناً لهوى فيحملون الناس على ذلك حتى لا يعرفون غيره ، كنحو ما أخذ الناس الحجاج بن

---

(١) هو خالد بن عبد الله القسرى والى العراق

يوسف بقراءة عثمان وترك قراءة ابن مسعود وأُبيّ بن كعب وتوعد على ذلك بدون ما صنع هو وجبابرة بني أمية وطغاة بني مروان بولد علي عليه السلام وشيعته ، وإنما كان سلطانه نحو عشرين سنة فما مات الحجاج حتى اجتمع أهل العراق على قراءة عثمان ونشأ أبناؤهم ولا يعرفون غيرها لامساك الآباء عنها وكف المعلمين عن تعليمها حتى لو قرأت عليهم قراءة عبد الله وأبي ما عرفوها ولظنوا بتأليفها الاستكراه والاستهجان لإلف العادة وطول الجهالة ، لأنه إذا استولت على الرعية الغلبة وطالت عليهم أيام التسلط وشاعت فيهم المخافة وشملتهم التقية إتفقوا على التخاذل والتساكت فلا تزال الأيام تأخذ من بصائرهم وتنقص في ضمائرهم وتنقض من مرائرهم حتى تصير البدعة التي أحدثوها غامرة للسنة التي كانوا يعرفونها . ولقد كان الحجاج ومن ولاه كعبد الملك والوليد ومن كان قبلهما وبعدهما من فراعنة بني أمية على إخفاء محاسن علي عليه السلام وفضائله وفضائل ولده وشيعته وإسقاط أقدارهم أحرص منهم على إسقاط قراءة عبد الله وأبي ، لأن تلك القراءات لا تكون سبباً لزوال ملكهم وفساد أمرهم وانكشاف حالهم ، وفي اشتهار فضل علي وولده وإظهار محاسنهم بوارهم وتسليط حكم الكتاب المنبوذ عليهم ، فحرصوا واجتهدوا في إخفاء فضائله وحملوا الناس على كتمانها وسترها وأبى الله أن يزيد أمره وأمر ولده إلا استنارة و إشراقاً ، وحبهم إلا شغفا وشدة وذكرهم إلا انتشارا وكثرة وحجتهم إلا وضوحا وقوة وفضلهم إلا ظهورا وشأنهم إلا علوا وأقدارهم إلا إعظاما ، حتى أصبحوا بإهانتهم إياهم أعزاء ، و بإماتتهم ذكرهم أحياء ، وما أرادوا به و بهم من الشر تحول خيرا فانتهى إلينا من ذكر فضائله وخصائصه ومزاياه وسوابقه مالم يتقدمه السابقون ولا ساواه فيه القاصدون ولا يلحقه الطالبون . ولولا أنها كانت كالقبلة المنصوبة في الشهرة ، وكالسنن المحفوظة في الكثرة لم يصل الينا منها في دهرنا حرف واحد إذ كان الأمر كما وصفناه .

١ — قال : فأما ما احتج به الجاحظ بامامة أبي بكر بكونه أول الناس

إسلاما ، فلو كان هذا احتجاجا صحيحاً لاحتج به أبو بكر يوم السقيفة ؛ وما رأيناه صنع ذلك ، لأنه أخذ بيد عمرٍ ويد أبي عبيدة بن الجراح وقال للناس : قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا منهما من شئتم ، ولو كان هذا احتجاجا صحيحا لما قال عمر : كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها ، ولو كان احتجاجا صحيحا لادعى واحد من الناس لأبي بكر الامامة فى عصره أو بعد عصره بكونه سبق إلى الاسلام ، وماعرفنا أحدا ادعى له ذلك ، على أن جمهور المحدثين لم يذكروا أن أبا بكر أسلم إلا بعد عدة من الرجال منهم على بن أبي طالب وجعفر أخوه وزيد بن حارثة وأبو ذر الغفاري وعمرو بن عنبسة السلمى وخالد بن سعيد ابن العاص وخَبَّابُ بنُ الأرتّ . وإذا تأملنا الروايات الصحيحة والأسانيد القوية الوثيقة وجدناها كلها ناطقة بأن عليا عليه السلام أول من أسلم .

فأما الرواية عن ابن عباس أن أبا بكر أولهم إسلاما فقد روى عن ابن عباس خلاف ذلك بأكثر مما رووا وأشهر. فمن ذلك أنه قال : أول من صلى من الرجال على عليه السلام

وقال : فرض الله تعالى الاستغفار لعلى عليه السلام فى القرآن على كل مسلم بقوله تعالى « رَبَّنَا اغفِرْ لَنَا وَلإخْوَانِنَا الَّذِين سبقونا بالإيمان » فكل من أسلم بعد على فهو يستغفر لعلى

وقال : السبَّاق ثلاثة : سبق يوشع بن نون الى موسى ، وسبق صاحب يس إلى عيسى ، وسبق على بن أبي طالب إلى محمد صلى الله عليه وسلم . فهذا قول ابن عباس فى سبق على إلى الاسلام وهو أثبت من حديث الشعبي وأشهر ، على أنه قد روى عن الشعبي خلاف ذلك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى : هذا أول من آمن بي وصدقني وصلى معى .

قال : فأما الأخبار الواردة بسبقه إلى الاسلام المذكورة فى الكتب الصحاح

والأسانيد الموثوق بها ، فمنها ما روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : أول شيء علمته من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى قدمت مكة مع عمومة لى وناس من قومى وكان فى أنفسنا شراء عطر ، فأرشدنا إلى العباس بن عبد المطلب فانتهينا إليه وهو جالس إلى زمزم ، فبينا نحن عنده جلوس إذ أقبل رجل من باب الصفا وعليه ثوبان أبيضان وله وفرة إلى أنصاف أذنيه جعدة أشم أقنى أدعج العينين كث اللحية براق الثنايا أبيض تعلوه حمرة كأنه القمر ليلة البدر ، وعلى يمينه غلام مراهق أو محتلم حسن الوجه، تقفوهما امرأة قد سترت محاسنها حتى قصدوا نحو الحجر فاستلمه واستلمه الغلام ثم استلمته المرأة ، ثم طاف بالبيت سبعاً والغلام والمرأة يطوفان معه ، ثم استقبل الحجر فقام ورفع يديه وكبر وقام الغلام إلى جانبه وقامت المرأة خلفهما فرفعت يديها وكبرت ، فأطال القنوت ثم ركع وركع الغلام والمرأة ثم رفع رأسه فأطال ورفع الغلام والمرأة معه ، يصنعان مثل ما يصنع ، فلما رأينا شيئا ننكره ولا نعرفه بمكة أقبلنا على العباس فقلنا : ياأبا الفضل ، إن هذا الدين ما كنا نعرفه فيكم ؟ قال : أجل والله . قلنا : فمن هذا ؟ قال : هذا ابن أخى هذا محمد بن عبد الله ، وهذا الغلام ابن أخى أيضا هذا على بن أبى طالب ، وهذه المرأة زوجة محمد هذه خديجة بنت خويلد ، والله ما على وجه الأرض أحد يدين بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة

وعن عفيف بن قيس الكندى قال : كنت فى الجاهلية عطارا فقدمت مكة فنزلت على العباس بن عبد المطلب فبينا أنا جالس عنده أنظر إلى الكعبة وقد تحلقت الشمس فى السماء أقبل شاب كأن فى وجهه القمر حتى رمى ببصره إلى السماء فنظر إلى الشمس ساعة ثم أقبل حتى دنا من الكعبة فصف قدميه يصلى فخرج على أثره فتى كأن وجهه صفيحة يمانية(١) فقام عن يمينه فجاءت امرأة متلففة فى ثيابها فقامت خلفهما ، فأهوى الشاب راكعاً فركعا معه ، ثم أهوى إلى الأرض ساجدا فسجدا معه ، فقلت للعباس : يا أبا الفضل أمر عظيم ! فقال : أمر والله عظيم !

(١) يريد كان وجهه فى صفاء السيف المصقول

أتدرى من هذا الشاب ؟ قلت : لا . قال : هذا ابن أخى هذا محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ، أتدرى من هذا الفتى ؟ قلت : لا . قال : هذا ابن أخى هذا على ابن أبى طالب بن عبد المطلب ، أتدرى من المرأة ؟ قلت : لا . قال : هذه ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزى هذه خديجة زوج محمد هذا ، و إن محمداً هذا يذكر أن إلهه إله السماء والأرض أمره بهذا الدين فهو عليه كما ترى ، و يزعم أنه نبى وقد صدقه على قوله على بن عمه هذا الفتى وزوجته خديجة هذه المرأة ، والله ما أعلم على وجه الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة . قال عفيف : فقلت له : فما تقولون أنتم ؟ قال : ننتظر الشيخ ما يصنع — يعنى أبا طالب أخاه .

وعن معقل بن يسار قال : كنت أوصل النبى صلى الله عليه وسلم فقال لى : هل لك أن تعود فاطمة ؟ قلت : نعم يارسول الله . فقام يمشى متوكئاً [علىَّ] وقال : أما إنه سيحمل ثقلها غيرك و يكون أجرها لك . قال : فوالله لكأنه لم يكن علىَّ من ثقل النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فدخلنا على فاطمة فقال لها عليه الصلاة والسلام : كيف تجدينك ؟ قالت : لقد طال أسفى واشتد حزنى وقال لى النساء زوجك أبوك فقيرا لا مال له ! فقال لها : أما ترضين أنى زوجتك أقدم أمتى سلماً وأكثرهم علما وأفضلهم حلما ؟ قالت : بلى رضيت يارسول الله .

وعن جعفر بن محمد عن آبائه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوج فاطمة دخل النساء عليها فقلن : يابنت رسول الله ، خطبك فلان وفلان فردهم عنك وزوجك فقيرا لا مال له ! فلما دخل عليها أبوها رأى ذلك فى وجهها فسألها فذكرت له ذلك فقال : يافاطمة إن الله أمرنى فأنكحتك أقدمهم سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلما ، وما زوجتك إلا بأمر من السماء ، أما علمت أنه أخى فى الدنيا والآخرة ! ؟

وعن السُّدى أن أبا بكر وعمر خطبا فاطمة فردهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لم أومر بذلك . فخطبها على فزوجه إياها وقال لها : زوجتك أقدم الأمة

إسلاما . وذكر تمام الحديث . قال : وقد روى هذا الخبر جماعة من الصحابة منهم أسماء بنت عُميس وأم أيمن وابن عباس وجابر بن عبد الله

وعن أبي رافع قال : أتيت أبا ذر بالربذة أودعه فلما أردت الإنصراف قال لي ولأناس معي : ستكون فتنة فاتقوا الله وعليكم بالشيخ على بن أبي طالب فاتبعوه فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : أنت أول من آمن بي وأول من يصافحني يوم القيامة وأنت الصِّديق الأكبر وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل وأنت يعسوب المؤمنين ، والمال يعسوب الكافرين ، وأنت أخي ووزيري وخير من أترك بعدي تقضي ديني وتنجز موعودي

وعن عباد بن عبد الله الأسدي قال : سمعت على بن أبي طالب يقول : أنا عبد الله وأخو رسوله ، وأنا الصديق الأكبر لا يقولها غيري إلا كذاب ، وقد صليت قبل الناس سبع سنين

وروت معاذة بنت عبد الله العدوية قالت : سمعت عليا يخطب على منبر البصرة ويقول : أنا الصديق الأكبر ، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر ، وأسلمت قبل أن يسلم .

وروى حبة بن جوين العُرني أنه سمع عليا يقول : أنا أول رجل أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن حكيم مولى زاذان قال : سمعت عليا يقول : صليت قبل الناس سبع سنين وكنا نسجد ولا نركع ، وأول صلاة ركعنا فيها صلاة العصر ، فقلت : يارسول الله ماهذا ؟ قال : أمرت به .

وعن جابر بن عبدالله قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأثنين ، وصلى على يوم الثلاثاء و بعده . وعن أنس بن مالك : استنبىء النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأثنين وأسلم على يوم الثلاثاء و بعده .

وروى أبو رافع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى أول صلاة صلاها غداة الأثنين وصلت خديجة آخرتها ويومها ذلك وصلى على يوم الثلاثاء غداة ذلك اليوم

قال : وقد روى بروايات مختلفة كثيرة متعددة عن زيد بن أرقم وسلمان الفارسي وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك : أن عليا أول من أسلم .

وروى سلمة بن كهيل عن رجاله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أولكم وروداً على الحوض أولكم إسلاما على بن أبى طالب .

وعن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب وهو يقول: كفوا عن على بن أبى طالب فانى سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه خصالا لو أن خصلة منها فى جميع آل الخطاب كان أحب الى مما طلعت عليه الشمس ، كنت ذات يوم وأبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة مع نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فطلبه فانتهينا الى باب أم سلمة فوجدنا عليا متكئا على نجاف الباب فقلنا: أردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: هو فى البيت ، رويدكم ! فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فسرنا حوله فاتكأ على علىّ وضرب بيده على منكبه فقال: أبشر يا على بن أبى طالب أنك مخاصَم وأنك تخصم الناس بسبع لا يجاريك أحد فى واحدة منهن: أنت أول الناس اسلاما وأعلمهم بأيام الله .

وروى أبو أيوب الأنصارى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: لقد صلت الملائكة على وعلى علىّ سبع سنين وذلك أنه لم يصل معى رجل فيها غيره

قال أبو جعفر :

٢ — فأما مارواه الجاحظ من قوله صلى الله عليه وسلم : إنما تبعنى حروعبد . فانه لم يسم فى هذا الحديث أبا بكر وبلالا ، وكيف وأبو بكر لم يشتر بلالا إلا بعد ظهور الاسلام بمكة! فلما أظهر بلال إسلامه عذبه أمية بن خلف، ولم يكن ذلك حال إخفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة ولا فى ابتداء أمر الاسلام ، وقد قيل إنه عليه الصلاة والسلام إنما عنى بالحر على بن أبى طالب وبالعبد زيد بن حارثة .

وعن الشعبى قال: قال : الحجاج للحسن — وعنده جماعة من التابعين — وذكر على بن أبى طالب — : ما تقول أنت يا حسن ؟ فقال : ما أقول ! هو أول

من صلى إلى القبلة وأجاب دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن لعلى منزلة من ربه وقرابة من رسوله، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردها أحد!
فغضب الحجاج غضباً شديداً وقام عن سريره فدخل بعض البيوت وأمر بصرفنا.
قال الشعبي: وكنا جماعة ما منا إلا من نال من على مقاربة للحجاج، غير الحسن بن أبي الحسن رحمه الله.

وعن محمد بن عبيد الله قال: قال رجل للحسن: ما لنا لا نراك تثنى على على وتقرظه؟ قال: كيف وسيف الحجاج يقطر دما؟ إنه لأول من أسلم وحسبكم بذلك.

قال: فهذه الأخبار. وأما الأشعار المروية فمعروفة كثيرة منتشرة: فمنها قول عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب مجيباً للوليد بن عقبة بن أبي مُعيط:

وَإِنَّ وَلِيَّ الأَمْرِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ... عَلِيٌّ وَفِى كُلِّ المَوَاطِنِ صَاحِبُهْ
وَصِيُّ رَسولِ اللهِ حَقًّا وَصِنْوُهُ ... وَأَوَّلُ مَنْ صَلَّى وَمَنْ لاَنَ جَانِبُهُ

وقول خُزَيْمَةَ بْنِ ثابت فى هذا:

وَصِيُّ رَسولِ اللهِ مِنْ دُونِ أَهْلِهِ ... وَفارِسُهُ مُذْ كانَ فِى سالِفِ الزَّمَنْ
وَأَوَّلُ مَنْ صَلَّى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ ... سِوَى خِيرَةِ النِّسْوَانِ وَاللهُ ذُو مِنَنْ[1]

وقول أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس حين بويع أبو بكر:

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الأَمْرَ مُنْصَرِفٌ ... عَنْ هَاشِمٍ ثُمَّ مِنْهَا عَنْ أَبِي حَسَنِ
أَلَيْسَ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى لِقِبْلَتِهِمْ ... وَأَعْلَمَ النَّاسِ بِالأَحْكَامِ والسُّنَنِ

وقول أبي الأسود الدؤلى يهدد طلحة والزبير:

وإِنَّ عَلِيًّا لَكُمْ مُصْحِرٌ ... يُمَاثِلُهُ الأَسَدُ الأَسْوَدُ
أَمَا إِنَّهُ أَوَّلُ العَابِدِينَ ... بِمَكَّةَ وَاللهُ لاَ يُعْبَدُ

---

(١) خيرة النساء: هي خديجة زوج رسول الله

وقول سعيد بن قيس الهمدانى يرتجز بصفين :

هَذا عَلِىٌّ وَابْنُ عَمِّ الْمُصْطَفى أوَّلُ مَنْ أَجَابَهُ فيما رَوَى

هُوَ الإمَامُ لاَيُبَالِى مَنْ غَوَى

وقول زُفَرِ بْنِ يَزِيد بن حُذيفة الأسدى :

فَحُوطُوا عَلِيًّا وَانْصُرُوهُ فإنَّهُ وَصِىٌّ وَفى الإسْلاَمِ أَوَّلُ أَوَّلُ

وَإِنْ تَخْذِلُوهُ وَالحَوَادِثُ جَمَّةٌ فَلَيْسَ لَكُمْ عَنْ أَرْضِكُمْ مُتَحَوَّلُ

قال : والأشعار كالأخبار إذا امتنع فى مجىء القبيلين التواطؤ والاتفاق كان ورودها حجة . فأما قول الجاحظ : فأوسط الأمور أن نجعل إسلامهما معا . فقد أبطل بهذا ما احتج به لإمامة أبى بكر ، لأنه احتج بالسبق وقد عدل الآن عنه .

قال أبو جعفر : ويقال لهم لسنا نحتاج من ذكر سبق على عليه السلام الا إلى مجامعتكم إيانا على أنه أسلم قبل الناس ، ودعوا كم أنه أسلم وهو طفل دعوى غير مقبولة إلا بحجة ، فان قلتم : ودعواكم انه أسلم وهو بالغ دعوى غير مقبولة إلا بحجة ؟ قلنا . قد ثبت إسلامه بحكم إقراركم ، ولو كان طفلا لكان فى الحقيقة غير مسلم ، لأن إسم الإيمان والإسلام والكفر والطاعة والمعصية إنما يقع على البالغين دون الأطفال والمجانين ، وإذا أطلقتم وأطلقنا عليه إسم الاسلام فالأصل فى الاطلاق الحقيقة . كيف وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : أنت أول من آمن بى وأنت أول من صدقنى ؟ وقال لفاطمة زوجتك أقدمهم سلما أو قال إسلاماً ؟ فان قالوا : إنما دعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الاسلام على جهة العرض لاالتكليف ، قلنا : قد وافقتمونا على الدعاء ، وحكم الدعاء حكم الأمر والتكليف ، ثم ادعيتم أن ذلك كان على وجه العرض وليس لكم أن تقبلوا معنى الدعاء إلا بحجة .

فان قالوا : لعله كان على وجه التأديب والتعليم كما يعتمد مثل ذلك مع الأطفال! قلنا : إن ذلك إنما يكون إذا تمكن الاسلام بأهله أو عند النشوء عليه والولادة فيه ، فأما فى دار الشرك فلا يقع مثل ذلك ، لاسيما إذا كان الاسلام غير معروف

ولا معتاد بينهم ، على أنه ليس فى سنة النبي صلى الله عليه وسلم دعاء أطفال المشركين إلى الاسلام والتفريق بينهم و بين آبائهم قبل أن يبلغوا الحلم . وأيضاً فمن شأن الطفل اتباع أهله وتقليد أبيه والمضى على منشئه ومولده . وقد كانت منزلة النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ منزلة ضيق وشدة ووحدة ، وهذه منازل لا ينتقل إليها إلا من ثبت الاسلام عنده بحجة ودخل اليقين قلبه بعلم ومعرفة

فان قالوا : إن علياً كان يألف النبي صلى الله عليه وسلم فوافقه على طريق المساعدة له ! قلنا : إنه وإن كان يألفه أكثر من أبويه و إخوته وعمومته وأهل بيته لم يكن الإلف ليخرجه عما نشأ عليه ، ولم يكن الاسلام مما غُذى به وكرر على سمعه ، لأن الاسلام هو خلع الانداد والبراءة ممن أشرك بالله ، وهذا لا يجتمع فى اعتقاد طفل . ومن العجب قول العباس لعفيف بن قيس : ننتظر الشيخ وما يصنع؟ فاذا كان العباس وحمزة ينتظران أبا طالب ويصدران عن رأيه فكيف يخالفه ابنه ويؤثر القلة على الكثرة ويفارق المحبوب الى المكروه والعز إلى الذل والأمن الى الخوف عل غير معرفة ولا علم بما فيه ؟

فأما قوله : إن المقلل يزعم أنه أسلم وهو ابن خمس سنين ، والمكثر يزعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين . فأول ما يقال فى ذلك أن الأخبار جاءت فى سنه يوم أسلم على خمسة أقسام فجعلناها فى قسمين :

القسم الأول — ألذين قالوا : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة — عن شداد بن أوس قال : سألت خَبَّابَ بن الأرتِّ عن إسلام على فقال : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، ولقد رأيته يصلى قبل الناس مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ بالغ مستحكم البلوغ . وعن الحسن : إن أول من أسلم على بن أبى طالب وهو ابن خمس عشرة سنة .

القسم الثانى — ألذين قالوا : إنه أسلم وهو ابن أربع عشرة سنة — عن حذيفة ابن اليمان قال : كنا نعبد الحجارة ونشرب الخمر وعلى من أبناء أربع عشرة سنة

قائم يصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلا ونهارا ، وقريش يومئذ تسافه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يذب عنه إلا على . وعن جرير بن عبد الحميد قال : أسلم على وهو ابن أربع عشرة سنة

القسم الثالث — ألذين قالوا : أسلم وهو ابن إحدى عشرة سنة — عن محمد بن على أن علياً حين أسلم كان ابن إحدى عشرة سنة . وعن محمد بن على الباقر قال: أول من آمن بالله على بن أبي طالب وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وهاجر إلى المدينة وهو ابن أربع وعشرين سنة

القسم الرابع — ألذين قالوا : إنه أسلم وهو ابن عشر سنين — عن محمد بن إسحق قال : أول ذكر آمن وصدق بالنبوة على بن أبي طالب وهو ابن عشر سنين . ثم أسلم زيد بن حارثة ، ثم أسلم أبو بكر وهو ابن ست وثلاثين سنة ، فيما بلغنا

القسم الخامس — ألذين قالوا : إنه أسلم وهو ابن تسع سنين — عن الشعبي قال : أول من أسلم من الرجال على بن أبي طالب وهو ابن تسع سنين . وكان له يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع وعشرون سنة

قال أبو جعفر : فهذه الأخبار كما تراها . فإما أن يكون الجاحظ جهلها أو قصد العناد .

فأما قوله : فالقياس أن نأخذ بأوسط الأمرين من الروايتين فنقول إنه أسلم وهو ابن سبع سنين. فان هذا تحكم منه ويلزمه مثله فى رجل ادعى قبل رجل عشرة دراهم فأنكر ذلك وقال إنما يستحق قبلى أربعة دراهم ؟ فينبغى أن نأخذ الأمر المتوسط ويلزمه سبعة دراهم ؟ ! ويلزمه فى أبى بكر حيث قال قوم كان كافراً ، وقال قوم كان إماماً عادلا ، أن نقول : أعدل الأقاويل أوسطها ، وهو منزلة بين المنزلتين فنقول : كان فاسقاً ظالما ! وكذلك فى جميع الأمور المختلف فيها ! !

فأما قوله : وإنما يعرف حق ذلك من باطله بأن نحصى سنى ولاية عثمان وعمر وأبى بكر وسنى الهجرة ومقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة بعد الرسالة إلى أن

هاجر . فيقال له : لو كانت الروايات متفقة على هذه التأريخات لكان لهذا القول مساغ ! لكن الناس قد اختلفوا فى ذلك فقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بمكة بعد الرسالة خمس عشرة سنة — رواه ابن عباس . وقيل ثلاث عشرة سنة ـ روى عن ابن عباس أيضاً ، وأكثر الناس يروونه . وقيل عشر سنين ـ رواه عروة بن الزبير وهو قول الحسن البصرى وسعيد بن المسيب . واختلفوا فى سن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم : كان ابن خمس وستين سنة ، وقيل كان ابن ثلاث وستين سنة ، وقيل كان ابن ستين . واختلفوا فى سن على عليه السلام فقيل : كان ابن سبع وستين ، وقيل : كان ابن خمس وستين ، وقيل : ابن ثلاث وستين ، وقيل ابن ستين ،وقيل : ابن تسع وخمسين

فكيف يمكن مع هذه الاختلافات تحقيق هذه الحال ؟ وإنما الواجب أن يُرجع الى إطلاق قولهم : أسلم على . فان هذا الاسم لا يكون مطلقا إلا على البالغ كما لا يطلق اسم الكافر إلا على البالغ ، على أن ابن احدى عشرة سنة يكون بالغا و يولد له الأولاد ، فقد روت الرواة أن عمرو بن العاص لم يكن أسن من ابنه عبد الله إلا باثنتى عشرة سنة ، وهذا يوجب أنه احتلم و بلغ فى أقل من احدى عشرة سنة . وروى أيضا أن محمد بن على بن عبدالله بن العباس كان أصغر من أبيه على بن عبد الله باحدى عشرة سنة . فيلزم الجاحظ أن يكون عبد الله بن العباس حين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مسلم على الحقيقة ولا مثاب ولا مطيع بالاسلام لأنه كان يومئذ ابن عشر سنين — رواه هشيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن عشر سنين

قال أبو جعفر

٣ — هذا كله مبنى على أنه أسلم وهو ابن سبع أو ثمان ونحن قد بينا أنه أسلم بالغا ابن خمس عشرة سنة أو ابن أربع عشرة سنة . على أنا لو نزلنا على حكم الخصوم وقلنا ما هو الأشهر والأكثر من الرواية وهو أنه أسلم وهو ابن عشر لم يلزم ما قاله

الجاحظ ، لأن ابن عشر قد يستجمع عقله و يعلم من مبادىء المعارف ما يُستخرج به كثير من الأمور المعقولة ، ومتى كان الصبي عاقلا مميزا كان مكلفا بالعقليات و إن كان تكليفه بالشرعيات موقوفا على حد آخر وغاية أخرى . فليس بمنكر أن يكون على عليه السلام وهو ابن عشر قد عقل المعجزة فلزمه الاقرار بالنبوة وأسلم إسلام عالم عارف لا إسلام مقلد تابع . و إن كان ما نسقه الجاحظ وعدده من معرفة السحر والنجوم والفصل بينهما و بين النبوة ، ومعرفة ما يجوز فى الحكمة مما لا يجوز ، ومالا يحدثه إلا الخالق ، والفرق بينه وبين ما يقدر عليه القادرون بالقدرة ، ومعرفة التمويه والخديعة والتلبيس والمكرة شرطا فى صحة الاسلام ، لما صح إسلام أبى بكر ولا عمر ولا غيرهما من العرب ! و إنما التكاليف لهؤلاء بالجمل و بمبادىء المعارف لا بدقائقها والغامض منها . وليس يفتقر الاسلام إلى أن يكون المسلم قد فاتح الرجال وجرب الأمور ونازع الخصوم ؟ وإنما يفتقر إلى صحة الغريزة وكمال العقل وسلامة الفطرة . ألا ترى أن طفلا لو نشأ فى دار لم يعاشر الناس بها ولا فاتح الرجال ولا نازع الخصوم ثم كمل عقله وحصلت العلوم البديهية عنده لكان مكلفا بالعقليات ؟

فأما توهمه أن علياً عليه السلام أسلم عن تربية الحاضن وتلقين القيم ورياضة السائس . فلعمرى إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان حاضنه وقيمه وسائسه ، ولكن لم يكن منقطعا عن أبيه أبى طالب ، ولا عن إخوته طالب وجعفر وعقيل ، ولا عن عمومته وأهل بيته ، وما زال مخالطا لهم ممتزجا بهم مع خدمته لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فما باله لم يمل إلى الشرك وعبادة الأصنام لمخالطة إخوته وأباه وعمومته وأهله وهم كثير ومحمد صلى الله عليه وسلم واحد ؟ وأنت تعلم أن الصبي إذا كان له أهل ذوو كثرة وفيهم واحد يذهب إلى رأى مفرد لا يوافقه عليه غيره منهم ، فانه يكون إلى ذوى الكثرة أميل وعن ذى الرأى الشاذ أبعد ! وعلى أن عليا عليه السلام لم يولد فى دار الاسلام ، و إنما ولد فى دار الشرك وربى بين المشركين وشاهد الأصنام وعاين بعينيه أهله ورهطه يعبدونها . فلو كان فى دار الاسلام لكان فى

القول مجال ، ولقيل أنه ولد بين المسلمين ، فاسلامه عن تلقين الظئر وعن سماع كلمة الاسلام ومشاهدة شعاره ، لأنه لم يسمع غيره ولا خطر بباله سواه . فلما لم يكن ولد كذلك ثبت أن إسلامه إسلام المميز العارف بما دخل عليه ، ولولا أنه كذلك لما مدحه رسول الله صلى عليه وسلم بذلك ولا أرضى ابنته فاطمة لما وجدت من تزويجه بقوله لها : زوجتك أقدمهم سلما ، ولا قرن إلى قوله : وأكثرهم علما وأعظمهم حلما . والحلم العقل . وهذان الأمران غاية الفضل. فلولا أنه أسلم إسلام عارف عالم مميز لما ضم إسلامه إلى العلم والحلم اللذين وصفه بها ، وكيف يجوز أن يمدحه بأمر لم يكن مثاباً عليه ولا معاقبا به لو تركه ؟ ولو كان إسلامه عن تلقين وتربية لما افتخر هو عليه السلام على رءوس الاشهاد ، ولا خطب على المنبر وهو بين عدو محارب وخاذل منافق ، فقال: أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر والفاروق الأعظم ، صليت قبل الناس سبع سنين ، وأسلمت قبل اسلام أبي بكر ، وآمنت قبل إيمانه . فهل بلغكم أن أحدا من أهل ذلك العصر أنكر ذلك أو عابه أو ادعاه لغيره أو قال له إنما كنت طفلا أسلمت على تربية محمد صلى الله عليه وسلم لك وتلقينه إياك ، كما يتعلم الطفل الفارسية والتركية منذ يكون رضيعاً ، فلا فخر له في تعلم ذلك وخصوصا في عصر قد حارب فيه أهل البصرة والشام والنهروان وقد اعتورته الأعداء وهجته الشعراء ؟ فقال فيه النعمانُ بنُ بَشير :

لَقَدْ طَلَبَ الْخِلَافَةَ مِنْ بَعِيدٍ ... وَسَارَعَ فِي الضَّلَالِ أَبُو تُرَابِ
مُعَاوِيَةُ الْإِمَامُ وَأَنْتَ مِنْهَا ... عَلَى وَتَحٍ بِمُنْقَطَعِ السَّرَابِ

وقال فيه أيضاً بعض الخوارج :

دَسَسْنَا لَهُ تَحْتَ الظَّلَامِ ابْنَ مُلْجَمٍ ... جزَاءً إِذَا مَا جَاءَ نَفْسًا كِتَابُهَا
أَبَا حَسَنٍ خُذْهَا عَلَى الرَّأْسِ ضَرْبَةً ... بِكَفِّ كَرِيمٍ بَعْدَ مَوْتٍ ثَوَابُهَا

وقال عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانَ يمدح قاتله :

يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيٍّ ما أَرَادَ بِهَا   إِلَّا لِيَبلغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانَا
إِنِّي لَأَذْكُرُهُ حِيناً فَأَحْسَبهُ   أَوْفَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللهِ مِيزَانَا

فلو وجد هؤلاء سبيلا إلى دحض حجته فيما كان يفخر به من تقدم إسلامه لبدؤا بذلك وتركوا مالا معنى له . وقد أوردنا ما مدحه الشعراء به من سبقه إلى الاسلام ، فكيف لم يرد على هؤلاء الذين مدحوه بالسبق شاعر واحد من أهل حربه ؟ ولقد قال فى أمهات الأولاد قولا خالف فيه عمر فذكروه بذلك وعابوه ، فكيف تركوا أن يعيبوه بما كان يفتخر به مما لا فخر فيه عندهم وعابوه بقوله فى أمهات الأولاد ؟

ثم يقال له : خبرنا عن عبد الله بن عمر وقد أجازه النبى صلى الله عليه وسلم يوم الخندق ولم يجزه بوم أحد ، هل تميز ما ذكرته ؟ وهل كان يعلم فرق مابين النبى والمتنبىء ويفصل بين السحر والمعجزة ، إلى غيره مما عددت وفصلت ؟ فان قال : نعم وتجاسر على ذلك قيل له : فعلى عليه السلام بذلك أولى من ابن عمر . لأنه أذكي وأفطن بلا خلاف بين العقلاء ، وأنى يشك فى ذلك وقد رويتم أنه لم يميز بين الميزان والعود بعد طول السن وكثرة التجارب ؟ ولم يميز أيضاً بين إمام الرشد و إمام الغى . فانه امتنع من بيعة على عليه السلام وطرق على الحجاج بابه ليلا ليبايع لعبد الملك كيلا يبيت تلك الليلة بلا إمام زعم لأنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : من مات ولا إمام له مات ميتة جاهلية . وحتى بلغ من احتقار الحجاج له واسترذاله حاله أن أخرج رجله من الفراش وقال : أصفق بيدك عليها ! ؟ فذلك تمييزه بين الميزان والعود ، وهذا اختياره فى الأئمة ! ؟ وحال على عليه السلام فى ذكائه وفطنته وتوقد حسه وصدق حدسه معلومة مشهورة ، فاذا جاز أن يصح إسلام ابن عمر ويقال عنه انه عرف تلك الامور التى سردها الجاحظ ونسقها وأظهر فصاحته وتشادقه فيها ، فعلى بمعرفة ذلك أحق و بصحة

إسلامه أولى . و إن قال : لم يكن ابن عمر يعلم و يعرف ذلك . أبطل اسلامه وطعن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث حكم بصحة إسلامه وأجازه يوم الخندق لأنه عليه الصلاة والسلام كان قال : لا أجيز الا البالغ العاقل . ولذلك لم يجزه يوم أحد

ثم يقال له : إن ماتقوله فى بلوغ على عليه السلام الحد الذى يحسن فيه التكليف العقلى بل يجب وهو ابن عشر سنين ليس بأعجب من مجىء الولد لستة أشهر ؟ وقد صحح ذلك أهل العلم واستنبطوه من الكتاب و إن كان خارجاً عن التعارف والتجارب والعادة ! وكذلك مجىء الولد لسنتين خارج أيضاً عن التعارف والعادة ؟ وقد صححه الفقهاء والناس . و يروى أن معاذاً لما نهى عمر عن رجم الحامل تركها حتى ولدت غلاماً قد نبتت ثنيتاه فقال أبوه : إبنى ورب الكعبة. فثبت ذلك سنة يعمل بها الفقهاء . وقد وجدنا العادة تقضى بأن الجارية تحيض لاثنتى عشرة سنة وأنة أقل سن تحيض فية المرأة ، وقد يكون فى الاقل نساء يحضن لعشر ولتسع ، وقد ذكر ذلك الفقهاء ، وقد قال الشافعى فى اللعان : لو جاءت امرأة بحمل وزوجها صبى له دون عشر سنين لم يكن ولداً له لان من لم يبلغ عشر سنين من الصبيان لايولد له ، و إن كان له عشر سنين جاز أن يكون الولد له وكان بينهما لعان إذا لم يقر به . وقال الفقهاء أيضاً : إن نساء تهامة يحضن لتسع سنين ، لشدة الحر ببلادهن

قال أبو جعفر :

٤ — إن مثل الجاحظ فى فضله وعلمه لايخفى عليه كذب هذه الدعوى وفسادها ، ولكنه يقول مايقول تعصبا وعنادا ٠ وقد روى الناس كافة افتخار على عليه السلام بالسبق إلى الاسلام ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم استنبىء يوم الاثنين وأسلم على يوم الثلاثاء ، وأنه كان يقول : صليت قبل الناس سبع سنين ، وأنه مازال يقول : أنا أول من أسلم ويفتخر بذلك و يفتخر له به أولياؤه ومادحوه

وشيعته في عصره وبعد وفاته ، والأمر فى ذلك أشهر من كل شهير . وقد قدمنا منه طرفا . وما علمنا أحدا من الناس فيما خلا استخف باسلام على عليه السلام ولاتهاون به ولازعم أنه أسلم إسلام حدث غرير وطفل صغير . ومن العجب أن يكون مثل العباس وحمزة ينتظران أبا طالب وفعله ليصدرا عن رأيه ثم يخالفه على ابنه لغير رغبة ولارهبة ، يؤثر القلة على الكثرة ، والذل على العزة ، من غير علم ولا معرفة بالعاقبة ؟ وكيف ينكر الجاحظ والعثمانية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه إلى الاسلام وكلفه التصديق ؟ ! وروي فى الخبر الصحيح أنه كلفه في مبدأ الدعوة قبل ظهور كلة الاسلام وانتشارها بمكة أن يصنع له طعاما وأن يدعو له بني عبد المطلب . فصنع له الطعام ودعاهم له فخرجوا ذلك اليوم ولم ينذرهم صلي الله عليه وسلم لـكلمة قالها عمه أبو لهب . فـكلفه اليوم الثانى أن يصنع مثل ذلك الطعام وأن يدعوهم ثانية . فصنعه ودعاهم فأكلوا ثم كلمهم صلى الله عليه وسلم فدعاهم إلى الدين ودعاه معهم لأنه من بني عبد المطلب ثم ضمن لمن يوازره منهم وينصره على قوله أن يجعله أخاه فى الدين ووصيه بعد موته وخليفته من بعده. فأمسكوا كلهم وأجابه هو وحده وقال : أنا أنصرك على ماجئت به وأوازرك وأبايعك . فقال لهم لما رأى منهم الخذلان ومنه النصر ، وشاهد منهم المعصية ومنه الطاعة ، وعاين منهم الاباء ومنه الإجابة : هذا أخي ووصى وخليفتى من بعدي . فقاموا يسخرون ويضحكون ويقولون لأبى طالب : أطع ابنك فقد أمره عليك ؟؟ فهل يكلف عمل الطعام ودعاء القوم صغير غير مميز وغر غير عاقل ؟ وهل يؤتمن على سر النبوة طفل ابن خمس سنين أو ابن سبع ؟ وهل يدعى فى جملة الشيوخ والـكهول إلا عاقل لبيب ؟ وهل يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فى يده ويعطيه صفقة يمينه بالأخوة والوصية والخلافة إلا وهو أهل لذلك بالغ حد التكليف محتمل لولاية الله وعداوة أعدائه ؟ وما بال هذا الطفل لم يأنس بأقرانه ولم يلصق بأشكاله ولم يرمع الصبيان فى ملاعبهم بعد إسلامه وهو كأحدهم فى طبقته وكبعضهم

فى معرفته ؟ وكيف لم ينزع إليهم فى ساعة من ساعاته فيقال دعاه بعض الصبا وخاطر من خواطر الدنيا وحملته الغرة والحداثة على حضور لهوهم والدخول فى حالهم ؟ بل ما رأيناه إلا ماضيا على إسلامه مصمما فى أمره محققا لقوله بفعله ، قد صدق إسلامه بعفافة وزهده ولصق برسول الله صلى الله عليه وسلم من بين جميع من بحضرته فهو أمينه وأليفه فى دنياه وآخرته . وقد قهر شهوته وجاذب خواطره صابرا على ذلك نفسه لما يرجو من فوز العاقبة وثواب الآخرة. وقد ذكر هو فى كلامه وخطبه بدء حاله وافتتاح أمره حيث أسلم لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الشجرة فأقبلت تخد الأرض فقالت قريش : ساحر خفى السحر . فقال على عليه السلام: يارسول الله أنا أول من يؤمن بك ، آمنت بالله ورسوله وصدقت بك فيما جئت به وأنا أشهد أن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تصديقا لنبوتك وبرهانا على صحة دعوتك . فهل يكون إيمان قط أصح من هذا الايمان وأوثق عقدة وأحكم مرة ؟ ولكن حنق العثمانية وغيظهم وعصبية الجاحظ وانحرافه مما لا حيلة فيه .

ثم لينظر المنصف وليدع الهوى جانبا ليعلم نعمة الله على على عليه السلام بالاسلام حيث أسلم على الوضع الذى أسلم عليه فانه لولا الألطاف التى خص بها والهداية التى منحها لما كان إلا كبعض أقارب محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان ممازجاً له كممازجته ومخالطا له كمخالطة كثير من أهله ورهطه ولم يستجب منهم أحد له إلا بعد حين ، ومنهم من لم يستجب له أصلا ، فإن جعفراً كان ملتصقاً به ولم يسلم حينئذ ، وكان عتبة بن أبى لهب ابن عمه وصهره زوج ابنته ولم يصدقه بل كان شديدا عليه ، وكان لخديجة بنون من غيره ولم يسلموا حينئذ وهم ربائبه ومعه فى دار واحدة ، وكان أبو طالب أباه فى الحقيقة وكافله وناصره والمحامى عنه ومن لولاه لم تقم له قائمة ومع ذلك لم يسلم — فى أغلب الروايات — وكان العباس عمه وصنو أبيه وكالقرين له فى الولادة والمنشأ والتربية ولم يستجب له إلا بعد حين طويل . وكان أبو لهب عمه وكدمه ولحمه ولم يسلم وكان شديدا عليه

فكيف ينسب إسلام على عليه السلام إلى الإلف والتربية والقرابة واللحمة والتلقين والحضانة والدار الجامعة وطول العشرة والأنس والخلوة ، وقد كان كل ذلك حاصلا لهؤلاء أو لكثير منهم ولم يهتد أحد منهم إذ ذاك ؟ بل كانوا بين جحد وكفر ، ومنهم من مات على كفره ، ومن أبطأ وتأخر وسبق بالاسلام وجاء سكيتاً وقد فاز بالمنزلة غيره . وهل يدل تأمل حال على عليه السلام مع الإنصاف إلا على أنه أسلم لأنه شاهد الأعلام ورأى المعجزات وشم ريح النبوة ورأى نور الرسالة وثبت اليقين فى قلبه بمعرفة وعلم ونظر صحيح لا بتقليد ولا حمية ولا رغبة ولا رهبة . إلا فيما يتعلق بأمور الآخرة ..؟!

قال أبو جعفر :

٥ — ينبغى أن ينظر أهل الانصاف هذا الفصل ، ويقفوا على قول الجاحظ والأصم فى نصرة العثمانية واجتهادهما فى القصد الى فضائل هذا الرجل وتهجينها ، فمرة يبطلان معناها ، ومرة يتوصلان الى حط قدرها . فلينظر فى كل باب اعترضا فيه أين بلغت حيلتهما وما صنعا فى احتيالها فى قصصهما وسجعهما ! أليس إذا تأملتها علمت أنها ألفاظ ملفقة بلا معنى وأنها عليهما شجى وبلاء ؟ وإلا فما عسى أن تبلغ حيلة الحاسد ويغنى كيد الكائد الشانىء لمن قد جل قدره عن النقص وأضاءت فضائله إضاءة الشمس ؟

وأين قول الجاحظ من دلائل السماء وبراهين الأنبياء ، وقد علم الصغير والكبير والعالم والجاهل ممن بلغه ذكر على عليه السلام وعلم مبعث النبى صلى الله عليه وسلم أن عليا لم يولد في دار الإسلام ، ولا غذى فى حجر الإيمان ، وإنما استضافه النبى صلى الله عليه وسلم إلى نفسه سنة القحط والمجاعة وعمره يومئذ ثمانى سنين فمكث معه سبع سنين حتى أتاه جبريل بالرسالة فدعاه وهو بالغ كامل العقل إلى الاسلام فأسلم بعد مشاهدة المعجزة وبعد إعمال النظر والفكرة . وإن كان

قد ورد فى كلامه أنه صلى سبع سنين قبل الناس كلهم فانما يعنى ما بين الثمان والخمس عشر ، ولم يكن حينئذ دعوة ولا رسالة ولا ادعاء نبوة ، و إنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد على ملة إبراهيم ودين الحنيفية ويتحنث ويجانب الناس ويعتزل ويطلب الخلوة وينقطع فى جبل حراء ، وكان على عليه السلام معه كالتابع والتلميذ، فلما بلغ الحلم وجاءت النبى صلى الله عليه وسلم الملائكة وبشرته بالرسالة دعاه فأجابه عن نظر ومعرفة بالأعلام المعجزة . فكيف يقول الجاحظ إن إسلامه لم يكن مقتضباً ، وإن كان إسلامه ينقص عن إسلام غيره فى الفضيلة لما كان يمرن عليه من التعبد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الدعوة ليكونن طاعة كثير من المكلفين أفضل من طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمثاله من المعصومين! لأن العصمة عند أهل العدل لطف يمنع من اختص به من ارتكاب القبيح . فمن اختص بذلك اللطف كانت الطاعة عليه أسهل ، فوجب أن يكون ثوابه أنقص من ثواب من أطاع مع [عدم] تلك الألطاف .

وكيف يقول الجاحظ إن إسلامه ناقص عن إسلام غيره وقد جاء فى الخبر أنه أسلم يوم الثلاثاء واستنبئ النبى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ؟ فمن هذه حاله لم تكثر حجج الرسالة على سمعه ، ولا تواترت أعلام النبوة على مشاهدته ، ولا تطاول الوقت عليه لتخف محنته ويسقط ثقل تكليفه ، بل بان فضله ، وظهر حسن اختياره لنفسه ، إذ أسلم فى حال بلوغه وما عانى نوازع طبعه ولم يؤخر ذلك بعد سماعه .

وقد غمر الجاحظ فى كتابه هذا أن أبا بكر كان قبل إسلامه مذكوراً ورئيسا معروفا ، يجتمع إليه كثير من أهل مكة فينشدون الأشعار ويتذاكرون الأخبار ويشربون الخمر ، وقد سمع دلائل النبوة وحجج الرسالة وسافر إلى البلدان ، ووصلت إليه الأخبار ، وعرف دعوى الكهنة وحيل السحرة ، ومن كان كذلك كان انكشاف الأمور له أظهر والاسلام عليه أسهل والخواطر على قلبه أقل اعتلاجا ، وكل

ذلك عون لأبى بكر على الاسلام ومسهل إلية سبيله ، ولذلك لما قال النبى صلى الله عليه وسلم : أتيت بيت المقدس ، سأله أبو بكر عن المسجد ومواضعه فصدقه وبان له أمره وخفت مؤنته لما تقدم من معرفته بالبيت . فخرج إذاً إسلام أبى بكر على قول الجاحظ من معنى المقتضب . وفى ذلك رويتم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا وكان له تردد وَنَبْوَةٌ إلا ما كان من أبى بكر فانه لم يتلعثم حتى هجم به اليقين الى المعرفة والاسلام. فأين هذا و إسلام من خلى وعقله وألجىء إلى نظره مع صغر سنه واعتلاج الخواطر على قلبه ونشأته فى ضد ما دخل فيه ؟ والغالب على أمثاله وأقرانه حب اللعب واللهو ؟ فلجأ إلى ما ظهر له من دلائل الدعوة ولم يتأخر إسلامه فيلزمه التقصير بالمعصية ، فقهر شهوته وغالب خواطره وخرج من عادته وما كان غذى به لصحة نظره ولطافة فكره وغامض فهمه . فعظم استنباطه ورجح فضله وشرف قدر إسلامه ، ولم يأخذ من الدنيا بنصيب ، ولا تنعم فيها بنعيم حدثا ولا كبيراً ، وحمى نفسه عن الهوى ، وكسر شِرَّةَ حداثته بالتقوى ، واشتغل بهم الدين عن نعيم الدنيا ، وأشغل هم الآخرة قلبه ووجه إليه رغبته ، فاسلامه هو السبيل الذى لم يسلم عليه أحد غيره

وما سبيله فى ذلك إلا كسبيل الانبياء ليعلم أن منزلته من النبى صلى الله عليه وسلم كمنزلة هرون من موسى ، وأنه وإن لم يكن نبياً فقد كان فى سبيل الانبياء سالكا ولمنهاجهم متبعاً ، وكانت حاله كحال إبراهيم عليه السلام . فان أهل العلم ذكروا أنه لما كان صغيراً جعلته أمه فى سَرَبٍ لم يطلع عليه أحد ، فلما نشأ ودرج وعقل قال لأمه : من ربى ؟ قالت : أبوك . قال : فمن رب أبى ؟ فزبرته ونهرته ، إلى أن طلع من السَّرَبِ فرأى كوكباً فقال : هذا ربى . فلما أفل قال : لا أحب الآفلين . فلما راى القمر بازغاً قال : هذا ربى . فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونَنَّ من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغةً قال : هذا ربى هذا أكبر . فلما أفلت قال : ياقوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وَجَّهتُ وَجْهِيَ

لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِين . وفى ذلك يقول الله جل ثناؤه : « وكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » وعلى هذا كان إسلام الصديق الأكبر عليه السلام . لسنا نقول : إنه كان مساويا له فى الفضيلة ! ولكن كان مقتديا بطريقه على ماقال الله تعالى : « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ والذين آمَنُوا واللهُ وَلِيُّ المؤمنينَ »

وأما اعتلال الجاحظ بأن له ظهراً كأبى طالب ورداً كبنى هاشم ، فإنه يوجب عليه أن يكون محنة أبى بكر و بلال وثوابهما وفضل إسلامهما أعظم مما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ! لأن أبا طالب ظهره و بنى هاشم ردؤه ! وحسبك جهلا من معاند لم يستطع حط قدر على عليه السلام إلا بحطه من قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ولم يكن أحد أشد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من قراباته الأدنى منهم فالأدنى كأبى لهب عمه ، وامرأة أبى لهب وهى أم جميل بنت حرب ابن أمية واحدى أولاد عبد مناف ، ثم ما كان من عُقبة بن أبى مُعيط وهو ابن عمه ، وما كان من النضر بن الحارث وهو من بنى عبد الدار بن قصى وهو ابن عمه أيضا ، وغير هولاء ممن يطول تعداده . وكلهم كان يطرح الأذى فى طريقه وينقل أخباره ويرميه بالحجارة و يرمى الكرش والفرث عليه . وكانوا يؤذون عليا عليه السلام كأذاه ، ويجتهدون فى غمه ويستهزئون به . وما كان لأبى بكر قرابة تؤذيه كقرابة على ، ولما كان بين على و بين النبى صلى الله عليه وسلم من الاتحاد والإلف والإتفاق أحجم المنافقون بالمدينة عن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفا من سيفه ، وأنه صاحب الدار والجيش وأمره مطاع وقوله نافذ ، فخافوا على دمائهم منه فاتقوه وأمسكوا عن إظهار بغضه وأظهروا بغض على عليه السلام وشنآنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حقه — فى الخبر الذى روى فى جميع الصحاح — : لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق . وقال كثير من

أعلام الصحابة ـ كما روى فى الخبر المشهور بين المحدثين ـ : ما كنا نعرف المنافقين إلا ببغض على بن أبى طالب . وأين كان ظهر أبى طالب عن جعفر وقد أزعجه الأذى عن وطنه حتى هاجر إلى بلاد الحبشة وركب البحر ؟ أيتوهم الجاحظ أن أبا طالب نصر عليا وخذل جعفرا ؟

قال أبو جعفر :

٦ — أما ماذكر من كثرة المال والصديق واستفاضة الذكر وبعد الصيت وكبر السن ، فكله عليه لا له . وذلك لأنه قد علم أن من سيرة العرب وأخلاقها حفظ الصديق والوفاء بالذمام والتهيب لذى الثروة واحترام ذى السن العالية ، وفى كل هذا ظهر شديد وسند وثقة يعتمد عليها عند المحن ، ولذلك كان المرء منهم إذا تمكن من صديقه أبقى عليه واستحيا منه وكان ذلك سببا لنجاته والعفو عنه على أن على بن أبى طالب إن لم يكن شهره سنه فقد شهره نسبه وموضعه من بنى هاشم ، وإن لم يستفض ذكره بلقاء الرجال وكثرة الأسفار استفاض بأبى طالب ! فأنتم تعلمون أنه ليس تيم فى بعد الصيت كهاشم ، ولا أبو قحافة كأبى طالب ، وعلى حسب ذلك يعلو ذكر الفتى على ذى السن ويبعد صيت الحدث على الشيخ . ومعلوم أيضا أن عليا على أعناق المشركين أثقل إذ كان هاشميا وأن كان أبوه حامى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمانع لحوزته ، وعلىٌّ هو الذى فتح على العرب باب الخلاف واستهان بهم بما أظهر من الاسلام والصلاة وخالف رهطه وعشيرته وأطاع ابن عمه فيما لم يعرف من قبل ولا عهد له نظير ، كما قال تعالى : وِلتُنْذِرَ قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ، ثم كان بعدُ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشتكى حزنه وأنيسه فى خلوته وجليسه وأليفه فى أيامه كلها ، وكل هذا يوجب التحريض عليه ومعاداة العرب له

ثم أنتم معاشر العثمانية تثبتون لأبى بكر فضيلة بصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب ودخوله معه فى الغار فقلتم مرتبة شريفة ، وحالة جليلة ،

إذ كان شريكه فى الهجرة وأنيسه فى الوحشة ! فأين هذه من صحبة على له فى خلوته وحيث لا يجد أنيساً غيره ليله ونهاره أيام مقامه بمكة يعبد الله معه سرا ويتكلف له الحاجة جهرا ، ويخدمه كالعبد يخدم مولاه ، ويشفق عليه ويحوطه ، وكالولد يبر والده ويعطف عليه ؟ ولما سُئلت عائشة : من كان أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : أما من الرجال فعلى ، وأما من النساء ففاطمة .

قال أبو جعفر

٧ — أما القول فممكن ، والدعوي سهلة ، سيما عَلَى مثل الجاحظ ، فانه ليس عَلَى لسانه من دينه وعقله رقيب ، وهو من دعوى الباطل غير بعيد . فمعناه نزر ، وقوله لغو ، ومطلبه سجع ، وكلامه لعب ولهو . يقول الشيء وخلافه ، ويحسّن القول وضده ، ليس له من نفسه واعظ ، ولا لدعواه حد قائم ، وإلا فكيف تجاسر عَلَى القول بأن عليا حينئذ لم يكن مطلوبًا ولا طالباً ؟ وقد بيّنا بالأخبار الصحيحة والحديث المرفوع المسند أنه كان يوم أسلم بالغاً كاملا منابذاً بلسانه وقلبه لمشركى قريش ، ثقيلا عَلَى قلوبهم ، وهو المخصوص دون أبى بكر بالحصار فى الشعب ، وصاحب الخلوات برسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك الظلمات ، المتجرع لغصص المرار من أبى لهب وأبى جهل وغيرهما ، والمصطلى لكل مكروه ، والشريك لنبيه فى كل أذى ، قد نهض بالحمل الثقيل ، وبان بالأمر الجليل . ومن الذى كان يخرج ليلا من الشعب عَلَى هيئة السارق ويخفى نفسه ويضائل شخصه حتى يأتى إلى من يبعثه إليه أبو طالب من كبراء قريش كمطعم بن عدى وغيره ، فيحمل لبنى هاشم عَلَى ظهره أعدال الدقيق والقمح ، وهو عَلَى أشد خوف من أعدائهم كأبى جهل وغيره لو ظفروا به لأراقوا دمه . أعلىٌّ كان يفعل ذلك أيام الحصار فى الشعب أم أبو بكر؟ وقد ذكر هو عليه السلام حاله يومئذ فقال فى خطبة له مشهورة : فتعاقدوا ألا يعاملونا ولا يناكحونا وأوقدت الحرب علينا نيرانها واضطرونا إلى جبل وعر ، مؤمناً يرجو الثواب وكافراً يحامى عن الأصل ، ولقد كانت القبائل كلها اجتمعت

عليهم وقطعوا عنهم المادة والميرة فكانوا يتوقعون الموت جوعاً صباحاً ومساء ، لا يرون وجهاً ولا فرجاً ، قد اضمحل عزمهم وانقطع رجاؤهم . فمن الذى خلص إليه مكروه تلك المحن بعد محمد صلى الله عليه وسلم إلا على عليه السلام وحده ؟ وما عسى أن يقول الواصف والمطنب فى هذه الفضيلة من تقصى معانيها و بلوغ غاية كنهها وفضيلة الصابر عندها ؟ ودامت هذه المحنة عليهم ثلاث سنين حتى انفرجت عنهم بقصة الصحيفة . والقصة مشهورة .

وكيف يستحسن الجاحظ لنفسه أن يقول فى على عليه السلام أنه قبل الهجرة كان وادعاً رافهاً لم يكن مطلوباً ولا طالباً وهو صاحب الفراش الذى فدا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ووقاه بمهجته واحتمل السيوف ورضخ بالحجارة دونه ؟ وهل ينتهى الواصف وإن أطنب ، والمادح وإن أسهب ، إلى الإبانة عن مقدار هذه الفضيلة ، والإيضاح بمزية هذه الخصيصة ؟

فأما قوله إن أبا بكر عذب بمكة فانا لا نعلم أن العذاب كان واقعاً إلا بعبد أو عَسيف أو لمن لا عشيرة له تمنعه ؟ فأنتم فى أبى بكر بين أمرين تارة تجعلونه دخيلا ساقطاً وهجيناً رذيلا ومستضعفاً ذليلا ، وتارة تجعلونه رئيساً متبعاً وكبيراً مطاعاً ؟ فاعتمدوا عَلَى أحد القولين لنكلمكم بحسب ما تختارونه لأنفسكم . ولو كان الفضل فى الفتنة والعذاب لكان عَمَّارٌ وَخبَّابٌ وَبلاَلٌ وكل معذب بمكة أفضل من أبو بكر ، لأنهم كانوا من العذاب في أكثر مما كان فيه ، ونزل فيهم من القرآن مالم ينزل فيه ! كقوله تعالى : « وَالَّذِين هاجروا فى الله من بعد ما ظُلموا » قالوا : نزلت فى خباب و بلال ، ونزل فى عمار قوله « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر عَلَى عمار وأبيه وأمه وهم يعذبون ، يعذبهم بنو مخزوم لأنهم كانوا حلفاءهم ، فيقول : صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة . وكان بلال يقلب عَلَى الرمضاء وهو يقول : أحد أحد . وما سمعنا لأبى بكر فى شىء من ذلك ذكراً . ولقد كان لعلى عليه السلام عنده يد غراء — إن صح مارويتموه

فى تعذيبن ـ لأنه قتل نَوْفَلَ بنَ خُوَيْلِدٍ وَعُمَيْرَ بنَ عُثْمان يوم بدر . ضرب نوفلا فقطع ساقه فقال : أذكرك الله والرحم ! فقال : قد قطع الله كل رحم وصهر إلا من كان تابعاً لمحمد . ثم ضربه اخرى ففاضت نفسه . وصمد لعمير بن عثمان التيمى فوجده يروم الهرب وقد أرتج عليه المسلك فضربه عَلَى شراسيف صدره فصار نصفه الأعلى بين رجليه . وليس أن أبا بكر لم يطلب بثأره منهما ويجتهد لكنه لم يقدر عَلَى أن يفعل فعل على عليه السلام . فبان على بفعله دونه

قال أبو جعفر

٨ — لا أشك أن الباطل خان أبا عثمان والخطأ أقعده ، والخذلان أصاره إلى الحيرة فما علم وعرف حتى قال ما قال ، فزعم أن عليا عليه السلام قبل الهجرة لم يمتحن ولم يكابد المشاق ، وأنه إنما قاسى مشاق التكليف ومحن الابتلاء منذ يوم بدر ، ونسى الحصار فى الشعب ومامني به منه ، وأبو بكر وادع رافه يأكل مايريد ويجلس مع من يحب مُخلَى سربه طيبة نفسه ، ساكنا قلبه ، وعلى يقاسى الغمرات ويكابد الأهوال ويجوع ويظمأ ، ويتوقع القتل صباحاً ومساء ، لأنه كان هو المتوصل المحتال فى إحضار قوت زهيد من شيوخ قريش وعقلائها سرا ليقيم به رمق رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنى هاشم وهم فى الحصار ولا يأمن فى كل وقت مفاجأة أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم له بالقتل ، كأبى جهل بن هشام وعقبة بن أبى مُعيط والوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وغيرهم من فراعنة قريش وجبابرتها ولقد كان يجيع نفسه ويطعم رسول الله صلى الله عليه وسلم زاده ، ويظمىء نفسه ويسقيه ماءه ، وهو كان المعلل له إذا مرض ، والمؤنس له إذا استوحش ، وأبو بكر بنجوة عن ذلك لا يمسه مما يمسهم ألم ، ولم يلحقه مما يلحقهم مشقة ، ولا يعلم بشىء من أخبارهم وأحوالهم إلا على سبيل الإجمال دون التفصيل ثلاث سنين محرمة معاملتهم ومناكحتهم ومجالستهم محبوسين محصورين ممنوعين من الخروج والتصرف فى أنفسهم ، فكيف أهمل

الجاحظ هذه الفضيلة ونسى هذه الخصيصة ولا نظير لها ؟ ولكن لا يبالى الجاحظ بعد أن يسوغ له لفظه ، وتتسق له خطابته ما يضيع من المعنى ويرجع عليه من الخطأ

فأما قوله : وعلموا أن العاقبة للمتقين ، ففيه إشارة إلى معنى غامض قصده الجاحظ ، يعنى أن لا فضيلة لعلى عليه السلام فى الجهاد لأن الرسول كان أعلمه أنه منصور وأن العاقبة له ، وهذا من دسائس الجاحظ وهمزاته ولمزاته ، وليس بحق ماقاله ، لان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم أصحابه جملة أن العاقبة لهم ولم يعلم واحداً منهم بعينه أنه لايقتل ، ولا عليا ولا غيره ، وإن صح أنه كان أعلمه أنه لايقتل فلم يعلمه أنه لا يقطع عضو من أعضائه ، ولم يعلمه أنه لايمسه ألم الجرح فى جسده ، ولم يعلمه أنه لا يناله الضرب الشديد ؟ وعلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعلم أصحابه قبل يوم بدر وهو يومئذ بمكة أن العاقبة لهم كما أعلم أصحابه بعد الهجرة ذلك؟ فإن لم يكن لعلى والمجاهدين فضيلة فى الجهاد و بعد الهجرة لاعلامه إياهم ذلك فلا فضيلة لأبى بكر وغيره فى احتمال المشاق قبل الهجرة لاعلامه إياه بذلك ؟ فقد جاء فى الخبر أنه وعد أبا بكر قبل الهجرة بالنصر ، وأنه قال له : أرسلت إلى هؤلاء بالذبح وأن الله سيغنمنا أموالهم ويملكنا ديارهم . فالقول فى الموضعين متساو ومتفق

قال أبو جعفر :

٩ — مانرى الجاحظ احتج لكون أبى بكر أغلظهم وأشدهم محنة إلا بقوله لأنه أقام بمكة مدة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم بها ، وهذه الحجة لا تخص أبا بكر وحده لان عليا أقام معه هذه المدة وكذلك طلحة وزيد وعبدالرحمن و بلال وغيرهم وقد كان الواجب عليه أن يخص أبا بكر وحده بحجة تدل على أنه كان أغلظ الجماعة وأشدهم محنة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالاحتجاج فى نفسه فاسد ، ثم يقال له : مابالك أهملت أمر مبيت على على الفراش بمكة ليلة الهجرة ؟ هل نسيته أم تناسيته فإنها المحنة العظيمة والفضيلة الشريفة التى متى امتحنها الناظر

وأجال فكره فيها رأى تحتها فضائل متفرقة ، ومناقب متغايرة ، وذلك أنه لما استقر الخبر عند المشركين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مجمع على الخروج من بينهم للهجرة إلى غيرهم قصدوا معاجلته وتعاقدوا على أن يبيتوه فى فراشه وأن يضربوه بأسياف كثيرة بيد كل صاحب قبيلة من قريش سيف منها ليضيع دمه بين الشعوب و يتفرق بين القبائل ، ولا يطلب بنوهاشم بدمه قبيلة واحدة بعينها من بطون قريش ، وتحالفوا على تلك الليلة واجتمعوا عليها . فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من أمرهم دعا أوثق الناس عنده وأمثلهم فى نفسه وأبذلهم فى ذات الله لمهجته وأسرعهم إجابة إلى طاعته ، فقال له : إن قريشاً قد تحالفت على أن تبيتنى هذه الليلة ، فامض إلى فراشى ونم فى مضجعى والتف فى بردى الحضرمى ليروا أنى لم أخرج ، وإنى خارج إن شاء الله . فمنعه أولا من التحرز و إعمال الحيلة ، وصده عن الاستظهار لنفسه بنوع من أنواع المكايد والجهات التى يحتاط بها الناس لنفوسهم ، وألجأه إلى أن يعرض نفسه لظُبات السيوف الشحيذة من أيدى أرباب الحنق والضغينة . فأجاب إلى ذلك سامعاً مطيعا طيبة بها نفسه ، ونام على فراشه صابراً محتسباً واقياً له بمهجته ، ينتظر القتل . ولا نعلم فوق بذل النفس درجة يلتمسها صابر ولا يبلغها طالب ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود . ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علم أنه أهل لذلك لما أهله ، ولو كان عنده نقص فى صبره أو فى شجاعته أو فى مناصحته لابن عمه واختير لذلك لكان من اختاره صلى الله عليه وسلم منقوصاً فى رأيه مضرا فى اختياره ، ولا يجوز أن يقول هذا أحد من أهل الاسلام . وكلهم مجمعون على أن الرسول صلى الله عليه وسلم عمل الصواب وأحسن فى الاختيار . ثم فى ذلك إذا تأمل المتأمل وجوه من الفضل :

منها أنه و إن كان عنده فى موضع الثقة فإنه غير مأمون عليه أن لا يضبط السر فيفسد التدبير بإفشائه تلك الليلة إلى من يلقاه إلى الأعداء .

ومنها أنه و إن كان ضابطا للسر ثقة عند من اختاره فغير مأمون عليه الجبن

عند مفاجأة المكروه ومباشرة الأهوال ، فيفر من الفراش فَيُفْطَن لموضع الحيلة ويطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فَيُظفر به .

ومنها أنه وإن كان ثقة ضابطا للسر شجاعا نَجْداً فلعله غير محتمل للمبيت على الفراش لأن هذا أمر خارج عن الشجاعة إذ كان قد أقامه مقام المكتوف الممنوع بل هو أشد مشقة من المكتوف الممنوع ، لأن المكتوف الممنوع يعلم من نفسه أنه لا سبيل له إلى الهرب وهذا يجد السبيل إلى الهرب وإلى الدفع عن نفسه ولا يهرب ولا يدافع .

ومنها أنه وإن كان ثقة عنده ضابطا للسر شجاعاً محتملا للمبيت على الفراش فإنه غير مأمون أن يذهب صبره عند العقوبة الواقعة والعذاب النازل بساحته حتى يبوح بما عنده ويصير إلى الإقرار بما يعلمه ، وهو أنه أخذ طريق كذا ، فيُطلب فيؤخذ .

فلهذا قال علماء المسلمين : إن فضيلة عليٍّ تلك الليلة لا نعلم أحداً من البشر نال مثلها إلا ما كان من إسحٰق وإبراهيم عند استسلامه للذبح . ولولا أن الأنبياء لا يفضلهم غيرهم لقلنا إن محنة علي أعظم ، لأنه قد روى أن إسحٰق تلكأ لما أمره أن يضطجع وبكى على نفسه ، وقد كان أبوه يعلم أن عنده فى ذلك وقفة ، ولذلك قال له : فانظر ماذا ترى . وحال علي بخلاف ذلك لأنه ما تلكأ ولا تمنع ولا تغير لونه ولا اضطربت أعضاؤه . ولقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يشيرون عليه بالرأى المخالف لما كان أمر به وتقدم فيه فيتركه ويعمل بما أشاروا به كما جرى يوم الخندق فى مصانعته الأحزاب بثلث تمر المدينة ، فإنهم أشاروا عليه بترك ذلك فتركه . وهذه كانت قاعدته معهم وعادته بينهم وقد كان لعلي أن يعتل بعلة وأن يقف ويقول يارسول الله أكون معك أحميك من العدو وأذب بسيفي عنك فلست مستغنيا فى خروجك عن مثلي ، ونجعل عبدا من عبيدنا فى فراشك قائما مقامك يتوهم القوم برؤيته نائما فى بردك أنك لم تخرج ولم تفارق مركزك . فلم يقل ذلك

ولا تحبس ولا توقف ولا تلبث ، وذلك لعلم كل واحد منهما أن أحدا لا يصبر على ثقل هذه المحنة ولا يتورط هذه الملكة إلا من خصه الله تعالى بالصبر على مشقتها والفوز بفضيلتها

وله من جنس ذلك أفعال كثيرة ، كيوم دعا عمرو بن عبد ود المسلمين إلى المبارزة فأحجم الناس كلهم عنه لما علموا من بأسه وشدته ثم كرر النداء فقام على فقال : أنا أبرز إليه ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه عمرو ! قال : نعم وأنا على ! فأمره بالخروج إليه فلما خرج قال صلى الله عليه وسلم : برز الإيمان كله إلى الشرك كله . وكيوم أُحُد حيث حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبطال قريش وهم يقصدون قتله فقتلهم دونه حتى قال جبريل : يامحمد إن هذه هى المواساة ! فقال : إنه منى وأنا منه . فقال جبريل : وأنا منكما . ولو عددنا أيامه ومقاماته التى شرى فيها نفسه لله تعالى لأطلنا وأسهبنا

قال أبو جعفر :

١٠ — هذا فرق غير مؤثر ، لأنه قد ثبت بالتواتر حديث الفراش فلا فرق بينه و بين ماذكر فى نص الكتاب ولا يجحده إلا مجنون أو غير مخالط لأهل الملة . أرأيت كون الصلوات خمسا ، وكون زكاة الذهب ربع العشر ، وكون خروج الريح ناقضا للطهارة ، وأمثال ذلك مما هو معلوم بالتواتر حكمه ، هل هو مخالف لما نص فى الكتاب عليه من الأحكام ؟ هذا مما لايقوله رشيد ولا عاقل ! على أن الله تعالى لم يذكر اسم أبى بكر فى الكتاب ، وإنما قال : « إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِه » وإنما علمنا أنه أبو بكر بالخبر وما ورد فى السير ، وقد قال أهل التفسير : إن قوله تعالى « وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » كناية عن على ، لأنه مكر بهم . وأول الآية « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » أنزلت فى ليلة الهجرة ، ومكرهم كان توزيع السيوف على بطون قريش ، ومكر الله تعالى هو منام على على الفراش ، فلا فرق

بين الموضعين فى أنهما مذكوران كناية لا تصريحا. وقد روى المفسرون كلهم أن قول الله تعالى « وَمَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله » أنزلت فى على ليلة المبيت على الفراش . فهذه مثل قوله تعالى « إِذْ يَقولُ لصاحبه » لافرق بينهما

قال أبو جعفر :

١١ — هذا هو الكذب الصراح والتحريف والإدخال فى الرواية ماليس منها ، والمعروف المنقول أنه صلى الله عليه وسلم قال له : اذهب فاضطجع فى مضجعى وتغش ببردى الحصرمى فان القوم سيفقدوننى ولا يشهدون مضجعى فلعلهم إذا رأوك يسكنهم ذلك حتى يصبحوا ، فاذا أصبحت فاغد فى أداء أمانتى ، ولم ينقل ماذكره الجاحظ ، وإنما ولده أبو بكر الأصم وأخذه الجاحظ ولا أصل له . ولو كان هذا صحيحا لم يصل إليه منهم مكروه ، وقد وقع الاتفاق على أنه ضرب ورمى بالحجارة قبل أن يعلموا من هو حتى تضور ، وأنهم قالوا له : رأينا تضورك ، فإنا كنا نرمى محمدا ولا يتضور . ولأن لفظة المكروه — إن كان قالها — إنما يراد بها القتل فهب أنه أمن القتل كيف يأمن من الضرب والهوان ومن أن ينقطع بعض أعضائه وإن سلمت نفسه ؟ أليس الله تعالى قال لنبيه « بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِن لَم تَفعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » ؟ ومع ذلك فقد كُسرت رَباعيته وشُج وجهه وأدميت ساقه . وذلك لأنها عصمة من القتل خاصة . وكذلك المكروه الذى أومن على منه — إن كان صح ذلك فى الحديث — إنما هو مكروه القتل . ثم يقال له : وأبو بكر لا فضيلة له أيضا فى كونه فى الغار ! لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال له « لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا » ومن يكن الله معه فهو آمن لامحالة من كل سوء . فكيف قلت ولم ينقل ناقل أنه قال لأبى بكر فى الغار مثل ذلك ؟ فكل ما يجيب به عن هذا فهو جوابنا عما أورده فنقول له : هذا ينقلب عليك فى النبى صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى وعده بظهور دينه وعاقبة أمره ! فيجب على قولك أن لا يكون مثابا عند الله تعالى على مايحتمله من المكروه ولا مايصيبه من الأذى إذ كان قد أيقن بالسلامة والفتح فى عِدَتِه !

قال أبو جعفر

١٢ — إن أبا عثمان يجر على نفسه مالا طاقة له به من مطاعن الشيعة ، ولقد كان فى غُنية عن التعلق بما تعلق به . لأن الشيعة تزعم أن هذه الآية بأن تكون طعناً وعيباً على أبى بكر أولى من أن تكون فضيلة ومنقبة له . لأنه لما قال : لاتحزن . دل على أنه قد كان حزن وقنط وأشفق على نفسه . وليس هذا من صفات المؤمنين الصابرين . ولا يجوز أن يكون حزنه طاعة لأن الله تعالى لا ينهى عن الطاعة . فلو لم يكن ذنباً لم ينه عنه . وقوله إن الله معنا . أى إن الله عالم بحالنا وما نضمره من اليقين أو الشك ، كما يقول الرجل لصاحبه : لا تضمرن سوءاً ولا تنوين قبيحاً فان الله تعالى يعلم ماتسره وما تعلنه . وهذا مثل قوله تعالى « ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » أى هو عالم بهم. وأما السكينة فكيف يقول إنها ليست راجعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وبعدها قوله « وأيده بجنود لم تروها » أترى المؤيد بالجنود كان أبا بكر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وقوله إنه مستغن عنها ليس بصحيح ، ولا يستغنى أحد عن ألطاف الله وتوفيقه وتأييده وتثبيت قلبه . وقد قال الله تعالى فى قصة حُنين « وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله » وأما الصحبة فلا تدل إلا على المرافقة والاصطحاب لا غير ، وقد تكون حيث لا إيمان كما قال الله تعالى « قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك » ونحن وإن كنا نعتقد إخلاص أبى بكر وإيمانه الصحيح السليم وفضيلته التامة إلا أنا لا نحتج له بمثل ما احتج به الجاحظ من الحجج الواهية . ولا نتعلق بما يجر علينا دواهى الشيعة ومطاعنها !

قال أبو جعفر :

١٣ — أما كثرة المستجيبين فالفضل فيها راجع إلى المجيب لا إلى المجاب . على أنا قد علمنا أن من استجاب لموسى أكثر ممن استجاب لنوح عليهما السلام .

وثواب نوح أكثر بصبره على الأعداء ومقاساة خلافهم وعنتهم. وأما إنفاق المال فأين محنة الغنى من محنة الفقر ؟ وأين يعتدل إسلام من أسلم وهو غنى إن جاع أكل و إن أعيا ركب وإن عرى لبس ، قد وثق بيساره واستغنى بماله واستعان على نوائب الدنيا بثروته ، ممن لايجد قوت يومه ، و إن وجد لم يستأثر به ؟ فكان الفقر شعاره . وفى ذلك قيل : الفقر شعار المؤمن . وقال الله تعالى لموسى : ياموسى إذا رأيت الفقر مقبلا فقل : مرحبا بشعار الصالحين . وفى الحديث : إن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم احشرنى فى زمرة الفقراء . ولذلك أرسل الله محمد صلى الله عليه وسلم فقيراً ، وكان بالفقر سعيداً ، فقاسى محنة الفقر ومكابدة الجوع حتى شد الحجر على بطنه ، وحسبك بالفقر فضيلة فى دين الله لمن صبر عليه ، فإنك لا تجد صاحب الدنيا يتمناه لأنه مناف لمال الدنيا وأهلها ، و إنما هو شعار أهل الآخرة . وأما طاعة على عليه السلام وكون الجاحظ زعم أنها كانت لأن فى عز محمد عزه وعز رهطه بخلاف طاعة أبى بكر . فهذا يفتح عليه أن يكون جهاد حمزة كذلك ، وجهاد عبيدة ابن الحارث وهجرة جعفر إلى الحبشة ، بل لعل محاماة المهاجرين من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لأن فى دولته دولتهم ، وفى نصرته استجداد ملك لهم ، وهذا يجر إلى الالحاد ويفتح باب الزندقة ويفضى إلى الطعن فى الاسلام والنبوة

قال أبو جعفر :

١٤ — قد بينا فضيلة المبيت على الفراش على فضيلة الصحبة فى الغار بما هو واضح لمن أنصف ونزيد ههنا تأكيدا بما لم نذكره فيما تقدم فنقول :

إن فضيلة المبيت على الفراش على الصحبة فى الغار لوجهين :

أحدهما : إن عليا عليه السلام قد كان أنس بالنبى صلى الله عليه وسلم وحصل له بمصاحبته قديما أنس عظيم و إلف شديد ، فلما فارقه عدم ذلك الأنس وحصل

عليه أبو بكر فكان مايجده على من الوحشة وألم الفرقة موجبا زيادة ثوابه ، لأن الثواب على قدر المشقة

وثانيهما ، أن أبا بكر كان يؤثر الخروج من مكة ، وقد كان خرج من قبل فرد ، فازداد كراهية للمقام ، فلما خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وافق ذلك هوى قلبه ومحبوب نفسه ، فلم يكن له فى الفضيلة مايوازى فضيلة من احتمل المشقة العظيمة وعرض نفسه لوقع السيوف ، ورأسه لرضح الحجارة ، لأنه على قدر سهولة العبادة يكون نقصان الثواب

قال أبو جعفر :

١٥ — كيف كانت بنو جمح تؤذى عثمان بن مظعون وتضر به وهو فيهم ذو سطوة وقدر وتترك أبا بكر يبنى مسجدا يفعل فيه ماذكرتم ، وأنتم الذين رويتم عن ابن مسعود أنه قال : ما صلينا ظاهرين حتى أسلم عمر بن الخطاب ؟ والذى تذكرونه من بناء المسجد كان قبل إسلام عمر ؟ فكيف هذا ؟! وأما ماذكرتم من رقة صوته وعتق وجهه ، فكيف يكون ذلك وقد روى الواقدى وغيره أن عائشة رأت رجلا من العرب خفيف العارضين ، معروق الخدين ، غائر العينين ، أجنى لا يمسك إزاره فقالت : ما رأيت أشبه بأبى بكر من هذا ! فلا نراها دلت على شىء من الجمال فى صفته

قال أبو جعفر :

١٦ — هذا الكلام وهُجر السكران سواء فى تقارب المخرج واضطراب المعنى . وذلك أن قريشا لم تقدر على أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو طالب حى يمنعه ، فلما مات طلبته لتقتله فخرج تارة إلى بنى عامر ، وتارة إلى ثقيف ، وتارة إلى بنى شيبان ، ولم يكن يتجاسر على المقام بمكة إلا مستترا حتى أجاره مطعم ابن عدى . ثم خرج إلى المدينة فبذلت فيه مائة بعير لشدة حنقها عليه حين فاتها فلم تقدر عليه . فما بالها بذلت فى أبى بكر مائة بعير أخرى وقد كان رد الجوار وبقى

بينهم فرداً لا ناصر له ولا دافع عنه يصنعون به ما يريدون ؟ إما أن يكونوا أجهل البرية كلها ، أو يكون العثمانية أكذب جيل فى الأرض وأوقحه وجهاً . وهذا مما لم يذكر فى سيرة ولا روي فى أثر ولا سمع به بشر ولا سبق الجاحظ به أحد

قال أبو جعفر

١٧ — ما أعجب هذا القول إذ تدعى العثمانية لأبى بكر الرفق فى الدعاء وحسن الاحتجاج ، وقد أسلم ومعه فى منزله ابنه عبد الرحمن ، فما قدر أن يدخله فى الاسلام طوعا برفقه ولطف احتجاجه ، ولا كرها بقطع النفقة عنه وإدخاله المكروه عليه ، ولا كان لأبى بكر عند ابنه عبد الرحمن من القدر ما يطيعه فيما يأمره به ويدعوه إليه . كما روى أن أبا طالب فقد النبى صلى الله عليه وسلم يوماً — وكان يخاف عليه من قريش أن يغتالوه — فخرج ومعه ابنه جعفر يطلبانه فوجده قائماً فى بعض شعاب مكة يصلى وعلىّ معه عن يمينه فلما رآهما أبو طالب قال لجعفر : تقدم وصل جناح ابن عمك . فقام جعفر عن يسار محمد صلى الله عليه وسلم . فلما صاروا ثلاثة تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأخر الاخوان . فبكى أبو طالب وقال:

إِنَّ عَلِيًّا وَجَعْفَرًا ثِقَتِي — عِنْدَ مُلِمِّ الْخُطُوبِ وَالنُّوَبِ
لَا تَخْذُلَا وَانْصُرَا ابْنَ عَمِّكُمَا — أَخِي لِأُمِّي مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَبِي
وَاللهِ لَا أَخْذُلُ النَّبِيَّ وَلَا — يَخْذُلُهُ مِنْ بَنِيَّ ذُو حَسَبِ

فتذكر الرواة أن جعفراً أسلم منذ ذلك اليوم ، لأن أباه أمره بذلك وأطاع أمره . وأبو بكر لم يقدر على إدخال ابنه عبد الرحمن فى الاسلام حتى أقام بمكة على كفره ثلاث عشرة سنة وخرج يوم أحد فى عسكر المشركين ينادى : أنا عبد الرحمن بن عتيق ، هل من مبارز ؟ ثم مكث بعد ذلك على كفره حتى أسلم عام الفتح ، وهو اليوم الذى دخلت فيه قريش فى الاسلام طوعاً وكرهاً ولم يجد أحد منها إلى ترك ذلك سبيلا . وأين كان رفق أبى بكر وحسن احتجاجه عند أبيه أبى

قحافه وهما فى دار واحدة ؟ هلا رفق ودعاه إلى الاسلام فأسلم ؟ وقد علمتم أنه بقى على الكفر إلى يوم الفتح فأحضره ابنه عند النبي صلى الله عليه وسلم وهو شيخ كبير رأسه كالثغامة فنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم منه وقال : غيروا هذا فخضبوه ثم جاؤا به مرة أخرى فأسلم . وكان أبو قحافة فقيراً مدقعاً سيء الحال ، وأبو بكر عندهم كان مثريا فائض المال فلم يمكنه استمالته إلى الاسلام بالنفقة والاحسان. وقد كانت امرأة أبي بكر أم عبد الله ابنه — واسمها نملة بنت عبد العزي بن أسعد عبد ود العامرية — لم تسلم وأقامت على شركها بمكة وهاجر أبو بكر وهي كافرة . فلما نزل قوله تعالى « ولا تُمسكوا بِعِصَم الكوافر » فطلقها أبو بكر . فمن عجز عن ابنه وأبيه وامرأته فهو عن غيرهم من الغرباء أعجز . ومن لم يقبل منه أبوه وابنه وامرأته لا برفق واحتجاج ولا خوفاً من قطع النفقة عنهم وإدخال المكروه عليهم فغيرهم أقل قبولا منه وأكثر خلافاً عليه

١٨ — أخبرونا من هذا الذى أسلم فى ذلك اليوم من أهل بيت أبى بكر إذا كانت امرأته لم تسلم ، وابنه عبد الرحمن لم يسلم ، وأبو قحافة لم يسلم ، وأخته أم فروة لم تسلم ، وعائشة لم تكن قد ولدت فى ذلك الوقت لأنها ولدت بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بخمس سنين ، ومحمد بن أبي بكر ولد بعد مبعث الرسول بثلاث وعشرين سنة لأنه ولد فى حجة الوداع ، وأسما بنت أبي بكر التى قد روى الجاحظ هذا الخبر عنها كانت يوم مبعث رسول الله بنت أربع سنين ، وفى رواية من يقول بنت سنتين . فمن الذى أسلم من أهل بيته يوم أسلم ؟! نعوذ بالله من الجهل والكذب والمكابرة . وكيف أسلم سعد والزبير وعبد الرحمن بدعاء أبي بكر وليسوا من رهطه ولا من أترابه ولا من جلسائه ولا كانت بينهم قبل ذلك صداقة متقدمة ولاأنس وكيد ؟ وكيف ترك أبو بكر عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة لم يدخلهما فى الاسلام برفقه وحسن دعائه ، وقد زعمتم أنهما كانا يجلسان إليه لعلمه وطريف حديثه ؟ وما باله لم يدخل جبير بن مطعم فى الاسلام وقد ذكرتم أنه

أدبه وخرجه ومنه أخذ جبير العلم بأنساب قريش ومآثرها ؟ فكيف عجز عن هؤلاء الذين عددناهم وهم منه بالحال التى وصفنا ، ودعا من لم يكن بينه و بينه أنس ولا معرفة إلا معرفة عيان ؟ وكيف لم يقبل منه عمر بن الخطاب وقد كان شكله وأقرب الناس شبها به فى أغلب أخلاقه ؟ و إن رجعتم إلى الانصاف لتعلمن أن هؤلاء لم يكن إسلامهم إلا بدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لهم وعلى يديه أسلموا . ولو فكرتم فى حسن التأتى فى الدعاء ليصحن لأبى طالب فى ذلك عَلَى شركه أضعاف ما ذكرتموه لأبى بكر ! لأنكم رويتم أن أبا طالب قال لعلى : يا بنى الزمه فإنه لن يدعوك إلا إلى خير . وقال لجعفر : صل جناح ابن عمك . فأسلم بقوله . ولأجله أصفق بنو عبد مناف على نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة من بنى مخزوم و بنى سهم و بنى جمح ، ولأجله صبر بنوها شم على الحصار فى الشعب . و بدعائه و إقباله على محمد صلى الله عليه وسلم أسلمت امرأته فاطمة بنت أسد ، فهو أحسن رفقا وأيمن نقيبة من أبى بكر وغيره . وما منعه عن الاسلام إن ثبت أنه لم يسلم إلا تقية . وأبو بكر لم يكن له إلا ابن واحد وهو عبد الرحمن فلم يمكنه أن يدخله فى الاسلام ولا أمكنه إذ لم يقبل منه الاسلام أن يجعله كبعض مشركى قريش فى قلة الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه أنزل « وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ . فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين » و إنما يعرف حسن رفق الرجل وتأتيه بأن يصلح أولا أمر بيته وأهله ثم يدعو الأقرب فالأقرب ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث كان أول من دعا زوجته خديجة ، ثم مكفوله وابن عمه عليا ، ثم مولاه زيداً . ثم أم أيمن خادمته ، فهل رأيتم أحداً ممن كان يأوى إلى رسول الله صلى الله وسلم لم يسارع ؟ وهل التاث عليه أحد من هؤلاء ؟ فهكذا يكون حسن التأتى والرفق فى الدعاء . هذا ورسول الله مقل وهو من جملة عيال خديجة حين بعثه الله تعالى ، وأبو بكر عندكم كان

موسراً وكان أبوه مُقتِراً وكذلك ابنه وامرأته أم عبد الله ، والموسر فى فطرة العقول أولى أن يتبع من المقتر. وإنما حسن التأتى والرفق فى الدعاء ما صنعه مصعب بن عمير لسعد بن معاذ لما دعاه ، وما صنع سعد بن معاذ ببنى عبد الأشهل لما دعاهم ، وما صنع بُريدة بن الحصيب بأسلم لما دعاهم ، قالوا : أسلم بدعائه ثمانون بيتا من قومه ، وأسلم بنو عبد الأشهل بدعاء سعد فى يوم واحد . وأما من لم يسلم ابنه ولا امرأته ولا أبوه ولا أخته بدعائه فهيهات أن يوصف ويذكر بالرفق فى الدعاء وحسن التأتى والأناة

١٩ — أما بلال وعامر بن فُهيرة فإنما أعتقهما رسول الله صلى الله عليه وسلم — روى ذلك الواقدى وابن اسحق وغيرهما — وأما باقى مواليهم الأربعة فان سامحنا كم فى دعواكم لم يبلغ ثمنهم فى تلك الحال لشدة بغض مواليهم لهم إلا مائة درهم أو نحوها ، فأى فخر فى هذا ؟ وأما الآية فان ابن عباس قال فى تفسيرها « وأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » أى لأن يعود . وقال غيره : نزلت فى مصعب بن عمير

٢٠ — أخبرونا على أى نوائب الاسلام أنفق هذا المال ، وفى أى وجه وضعه ! فانه ليس بجائز أن يخفى ذلك ويدرس حتى يفوت حفظه وينسى ذكره وأنتم فلم تقفوا عَلَى شىء أكثر من عتقه بزعمكم ست رقاب لعلها لا يبلغ ثمنها فى ذلك العصر مائة درهم. وكيف يدعى له الانفاق الجليل وقد باع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيرين عند خروجه إلى يثرب وأخذ منه الثمن فى مثل تلك الحال ؟ وروى ذلك جميع المحدثين . وقد رويتم أيضاً أنه كان حيث كان بالمدينة غنياً موسراً . ورويتم عن عائشة أنها قالت : هاجر أبو بكر وعنده عشرة آلاف درهم، وقلتم إن الله تعالى أنزل فيه «وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى القُرْبَى » قلتم : هى فى أبى بكر ومسطح بن أثاثة . فأين الفقر الذى زعمتم أنه أنفق حتى تخلل بالعباءة ؟ وَقد رويتم أن لله تعالى فى سمائه ملائكة قد تخللوا بالعباء ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم رآهم ليلة الاسراء فسأل جبريل عنهم فقال : هؤلاء

ملائكة تأسوا بأبى بكر بن أبى قحافة صديقك فى الأرض فإنه سينفق عليك ماله حتى يخلل عباءه فى عنقه. وأنتم أيضاً رويتم أن الله تعالى لما أنزل آية النجوى فقال «يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجوا كم صدقة ذلك خير لكم» الآية. لم يعمل بها إلا على بن أبى طالب وحده مع إقراركم بفقره وقلة ذات يده، وأبو بكر فى الحال الذى ذكرنا من السعة أمسك عن مناجاته فعاتب الله المؤمنين فى ذلك فقال «أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجوا كم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم» فجعله سبحانه ذنباً يتوب عليهم منه، وهو إمساكهم عن تقديم الصدقة، فكيف سخت نفسه بانفاق أربعين ألفاً وأمسك عن مناجاة الرسول وإنما كان يحتاج فيها إلى إخراج درهمين ؟؟ وأما ما ذكر من كثرة عياله ونفقته عليهم فليس فى ذلك دليل على تفضيله، لأن نفقته على عياله واجبة. مع أن أرباب السير ذكروا أنه لم يكن ينفق على أبيه شيئاً وأنه كان أجيراً لابن جُدعان على مائدته يطرد عنها الذباب

٢١ — إننا لا ننكر فضل الصحابة وسوابقهم، ولسنا كالإمامية الذين يحملهم الهوى على جحد الأمور المعلومة، ولكننا ننكر تفضيل أحد من الصحابة على على ابن أبى طالب. ولسنا ننكر غير ذلك، وننكر تعصب الجاحظ للعثمانية وقصده إلى فضائل هذا الرجل ومناقبه بالرد والابطال، وأما حمزة فهو عندنا ذو فضل عظيم ومقام جليل، وهو سيد الشهداء الذين استشهدوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأما فضل عمر فغير منكر وكذلك الزبير وسعد. وليس فيما ذكر مايقتضى كون على مفضولا لهم أو لغيرهم، إلا قوله: وكل هذه الفضائل لم يكن لعلى فيها ناقة ولا جمل. فان هذا من التعصب البارد والحيف الفاحش. وقد قدمنا من آثار على قبل الهجرة وماله إذ ذاك من المناقب والخصائص ما هو أعظم وأشرف من جميع ما ذكر لهؤلاء. على أن أرباب السير يقولون إن الشجة التى شجها سعد وإن السيف الذى سله الزبير هو الذى جلب الحصار فى الشعب على النبى صلى الله

عليه وسلم و بنى هاشم ، وهو الذى سير جعفراً وأصحابه إلى الحبشة . وسل السيف فى الوقت الذى لم يؤمر المسلمون فيه بسل السيف غير جائز . قال تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ » فتبين أن التكاليف له أوقات فمنها وقت لا يصلح فيه سل السيف ، ومنها وقت يصلح فيه ويجب . فأما قوله تعالى « لا يستوى منكم من أنفق » فقد ذكرنا ما عندنا من دعواهم لأبى بكر إنفاق المال . وأيضاً فان الله تعالى لم يذكر إنفاق المال مفرداً و إنما قرن به القتال ، ولم يكن أبو بكر صاحب قتال وحرب ، فلا تشمله الآية . وكان على صاحب قتال و إنفاق قبل الفتح . أما قتاله فمعلوم بالضرورة ، وأما إنفاقه فقد كان على حسب حاله وفقره ، وهو الذى « أطعم الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً » وأنزلت فيه وفى زوجته وابنيه سورة كاملة من القرآن . وهو الذى ملك أربعة دراهم فأخرج منها درهما سراً ودرهما علانية ليلا ثم أخرج منها فى النهار درهماً سراً ودرهماً علانية . فأنزل فيه قوله تعالى « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية » وهو الذى قدم بين يدى نجواه صدقة دون المسلمين كافة ، وهو الذى تصدق بخاتمه وهو راكع فأنزل الله فيه « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون »

٢٢ — لقد أعطى أبو عثمان مقولا وحرم معقولا ، إن كان يقول هذا على اعتقاد وجد ، ولم يذهب به مذهب اللعب واللهو ، أو على طريق التفاصح والتشادق و إظهار القوة والسلاطة وذلاقة اللسان وحدة الخاطر والقوة على جدال الخصوم . ألم يعلم أبو عثمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أشجع البشر وأنه خاض الحروب وثبت فى المواقف التى طاشت فيها الألباب و بلغت القلوب الحناجر ؟ ؟ فمنها يوم أحد ووقوفه بعد أن فر المسلمون بأجمعهم ولم يبق معه إلا أربعة على والزبير وطلحة وأبو دجانة ، فقاتل ورمى بالنبل حتى فنيت نبله وانكسرت سية قوسه وانقطع وتره ، فأمر عكاشه بن محصن أن يوترها فقال : يا رسول الله ، لا يبلغ الوتر ؟

فقال : أوتر ما بلغ . قال عكاشه : فوالذى بعثه بالحق لقد أوترت حتى بلغ وطويت منه شبراً على سية القوس ، ثم أخذها فمازال يرميهم حتى نظرت إلى قوسه قد تحطمت . وبارز أبي بن خلف فقال له أصحابه : إن شئت عطف عليه بعضنا ! فأبى وتناول الحربة من الحارث بن الصمة ثم انتفض بأصحابه كما ينتفض البعير قالوا : فتطايرنا عنه تطاير الشعارير فطعنه بالحربة فجعل يخور كما يخور الثور . ولو لم يدل على ثباته حين انهزم أصحابه وتركوه إلا قوله « إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم » فكونه صلى الله عليه وسلم فى أخراهم وهم يصعدون ولا يلوون هاربين دليل على أنه ثبت ولم يفر . وثبت يوم حنين فى تسعة من أهله ورهطه الأدنين ، وقد فر المسلمون كلهم والنفر التسعة محدقون به ، العباس آخذ بحكمة بغلته ، وعلى بين يديه مصلت سيفه ، والباقون حول بغلته يمنة ويسرة ، وقد انهزم المهاجرون والأنصار ، وكلما فروا أقدم هو صلى الله عليه وسلم وصمم مستقدما يلقى السيوف والنبال بنحره وصدره ، ثم أخذ كفا من البطحاء وحصب المشركين وقال : شاهت الوجوه . والخبر المشهور عن على وهو أشجع البشر : كنا إذا اشتد البأس وحمي الوطيس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ولذنا به . فكيف يقول الجاحظ إنه ماخاض الحروب ولا خالط الصفوف ! وأى فرية أعظم من فرية من نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الاحجام واعتزال الحرب ! ثم أى مناسبة بين ابى بكر ورسول الله فى هذا المعنى ليقيسه وينسبه إلى رسول الله صاحب الجيش والدعوة ورئيس الاسلام والملة والملحوظ بين أصحابه وأعدائه بالسيادة وإليه الايماء والاشارة وهو الذى أحنق قريشاً والعرب وورى أكبادهم بالبراءة من آلهتهم وعيب دينهم وتضليل أسلافهم ، ثم وترهم فيما بعد بقتل رؤسائهم وأكابرهم ؟ وحق لمثله إذا تنحى عن الحرب واعتزلها أن يتنحى ويعتزل ، لأن ذلك شأن الملوك والرؤساء إذ كان الجيش منوطا بهم وببقائهم ، فمتى هلك الملك هلك الجيش ومتى سلم الملك أمكن أن يبقى عليه ملكه وإن عطب جيشه بأن يستجد جيشاً آخر . ولذلك نهى

الحكماء أن يباشر الملك الحرب بنفسه . وخطأوا الاسكندر لما بارز فور ملك الهند ونسبوه إلى مجانبة الحكمة ومفارقة الصواب والحزم . فليقل لنا الجاحظ : أى مدخل لأبي بكر فى هذا المعنى ؟ ومن الذى كان يعرفه من أعداء الاسلام ليقصده بالقتل ؟ وهل هو إلا واحد من عرض المهاجرين حكمه حكم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهما ؟ بل كان عثمان أكثر منه صيتاً وأشرف منه مركبا والعيون إليه أطمح والعدو عليه أحنق وأكلب . ولو قتل أبو بكر فى بعض تلك المعارك هل كان يؤثر قتله في الاسلام ضعفاً أو يحدث وهنا ، أو يخاف على الملة لو قتل أبو بكر فى بعض تلك الحروب أن تندرس وتعفى آثارها وتنطمس منارها ؟ ليقول الجاحظ إن أبا بكر كان حكمه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجانبة الحروب واعتزالها ؟ نعوذ بالله من الخذلان . وقد علم العقلاء كلهم ممن له بالسير معرفة وبالآثار والأخبار ممارسة حال حروب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كانت وحاله عليه الصلاة والسلام فيها كيف كان ، ووقوفه حيث وقف ، وحربه حيث حارب ، وجلوسه في العريش يوم جلس ، وأن وقوفه صلى الله عليه وسلم وقوف رئاسة وتدبير ، ووقوف ظهر وسند يتعرف أمور أصحابه ويحرس صغيرهم وكبيرهم بوقوفه من ورائهم وتخلفه عن التقدم في أوائلهم ، لأنهم متى علموا أنه فى أخراهم اطمأنت قلوبهم ولم تتعلق بأمره نفوسهم ، فيشتغلوا بالاهتمام به عن عدوهم ، ولا يكون لهم فئة يلجؤن إليها وظهراً يرجعون إليه ، ويعلمون أنه متى كان خلفهم تفقد أمورهم وعلم مواقفهم وآوى كل إنسان مكانه فى الحماية والنكاية وعند النازلة فى الكر والحملة ، فكان وقوفه حيث وقف أصلح لأمرهم ، وأحمى وأحرس لبيضتهم ، ولأنه المطلوب من بينهم ، إذ هو مدبر أمورهم ووالى جماعتهم . ألا ترون أن موقف صاحب اللواء موقف شريف ، وأن صلاح الحرب فى وقوفه ، وأن فضيلته فى ترك التقدم فى أكثر حالاته . فللرئيس حالات : الأولى : حالة يتخلف ويقف آخراً ليكون سنداً وقوة ورداً وعدة ، وليتولى تدبير الحرب ويعرف مواضع الخلل . والحالة

الثانية : يتقدم فيها فى وسط الصف ليقوى الضعيف ويشجع الناكس. وحالة ثالثة : وهى إذا اصطدم الفيلقان وتكافح السيفان ، اعتمد ما يقتضيه الحال من الوقوف حيث يستصلح ، أو من مباشرة الحرب بنفسه فإنها آخر المنازل وفيها تظهر شجاعة الشجاع النجد وفسالة الجبان المموه . فأين مقام الرئاسة العظمى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأين منزلة أبى بكر ليسوى بين المنزلتين ويناسب بين الحالتين ؟ ولو كان أبو بكر شريكا لرسول الله فى الرسالة وممنوحا من الله بفضيلة النبوة وكانت قريش والعرب تطلبه كما تطلب محمداً صلى الله عليه وسلم لكان للجاحظ أن يقول ذلك . فأما وحاله حاله وهو أضعف المسلمين جنانا وأقلهم عند العرب ترة لم يرم قط بسهم ولا سل سيفا ولا أراق دما ، وهو أحد الأتباع غير مشهور ولا معروف ولا طالب ولا مطلوب ، فكيف يجوز أن يجعل مقامه ومنزلته مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنزلته ؟ ولقد خرج ابنه عبد الرحمن مع المشركين يوم أحد فرآه أبو بكر فقام مغيظا عليه فسل من السيف مقدار إصبع يروم البروز إليه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر ، شِم سيفك وأمتعنا بنفسك . ولم يقل له وأمتعنا بنفسك إلا لعلمه بأنه ليس أهلا للحرب وملاقاة الرجل ، وأنه لو بارز لقتل .

وكيف يقول الجاحظ : لافضيلة لمباشرة الحروب ولقاء الأقران وقتل أبطال الشرك ؟ وهل قامت عمد الإسلام إلا على ذلك ؟ وهل ثبت الدين واستقر إلا بذلك ؟ أتراه لم يسمع قول الله تعالى « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » والمحبة من الله تعالى هى إرادة الثواب ، فكل من كان أشد ثبوتا فى هذا الصف وأعظم قتالا كان أحب إلى الله ، ومعنى الأفضل هو الأكثر ثوابا . فعلى عليه السلام إذاً هو أحب المسلمين إلى الله لأنه أثبتهم قدما فى الصف المرصوص لم يفر قط باجماع الأمة ، ولا بارزه قرن إلا قتله . وأتراه لم يسمع قول الله تعالى « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما » وقوله « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً

عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن » ثم قال سبحانه مؤكداً لهذا البيع والشراء « ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » وقال الله تعالى « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح » فمواقف الناس فى الجهاد على أحوال ، و بعضهم فى ذلك أفضل من بعض ، فمن دلف إلى الأقران واستقبل السيوف والأسنة كان أثقل على أكتاف الأعداء لشدة نكايته فيهم ممن وقف فى المعركة وأعان ولم يقدم ، وكذلك من وقف فى المعركة وأعان ولم يقدم إلا أنه بحيث تناله السهام والنبل أعظم عناء وأفضل ممن وقف حيث لاينالة ذلك . ولو كان الضعيف والجبان يستحقان الرئاسة بقلة بسط الكف وترك الحرب وأن ذلك يشاكل فعل النبى صلى الله عليه وسلم ، لكان أوفر الناس حظا فى الرئاسة وأشدهم لها استحقاقا حسان بن ثابت ! و إن بطل فضل على فى الجهاد لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان أقلهم قتالا — كما زعم الجاحظ — ليبطلن على هذا القياس فضل أبى بكر فى الإنفاق ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أقلهم مالا ؟ وأنت إذا تأملت أمر العرب وقريش ونظرت السير وقرأت الأخبار عرفت أنها كانت تطلب محمدا صلى الله عليه وسلم وتقصد قصده وتروم قتله ، فإن أعجزها وفاتها طلبت عليا وأرادت قتله ، لأنه كان أشبههم بالرسول حالا وأقربهم منه قربا وأشدهم عنه دفعا ، وأنهم متى قصدوا عليا فقتلوه أضعفوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وكسروا شوكته ، إذ كان أعلى من ينصره فى البأس والقوة والشجاعة والنجدة والإقدام والبسالة . ألا ترى إلى قول عُتبة بن ربيعة يوم بدر — وقد خرج هو وأخوه شيبة وابنه الوليد بن عتبة ، فأخرج إليهم الرسول نفرا من الأنصار فاستنسبوهم فانتسبوا لهم فقالوا : ارجعوا إلى قومكم ، ثم نادوا : يامحمد — : أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأهله الأدنين : قوموا يابنى هاشم فانصروا حقكم الذى آتاكم الله على باطل

هؤلاء ، قم ياعلى ، قم ياحمزة ، قم ياعبيدة ؟ ألا ترى ماجعلت هند بنت عتبة لمن قتله يوم أحد لأنه اشترك هو وحمزة فى قتل أبيها يوم بدر ؟ ألم تسمع قول هند ترثى أهلها :

مَا كانَ لِى عَنْ عُتْبَةٍ مِنْ صَبْرِ   أَبِى ، وَعَمِّى ، وَشَقِيقِ صَدْرِى

أَخِى الَّذِى كانَ كَضَوْءِ الْبَدْرِ   بِهِمْ كَسَرْتَ يَا عَلِيُّ ظَهْرِى

وذلك لأنه قتل أخاها الوليد بن عتبة وشرك فى قتل أبيها عتبة ، وأما عمها شيبة فإن حمزة تفرد بقتله . وقال جبير بن مطعم لوحشى مولاه يوم أحد : إن قتلت محمداً فأنت حر ، وإن قتلت عليا فأنت حر ، وإن قتلت حمزة فأنت حر ، فقال : أما محمد فسيمنعه أصحابه ، وأما على فرجل حذر كثير الالتفات فى الحرب ، ولـكنى سأقتل حمزة . فقعد له وزرقه بالحربة فقتله .

ولما قلنا من مقاربة حال على فى هذا الباب لحال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومناسبتها إياه ما وجدناه فى السير والأخبار من إشفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذره عليه ودعائه له بالحفظ والسلامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وقد برز على إلى عمرو ورفع يديه إلى السماء بمحضر من أصحابه : أللهم إنك أخذت منى حمزة يوم أحد ، وعبيدة يوم بدر ، فاحفظ اليوم علىّ علياً ، رب لاتذرنى فرداً وأنت خير الوارثين . ولذلك ضن به عن مبارزة عمرو حين دعا عمرو الناس إلى نفسه مراراً فى كلها يحجمون ويقدم على فيسأل الإذن له فى البراز حتى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه عمرو ! فقال : وأنا على ! فأدناه وقبله وعممه بعمامته وخرج معه خطوات كالمودع له القلق لحاله المنتظر لما يكون منه . ثم لم يزل صلى الله عليه وسلم رافعاً يديه إلى السماء مستقبلا لها بوجهه والمسلمون صموت حوله كأنما على رؤسهم الطير حتى ثارت الغبرة وسمعوا التكبير من تحتها فعلموا أن علياً قتل عمراً . فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر المسلمون تكبيرة سمعها من وراء الخندق من عساكر المشركين . ولذلك قال

حذيفة بن اليمان : لو قسمت فضيلة على بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين بأجمهم لوسعتهم . وقال ابن عباس في قوله تعالى « وكفى الله المؤمنين القتال » قال : بعلي بن أبي طالب .

٢٣ — فيقال للجاحظ : فعلى أيهما كان مشى على بن أبي طالب إلى الاقران بالسيف ؟ فأيما قلت من ذلك بانت عداوتك لله تعالى ولرسوله ، وإن كان مشيه ليس على وجه مما ذكرت وإنما كان على وجه النصرة والقصد إلى المسابقة إلى ثواب الآخرة والجهاد فى سبيل الله وإعزاز الدين كنت بجمع ما قلت معانداً وعن سبيل الانصاف خارجا وفى إمام المسلمين طاعناً ، وإن تطرق مثل هذا الوهم على على ليتطرقن مثله على أعيان المهاجرين والأنصار أرباب الجهاد والقتال الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنفسهم ووقوه بمهجهم وفدوه بأبنائهم وآبائهم ، فلعل ذلك كان لعلة من العلل المذكورة ! ؟ وفى ذلك الطعن فى الدين وفى جماعة المسلمين ! ولو جاز أن يتوهم هذا في على وفي غيره لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى لأهل بدر « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ولا قال لعلى : برز الايمان كله إلى الشرك كله. ولا قال : أوجب طلحة . وقد علمنا ضرورة من دين الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيمه لعلى تعظيما دينياً لأجل جهاده ونصرته ، فالطاعن فيه طاعن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ زعم أنه قد يكون جهاده لا لوجه الله تعالى بل لأمر آخر من الأمور التى عددها وبعثه على التفوه بها إغواء الشيطان وكيده والإفراط فى عداوة من أمر الله بمحبته ونهى عن بغضه وعداوته . أترى رسول الله صلى الله عليه وسلم خفى عليه من أمر على ما لاح للجاحظ والعثمانية فمدحه وهو غير مستحق للمدح ؟ !

٢٤ — فيقال له : فلعل إنفاق أبى بكر — على ما تزعم ٤٠ ألف درهم — لا ثواب له ، لأن نفسه ربما تكون غير معتدلة لأنه قد يكون مطبوعاً على الجود والسخاء ، ولعل خروجه مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة إلى الغار لا ثواب

له فيه لأن أسبابه كانت مهيجة ودواعيه غالبة محبة الخروج وبغض المقام ، ولعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعائه إلى الإسلام وإكبابه على الصلوات الخمس فى جوف الليل وتدبيره أمر الأمة لا ثواب له فيه، لأنه قد تكون نفسه غير معتدلة بل يكون فى طباعه الرآسة وحبها والعبادة والالتذاذ بها ؟ ولقد نعجب من مذهب أبى عثمان أن المعارف ضرورية وأنها تقع طباعاً ، ومن قوله بالتولد وحركة الحجر بالطبع، حتى رأينا من قوله ماهو أعجب منه ، فزعم أنه ربما يكون جهاد على وقتله المشركين لا ثواب له فيه لأنه فعله طبعاً ! وهذا أطرف من قوله في للعرفة وفى التولد

٢٥ — هذا راجع على الجاحظ فى النبى صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى قال له « والله يعصمك من الناس » فلم يكن له فى جهاده كبير طاعة أو كثير طاعة ؟ وكثير من الناس يروى عنه صلى الله عليه وسلم : اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر . فوجب أن يبطل جهادهما ! وقد قال للزبير : ستقاتل علياً وأنت ظالم له : فأشعره بذلك أنه لا يموت فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال فى الكتاب العزيز « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده » قالوا : نزلت فى طلحة . فأعلمه بذلك أنه يبقى بعده ، فوجب أن لا يكون لهما كبير ثواب فى الجهاد ؟ والذى صح عندنا من الخبر وهو قوله: ستقاتل بعدى الناكثين . أنه قاله لما وضعت الحرب أوزارها ودخل الناس فى دين الله أفواجا ووضعت الجزية ودانت العرب قاطبة

٢٦ — أمر عمرو بن عبد ود أشهر وأكثر من أن يحتج له ، فليتلمح كتب المغازى والسير ولينظر مارثته به شعراء قريش لما قتل . فمن ذلك ماذكره محمد ابن اسحق فى مغازيه قال: وقال مسافع بن عبد مناف بن زهرة بن حذافة بن جمح يبكى عمرو بن عبد الله بن عبد ود حين قتله على بن أبى طالب مبارزة لما جزع المزار — أى قطع الخندق —:

عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ كَانَ أَوَّلَ فَارِسٍ   جَزَعَ الْمُزَارَ وَ كَانَ فَارِسَ مَلْيَلِ

سَمْحُ الخلائقِ مَاجدٌ ذُو مِرَّةٍ ... يَبغِي القِتَالَ بِشِكَّةٍ لَمْ يَنكُلِ
وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ حِينَ وَلَّوْا عَنكُمُ ... أَنَّ ابْنَ عَبْدٍ مِنْهُمُ لَمْ يَعْجَلِ
حَتَّى تَكَنَّفَهُ الكُمَاةُ وَكُلُّهُمْ ... يَبغِي القِتَالَ لَهُ وَلَيْسَ بِمُؤتَلِ
وَلَقدْ تَكَنَّفَتِ الفَوَارِسُ فَارِساً ... بِجَنُوبِ سَلْعٍ غَيْرَ نِكْسٍ أَمْيَلِ
سَأَلَ النِّزَالَ هُنَاكَ فَارِسُ غَالِبٍ ... بِجَنُوبِ سَلْعٍ لَيْتَهُ لَمْ يَنزِلِ
فَاذْهَبْ عَلِيُّ مَا ظَفِرْتَ بِمِثْلِهَا ... فَخْرًا وَلَوْ لاَقَيْتَ مِثْلَ المُعْضِلِ
نَفْسِي الفِدَاءُ لِفَارِسٍ مِنْ غَالِبٍ ... لاقَى حِمَامَ المَوْتِ لَمْ يَتَحَلْحَلِ
أَعْنِي الَّذِي جَزَعَ المزَارَ وَلَمْ يَكُنْ ... فَشِلاً وَلَيْسَ لَدَى الحُرُوبِ بِزُمَّلِ

وقال هُبيرة بن أبي وهب المخزومي يعتذر من فراره عن علي بن أبي طالب وتركه عمراً يوم الخندق ويبكيه :

لَعَمْرُكَ مَا وَلَّيْتُ ظَهْرِي مُحَمَّدًا ... وَأَصْحَابَهُ جُبْنًا وَلاَ خِيفَةَ القَتْلِ
وَلَكِنَّنِي قَلَّبْتُ أَمْرِي فَلَمْ أَجِدْ ... لِسَيْفِي غَنَاءً إِنْ وَقَفْتُ وَلاَ نَبْلِي
وَقَفْتُ فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ لِي مَقْدَمًا ... صَدَدْتُ كَضِرْغَامٍ هِزَبْرٍ إِلَى شِبْلِ
ثَنَى عِطْفَهُ عَنْ قِرْنِهِ حِينَ لَمْ يَجِدْ ... مَجَالاً وَكَانَ الحَزْمُ وَالرَّأْيُ مِنْ فِعْلِي
فَلاَ تَبْعَدَنْ يَا عَمْرُو حَيًّا وَهَالِكًا ... فَقَدْ مِتَّ مَحْمُودَ الثَّنَا مَاجِدَ الفِعْلِ
وَلاَ تَبْعَدَنْ يَا عَمْرُو حَيًّا وَهَالِكًا ... فَقَدْ كُنْتَ فِي حَرْبِ العِدَا مُرْهَفَ النَّصْلِ
فَمَنْ لِطِرَادِ الخَيْلِ يَقْرَعُ بِالقَنَا ... وَلِلْبَذْلِ يَوْمًا عِنْدَ قَرْقَرَةِ البُزْلِ
هُنَالِكَ لَوْ كَانَ ابْنُ عَبْدٍ لَزَارَهَا ... لَفَرَّجَهَا عَنْهُمْ فَتًى غَيْرُ مَا وَغْلِ
كَفَتْكَ عَلِيًّا لَنْ تَرَى مِثْلَ مَوْقِفٍ ... وَقَفْتَ عَلَى شِلْوِ المُقَدَّمِ كَالفَحْلِ
فَمَا ظَفِرَتْ كَفَّاكَ يَوْمًا بِمِثْلِهَا ... أَمِنْتَ بِهَا مَا عِشْتَ مِنْ زَلَّةِ النَّعْلِ

وقال هُبيرة بن أبى وهب يرثى عمراً ويبكيه :

لَقَدْ عَلِمَتْ عُلْيَا لُؤَىِّ بْنِ غَالِبٍ　　لَفَارِسُهَا عَمْرٌو إِذَا نَابَ نَائِبُ
وَفَارِسُهَا عَمْرٌو إِذَا مَا يَسُوقُهُ　　عَلِىٌّ وَإِنَّ الْمَوْتَ لاَ شَكَّ طَالِبُ
عَشِيَّةَ يَدْعُوهُ عَلِىٌّ وَإِنَّهُ　　لَفَارِسُهَا إِذْ خَامَ عَنْهُ الْكَتَائِبُ
فَيَالَهْفَ نَفْسِى أَنَّ عَمْرًا الْكَائِنٌ　　بِيَثْرِبَ لاَ زَالَتْ هُنَاكَ الْمَصَائِبُ
لَقَدْ أَحْرَزَ الْعُلْيَا عَلِىٌّ بِقَتْلِهِ　　وَلِلْخَيْرِ يَوْمًا لاَ مَحَالَةَ جَالِبُ

وقال حسان بن ثابت الأنصارى يذكر عمراً :

أَمْسَى الْفَتَى عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ نَاظِرًا　　كَيْفَ الْعُبُورُ وَلَيْتَهُ لَمْ يَنْظُرِ
وَلَقَدْ وَجَدْتَ سُيُوفَنَا مَشْهُورَةً　　وَلَقَدْ وَجَدْتَ جِيَادَنَا لَمْ تُقْصِرِ
وَلَقَدْ لَقِيتَ غَدَاةَ بَدْرٍ عُصْبَةً　　ضَرَبُوكَ ضَرْبًا غَيْرَ ضَرْبِ الْحُسَّرِ
أَصْبَحْتَ لاَ تُدْعَى لِيَوْمِ عَظِيمَةٍ　　يَا عَمْرُو أَوْ لِجَسِيمِ أَمْرٍ مُنْكَرِ

وقال حسان أيضاً :

لَقَدْ شَقِيَتْ بَنُو جُمَحِ بْنِ عَمْرٍو　　وَمَخْزُومٍ وَتَيْمٍ مَا تَقِيلُ
وَعَمْرٌو كَالْحُسَامِ فَتَى قُرَيْشٍ　　كَأَنَّ جَبِينَهُ سَيْفٌ صَقِيلُ
فَتًى مِنْ نَسْلِ عَامِرَ أَرْيَحِىٌّ　　تُطَاوِلُهُ الأَسِنَّةُ وَالنُّصُولُ
دَعَاهُ الْفَارِسُ الْمِقْدَامُ لَمَّا　　تَكَشَّفَتِ الْمَقَانِبُ وَالْخُيُولُ
أَبُو حَسَنٍ فَقَنَّعَهُ حُسَامًا　　جُرَازًا لاَ أَفَلُّ وَلاَ نَكُولُ
فَغَادَرَهُ مُكِبًّا مُسْلَحِبًّا　　عَلَى عَفْرَاءَ لاَ بَعُدَ الْقَتِيلُ

فهذه الأشعار فيه بل بعض ماقيل فيه . وأما الآثار والأخبار فموجودة فى كتب السير وأيام الفرسان ووقائعهم ، وليس أحد من أرباب هذا العلم يذكر عمراً إلا قال: كان فارس قريش وشجاعها . وإنما قال له حسان : « ولقد لقيت

غداة بدر عصبة » لأنه شهد مع المشركين بدرا وقتل قوماً من المسلمين ثم فر مع من فر ولحق بمكة · وهو الذى كان قال وعاهد الله عند الكعبة أن لا يدعوه أحد إلى واحدة من ثلاث إلا أجابه. وآثاره فى أيام الفجار مشهورة تنطق بها كتب الأيام والوقائع ، ولكنه لم يذكر مع الفرسان الثلاثة وهم عتيبة و بسطام وعامر ، لأنهم كانوا أصحاب غارات ونهب وأهل بادية ، وقريش أهل مدينة وساكنو مدر وحجر لا يرون الغارات ولا ينهبون غيرهم من العرب ، وهم مقتصرون على المقام ببلدتهم وحماية حرمهم ، فلذلك لم يشتهر اسمه كاشتهار هؤلاء. و يقال له : إذا كان عمرو كما تذكر ليس هناك ، فما باله لما جزع الخندق فى ستة فرسان هو أحدهم فصار مع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على أرض واحدة وهم ثلاثة آلاف ودعاهم إلى البراز مرارا لم ينتدب أحد منهم للخروج إليه ولا سمح منهم أحد بنفسه حتى وبخهم وقرعهم وناداهم : ألستم تزعمون أنه من قتل منا فإلى النار ومن قتل منكم فإلى الجنة ؟ أفلا يشتاق أحدكم أن يذهب إلى الجنة أو يقدم عدوه إلى النار ؟ فجبنوا كلهم ونكلوا وملكهم الرعب والوهل ؟ ؟ ؟ فإما أن يكون هذا أشجع الناس كما قد قيل عنه ، أو يكون المسلمون كلهم أجبن العرب وأذلهم وأفشلهم ؟ وقد روى الناس كلهم الشعر الذى أنشده لما نكل القوم بجمعهم عنه وأنه جال بفرسه واستدار وذهب يمنة ثم ذهب يسرة ثم وقف تجاه القوم فقال :

وَلَقَدْ بُحِحْتُ مِنَ النِّدَا ... ءِ بِجَمْعِكُمْ هَلْ مِنْ مُبَارِزْ
وَوَقَفْتُ إِذْ جَبُنَ الْمُشَيَّعُ وَقْفَةَ الْقِرْنِ الْمُنَاجِزْ
وَكَذَاكَ إِنِّى لَمْ أَزَلْ ... مُتَسَرِّعًا نَحْوَ الْهَزَاهِزْ
إِنَّ الشَّجَاعَةَ فِى الْفَتَى ... وَالْجُودَ مِنْ خَيْرِ الْغَرَائِزْ

فلما برز إليه على أجابه فقال له :

لَا تَعْجَلَنَّ فَقَدْ أَتَا ... كَ مُجِيبُ صَوْتِكَ غَيْرُ عَاجِزْ
ذُو نِيَّةٍ وَبَصِيرَةٍ ... يَرْجُو الْغَدَاةَ نَجَاةَ فَائِزْ

إنِّي لأَرْجُو أنْ أُقِيمَ عَليكَ نائحةَ الجَنائزْ
مِنْ ضَرْبَةٍ تفْنى وَيَبْقَى ذِكْرُهَا عِنْدَ المَزَاهِزْ

ولعمرى لقد سبق الجاحظ بما قاله بعض جهال الأنصار لما رجع رسول الله من بدر وقال فتى من الأنصار شهد معه بدراً : إن قتلنا إلا عجائز صُلعا ! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقل ذلك ياابن أخ ، أولئك الملأ

٢٧ — كل من دون أخبار قريش وآثار رجالها وصف الوليد بالشجاعة والبسالة وكان مع شجاعته أيداً يصارع الفتيان فيصرعهم ، وليس لأنه لم يشهد حرباً قبلها مايجب أن يكون بطلا شجاعاً ، فان عليا لم يشهد قبل بدر حرباً وقد رأى الناس آثاره فيها

٢٨— أما ثباته يوم أحد فأكثر المؤرخين وأرباب السير ينكرونه وجمهورهم يروى أنه لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا على وطلحة والزبير وأبو دُجانة . وقد روي عن ابن عباس أنه قال: ولهم خامس وهو عبد الله بن مسعود . ومنهم من أثبت سادسا وهو المقداد بن عمرو . وروى يحي بن سلمة بن كُهيل قال: قلت لأبي : كم ثبت مع رسول الله يوم أحد ؟ فقال: إثنان . قلت : من هما ؟ قال : على وأبو دُجانة . وهب أن أبا بكر ثبت يوم أحد كما يدعيه الجاحظ ، أيجوز له أن يقول ثبت كما ثبت على فلا فخر لأحدهما على الآخر، وهو يعلم آثار على ذلك اليوم وأنه قتل أصحاب الألوية من بنى عبد الدار منهم طلحة بن أبى طلحة الذى رآه رسول الله فى منامه أنه مردف كبشاً فأوله وقال : كبش الكتيبة فقتلته. فلما قتله على مبارزة وهو أول قتيل قتل من المشركين ذلك اليوم كبر رسول الله وقال : هذا كبش الكتيبة . وما كان منه من المحاماة عن رسول الله وقد فر الناس وأسلموه فتصمد له كتيبة من قريش فيقول : ياعلى أكفنى هذه فيحمل عليها فيهزمها ويقتل عميدها حتى سمع المسلمون والمشركون صوتا من قبل السماء :

« لاسيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على » وحتى قال النبي عن جبريل ما قال. أتكون هذه آثاره وأفعاله ثم يقول الجاحظ لا فخر لأحدهما على صاحبه ! ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين.

قال أبو جعفر :

٢٩ — ما كان أغناك ياأبا عثمان عن ذكر هذا المقام المشهور لأبي بكر فانه لو تسمعه الامامية لاضافته إلى ما عندهامن المثالب لأن قول النبي له : ارجع. دليل على أنه لا يحتمل مبارزة أحد. لأنه إذا لم يحتمل مبارزة ابنه — وأنت تعلم حنو الابن على الأب وتبجيله له و إشفاقه عليه وكفه عنه — لم يحتمل مبارزة الغريب الأجنبي. وقوله له : ومتعنا بنفسك. إيذان له بأنه كان يقتل لو خرج. ورسول الله كان أعرف به من الجاحظ. فأين حال هذا الرجل من حال الرجل الذى صلى بالحرب ومشى إلى السيف بالسيف فقتل السادة والقادة والفرسان والرجالة !؟

٣٠ — أما قوله إنه بذل الجهد فقد صدق، وأما قوله لا حال أشرف من حالة فقد أخطأ، لأن حال من بلغت قوته أضعاف قوته فأعملها فى قتل المشركين أشرف من حال من نقصت قوته عن بلوغ الغاية. ألا ترى أن حال الرجل أشرف فى الجهاد من حال المرأة، وحال البالغ الأيد أشرف من حال الصبي الضعيف !

٢

من كتاب فضل هاشم على عبد شمس

قال أبو عثمان :

إن أشرف خصال قريش فى الجاهلية : ألّلواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابة ، وهذه الخصال مقسومة فى الجاهلية لبنى هاشم وعبد الدار وعبد العزى. دون بنى عبد شمس . على أن معظم ذلك صار شرفه فى الاسلام إلى بنى هاشم . لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما ملك مكة صار مفتاح الكعبة بيده ، فدفعه إلى عثمان بن طلحة . فالشرف راجع إلى من ملك المفتاح لا إلى من دفع إليه . وكذلك دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير [اللواء] فالذى دفع اللواء إليه وأخذه مصعب من يديه أحق بشرفه وأولى بمجده ، وشرفه راجع إلى رهط من بنى هاشم . قال : وكان محمد بن عيسى المخزومى أميرا على اليمن فهجاه أُبَيُّ بنُ مُدْلِجٍ فقال :

قُلْ لِابْنِ عِيسَى الْمُتَفَيْـ　　ـشِ مِنَ السُّهولَةِ بالْوُعورَهْ
النَّاطِقِ الْعَوْرَاءَ فِى　　جُلِّ الأُمُورِ بِلاَ بَصِيرَهْ
وُلْدُ الْمُغِيرةِ تِسْعَةٌ　　كانُوا صَنادِيدَ الْعَشِيرَهْ
وَأَبُوكَ عاشِرُهُمْ كما　　نَبَتَتْ مَعَ النَّخْلِ الشَّعِيرَهْ
إِنَّ النُّبُوَّةَ والخِلافَةَ　　وَالسِّقايَةَ وَالْمَشُورَهْ
فى غيرِكُمْ فا كْفُفْ إِلَيْكَ　　يَداً مُجَذَّمَةً قَصِيرَهْ

قال : فانبرى له [شاعر] من ولد كُرَيْزِ بن حبيب بن عبدِ شمس ، وكان مع محمد بن عيسى باليمن ، يهجو عنه ابنَ مُدلِجٍ فى كلمة له طويلة قال فيها :

لاَ لوَاءٌ يُعَدُّ بِابْنِ كُرَيْزٍ　　لاَ وَلاَ رِفْدُ بَيْتِهِ ذِى السَّناءِ

لاحِجَابٌ وَلَيْسَ فيكم سِوَى الـ ... كِبرِ وَبُغْض النَّبِيّ وَالشُّهَدَاءِ
بَيْنَ حَاكٍ وَمُخْلِجٍ وَطَرِيدٍ ... وَقَتِيلٍ يَلْعَنُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ
وَلَهُمْ زَمْزَمٌ وَجِبْرَائِيلُ ... وَمَجْدُ السِّقَايَةِ الغَرَّاءِ

قال أبو عثمان : فالشهداء : على وحمزة وجعفر . والحاكى والمخلج هو الحكم ابن أبى العاص ، كان يحكى مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفت يوما فرآه فدعا عليه ، فلم يزل مخالج المشية عقوبة من الله تعالى . والطريد : إثنان ، ألحكم ابن أبى العاص ومُعاوية بن المغيرة بن أبى العاص . وهما جدا عبد الملك بن مروان من قِبَلِ أمه وأبيه . وكان النبى صلى الله عليه وسلم طرد مُعاوية بن المغيرة هذا من المدينة وأجله ثلاثا لخيره الله ولم يزل يتردد فى ضلاله حتى بعث فى أثره عليا وعمارا فقتلاه . فأما القتلى فكثير : نحو شيبة وعتبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة وحنظلة ابن أبى سفيان وعقبة بن أبى مُعيط والعاص بن سعيد بن أمية ومعاوية بن المغيرة وغيرهم

قال أبو عثمان : وكان اسم هاشم عَمْراً ، وهاشم لقب . وكان أيضا يقال له القمر . وفى ذلك يقول مَطْرُودٌ الخُزَاعِيُّ :

إلى القَمَرِ السَّارِي المُنِيرِ دَعَوْتُهُ ... وَمُطْعِمِهِم فى الأَزْلِ مِنْ قِمَعِ الجُزُرِ

قال ذلك فى شىء كان بينه وبين بعض قريش ، فدعاه مطرود إلى المحاكمة إلى هاشم . وقال ابنُ الزِّبعرى :

كَانَتْ قُرَيْشٌ بَيْضَةً فَتَفَلَّقَتْ ... فَالمُحُّ خَالِصُهُ لِعَبْدِ مَنَافِ
الرَّائِشُونَ وَلَيْسَ يُوجَدُ رَائِشٌ ... وَالقَائِلُونَ هَلُمَّ لِلأَضْيَافِ
عَمْرُو العُلَى هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ ... وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ

فهم كما ترى أهل مكة بالأزل والعجف وجعله الذى هشم لهم الخبز ثريدا ، فغلب هذا اللقب على اسمه حتى صار لا يعرف إلا به . وليس لعبد شمس لقب كريم ولا اشتق له من صالح أعماله اسم شريف ، ولم يكن لعبد شمس ابن يأخذ بضبعه

ويرفع من قدره ويزيد فى ذكره ، ولهاشم عبد المطلب سيد الوادى غير مدافع ، أجمل الناس جمالا وأظهرهم جودا وأكلهم كمالا ، وهو صاحب الفيل والطير الأبابيل صاحب زمزم وساقى الحجيج . وولد عبد شمس أمية بن عبد شمس ، وأمية فى نفسه ليس هناك وإنما ذكر بأولاده ولا لقب له . ولعبد المطلب لقب شهير واسم شريف : شيبة الحمد . قال مطرود الخزاعى فى مدحه :

يَاشَيْبَةَ الحمدِ الذى تثْنى لَهُ ... أيَّامهُ مِنْ خَيْرِ ذُخْرِ الذَّاخِرِ
أَلمَجْدُ مَا حَجَّتْ قُرَيْشٌ بَيْتَهُ ... وَدَعا هَدِيلٌ فوْقَ غُصْنٍ نَاضِرِ
وَاللهِ لا أنسَاكُمُ وَفِعالَكمْ ... حَتَّى أُغَيَّبَ فِى سِفَاةِ القَابِرِ

وقال حذافة بنُ غانم العدَوىُّ وهو يمدح أبا لهب ويوصى ابنه خارجة بن حُذَافة بالانتماء إلى بنى هاشم :

أخارجُ إمَّا أهْلِكَنَّ فلا تَزَلْ ... لهم شَاكِراً حَتَى تُغَيَّبَ فى القبْرِ
بَنِى شَيْبَةَ الحمدِ الكريمِ فِعالُهُ ... يُضِىءُ ظَلَامَ اللَّيْلِ كالقمرِ البَدْرِ
لِسَاقِى الحَجِيجِ ثم للشَّيْخِ هَاشِمٍ ... وَعَبدِ مَنافٍ ذَلكَ السيدِ الغَمْرِ
أبو عُتْبَةَ المُلْقِى إلىَّ جِوارَهُ ... أغرُّ هِجَانُ اللَّوْنِ مِنْ نَفَرٍ غُرِّ
أبوهم قصىٌّ كانَ يُدْعَى مجمِّعاً ... بِهِ جَمَعَ اللهُ القَبائلَ مِنْ فِهْرِ

فأبو عتبَةَ هو أبو لهب بن عبدِ العزى بن عبد المطلب بن هاشم وابناه عُتبة وعتيبة : وقال العبدى حين احتفل فى الجاهلية فلم يترك :

لاترَى فى النَّاسِ حيًّا مِثْلنا ... مَاخَلا أوْلادِ عَبْدِ المُطَّلِبْ

وإنما شرف عبد شمس بأبيه عبد مناف بن قصى ، وبنى ابنه أمية بن عبد شمس. وهاشم شرف بنفسه وبأبيه عبد مناف وبابنه عبد المطلب . والأمر فى هذا بَيِّنٌ وهو كما أوضحه الشاعر فى قوله :

إنما عَبْدُ مَنافٍ جَوْهَرٌ ... زَيَّنَ الجَوْهَرَ عَبدُ المُطَّلِبْ

قال أبو عثمان : ولسنا نقول إن عبد شمس لم يكن شريفا فى نفسه ، ولكن الشرف يتفاضل ، وقد أعطى الله عبد المطلب فى زمانه وأجرى على يديه وأظهر من كرامته مالا يعرف مثله إلا لنبى مرسل ، و إن فى كلامه لأبرهة صاحب الفيل وتوعده إياه برب الكعبة وتحقيق قولة من الله تعالى ونصرة وعيده بحبس الفيل وقتل أصحابه بالطير الأبابيل وحجارة السجيل حتى تركوا كالعصف المأكول، لأعجب البرهانات وأسنى الكرامات ، و إنما كان ذلك إرهاصا لنبوة النبى صلى الله عليه وسلم ، وتأسيسا لما يريد الله به من الكرامة ، وليجعل ذلك البهاء متقدما له ومردود عليه ، وليكون أشهر فى الآفاق وأجل فى صدور الفراعنة والجبابرة والأكاسرة ، وأجدر أن يقهر المعاند و يكشف غباوة الجاهل .

و بعد ، فمن يناهض أو يناضل رجالا ولدوا محمداً صلى الله عليه وسلم ؟ ولو عزلنا ما أكرمه الله به من النبوة حتى نقتصر على أخلاقه ومذاهبه وشيمه لما وفى به بشرىٌّ ولا عدله شىء ؟ ولو شئنا أن نذكر ما أعطى الله عبد المطلب من تفجر العيون وينابيع الماء من تحت كلكل بعيره وأخفافه بالأرض القسى وبما أعطى يوم المساهمة وعند المقارعة من الأمور العجيبة والخصال البائنة لقلنا ولكنا أحببنا أن لا نحتج عليكم إلا بالموجود فى القرآن الحكيم والمشهور فى الشعر القديم الظاهر على ألسنة الخاصة والعامة ورواة الأخبار وحمال الآثار . قال : ومما هو مذكور فى القرآن — عدا حديث الفيل — قوله تعالى « لِإِيلافِ قُرَيْشٍ » ولقد أجمعت الرواة على أن أول من أخذ الايلاف لقريش هاشم بن عبد مناف . فلما مات قام أخوه المطلب مقامه ، فلما مات قام عبد شمس مقامه ، فلما مات قام نوفل مقامه — وكان أصغرهم — والايلاف هو أن هاشما كان رجلا كثير السفر والتجارة فكان يسافر فى الشتاء إلى اليمن وفى الصيف إلى الشام ، وشَرِكَ فى تجارته رؤساء القبائل من العرب ومن ملوك اليمن نحو العباهلة باليمن واليكسوم من بلاد الحبشة ونحو ملوك الروم بالشام ، فجعل لهم معه ربحاً فيما يربح وساق لهم إبلا مع إبله فكفاهم مؤنة الأسفار على أن يكفوه مؤنة الأعداء فى طريقه ومنصرفه ، فكان فى ذلك صلاح عام للفريقين ، وكان

المقيم رابحا والمسافر محفوظاً . فأخصبت قريش بذلك وحملت معه أموالها وأتاها الخير من البلاد السافلة والعالية وحسنت حالها وطاب عيشها . قال : وقد ذكر حديث الايلاف الحارث بن الحنش السلمى وهو خال هاشم والمطلب وعبد شمس فقال : —

إنَّ أخِي هَاشِماً لَيْسَ أخَا وَاحِدِ الآخِذِ الإِيلاَفِ والقَائِمِ لِلْقَاعِدِ

قال أبو عثمان : وقيل إن تفسير قوله تعالى « وَآمَنَهُمْ مِن خَوْفٍ » هو خوف من كان هؤلاء الاخوة يمرون به من القبائل والأعداء وهم مغتربون ومعهم الاموال وهذا هو ما فسرنا به الإيلاف آنفاً، وقد فسره قوم بغير ذلك قالوا : إن هاشما جعل على رؤساء القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحمى بها أهل مكة ، فان ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب الغارات وطلاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على الحرم لا سيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً ، مثل طَيء وَخَثْعَمٍ وَقُضَاعَةَ وبعض بلحَرْثِ بن كَعْبٍ ، وكيفما كان الايلاف فإن هاشما كان القائم به دون غيره من إخوته .

قال أبو عثمان : ثم حِلْفُ الفضول وجلالته وعظمته ، وهو أشرف حلف كان فى العرب كلها وأكرم عقد عقدته قريش فى قديمها وحديثها قبل الاسلام . لم يكن لبنى عبد شمس فيه نصيب ، قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يذكر حلف الفضول: لقد شهدت فى دار عَبْدِ اللهِ بن جُدْعان حِلفاً لو دعيتُ إلى مثله فى الاسلام لأجبت. ويكفى فى جلالته وشرفه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهده وهو غلام . وكان عُتْبَةُ بنُ رَبيعة يقول : لو أن رجلا خرج مما عليه قومه لدخلت فى حلف الفضول لما أرى من كماله وشرفه ولما أعلم من قدره وفضيلته . قال : ولفضل ذلك الحلف وفضيلة أهله سمى « حِلْفُ الفُضُول » وسميت تلك القبائل « الفضول » فكان هذا الحلف في بنى هاشم وبنى المطلب وبنى أسد بن عبد العزى وبنى زهرة وبنى تيم بن مرة . تعاقدوا فى دار ابن جُدعان فى شهر حرام قياماً يتماسحون بأكفهم

صعدا لَيكونُنّ مع المظلوم حتى يؤدوا إليه حقه ما بل بحرٌ صوفة ، وفى التآسى فى المعاش والتساهم بالمال . وكانت النباهة فى هذا الحلف للزُّبير بن عبدالمطلب ولعبد الله بن جُدعان . أما ابن جُدعان فلأن الحلف عقد فى داره ، وأما الزبير فلأنه هو الذى نهض فيه ودعا إليه وحث عليه ، وهو الذى سماه « حلف الفضول » وذلك لأنه لما سمع الزبيدى المظلوم ثمنَ سلعته قد أوفى على أبى قبيس قبل طلوع الشمس رافعاً عقيرته، وقريش فى أنديتها ، قائلا :

يَا لَلرِّجَالِ لِمَظْلومٍ بِضَاعَتَهُ ... ببطنِ مَكّةَ نائى الحَىِّ وَالنّفرِ
إنَّ الحَرَامَ لِمَنْ تَمّتْ حَرَامَتُهُ ... وَلاَ حَرَامَ لِثَوْبَىْ لابِسِ الغَدَرِ

حمي وحلف ليعقدن حلفاً بينه وبين بطون من قريش يمنعون القوى من ظلم الضعيف ، والقاطن من عنف الغريب . ثم قال :

حَلَفْتُ لَنَعْقِدَنْ حِلْفاً عَلَيْهِم ... وَإِنْ كُنَّا جَمِيعاً أَهْلَ دَارِ
نُسَمِّيهِ الفُضُولَ إذا عَقَدْنا ... يَعَزُّ بِهِ الغريبُ لدَى الجِوَارِ
وَيعلمُ مَنْ يَطوفُ البَيْتَ أنّا ... أُباةُ الضَّيْمِ نهْجُرُ كلَّ عَارِ

فبنو هاشم هم الذين سموا ذلك الحلف « حلف الفضول » وهم كانوا سببه والقائمين به دون جميع القبائل العاقدة له والشاهدة لأمره ، فما ظنك بمن شهده ولم يقم بأمره ؟

قال أبو عثمان : وكان الزبير بْنُ عَبدِ المُطَّلب شجاعا أبياً وجميلا بهيا، وكان خطيباً شاعراً وسيداً جواداً ، وهو الذى يقول :

وَلَوْلا الحُمْسُ لمْ يلْبَسْ رِجَالٌ ... ثِيابَ أعِزَّةٍ حَتَّى يَموتُوا
ثِيابهُمُ شِمالٌ أَوْ عَباءٌ ... بِهَا دَنَسٌ كما دَنِسَ الحَمِيتُ
وَلٰكِنَّا خُلِقْنا إذْ خُلِقْنا ... لَنا الحِبرَاتُ وَالمِسْكُ الفَتِيتُ
وَكَأسٌ لوْ تُبِينُ لهُمْ كلامًا ... لقَالَتْ إنَّما لهمْ سُبِيتُ

تُبِينُ لنا القَذَى إنْ كانَ فِيها ... رَصِينُ الحِلْمِ يَشْرَبُها هَبِيتُ
وَيَقْطَعُ نَخْوَةَ المُخْتَالِ عَنَّا ... رِقاقُ الحَدِّ ضَرْبَتُهُ صَمُوتُ
بِكَفٍّ مُجَرَّبٍ لا عَيْبَ فِيهِ ... إذا لَقِيَ الكَرِيهةَ يَسْتَمِيتُ

قال : والزُبَيْرُ هو الذى يقول :

وَأَسْحَم مِنْ رَاحِ العِرَاقِ مُمَلَّأٍ ... مُحِيطٌ عليهِ الجَيْشُ جُلْدٌ مَرائِرُهْ
صَبَحْتُ بِهِ طَلْقًا يُرَاحُ إلى النَّدَى ... إذا مَا انْتَشَى لَمْ يَحْتَصِرْهُ مُعَاقِرُهْ
ضَعِيفٌ بِجَنْبِ الكَأْسِ قَبْضُ بَنَانِهِ ... كَلِيلٌ عَلَى جِلْدِ النَّدِيمِ أَظَافِرُهْ

قال : وبنو هاشم هم الذين ردوا على الزُّبيدى ثمن بضاعته ، وكانت عند العاص بن وائل ، وأخذوا للبارقى ثمن سلعته من أُبى بن خلف الجُمحى ، وفى ذلك يقول البارقى :

وَيأْبَي لَكُمْ حِلْفُ الفُضُولِ ظُلامَتِي ... بَنِى جُمَحٍ وَالحَقُّ يُؤْخَذُ بالغَصْبِ

وهم الذين انتزعوا من نُبَيْه بْنِ الحَجَّاج قَتولَ الحسناء بنت التاجر الخثعمى ، وكان كابره عليها حين رأى جمالها . وفى ذلك يقول نُبَيْه بن الحجاج :

وَخَشِيتُ الفُضُولَ حِينَ أَتَوْنِى ... قدْ أَرَانِى وَلا أَخافُ الفُضُولا
إنَّنِى وَالَّذِى يَحُجُّ لَهُ شُمْطُ إيَادٍ وَهَلَّلُوا تَهْلِيلاَ
لَبَرَاءٌ مِنِّى قُتَيْلَةُ يَا لَلنَّاسِ هَلْ يَبْتَغُونَ إلاَّ القَتُولا

وفيها أيضا يقول :

لوْلا الفضولُ وَأَنهُ ... لا أَمْنَ مِنْ عَدْوَائِهَا
لدَنَوْتُ مِنْ أَبْيَاتِها ... وَلَطُفْتُ حَوْلَ خِبَائِهَا

فى كلمته التى يقول فيها :

حَيِّ الْبَخِيلَةَ إذْ نَأَتْ ... مِنَّا عَلَى عُدَوَائِهَا
لا بالفِرَاقِ تُنِيلُنَا ... شَيْئًا وَلا بِلِقَائِهَا

حَلَّتْ بِمَكَّةَ حَلَّةً   فِي مَشْيِهَا وَوِطَائِهَا

فى رجال كثير انتزعوا منهم الظلامات . ولم يكن يظلم بمكة إلا رجال أقوياء ولهم العدد والعارضة ، منهم من ذكرنا قصته .

قال أبوعثمان: ولهاشم أخرى لا يعد أحد مثلها ولا يأتى بما يتعلق بها . وذلك أن رؤساء قبائل قريش خرجوا إلى حرب بنى عامر متساندين ، فكان حرب بن أمية على بنى عبد شمس ، وكان الزبير بن عبد المطلب على بنى هاشم ، وكان عبد الله بن جدعان على بنى تيم ، وكان هشام بن المغيرة على بنى مخزوم . وكان على كل قبيلة رئيس منها ، فهم متكافئون فى التساند ولم يحقق واحد منهم الرآسة على الجميع . ثم آب هاشم بما لاتبلغه يد متناول ولا يطمع فيه طامع، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : شهدت الفجار وأنا غلام فكنت أنبل فيه على عمومتى . فنفى مقامه عليه الصلاة والسلام أن تكون قريش هى التى فجرت ، فسميت تلك الحرب « حرب الفجار » وثبت أن الفجور إنما كان ممن حاربهم . وصاروا بيمنه و بركته ولما يريد الله من إعزاز أمره و إعظام الغالبين العالين . ولم يكن الله ليشهده فجرةً ولا غدرةً ؟ فصار مشهده نصراً وموضعه فيهم حجة ودليلا .

قال أبو عثمان : وشرف هاشم متصل ، من حيث عددت كان الشرف معه كابراً عن كابر ، وليس بنو عبد شمس كذلك ، فإن الحَكَم بن أبى العاص كان عاريا فى الاسلام ولم يكن له سناء فى الجاهلية . وأما أمية فلم يكن فى نفسه هناك ، و إنما رفعه أبوه ، وكان مضعوفاً وكان صاحب عهار ، يدل على ذلك قول نفيل بن عدى جد عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حرب بنى أمية وعبد المطلب ابن هاشم ، فنفر عبد المطلب وتعجب من إقدام حرب عليه وقال له :

أبوكَ مُعَاهِرٌ وَأبوهُ عَفٌّ   وَذادَ الفِيلَ عَنْ بَلَدٍ حَرَامِ

وذلك أن أمية كان تعرض لامرأة من بنى زهرة فضربه رجل منهم بالسيف ، فأراد بنو أمية ومن تبعهم إخراج بنى زهرة من مكة فقام دونهم قيس بن عدى

السهمي ، وكانوا أخواله، وكان منيع الجانب شديد العارضة حَمِيَّ الأنف أبيّ النفس فقام دونهم وصاح : أصبح ليل . فذهبت مثلا . ونادى : الآن الظاعن مقيم . وفي هذه القصة يقول وَهْبُ بنُ عَبْدِ مَنافِ بنِ زُهْرَةَ :

مَهْلاً أُمَيَّ فإنَّ البَغْيَ مَهلَكةٌ   لا يُكسِبَنَّكَ يَوْمٌ شَرُّهُ ذَكِرُ
تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ   يُصَبُّ في الكأسِ مِنْهُ الصَّابُ وَالمَقِرُ(١)

قال أبو عثمان : وصنع أمية في الجاهلية شيأ لم يصنعه أحد من العرب ، زوج ابنه أبا عمرو امرأته في حياته منه ، فأولدها أبا مُعيط بن أبي عمرو بن أمية . والمقيتون في الأسلام هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم . فأما أن يتزوجها في حياة الأب و يبنى عليها وهو يراه فإنه شيء لم يكن قط .

قال أبو عثمان : وقد أقر مُعاويةُ على نفسه ورهطه لبني هاشم حين قيل له : أيهما كان أسود في الجاهلية ، أنتم أم بنوهاشم ؟ فقال: كانوا أسود منا واحدا ،وكنا أكثر منهم سيدا. فأقر وادَّعى، فهو في إقراره بالنقص مخصوم ، وفي ادعائه الفضل خصيم وقال جحشُ بنُ رئابٍ الأسدي حين نزل مكة بعد موت عبد المطلب : والله لأتزوجن ابنة أكرم أهل هذا الوادي ولأحالفن أعزهم . فتزوج أميمة بنت عبد المطلب وحالف أبا سفيان بن حرب . وقد يمكن أن يكون أعزهم ليس بأكرمهم ، ولا يمكن أن يكون أكرمهم ليس بأعزهم . وقد أقر أبو جهل على نفسه ورهطه من بني مخزوم حين قال: تحار بنا نحن وهم حتى إذا صرنا كهاتين جاءنا نبي . فاقرأ بالتقصير ثم ادعى المساواة ، ألا تراه كيف أقر أنه لم يزل يطلب شأوهم ثم ادعى أنه لحقهم ؟ فهو مخصوم في إقراره ، خصيم في دعواه . وقد حكم لهاشم دَغفَلُ بنُ حَنظَلَةَ النسابة حين سأله مُعاوية عن بني هاشم فقال : هم أطعم للطعام وأضرب للهام . وهاتان خصلتان يجمعان أكثر الشرف.

قال أبو عثمان : والعجب من منافرة حرب بن أمية عبد المطلب بن هاشم وقد

(١) المقر : الصبر

لطم حرب جاراً لخلف بن أسعد جد طلحة الطلحات فجاء جاره فشكا ذلك إليه، فمشى خلف إلى حرب وهو جالس عند الحجر فلطم وجهه عنوة من غير تحاكم ولا تراض، فما انتطح فيه عنزان. ثم قام أبو سفيان بن حرب مقام أبيه بعد موته فخالفه أبو الأزيهر الدوسي، وكان عظيم الشأن في الأزد، وكانت بينه و بين بني الوليد بن المغيرة محاكمة في مصاهرة كانت بين الوليد و بينه، فجاءه هشام ابن الوليد وأبو الازيهر قاعد في مقعد أبي سفيان بذي المجاز فضرب عنقه، فلم يدرك به أبو سفيان عقلا ولا قودا في بني المغيرة. وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك:

غدَا أهْلُ حِضنَيْ ذِي المَجَازِ بِسُحْرَةٍ وَجَارُ ابْنِ حَرْبٍ لا يَرُوحُ وَلا يَغْدُ

كَسَاكَ هِشَامُ بْنُ الوَلِيدِ ثِيَابَهُ فَأَبْلِ وَأَخْلِقْ مِثْلَهَا جُدُدًا بَعْدُ

قال أبو عثمان: فإن قالت أمية: لنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ابن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي. أربعة خلفاء في نسق. قلنا لهم: ولبني هاشم: هٰرون الواثق بن محمد المعتصم بن هٰرون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد الكامل بن علي السجاد — كان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة، فكان يقال له السجاد لعبادته وفضله، وكان أجمل قرشي على وجه الأرض وأوسمه، ولدليلة قتل علي بن أبي طالب فسمي باسمه وكني بكنيته فقال عبد الملك: لاوالله لا أحتمل لك الاسم والكنية فغير أحدهما؟ فغير الكنية فصيرها أبا محمد — ابن عبد الله وهو البحر وهو حبر قريش وهو المفقه في الدين المعلم التأويل، ابن العباس ذي الرأي وحليم قريش، ابن شيبة الحمد وهو عبد المطلب سيد الوادي، ابن عمرو وهو هاشم هشم الثريد وهو القمر سمي بذلك لجماله ولأنهم كانوا يقتدون به ويهتدون برأيه، ابن المغيرة وهو عبد مناف بن زيد وهو قصي وهو مُجمع. فهولاء ثلاثة عشر سيداً لم يخرم منهم واحد ولا قصر عن الغاية. وليس منهم واحد إلا وهو ملقب بلقب اشتق له من فعله الكريم، ومن خُلقه الجميل، وليس منهم إلا خليفة أو موضع للخلافة أو سيد

فى قديم الدهر متبع أو ناسك مقدم أو فقيه بارع أو حليم ظاهر الركانة . وليس هذا لأحد سواهم . ومنهم خمسة خلفاء فى نسق ، وهم أكثر مما عدته الأموية . ولم يكن مروان كالمنصور ، لأن المنصور ملك البلاد ودوخ الأقطار وضبط الأطراف اثنتين وعشرين سنة ، وكانت خلافة مروان على خلاف ذلك كله ، وإنما بقى فى الخلافة تسعة أشهر حتى قتلته امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية حين قال لابنها خالد من بعلها الأول : يا ابن الرطبة . ولئن كان مروان مستوجبا لاسم الخلافة مع قلة الأيام وكثرة الاختلاف واضطراب البلدان فضلا عن الأطراف ، فابن الزبير أولى بذلك منه ، فقد كان ملك الأرض إلا بعض الأردن . ولكن سلطان عبد الملك وأولاده لما اتصل بسلطان مروان ، اتصل عند القوم ما انقطع منه وأخفى موضع الوهن عند من لا علم له . وسنو المهدى كانت سنى سلامة ، وما زال ملك عبد الملك فى انتقاض وانتكاث ، ولم يكن ملك يزيد كملك هرون ، ولا ملك الوليد كملك المعتصم

قال أبو عثمان : وتفخر عليهم بنو هاشم بأن سنى ملكهم أكثر ومدته أطول ، فانه قد بلغت مدة ملكهم إلى اليوم أربعا وتسعين سنة . ويفخرون أيضا عليهم بأنهم ملكوا بالميراث وبحق العُصبة والعُمومة ، وأن ملكهم فى مَغرس نبوة ، وأن أسبابهم غير أسباب بنى مروان ، بل ليس لبنى مروان فيها سبب ولا بينهم وبينها نسب ، إلا أن يقولوا إنا من قريش . فيساووا فى هذا الاسم قريش الظواهر . لأن رواية الراوى : ألأئمة من قُريش . واقعة على كل قريش . وأسباب الخلافة معروفة وما يدعيه كل جيل معلوم ، وإلى كل ذلك قد ذهب الناس فمنهم من ادعاه لعلى لاجتماع القرابة والسابقة والوصية . فإن كان الأمر كذلك فليس لآل أبى سفيان ولا لآل مَرْوان فيها دعوى ، وإن كانت إنما تنال بالوراثة وتستحق بالعمومة وتستوجب بحق العصبة ، فليس لهم أيضا فيها دعوى ، وإن كانت لا تنال إلا بالسوابق والأعمال والجهاد ، فليس لهم فى ذلك قدم مذكور ولا يوم مشهور ،

بل كانوا إذ لم يكن لهم سابقة ولم يكن فيهم ما يستحقون به الخلافة ولم يكن فيهم مايمنعهم منها أشد المنع لـكان أهون ولـكان الأمر عليهم أيسر. قد عرفنا كيف كان أبو سفيان فى عداوة النبى صلى الله عليه و سلم و فى محاربته له و إجلابه عليه وغزوه إياه ، و عرفنا إسلامه كيف أسلم و إخلاصه كيف أخلص و معنى كلمته يوم الفتح حين رأى الجنود وكلامه يوم حنين وقوله يوم صعد بلال على الكعبه فأذن ، على أنه إنما أسلم على يدى العباس ، والعباس هو الذى منع الناس من قتله وجاء به رديفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله فيه أن يشرفه وأن يكرمه و ينوه به . وتلك يد بيضاء ونعمة غراء ومقام مشهود ، ويوم حنين غير مجحود . فكان جزاء بنى هاشم من بنيه أن حاربوا عليا ، وسموا الحسن وقتلوا الحسين وحملوا النساء على الأقتاب حواسر وكشفوا عن عورة على بن الحسين حين أشكل عليهم بلوغه كما يصنع بذرارى المشركين إذا دخلت دورهم عنوة . وبعث معاوية بُسْرَ ابنَ أرطاة إلى اليمن فقتل ابنى عبيد الله بن العباس ، وهما غلامان لم يبلغا الحلم . وقتل عبيد الله بن زياد يوم الطف تسعة من صلب على وسبعة من صلب عقيل ، ولذلك قال ناعيهم :

عينُ جُودِى بعَبْرَةٍ وَعويلِ ... وَانْدُبى إنْ ندَبْتِ آلَ الرّسولِ
تِسْعَةٌ كلّهُمْ لِصُلْبِ عَلِيّ ... قدْ أُصِيبُوا وَسَبْعَةٌ لِعقِيل

ثم إن بنى أمية تزعم أن عقيلا أعان معاوية على على ، فإن كانوا كاذبين فما أولاهم بالكذب ، وإن كانوا صادقين فما جازوا عقيلا بما صنع . وضرب عنق مسلم ابن عقيل صبرا وغدرا بعد الأمان ، وقتلوا معه هانى بن عروة لأنه آواه ونصره ، ولذلك قال الشاعر :

فإنْ كنْتِ لا تدْرِينَ مَاالموْتُ فانظُرى ... إلى هَانِىءٍ فى السُّوق وَابْنِ عَقِيل
تَرَىْ بَطلاً قدْ هَشّمَ السَّيْفُ وَجْهَهُ ... وَآخرَ يَهوى مِنْ طِمَار قَتِيـل

وأكلت هندٌ كبد حمزة ، فمنهم آكلة الأكباد ، ومنهم كهف النفاق ،

ومنهم من نقر بين ثنيتي الحسين بالقضيب ، ومنهم القاتل يوم الحَرَّةِ عونَ بنَ عبدالله بن جعفر ، ويوم الطف ّ أبا بكر بن عبد الله بن جعفر ، وقتل يوم الحرة أيضا من بنى هاشم : الفضل بن عباد بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب ، والعباس بن عتبة بن أبى لهب بن عبد المطلب ، وعبد الرحمن بن العباس بن ربيعة ابن الحرث بن عبد المطلب

قال أبو عثمان : وقالت هاشم لأمية : قد علم الناس ما صنعتم بنا من القتل والتشريد لا لذنب أتيناه إليكم ، ضربتم علىّ بن عبد الله بن عباس بالسياط مرتين على أن تزوج بنت عمه الجعفرية التى كانت عند عبد الملك وعلى أن نحلتموه قتل سليط ، وسممتم أبا هاشم عبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب ، ونبشتم زيدا وصلبتموه وألقيتم رأسه فى عرصة الدار توطأ بالأقدام ، وينقر دماغه الدجاج حتى قال القائل :

إطْرُدُوا الدِّيكَ عَنْ ذُؤَابةِ زيدٍ　　　طَالَما كانَ لا تطأُهُ الدَّجاجُ

وقال شاعركم أيضا :

صَلَبْنا لكمْ زَيْدًا على جذْعِ نخْلةٍ　　　ولمْ نرَ مَهْدِيًّا عَلى الجِذْعِ يُصْلبُ
وَقِسْتمْ بعُثْمانٍ عَلِيًّا سَفاهَةً　　　وَعُثْمانُ خَيْرٌ مِنْ عليٍّ وأطْيَبُ

فروى أن بعض الصالحين من أهل البيت قال : اللهم إن كان كاذبا فسلط عليه كلبا من كلابك . فخرج يوماً بسفر له فعرض له الأسد فافترسهُ . وقتلتم الإمام جعفر الصادق ، وقتلتم يحيى بن زيد وسميتم قاتله ثائر مروان وناصر الدين . هذا الى ماصنع شليمان بن حبيب بن المهلب عن أمركم وقولكم بعبد الله أبى جعفر المنصور قبل الخلافة ، وماصنع مروان بابراهيم الإمام أدخل رأسه فى جراب نورة حتى مات . فإن أنشدتم :

أفاضَ المدامعَ قتْلَى كُدَى　　　وقتْلَى بكَثْوَةَ لمْ تُرْمَسِ
وَبالزَّابِيَيْنِ نفوسٌ ثوَتْ　　　وَأُخْرَى بنهْرِ أبى فُطْرُسِ

أنشدنا نحن :

وَاذْكُرُوا مَصْرَعَ الْحُسَيْنِ وَزَيْدًا ... وَقَتِيلًا بِجَانِبِ الْمِهْرَاسِ

وَالْقَتِيلَ الَّذِى بِنَجْرَانَ أَمْسَى ... ثَاوِيًا بَيْنَ غُرْبَةٍ وَتَنَاسِ

وقد علمتم حال مروان أبيكم وضعفه وأنه كان رجلا لا فقه له ولم يعرف بالزهد ولا بالصلاح ولا برواية الآثار ولا بصحبة ولا ببعد همة ، وإنما ولى رستاقا من رساتيق دار أبجرد لابن عامر ثم ولى البحرين لمعاوية . وقد كان جميع أصحابه ومن تابعه يبايع لعبد الله بن الزبير حتى رده عبيد الله بن زياد . وقال يوم مرج راهط والرؤس تندر عن كواهلها فى طاعته :

وَمَا ضَرَّهُمْ عِنْدَ حَيْنِ النفوسِ أَيُّ غلامَىْ قُرَيْشٍ غلَبُ

وهذا قول من لا يستحق أن يلى ربعا من الأرباع ولا خمسا من الأخماس ، وهو أحد من قتلته النساء لكلمة كان حتفه فيها . وأما أبوه الحكم بن أبى العاص فهو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعينه والمتخلج فى مشيته الحاكى لرسول الله والمتسمع عليه ساعة خلوته ، ثم صار طريدا لأبى بكر وعمر ، امتنعا عن إعادته إلى المدينة ولم يقبلا فيه شفاعة عثمان ، فلما ولى أدخله فكان أعظم الناس شؤما عليه ومن أكبر الحجج فى قتله وخلعه من الخلافة .

فعبد الملك أبو هؤلاء الملوك الذين تفتخر الأموية بهم أعرق الناس فى الكفر ، لأن أحد أبويه هذا والآخر من قبل أمه معاوية بن المغيرة بن أبي العاص كان النبي صلى الله عليه وسلم طرده من المدينة وأجله ثلاثا فخيره الله حين خرج وبقى مترددا متلددا حولها لا يهتدى لسبيله حتى أرسل فى أثره عليا وعمارا فقتلاه ، فأنتم أعرق الناس فى الكفر ، ونحن أعرق الناس في الايمان ، ولا يكون أمير المؤمنين إلا أولاهم بالايمان وأقدمهم فيه .

قال أبو عثمان : وتفخر هاشم بأن أحداً لم يجد تسعين عاما لا طواعين فيها إلا منذ ملكوا . قالوا : لو لم يكن من بركة دعوتنا إلا أن تعذيب الأمراء لعمال

الخراج بالتعليق والرهق والتجريد والتسهير والمسال والنورة والجورتين والعذراء والجامعة والتشطيب قد ارتفع لمكان ذلك خيرا كثيرا . وفى الطاعون يقول العمانى الراجز يذكر دولتنا :

قد رفع اللهُ رماحَ الجنِّ وأذهبَ التعذيبَ والتجنِّى

والعرب تسمى الطواعين رماح الجن . وفى ذلك يقول الشاعر :

لعمرُكَ ما خشِيتُ على أُبَىٍّ رماحَ بَنِى مُقيِّدةِ الحِمَار
ولكنِّى خشِيتُ على أُبَىٍّ رِماح الجنِّ أوْ إيَّاكَ حَار

يقوله بعض بنى أسد للحرث الغسانى الملك

قال أبو عثمان : وتفخر هاشم عليهم بأنهم لم يهدموا الكعبة ، ولم يحولوا القبلة ، ولم يجعلوا الرسول دون الخليفة ، ولم يختموا فى أعناق الصحابة ، ولم يغيروا أوقات الصلاة ، ولم ينقشوا أكف المسلمين ، ولم يأكلوا الطعام ويشربوا على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينهبوا الحرم ولم يطؤا المسلمات فى دار الإسلام بالسباء .

قال أبو عثمان : ويفخر بنو العباس على بنى مروان ، وهاشم على عبد شمس بأن الملك كان فى أيديهم فانتزعوه منهم وغلبوهم عليه بالبطش الشديد وبالحيلة اللطيفة ثم لم ينزعوه إلا من يد أشجعهم شجاعة وأشدهم تدبيرا وأبعدهم غورا ومن نشأ في الحروب وربى فى الثغور ومن لا يعرف إلا الفتوح وسياسة الجنود ، ثم أعطى الوفاء من أصحابه والصبر من قواده فلم يغدر منهم غادر ولا قصر منهم مقصر ، كما قد بلغك عن حنظلة بن نباتة وعامر بن ضُبارة ويزيد بن عمرو بن هبيرة ولا من سائر قواده حتى أحبابه وكتابه ، كعبد الحميد الكاتب ، ثم لم يلقه ولا لقى تلك الحروب فى عامة تلك الأيام إلا رجال ولد العباس بأنفسهم ، ولا قام بأكثر الدولة إلا مشايخهم كعبد الله بن على ، وصالح بن على ، وداود بن على ، وعبد الصمد بن على ، وقد لقيهم المنصور نفسه

قال: وتفخر هاشم أيضا عليهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدق: « نقلت من الأصلاب الزاكية إلى الأرحام الطاهرة وما افترقت فرقتان إلا كنت فى خيرهما» . وقوله : « بعثت من خيرة قريش » . ومعلوم أن بنى عبد مناف افترقوا فكانت هاشم والمطلب يدا ، وعبد شمس ونوفل يدا

قال : وإن كان الفخر بكثرة العدد ، فإنه من أعظم مفاخر العرب ، فولد على ابن عبد الله بن العباس اليوم مثل جميع بنى عبد شمس . وكذلك ولد الحسين ابن على بن أبي طالب . هذا مع قرب ميلادهما . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: « هاء ولود خير من حسناء عقيم » . وقال : «أنا مكاثر بكم الأمم » . وقد روى الشعبى عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم من سفر فأراد الرجال أن يطرقوا النساء ليلا فقال : « أمهلوا حتى تمتشط الشَّعِثَةُ وتستحد المُغيبة ، فإذا قدمتم فالكيس الكيس» . قالوا : ذهب إلى طلب الولد . وكانت العرب تفخر بكثرة الولد وتمدح الفحل القَبِيس وتذم العاقر والعقيم . قال عامر بن الطفيل يعنى نفسه :

لَبِئْسَ الْفَتَى إِنْ كُنْتُ أَعْوَرَ عَاقِراً   جَبَاناً فَمَا عُذْرِى لَدَى كُلِّ مَحْضَرِ

وقال علقمة بن علاثة يفخر على عامر: آمنت وكفر ، ووفيت وغدر ، وولدت وعقر . وقال الزِّبرقان :

فَاسْأَلْ بَنِي سَعْدٍ وَغَيْرَهُمْ   يَوْمَ الْفَخَارِ فَعِنْدَهُمْ خُبْرِى
أَيُّ امْرِىءٍ أَنَا حِينَ يَحْضُرُنِى   رِفْدُ الْعَطَاءِ وَطَالِبُ النَّصْرِ
وَإِذَا هَلَكْتُ تَرَكْتُ وَسْطَهُمُ   وُلْدِى الْكِرَامَ وَنَابِهَ الذِّكْرِ

وقال طَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ

فَلَوْ شَاءَ رَبِّى كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدٍ   وَلَوْ شَاءَ رَبِّى كُنْتُ عَمْرَو بنَ مَرْثَدِ
فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَعَادَنِى   بَنُونَ كِرَامٌ سَادَةٌ لِمُسَوَّدِ

ومدح النابغة الذّبيانى ناساً فقال :

لَمْ يُحْرَمُوا طِيبَ النِّسَاءِ وَأُمُّهُمْ ... طَفَحَتْ عَلَيْكَ بِناطِقٍ مِذْكَارِ

وقال نهشل بن حرى :

عَلَّ بَنِيَّ يَشُدُّ اللهُ عَظْمَهُمُ ... وَالنَّبْعُ يَنْبُتُ قُضْبَاناً فَيَكْتَهِلُ

ومكث الفرزدق زماناً لا يولد له فعيرته امرأته فقال :

قالتْ أرَاهُ وَاحِداً لا أخَا لَهُ ... يُؤَمِّلُهُ فِي الوَارِثِينَ الأباعِدُ

لَعَلَّكِ يوماً أنْ تَرِينِي كَأنَّمَا ... بَنِيَّ حَوَالَيَّ اللُّيُوثُ الْحَوَارِدُ

فإنَّ تَمِيماً قَبْلَ انْ يَلِدَ الْحَصا ... أقامَ زَمَاناً وَهوَ فِي النَّاسِ وَاحِدُ

وقال آخر — وقد مات اخوته وملأ حوضه ليستقى فجاء رجل صاحب عشيرة وعترة فأخذ بضبعه فنحاه ثم قال لراعيه : إسق إبلك — :

لوْ كَانَ حَوْضُ حِمَارٍ مَاشَرِبْتَ بهِ ... إلاَّ بِإِذْنِ حِمارٍ آخِرَ الأَبَدِ

لٰكِنَّهُ حَوْضُ مَنْ أوْدَى بِإِخْوَتِهِ ... رَيْبُ المَنُونِ فَأَمْسَى بَيْضَةَ البَلَدِ

لوْ كَانَ يُشْكَى إلَى الأَمْوَاتِ مَالَقِيَ الأَ ... حْياءُ بَعْدَهُمُ مِنْ قِلَّةِ العَدَدِ

ثمَّ اشْتَكَيْتُ لأَشْكَانِي وَأَنْجَدَنِي ... قَبْرٌ بِسِنْجَارَ أَوْ قَبْرٌ عَلَى فَحَدِ

وقال الأعشى وهو يذكر الكثرة :

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصا ... وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكَاثِرِ

قال : وقد ولد رجال من العرب كل منهم يلد لصلبه أكثر من مائة ، فصاروا بذلك مفخراً ، منهم: عبد الله بن عمير الليثى ، وأنس بن مالك الأنصارى وخليفة بن بر السعدى . أتى على عامتهم الموت الجارف . ومات جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس عن ثلاثة وأربعين ذكراً وخمس وثلاثين امرأة كلهم لصلبه ، فما ظنك بمن مات من ولده فى حياته؟ وليس طبقة من طبقات

الأسنان ألموت إليها أسرع وفيها أعم وأفشى من سن الطفولية. وأمر جعفر بن سليمان قد عاينه عالم من الناس وعامتهم أحياء. وليس خبر جعفر كخبر غيره من الناس. قال الهيثم بن عدى: أفضى الملك إلى ولد العباس وجميع ولد العباس يومئذ من الذكور ثلاثة وأربعون رجلا، ومات جعفر بن سليمان وحده عن مثل هذا العدد من الرجال. وممن قرب ميلاده وكثر نسله حتى صار كبعض القبائل والعمائر: أبو بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمهلب بن أبى صفرة، ومسلم بن عمرو الباهلى، وزياد بن عبيد أمير العراق، ومالك بن مسمع. وولد جعفر بن سليمان اليوم أكثر عدداً من أهل هذه القبائل. وأربعة من قريش ترك كل واحد منهم عشرة بنين معروفين، وهم: عبد المطلب بن هاشم، والمطلب بن عبدمناف، وأمية ابن عبد شمس، والمغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. وليس على ظهر الأرض هاشمى إلا من ولد عبد المطلب. ولا يشك أحد أن عدد الهاشميين شبيه بعدد الجميع. فهذا ما فى الكثرة والقلة.

قال: وإن كان الفخر بنبل الرأى وصواب القول، فمن مثل عباس بن عبد المطلب وعبد الله بن العباس؟ وإن كان فى الحكم والسؤدد وأصالة الرأى والغَناء العظيم، فمن مثل عبد المطلب؟ وإن كان إلى الفقه والعلم بالتأويل ومعرفة التنزيل، وإلى القياس السديد وإلى الألسنة الحداد والخطب الطوال، فمن مثل على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس؟ قالوا: خطبنا عبد الله بن عباس خطبة بمكة أيام حصار عثمان لو شهدها الترك والديلم لأسلموا. وفى عبد الله بن العباس يقول حسان بن ثابت:

إِذَا قَالَ لم يَتْرُكْ مَقَالاً لِقَائِلٍ ... بِمُلْتَقَطَاتٍ لاَتَرَى بَيْنَهَا فَصلاَ

شَفَى وَكَفَى مَافِى النُّفُوسِ فَلَمْ يَدَعْ ... لِذِى إِرْبَةٍ فِى الْقَوْلِ جِدًّا وَلاَ هَزْلاَ

وهو البحر، وهو الحبر، وكان عمر يقول له فى حداثته عند إجالة الرأى: غص غواص. وكان يقدمه على جلة السلف.

قال: وإن كان الفخر فى البسالة والنجدة وقتل الأقران وجزر الفرسان ، فمن كحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب ؟ وكان الأحنف إذا ذكر حمزة قال: أَلْيَسُ. وكان لا يرضى أن يقول شجاع، لأن العرب كانت تجعل ذلك أربع طبقات فتقول : شجاع . فاذا كان فوق ذلك قالت : بطل. فإذا كان فوق ذلك قالت: بُهمة . فإذا كان فوق ذلك قالت :أليس . وقال العجاج : « أليس عن حوبائه سخى» . وهل أكثر ما يعد الناس من جرحاهما وصرعاهما إلا ساداتكم وأعلامكم؟ قتل حمزة وعلى عتبة والوليد ، وقتلا شيبة أيضاً شركا عبيدة بن الحارث فيه ، وقتل على حنظلة بن أبي سفيان - فأما آباء ملوككم من بنى مروان فانهم كما قال عبد الله بن الزبير لما أتاه خبر المصعب : إنا والله ما نموت حبجا كما يموت آل أبى العاص ، والله ما قتل منهم قتيل فى جاهلية ولا إسلام، وما نموت إلا قتلاً قعصاً بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف. قال أبو عثمان : كأنه لم يعد قتل معاوية بن المغيرة ابن أبي العاص قتلا ، إذ كان إنما قتل فى غير معركة ، وكذلك قتل عثمان بن عفان إذا كان إنما قتل محاصراً ، ولا قتل مروان بن الحكم لأنه قتل خنقاً، خنقته النساء؟ قال : وإنما فخر عبد الله بن الزبير بما فى بنى أسد بن عبد العزى من القتلى ، لأن من شأن العرب أن تفخر بذلك كيف كانوا قاتلين أو مقتولين. ألا ترى أنك لا تصيب كثرة القتلى إلا فى القوم المعروفين بالبأس والنجدة وبكثرة اللقاء والمحاربة؟ كآل أبى طالب ، وآل الزبير ، وآل المهلب؟ قال : وفى آل الزبير خاصة سبعة مقتولون فى نسق ، ولم يوجد ذلك فى غيرهم : قتل عمارة وحمزة ابنا عبد الله بن الزبير يوم قُدَيْدٍ فى المعركة ، قتلهما الأباضية ، وقتل عبد الله بن الزبير فى محاربة الحجاج ، وقتل مصعب بن الزبير بدير الجاثليق فى المعركة أكرم قتل، وبازائه عبد الملك بن مروان ، وقتل الزبير بوادى السباع منصرفه من وقعة الجمل ، وقتل العوام بن خويلد فى حرب الفجار ، وقتل خويلد بن أسد بن عبد العزى فى حرب خزاعة . فهؤلاء سبعة فى نسق . قال : وفى بنى أسد بن عبد العزى قتلى كثيرون

غير هؤلاء : قتل المنذر بن الزبير بمكة ، قتله أهل الشام فى حرب الحجاج وهو على بغل ورد كان نفر به فأصعد به فى الجبل . و إياه يعنى يزيد بن مفرغ الحميرى وهو يهجو صاحبكم عبيد الله بن زياد ويعيره بفراره يوم البصرة :

لَابْنُ الزُّبَيْرِ غَدَاةَ تَدْمُرُ مُنْذِراً أَوْلَى بِكُلِّ حَفِيظَةٍ وَزَمَاعِ

وقتل عمرو بن الزبير قتله أخوه عبد الله بن الزبير وكان فى جوار أخيه عبيدة ابن الزبير فلم يغن عنه، فقال الشاعر يحرض عبيدة على قتل أخيه عبد الله بن الزبير ويعيره باخفاره جوار عمرو أخيهما :

أَعُبَيْدُ لَوْ كَانَ الْمجِيرَ لَوَلَّتْ بَعْدَ الْهُدُوءِ برنّةٍ أَسْماء
أَعُبَيْدُ إِنَّكَ قَدْ أَجَرْتَ وَجَارُكُم تَحْتَ الصفيح تَنوبُهُ الأَصْداء
إِضْرِبْ بِسَيْفِكَ ضَرْبَةً مَذْكُورَةً فيها أداء أَمَانَةٍ وَوَفاء

وقتل بجير بن العوام أخو الزبير بن العوام ، قتله سعد بن صفح الدوسى جد أبى هريرة من قبل أمه بناحية اليمامة ، وقتل معه أصرم وبعكك ابني العوام بن خويلد . وقد قتل منهم فى محاربة النبى صلى الله عليه وسلم قوم متهورون منهم : زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، وكان شريفاً ، قتل يوم بدر. وأبوه الأسود كان المثل يضرب بعزته بمكة ، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يذكر عاقر الناقة : كان عزيزاً منيعاً كأبى زمعة و يكنى زمعة بن الأسود أباحكيمة. وقتل الحرث بن الأسود بن المطلب يوم بدر أيضاً ، وقتل عبد الله بن حميد بن زهير بن الحرث بن الأسود بن المطلب بن أسد يوم بدر أيضا ، وقتل نوفل بن خويلد يوم بدر أيضا ، قتله على بن أبى طالب ، وقتل يوم الحرة يزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود ، ضرب عنقه مسرف بن عقبة صبراً ، قال له : بايع لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية على أنك عبد قن له ؟ قال : بل أبايعه على أنى أخوه وابن عمه . فضرب عنقه . وقتل إسماعيل بن هبار بن الأسود ليلا وكان دعى حيلة فخرج مصرخا لمن استصرخه فقتل فاتهم به مصعب بن عبد الله بن عبد

الرحمن فأحلفه معاوية خمسين يميناً وخلى سبيله . فقال الشاعر :

وَلا أُجِيبُ بِلَيْلٍ دَاعِياً أَبَدَا أَخْشَى الغُرُورَ كَمَا غُرَّ ابْنُ هَبَّارِ
باتوا يَجُرُّونه فِى الْخَبْتِ مُنْعَفِراً بئْسَ الهَدِيَّةُ لِابْنِ العَمِّ وَالجارِ

وقتل عبد الرحمن بن العوام بن خويلد فى خلافة عمر بن الخطاب فى بعض المغازى . وقتل ابنه عبد الله يوم الدار مع عثمان . فعبد الله بن عبد الرحمن بن العوام بن خويلد ، قتيل بن قتيل بن قتيل بن قتيل ، أربعة فى نسق . ومن قتلاهم : عيسى بن مصعب بن الزبير ، قتل بين يدى أبيه بمسكن فى حرب عبد الملك ، وكان مصعب يكنى أبا عيسى ، وعيسى كلاهما : موالى قريش كهلها وصميمها. ومنهم مصعب بن عكاشة بن مصعب بن الزبير ، قتل يوم قديد فى حرب الخوارج وقد ذكره الشاعر :

فَمَنْ فانْدُبْنَ رِجَالاً قُتِلوا بِقُدَيْدٍ وَلنقْصَانِ العَدَدْ
ثم لا تعْدِلْنَ فيها مُصْعَباً حين يُبكَى مِن قَتيل بأَحَدْ
انَّه قد كَانَ فيها باسلاً صارماً يُقْدِمُ إِقْدَامَ الأَسَدْ

ومنهم خالد بن عثمان بن خالد بن الزبير ، خرج مع محمد بن عبد الله بن حسن ابن حسن فقتله أبو جعفر وصلبه . ومنهم عتيق بن عامر بن عبد الله بن الزبير ، قتل بقديد أيضاً ، وسمى عتيقا باسم جده أبى بكر الصديق .

قال : و إن كان الفخر والفضل فى الجود والسماح ، فمن مثل عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب ؟ ومن مثل عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ؟ — وقد اعترضت الأموية هذا الموضع فقالت : إنما كان عبد الله بن جعفر يهب مما كان معاوية ويزيد يهبانه له ، فمن فضل جودنا جاد ، قالوا : ومعاوية أول رجل فى الأرض وهب ألف ألف درهم ، وابنه يزيد أول من ضاعف ذلك . فإنه كان يجيز الحسن والحسين ابنى على فى كل عام لكل واحد منهما بألف ألف درهم ، وكذلك كان يجيز عبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر ، فلما مات وقام يزيد وفد عليه عبد الله بن

جعفر فقال له : إن أمير المؤمنين معاوية كان يصل رحمى فى كل سنة بألف ألف درهم ؟ قال : فلك ألفا ألف درهم ! فقال : بأبى أنت وأمى ؟ أما إنى ماقلتها لابن أنثى قبلك ! قال : فلك أربعة آلاف ألف درهم — وهذا الاعتراض ساقط ، لأن ذلك إن صح لم يعد جودا ولا جائزة ولا صلة رحم ، هؤلاء قوم كان يخافهم على ملكه ويعرف حقهم فيه وموقعهم من قلوب الأمة ، فكان يدبر فى ذلك تدبيرا ويريغ أمورا ويصانع عن دولته وملكه . ونحن لم نعد قط ما أعطى خلفاء بنى هاشم قوادهم وكتابهم و بنى عمهم جودا ، فقد وهب المأمون للحسن بن سهل غلة عشرة آلاف ألف فما عد ذلك منه مكرمة ، وكذلك كل ما يكون داخلا فى باب التجارة واستمالة القلوب وتدبير الدولة ، وإنما يكون الجود مايدفعه الملوك إلى الوفود والخطباء والشعراء والأشراف والأدباء والسمار ونحوهم ؟ ولولا ذلك لكان الخليفة إذا وفى الجند أعطياتهم احتسب ذلك فى جوده ! فالمعاملات شىء والإعطاء على دفع المكروه شىء ، والتفضل والجود شىء

ثم إن الذين أعطاهم معاوية ويزيد هو بعض حقهم ، والذى فضل عليهما أكثر مما خرج منهما . وإن أريد الموازنة بين ملوك بنى العباس وملوك بنى أمية فى العطاء افتضح بنو أمية وناصروهم فضيحة ظاهرة . فإن نساء خلفاء بنى العباس أكثر معروفا من رجال بنى أمية ، ولو ذكرت معروف أم جعفر وحدها لأتى ذلك على جميع صنائع بنى مروان . وذلك معروف . ولو ذكرت معروف الخيزران وسلسبيل للأت الطوامير الكثيرة به ، وما نظن خالصة مولاتهم إلا فوق أجواد أجوادهم . وإن شئت أن تذكر مواليهم وكتابهم فاذكر عيسى بن ماهان ، وابنه عليا ، وخالد بن برمك ، وابنه يحيى ، وابنيه جعفراً والفضل ، وكاتبهم منصور بن زياد ، ومحمد بن منصور فتى العسكر ، فإنك تجد لكل واحد من هولاء ما يحيط بجميع صنائع بنى عبد شمس

فأما ملوك الأموية فليس منهم إلا من كان يبخل على الطعام — وكان

جعفر بن سليمان كثيرا ما يذكر ذلك — وكان معاوية يبغض الرجل النهم على مائدته. وكان المنصور إذا ذكرهم يقول: كان عبد الملك جبارا لا يبالى ما صنع، وكان الوليد مجنونا، وكان سليمان همه بطنه وفرجه، وكان عمر أعور بين عميان، وكان هشام رجل القوم. وكان لا يذكر ابن عاتكة. ولقد كان هشام — مع ما استثناه به — يقال هو الأحول السراق، مازال يدخل أعطيات الجند شهرا فى شهر وشهرا فى شهر حتى أخذ لنفسه مقدار رزق سنة. وأنشده أبو النجم العجلى أرجوزته التى أولها « الحمد لله الوهوب المجزل » فما زال يصفق بيديه استحسانا لها حتى صار إلى ذكر الشمس فقال « والشمس فى الأفق كعين الأحول » فأمر بوجء عنقه وإخراجه. وهذا ضعف شديد وجهل عظيم. وقال خاله ابراهيم بن هشام المخزومى: مارأيت من هشام خطأ قط إلا مرتين: حدا به الحادى مرة فقال:

إنَّ عَلَيْكَ أيها البُخْتِيُّ   أكْرَمُ مَنْ تَمْشِي بِهِ المَطِيُّ

فقال: صدقت! وقال مرة: والله لأشكون سليمان يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك! وهذا ضعف شديد وجهل مفرط

قال أبو عثمان: وكان هشام يقول: والله إنى لأستحيى أن أعطى رجلا أكثر من أربعة آلاف درهم. ثم أعطى عبد الله بن الحسن أربعة آلاف دينار فاعتدها فى جوده وتوسعه. وإنما اشترى بها ملكه وحصن بها عن نفسه وما فى يديه. قال له أخوه مسلمة: أتطمع أن تلى الخلافة وأنت بخيل جبان؟ فقال: ولكنى حليم عفيف. فاعترف بالجبن والبخل. وهل تقوم الخلافة مع واحد منهما؟ وإن قامت فلا تقوم إلا مع الخطر العظيم والتغرير الشديد، ولو سلمت من الفساد لم تسلم من العيب. ولقد قدم المنصور عليهم عمر بن عبد العزيز بقوله: أعور بين عميان. وزعمتم أنه كان ناسكا ورعا تقياً، فكيف وقد جلد خبيب بن عبد الله بن الزبير مائة جلدة وصب على رأسه جرة من ماء بارد فى يوم شات حتى كز فمات، فما أقر بدمه ولا خرج لى وليه من حقه ولا أعطى عقلا ولا قوداً، ولا كان خبيب ممن أتت عليه حدود

الله وأحكامه وقصاصه فيقال كان مطيعاً بإقامتها وأنه أزهق الحد نفسه ؟ واحسبوا الضرب كان أدباً و تعزيرا فما عذره فى الماء البارد فى الشتاء على إثر جلد شديد ؟ ولقد بلغه أن سليمان بن عبد الملك يوصى فجاء حتى جلس على طريق من يجلس عنده أو يدخل إليه فقال لرجاء بن حيوة فى بعض ما يدخل وما يخرج من شأنه : نشدتك الله أن تذكرنى لهذا الأمر وتشير بى فى هذا الشأن فو الله مالى عليه من طاقة ؟ فقال له رجاء: قاتلك الله ما أحرصك عليها ! ولما جاء الوليد بن عبد الملك بنعى الحجاج قال له الوليد : مات الحجاج يا أبا حفص ؟ فقال : وهل كان الحجاج إلا رجلا منا أهل البيت ؟ وقال فى خلافته : لولا بيعة فى أعناق الناس ليزيد بن عاتكة لجعلت هذا الأمر شورى بين صاحب الأعواص إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدق ، و بين أحمس قريش القاسم بن محمد بن أبى بكر ، و بين سالم بن عبد الله بن عمر . فما كان عليه من الضرر والحرج ، وكان عليه من الوكف والنقص لو قال : بين على بن عبد الله بن عباس ، وعلى بن الحسين بن على ؟ على أنه لم يرد التيمى ولا العدوى ، و إنما دبر الأمر للأموى . ولم يكن عنده أحد من هاشم يصلح للشورى ثم دبر الأمر ليبايع لأخيه أبى بكر بن عبد العزيز من بعده حتى عوجل بالسم ؟ وقدم عليه عبد الله بن حسن بن حسن فلما رأى كماله وبيانه وعرف نسبه ومركبه وموضعه وكيف ذلك من قلوب المسلمين وفى صدور المؤمنين لم يدعه يبيت بالشام ليلة واحدة وقال له : إلحق بأهلك فإنك لم تغنمهم شيئا هو أنفس منك ولا أرد عليهم من حياتك ، أخاف عليك طواعين الشام ، وستلحقك الحوائج على ما تشتهى وتحب . وإنما كره أن يروه ويسمعوا كلامه فلعله أن يبذر فى قلوبهم بذراً ، و يغرس فى صدورهم غرساً . وكان أعظم خلق الله قولا بالجبر حتى يتجاوز الجهمية ويربى على كل ذى غاية صاحب شنعة ، وكان يصنع فى ذلك الكتب مع جهله بالكلام وقلة اختلافه إلى أهل النظر . وقال له شوذب الخارجى: لم لا تلعن رهطك وتذكر أباك إن كانوا عندك ظلمة فجرة ؟ فقال عمر:

متى عهدك بلعن فرعون ؟ قال : مالي به عهد . قال : أفيسعك أن تمسك عن لعن فرعون ولا يسعني أن أمسك عن لعن آبائي ! ؟ ؟ فرأى أنه قد خصمه وقطع حجته، وكذلك يظن كل من قصر عن مقدار العالم وجاوز مقدار الجاهل ! وأي شبه لفرعون بآل مروان وآل أبي سفيان ؟ هؤلاء قوم لهم حزب وشيعة وناس كثير يدينون بتفضيلهم وقد اعتورتهم الشبه في أمرهم، وفرعون على خلاف ذلك وضده ، لا شيعة له ولا حزب ولا نسل ولا موالي ولا صنائع ولا في أمره شبهة ؟ ثم إن عمر ظنين في أمر أهله فيحتاج إلى غسل ذلك عنه بالبراءة منهم . وشوذب ليس بظنين في أمر فرعون . وليس الإمساك عن لعن فرعون والبراءة منه مما يعرفه الخوارج . فكيف استويا عنده ! ؟ . وشكا إليه رجل من رهطه دينا فادحا وعيالا كثيراً فاعتل عليه، فقال له : هلا اعتللت على عبد الله بن الحسن ؟ قال: ومتى شاورتك في أمري ؟ قال : أومشيراً تراني ؟ قال : وهل أعطيته إلا بعض حقه ؟ قال : ولم قصرت عن كله !؟ فأمر بإخراجه وما زال إلى أن مات محروماً منه. وكان عمال أهله على البلاد عماله وأصحابه . والذي حسن أمره وشبه على الأغبياء حاله أنه قام بعقب قوم قد بدلوا عامة شرائع الدين وسنن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان الناس قبله من الظلم والجور والتهاون بالاسلام في أمر صغر في جنبه ما عاينوا منه وألفوه عليه . فجعلوه بما نقص من تلك الأمور الفظيعة في عداد الأئمة الراشدين . وحسبك من ذلك أنهم كانوا يلعنون علياً على منابرهم فلما نهى عمر عن ذلك عد محسناً . ويشهد لذلك قول كثير فيه :

وَلِيتَ فَلَمْ تَشْتُمْ عَلِيًّا وَلَمْ تُخِفْ ... بَرِيًّا وَلَمْ تَتْبَعْ مَقَالَةَ مُجْرِمِ

وهذا الشعر يدل على أن شتم علي قد كان لهم عادة حتى مدح من كف عنه. ولما ولي خالد بن عبد الله القسري مكة — وكان إذا خطب بها لعن علياً والحسن والحسين — قال عبيد الله بن كثير السهمي :

لَعَنَ اللهُ مَنْ يَسُبُّ عَلِيًّا ... وَحُسَيْناً مِنْ سُوقَةٍ وَإِمَامِ

أيُسَبُّ المُطَهَّرونَ جُدوداً ... والكرامُ الآباء وَالأعمامِ
يأمَنُ الطيرُ والحمامُ ولا يأ ... مَنُ آلُ الرسول عند المقام
طِبْتَ بيتاً وطابَ أهلُكَ أهلاً ... أهلِ بيتِ النبيِّ والإسلامِ
رحمةُ اللهِ والسلامُ عليهم ... كُلَّما قامَ قائمٌ بِسلامِ

وقام عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان — وكان ممن يتأله بزعمهم — الى هشام بن عبد الملك وهو يخطب على المنبر بعرفة فقال: يا أمير المؤمنين، هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب؟ فقال هشام: ليس لهذا جئنا. ألا ترى أن ذلك يدل على أنه قد كان لعنه فيهم فاشيا ظاهرا؟ وكان عبد الله ابن الوليد هذا يلعن عليا ويقول: قتل جديَّ جميعا الزبير وعثمان. وقال المغيرة وهو عامل معاوية يومئذ لصعصعة بن صوحان: قم فالعن عليا؟ فقام فقال: إن أميركم هذا أمرني أن ألعن عليا فالعنوه لعنه الله — وهو يضمر المغيرة.

وأما عبد الملك فحسبك من جهله تبديل شرائع الدين والاسلام وهو يريد أن يلي أمور أصحابها بذلك الدين بعينه! وحسبك من جهله أنه رأى من أبلغ التدبير في منع بني هاشم الخلافة أن يلعن علي بن أبي طالب على منابره ويرمى بالفجور في مجالسه، وهذا قرة عين عدوه وغير عين وليه، وحسبك من جهله قيامه على منبر الخلافة قائلا: إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف، ولا بالخليفة الداهن، ولا بالخليفة المأفون. وهؤلاء سلفه وأئمته، وبشفعتهم قام ذلك المقام، وبتقدمهم وتأسيسهم نال تلك الرآسة، ولولا القادة المتقدمة والأجناد المجندة والصنائع القائمة لكان أبعد خلق الله من ذلك المقام وأقربهم إلى الهلكة إن رام ذلك الشرف. وعنى بالمستضعف عثمان، وبالداهن معاوية، وبالمأفون يزيد بن معاوية. وهذا الكلام نقض لسلطانه، وعداوة لأهله، وإفساد لقلوب شيعته، ولو لم يكن من عجز رأيه إلا إنه لم يقدر على إظهار قوته إلا بأن يظهر عجز أئمته لكفاك ذلك منه ... فهذا ما ذكرته هاشم لأنفسها.

قالت أمية : لنا من نوادر الرجال فى العقل والدهاء والأرب والنكر ما ليس لأحد. ولنا من الأجواد وأصحاب الصنائع ماليس لأحد . زعم الناس أن الدهاة أربعة : معاوية بن أبى سفيان ، وزياد ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة . فمنا رجلان ومن سائر الناس رجلان . ولنا فى الأجواد : سعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، لم يوجد لهما نظير إلى الساعة . وأما نوادر الرجال فى الرأى والتدبير: فأبو سفيان بن حرب، ومعاوية بن أبى سفيان ، وعبد الملك بن مروان ، ومسلمة ابن عبد الملك . وعلى أنهم يعدون فى الحلماء والرؤساء . فأهل الحجاز يضربون المثل فى الحلم بمعاوية كما يضرب أهل العراق المثل فيه بالأحنف . فأما الفتوح والتدبير فى الحرب فلمعاوية غير مدافع ، وكان خطيباً مصقعاً وَمُجَرَّباً مظفراً ، وكان يجيد قول الشعر إذا آثر أن يقوله. وكان عبدالملك خطيباً حازماً مُجرباً مظفراً. وكان مسلمة شجاعاً مدبراً وسائساً مقدماً ، وكثير الفتوح كثير الادب . وكان يزيد ابن معاوية خطيباً شاعراً . وكان الوليد بن يزيد خطيباً شاعراً . وكان مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن الحكم شاعرين . وكان بشر بن مروان شاعراً ناسباً وأديباً عالماً . وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً وجيد الرأى أريباً كثير الأدب حكيما ، وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة ، وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات . وقالوا: وإن ذكرت البأس والشجاعة فالعباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان بن محمد ، وأبوه محمد بن مروان بن الحكم وهو صاحب مصعب . وهؤلاء قوم لهم آثار بالروم لا تجهل وآثار بإرمينية لا تنكر ، ولهم يوم العقر شهده مسلمة والعباس بن الوليد . قالوا : ولنا الفتوح العظام، ولنا فارس وخراسان ، وإرمينية وسجستان ، وأفريقية وجميع فتوح عثمان. فأما فتوح بنى مروان فأكثر وأعم وأشهر من أن تحتاج إلى عد أو إلى شاهد ، والذين بلغوا فى ذلك الزمان أقصى ما يمكن صاحب خف وحافر أن يبلغه ، حتى

لم يحتجر منهم إلا ببحر أو خليج بحر أو غياض أو عقاب أو حصون وصياصى ثلاثة رجال : قتيبة بن مسلم بخراسان ، وموسى بن نصير بأفريقية ، والقاسم بن محمد بن القاسم الثقفى بالسند والهند. وهؤلاء كلهم عما لنا وصنائعنا . ويقال : إن البصرة كانت صنائع ثلاثة رجال : عبد الله بن عامر ، وزياد ، والحجاج ، فرجلان من أنفسنا والثالث صنيعتنا . قالوا : ولنا فى الأجواد وأهل الأقدار: عبدالله ابن خالد بن أسيد بن أمية ، وأخوه خالد ، وفى خالد يقول الشاعر :

إِلَى خَالِدٍ حَتَّى أَنَخْنَا بِخَالِدٍ ... فَنِعْمَ الْفَتَى يُرْجَى وَنِعْمَ الْمُؤَمَّلُ

ولنا سعيد بن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وهو عَقيد النَّدى ، كان يسبت ستة أشهر ويُفيق ستة أشهر ، ويُرى كحيلا من غير اكتحال ، ودهيناً من غير تدهين ، وله يقول : موسى شَهوَات :

أَبَا خَالِدٍ أَعْنِى سَعِيْدَ بنَ خَالِدٍ ... أَخَا الْعُرْفِ لاَ أَعْنِى ابنَ بِنْتِ سَعِيْدِ

وَلَـٰكِنَّنى أَعْنِى ابْنَ عَائشةَ الذى ... أَبو أَبوَيْهِ خالدُ ابْنُ أَسيدِ

عَقيدُ النَّدَى مَا عَاشَ يَرْضَى به الندى ... فإن ماتَ لم يرضَ النَّدَى بعَقيدِ

قالوا : وإنما تمكن فينا الشعر وجاد ليس من قبل أن الذين مدحونا ما كانوا غير من مدح الناس ، ولكن لما وجدوا فينا مما يتسع لأجله القول ويصدق فيه القائل . قد مدح عُبيد الله بن قيس الرُّقَيات من الناس آل الزبير عبدَ الله ومُصعبا وغيرهما . فكان يقول كما يقول غيره . فلما صار إلينا قال :

مَا نَقَمُوا مِن بَنِى أُمَيَّةَ إِلاَّ ... أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا

وأَنَّهُمْ مَعْدِنُ الملوكِ فما ... تَصْلُحُ إِلاَّ عَلَيهِمُ العَرَبُ

وقال نصيب :

مِنَ النَّفَرِ الشُّمِّ الذينَ اذَا انْتَجوا ... أَقرَّتْ لنجواهم لُؤَىُّ بنُ غالِبِ

يُحَيَّوْنَ بسَّامِينَ طوْراً وتارةً ... يحيون عبَّاسين شوسَ الحواجبِ

وقال الأخْطَلُ :

شُمْسُ العَدَاوَةِ حَتى يُسْتَقَادَ لهمْ   وَأعظَمُ النَّاسِ أحْلاماً إِذَا قَدرُوا

قالوا : وفينا يقول شاعركم والمتشيع لكم الكميت بن زيد :

فالآنَ صِرْتُ الى أُمَيَّةَ   والأمورُ لها مصايرْ

وفى مُعاوية يقول أبُو الجَهْمِ العَدَوِىُّ

نُقَلِّبُهُ لنَخْبُرَ حَالتيه   فنخبُرُ مِنهُما كَرَماً ولِيناَ

نَمِيلُ على جَوانِبِهِ كأنَّا   إذَا مِلْنَا نَمِيلُ على أبِينَا

وفيه يقول :

تُرِيغُ إليهِ هُوَادِىَ الكلامِ   إذَا ضَلَّ خُطْبَتَهُ المِهْذَرُ

قالوا : وإذا نظرتم فى امتداح الشعراء عبدَ العزيز بن مروان عرفتم صدق ما تقوله .

قالوا : وفى إرسال النبى صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة عثمان واستعماله عتاب بْن أسِيد وهو ابن اثنين وعشرين سنة دليل على موضع المنعة ومن تهاب العرب وتعز قريش . وقال النبى صلى الله عليه وسلم قبل الفتح :« فتيَانِ أضَن بهما على النار عتابُ بن أَسيد وجُبير بنُ مُطعم » فولى عتاباً وترك جُبير بن مطعم . وقال الشَّعبى : لو ولد لى مائة ابن لسميتهم كلهم « عبد الرحمن » للذى رأيت فى قريش من أصحاب هذا الإسم . ثم عد : عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام ، وعبد الرحمن بن الحكم بن أبى العاص . فأما عبد الرحمن بن عتاب فانه صاحب الخيل يوم الجمل ، وهو صاحب الكف والخاتم ، وهو الذى مر به على وهو قتيل فقال . لهفى عليك يعسوب قريش ! هذا اللباب المحض من بنى عبدمناف ! فقال له قائل : لشدما أبنته اليوم ياأمير المؤمنين! قال : إنه قام عنى وعنه نسوة لم يقمن عنك .

قالوا: ولنا من الخطباء معاوية بن أبى سفيان ، أخطب الناس قائماً وقاعداً

وعلى منبر وفى خطبة نكاح ! وقال عمر بن الخطاب : ما يتصعدنى شيء من الكلام كما تتصعدنى خطبة النكاح . وقد يكون خطيباً من ليس عنده فى حديثه ووصفه للشيء واحتجاجه فى الأمر لسان بارع . وكان معاوية يجرى مع ذلك كله

قالوا : ومن خطبائنا يزيد بن معاوية ، كان أعرابي اللسان بدوى اللهجة. قال معاوية — وخطب عنده خطيب فأجاد — لأرمينه بالخطيب الأشدق. يريد يزيد بن معاوية . ومن خطبائنا سعيد بن العاص، لم يوجد كتحبيره تحبير ولا كارتجاله ارتجال . ومنا عمرو بن سعيد الأشدق ، لقب بذلك لأنه حيث دخل على معاوية وهو غلام بعد وفاة أبيه فسمع كلامه فقال : إن ابن سعيد هذا لأشدق . وقال له معاوية : إلى من أوصى بك أبوك ؟ قال : إن أبى أوصى إلى ولم يوص بى! قال : فبم أوصى إليك ؟ قال: أن لا يفقد إخوانه منه إلا وجهه .

قالوا : ومنا سعيد بن عمرو بن سعيد، خطيب بن خطيب بن خطيب .تكلم الناس عند عبد الملك قياما وتكلم قاعدا ، قال عبد الملك: فتكلم وأناوالله أحب عثرته وإسكاته ، فأحسن حتى استنطقته واستزدته. وكان عبد الملك خطيبا خطب الناس مرة فقال : ما أنصفتمونا معشر رعيتنا ، طلبتم منا أن نسير فيكم وفى أنفسنا سيرة أبى بكر وعمر فى أنفسهما ورعيتهما ، ولم تسيروا فينا ولا فى أنفسكم سيرة رعية أبى بكر وعمر فيهما وفى أنفسهما ، ، ولكل من النصفة نصيب . قالوا : فكانت خطبته نافعة .

قالوا : ولنا زياد وعبيد الله بن زياد ، وكانا غايتين فى صحة المعانى وجودة اللفظ. ولهما كلام كثير محفوظ .

قالوا : ومن خطبائنا سُليمان بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك. ومن خطبائنا ونساكنا يزيد بن الوليد الناقص . قال عيسى بن حاضر: قلت لعمرو ابن عُبَيْدٍ : ماقولك فى عمر بن عبد العزيز ؟ فكلح ثم صرف وجهه عنى . قلت : فما قولك فى يزيد الناقص ؟ فقال : أو الكامل ، قال بالعدل وعمل بالعدل وبذل

نفسه وشرى وقتل ابن عمه فى طاعة ربه ، وكان نكالا لأهله ، و نقص من أعطياتهم مازادته الجبابرة ، وأظهر البراءة من آبائه ، وجعل في عهده شرطا ولم يجعله جزما . لاوالله لـكأنه ينطق عن لسان أبى سعيد — يريد الحسن البصرى — قال : وكان الحسن من أنطق الناس . قالوا : وقد قرىء فى الـكتب القديمة : يامبذر الـكنوز وياساجداً بالأسحار ، كانت ولايتك رحمة وعليهم حجة . قالوا: هو يزيد بن الوليد . ومن خطبائنا ثم من ولد سعيد بن العاص : عمرو بن خولة، كان ناسبا فصيحا خطيبا . وقال ابن عائشة الأكبر : ماشهد خطيبا قط إلا لجلج هيبة له ومعرفة بانتقاده . ومن خطبائنا عبد الله بن عامر ، وعبد الاعلى بن عبد الله ابن عامر ، وكانا من أكرم الناس وأبين الناس . كان مَسلمة بن عبد الملك يقول : إنى لأنحى كور عمامتى عن أذنى لأسمع كلام عبدالأعلى . وكانوا يقولون: أشبه قريش نعمة وجهارة واقتدارا و بيانا بعمرو بن سعيد : عبد الاعلى بن عبد الله

قالوا : ومن خطبائنا ورجالنا : الوليد بن عبدالملك ، وهو الذى كان يقال له « فحل بنى مروان » كان يركب معه ستون رجلا لصلبه . ومن ذوى آدابنا وعلمائنا وأصحاب الأخبار ورواة الأشعار والأنساب : بِشْرُ بْنُ مَرْوانَ أمير العراق

قالوا : ومَن أكثر نساك الملوك منا ؟ . منا معاوية بن يزيد بن معاوية ، وهو الذى قيل له فى مرضه الذى مات فيه : لو أقمت للناس ولى عهد ؟ قال : ومن جعل لى هذا العهد فى أعناق الناس ! والله لولا خوف الفتنة لما أقمت عليها طرفة عين ! والله لا أذهب بمرارتها وتذهبون بحلاوتها ! فقالت له أمه : لوددت أنك حَيضة . قال : أنا والله وددت ذلك .

قالوا : ومنا سُليمان بن عبد الملك الذى هدم الديماس ورد المُسَيَّرِينَ وأخرج المسجونين وترك القريب واختار عمر بن عبد العزيز ، وكان سليمان جوادا خطيبا جميلا صاحب سلامة ودعة وحب للعافية وقرب من الناس حتى سمى المهدى وقيلت الأشعار فى ذلك.

قالوا : ولنا عمر بن عبد العزيز شبيه عمر بن الخطاب ، قد ولده عمر وباسمه سمى ، وهو أشج قريش المذكور فى الآثار المنقولة ، العدل فى أشد الزمان ، وظلف نفسه بعد اعتياد النعم حتى صار مثلا ومفخرا . وقيل للحسن: أما رويت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لا يزداد الزمان إلا شدة والناس إلا شحا ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق»؟ قال : بلى . قيل: فما بال عمر بن عبد العزيز وعدله وسيرته؟ فقال : لا بد للناس من متنفس . وكان مذكورا مع الخطباء ومع النساك ومع الفقهاء .

قالوا : ولنا ابنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، كان ناسكا زكيا طاهرا ، وكان من أتقى الناس وأحسنهم معونة لأبيه ، وكان كثيرا ما يعظ أباه وينهاه .

قالوا : ولنا من لا نظير له فى جميع أموره ، وهو صاحب الأعواص إسماعيل ابن أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص ، وهو الذى قال فيه عمر بن عبد العزيز : لو كان إلى من الأمر شىء لجعلتها شورى بين القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ، وصاحب الأعواص

قالوا : ومن نساكنا أبو حراب من بنى أمية الصغرى، قتله داود بن على . ومن نساكنا يزيد بن محمد بن مروان ، كان لا يهدب ثوبا ولا يصبغه ولا يتخلق بخلوق ولا اختار طعاما على طعام ما أطعم أكله، وكان يكره التكلف وينهى عنه . قالوا : ومن نساكنا أبو بكر بن عبد العزيز بن مروان ، أراد عمر أخوه أن يجعله ولى عهده لما رأى من فضله وزهده ، فسما جميعا . ومن نساكنا عبد الرحمن بن أبان ابن عثمان بن عفان، كان يصلى كل يوم ألف ركعة وكان كثير الصدقة وكان إذا تصدق بصدقة قال : اللهم إن هذا لوجهك فخفف عنى الموت . فانطلق حاجا ثم تصبح بالنوم فذهبوا ينبهونه للرحيل فوجدوه ميتا . فأقاموا عليه المأتم بالمدينة ، وجاء أشعب فدخل إلى المأتم وعلى رأسه كبة من طين فالتدم مع النساء ، وكان إليه محسنا . ومن نساكنا عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان .

قالوا : فنحن نعد من الصلاح والفضل ماسمعتموه ، ومالم نذكره أكثر وأنتم تقولون : أمية هي الشجرة الملعونة فى القرآن وزعمتم أن الشجرة الخبيثة لاتثمر الطيب كما أن الطيب لايثمر الخبيث . فإن كان الأمر كما تقولون فعثمان ابن عفان ثمرة خبيثة ، وينبغى أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم دفع ابنتيه الى خبيث ؟ وكذلك يزيد بن أبي سفيان صاحب مقدمة أبي بكر الصديق على جيوش الشام ؟ وينبغي لابي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون كذلك ؟و ينبغي لمحمدبن عبدالله الديج أن يكون كذلك و إن ولدته فاطمة عليها السلام ، لأنه من بنى أمية ! وكذلك عبد الله بن عثمان سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى مات بعد أن شَدَنَ ، نقر الديك عينه فمات ، لأنه من بنى أمية . وكذلك ينبغي أن يكون عَتَّابُ بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ، وان كان النبي صلى الله عليه وسلم ولاه مكة أم القرى وقبلة الاسلام مع قوله صلى الله عليه وسلم : فتيان أضن بهما على النار ، عتاب بن أسيد وجبير بن مطعم. كذلك وينبغي أن يكون عمر بن عبدالعزيز شبيه عمر بن الخطاب ، وكذلك معاوية بن يزيد بن معاوية ، وكذلك يزيد الناقص ؟وينبغي أن لايكون النبي صلى الله عليه وسلم عدعثمان فى العشرة الذين بشرهم بالجنة ؟ وينبغي أن يكون خالد بن سعيد بن العاص شهيد يوم مرج الصفر والحبيس فى سبيل الله ووالى النبي صلى الله عليه وسلم على اليمن ووالى أبي بكر على جميع أجناد الشام ورابع أربعة فى الاسلام والمهاجر إلى أرض الحبشة ، كذلك ! وكذلك أبان بن سعيد بن العاص المهاجر إلى المدينة والقديم الاسلام والحبيس على الجهاد يجب أن يكون ملعوناً خبيثا ! وكذلك أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وهو بدرى من المهاجرين الأولين ، وكذلك أمامة بنت أبي العاص بن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وكذلك أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخرجها فى المغازى ويضرب لها بسهم ويصالحها ؟ وكذلك فاطمة بنت أبي معيط من مهاجرة الحبشة

قالوا : ومما نفخر به وليس لبنى هاشم مثله أن منا رجلا ولى أربعين سنة منها عشرون سنة خليفة ، وهو معاوية بن أبى سفيان . ولنا أربعة أخوة خلفاء : الوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك . وليس لكم إلا ثلاثة : محمد وعبد الله وأبو إسحق ، أولاد هرون

قالوا : ومنا رجل ولده سبعة من الخلفاء ، وهو عبد الله بن يزيد بن عبد الملك ابن مروان ، أبوه يزيد بن عاتكة خليفة ، وجده عبد الملك خليفة ، وأبو جده مروان بن الحكم خليفة ، وجده من قبل عاتكة ابنة يزيد بن معاوية أبوها يزيد ابن معاوية وهو خليفة ، ومعاوية بن أبى سفيان وهو خليفة . فهؤلاء خمسة . وأم عبد الله هذا عاتكة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وحفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب. فهذان خليفتان . فهذه سبعة من الخلفاء ولدوا هذا الرجل

قالوا : ومنا امرأة أبوها خليفة ، وجدها خليفة ، وابنها خليفة ، وأخوها خليفة وبعلها خليفة ، فهؤلاء خمسة . وهى عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبى سفيان . أبوها يزيد بن معاوية خليفة ، وجدها معاوية بن أبى سفيان خليفة ، وابنها يزيد بن عبد الملك بن مروان خليفة ، وأخوها معاوية بن يزيد خليفة ، وبعلها عبد الملك بن مروان خليفة .

قالوا : ومن ولد المديبج محمد بن عبد الله الأصغر امرأة ولدها النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير ، وهى عائشة بنت محمد ابن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وأمها خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير ، وأم عروة أسماء ذات النطاقين بنت أبى بكر الصديق ، وأم محمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان وهو المديبج ، فاطمة بنت الحسين بن على ، وأم الحسين بن على فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأم فاطمة بنت الحسين بن على أم اسحق بنت طلحة بن عبيد الله ، وأم عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان حفصة بنت عبد الله ابن عمر بن الخطاب .

قالوا: ولنا فى الجمال والحسن ماليس لكم . منا المدبج والديباج ، قيل ذلك لجماله، ومنا المطرف ، ومنا الأرجوان ، فالمطرف وهو عبد الله بن عمرو بن عثمان ، سمي المطرف لجماله ، وفيه يقول الفرزدق :

نَمَا الفاروقُ أُمَّكَ وَابن أروَى ... أبوكَ فأَنت مُنصدِعُ النهارِ

والمدبج هو الديباج ، كان أطول الناس قياماً فى الصلاة ، وهلك فى سجن المنصور .

قالوا : ومنا ابن الخلائف الأربعة ، دُعى بذلك وشهر به ، وهو المؤمل بن العباس بن الوليد بن عبد الملك . كان هو وأخوه الحارث ابنى العباس بن الوليد من القحاذة بنت قطرى بن الفجاءة إمام الخوارج ، وكانت سبيت فوقعت إلية ، فلما قام عمر بن عبد العزيز أتت وجوه بنى مازن وفيهم حاجب بن ذبيان المازنى الشاعر فقال حاجب :

أَتَيْناكَ زُوَّاراً ووفداً إلى التى ... أَضَاءتْ فلا يَخفَى على الناس نُورُهَا

أبوها عَميدُ الحيِّ جَمْعاً وَأُمُّها ... مِنَ الحنظَليَّاتِ الكرامِ حُجورُها

فإنْ تَكُ صارَتْ حِينَ صارتْ فإنَّها ... إِلَى نَسَبٍ زَاكٍ كِرَامٍ تَغيرُها

فبعث عمر بن عبد العزيز إلى العباس بن الوليد : إما أن تردها إلى أهلها وإما أن تتزوجها .قال قائل ذات يوم للمؤمل : يابن الخلائف الأربعة ! قال: ويلك ، من الرابع ؟ قال : قطرى . فأما الثلاثة فالوليد وعبد الملك ومروان ، وأما قطرى فبويع بالخلافة . وفيه يقول الشاعر :

وَأَبُو نَعامَةَ سَيِّدُ الكُفَّارِ

قالوا : ومن أين صار محمد بن على بن عبد الله بن العباس أحق بالدعوة والخلافة من سائر إخوته ؟ ومن أين كان له أن يضعها فى بنيه دون أخوته ؟ وكيف صار بنو الأخ أحق بهـا من الاعمام ! قالوا : إن يكن هذا الأمر إنما يستحق بالميراث فالأقرب الى العباس أحق ، وإن كان بالسن والتجربة فالعمومة بذلك أولى !

قالوا : فقد ذكرنا جملا من حال رجالنا في الاسلام . وأما الجاهلية ، فلنا الأعياص ، والعنابس ، ولنا ذو العصابة أبو أحيحة سعيد بن العاص ، كان إذا أعتم لم يعتم بمكه أحد ، ولنا حرب بن أمية رئيس يوم الفجار ، ولنا أبو سفيان بن حرب رئيس أحد والخندق وسيد قريش كلها فى زمانه . وقال أبو الجهم بن حذيفة العدوى لعمر — حين رأى العباس وأبا سفيان على فراشه دون الناس — : ما نرانا نستريح من بني عبد مناف على حال ؟ قال عمر : بئس أخو العشيرة أنت ؟ هذا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا سيد قريش !

قالوا : ولنا عتبة بن ربيعة ، ساد مملقا ولا يكون السيد إلا مترفا ، لولا ماراوا عنده من البراعة والنبل والكمال ، وهو الذي تحاكمت بجيلة وكلب فى منافرة جرير والفرافصة وتراهنوا بسوق عكاظ وضعوا الرُّهُنَ على يده دون جميع من شهد على ذلك المشهد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — ونظر الى قريش مقبلة يوم بدر — : إن يكن منهم عند أحد خير فعند صاحب الجمل الأحمر ! وما ظنك بشيخ طلبوا له من جميع العسكر عند المبارزة بيضة فلم يقدروا على بيضة يدخل رأسه فيها ؟ وقد قال الشاعر :

وَإِنَّا أُنَاسٌ يَمْلَأُ الْبِيضَ هَامُنَا

قالوا : وأمية الأكبر صنفان : الأعياص والعنابس . قال الشاعر :

مِنَ الأَعْيَاصِ أَوْمِنْ آلِ حَرْبٍ ... أَغَرَّ كَغُرَّةِ الْفَرَسِ الْجَوَادِ

سموا بذلك فى حرب الفجار حين حفروا لأرجلهم الحفائر وثبتوا فيها وقالوا نموت جميعاً أو نظفر . وإنما سموا بالعنابس لأنها أسماء الأسود ، وإنما سموا الأعياص لأنها أسماء الأصول . فالعنابس : حرب وأبو حرب ، وسفيان وأبو سفيان ، وعمرو . والأعياص : العيص وأبو العيص ، والعاص وأبو العاص ، وأبو عمرو . ولم يعقب من العنابس إلا حرب ، وما عقب الأعياص إلا العيص . ولذلك كان معاوية يشكو

القالة . قالوا : وليس لبني هاشم والمطلب مثل هذه القسمة ، ولا مثل هذا اللقب المشهور .

قالت هاشم :

أما ما ذكرتم من الدهاء والنكر ، فان ذلك من أسماء فجار العقلاء ، وليس من أسماء أهل الصواب فى الرأى من العقلاء والأبرار . قد بلغ أبو بكر وعمر من التدبير وصواب الرأى والخبرة بالأمور العامة ، وليس من أوصافهما ولا من أسمائهما أن يقال كانا داهيين ولا كانا مكيرين ؟ وما عامل معاوية وعمرو بن العاص عليا قط بمعاملة إلا وكان على أعلم بها منهما ، ولكن الرجل الذى يحارب ولا يستعمل إلا ما يحل له أقل مذاهب فى وجوه الحيل والتدبير من الرجل الذى يستعمل ما يحل وما لا يحل ؟ وكذلك من حدث وأخبر ، ألا ترى أن الكذاب ليس لكذبه غاية ولا لما يولد ويصنع نهاية ؟ والصدوق إنما يحدث عن شيء معروف ومعنى محدود ؟ ويدل على ما قلنا أنكم عددتم أربعة فى الدهاء ليس واحد منهم عند المسلمين فى طريق المتقين . ولو كان الدهاء مرتبة والمكر منزلة لكان تقدم هؤلاء الجميع السابقين الأولين عيباً شديداً فى السابقين الأولين . ولو أن إنسانا أراد أن يمدح أبا بكر وعمر وعثمان وعليا ثم قال : الدهاة أربعة وعدهم ، لكان قد قال قولا مرغوبا عنه ، لأن الدهاء والمكر ليس من صفات الصالحين ، وإن علموا من غامض الأمور ما يجهله جميع العقلاء ! ألا ترى أنه قد يحسن أن يقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الناس ، وأحلم الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس . ولا يجوز أن يقال : كان أمكر الناس وأدهى الناس ؟ وإن علمنا أن علمه قد أحاط بكل مكر وخديعة ، وبكل أرب ومكيدة ؟ ؟

وأما ما ذكرتم من جود سعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، فأين أنتم من جود عبد الله بن جعفر وعبيد الله بن العباس ، والحسن بن على ؟ وأين أنتم من جود خلفاء بنى العباس كمحمد المهدى ، وهرون ، ومحمد بن زبيدة ، وعبد الله

المأمون ، بل لعل جود بعض صنائع هؤلاء كبنى برمك أعظم من جود الرجلين اللذين ذكرتموهما ، بل من جميع ما جاء به خلفاء بنى أمية

وأما ماذكرتم من حلم معاوية فلو شئنا أن نجعل جميع ساداتنا حلماء لكانوا محتملين لذلك ، ولكن الوجه فى هذا أن لا يشتق للرجل إسم إلا من أشرف أعماله وأكرم أخلاقه ، وإلا أن يبين بذلك عند أصحابه حتى يصير بذلك إسما يسمى به ويصير معروفا به كما عرف الأحنف بالحلم ، وكما عرف حاتم بالجود ، وكذلك هرم ، قالوا : هرم الجواد ؟ ولو قلتم كان أبو العاص بن أمية أحلم الناس لقلنا ولعله يكون قد كان حليما ولكن ليس كل حلم يكون صاحبه به مذكورا ومن أشكاله بائنا . وإنكم لتظلمون خصومكم فى تسميتكم معاوية بالحلم ، فكيف من دونه ؟ لأن العرب تقول : أحلم الحلمين أن لا يتعرض ثم يحلم . ولم يكن فى الأرض رجل أكثر تعرضا من معاوية ؟ والتعرض هو السفه . فإن ادعيتم أن الأخبار التى جاءت فى تعرضه كلها باطل ، إن لقائل أن يقول : وكل خبر رويتموه فى حلمه باطل ! ولقد شهر الأحنف بالحلم ولكنه تكلم بكلام كثير يجرح فى الحلم ويثلم فى العرض . ولا يستطيع أحد أن يحكى عن العباس بن عبد المطلب ولا عن الحسن بن على بن أبى طالب لفظا فاحشا ولا كلمة ساقطة ولا حرفا واحداً مما يحكى عن الأحنف ومعاوية ! وكان المأمون أحلم الناس ، وكان عبد الله السفاح أحلم الناس . وبعد ، فمن يستطيع أن يصف هاشما أوعبد المطلب بالحلم دون غيره من الأخلاق والأفعال حتى يسميه بذلك ويخصه به دون كل شىء فيه من الفضل ؟ وكيف وأخلاقهما متساوية وكلها فى الغاية ؟ ولو أن رجلا كان أظهر الناس زهدا وأصدقهم للعدو لقاء وأصدق الناس لسانا وأجود الناس كفا وأفصحهم منطقا وكان بكل ذلك مشهورا ، لمنع بعض ذلك من بعض ولما كان له إلا إسم السيد المقدم والكامل المعظم ، ولم يكن الجود أغلب على إسمه ، ولا البيان ولا النجدة

وأما ماذكرتم من الخطابة والفصاحة والسؤدد والعلم بالأدب والنسب ، فقد

علم الناس أن بنى هاشم فى الجملة أرق ألسنة من بنى أمية . كان أبو طالب والزبير شاعرين، وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شاعرا . ولم يكن في أولاد أمية بن عبد شمس لصلبه شاعر ، ولم يكن فى أولاد أمية إلا أن تعدوا فى الاسلام العرجى من ولد عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن الحكم . فنعد نحن الفضل ابن العباس بن عتبة بن أبي لهب ، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر .

وإن عددتم الخطابة والبيان والفصاحة لم تعدوا كعلى بن أبى طالب ولا كعبد الله ابن العباس . ولنا من الخطباء : زيد بن على بن الحسين ، وعبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر ، وجعفر بن الحسين بن الحسن ، وداود بن على بن عبدالله بن العباس وداود وسليمان ابنا جعفر بن سليمان . قالوا : كان جعفر بن الحسين ابن الحسن ينازع زيد بن على بن الحسين فى الوصية ، وكان الناس يجتمعون ليستمعوا محاورتهما ، وكان سليمان بن جعفر بن سليمان بن على والى مكة ، فكان أهل مكة يقولون : لم يرد علينا أمير إلا وسليمان أبين منه قاعدا ، وأخطب منه قائما . وكان داود إذا خطب اسحنفر فلم يرده شئ . قالوا : ولنا عبد الملك بن صالح ابن على، كان خطيبا بليغاً ، وسأله الرشيد ـ وسليمان بن أبى جعفر وعيسى بن جعفر حاضران ـ فقال له كيف رأيت أرض كذا ؟ قال : مسا فى ريح ومنابت شيح . قال : فأرض كذا ؟ قال : هضبات حمر وربوات عُفر . حتى أتى على جميع ما سأله عنه . فقال عيسى لسليمان : والله ما ينبغى لنا أن نرضى لأنفسنا بالدون من الكلام .

قالوا : وأما ما ذكرتم من نساك الملوك ، فلنا على بن أبى طالب ، وبزهده وبدينه يضرب المثل . وإن عددتم النساك من غير الملوك ، فأين أنتم عن على ابن الحسين زين العابدين الذى كان يقال له :على الخير وعلى الأغر وعلى العابد ، وما أقسم على الله بشيء إلا وأبر قسمه؟وأين أنتم عن على بن عبد الله بن العباس؟ وأين أنتم عن موسى بن جعفر بن محمد ؟ وأين أنتم عن على بن محمد الرضا ، لابس الصوف طول عمره مع سعة أمواله وكثرة ضياعه وغلاته ؟

وأما ما ذكرتم من الفتوح ، فلنا الفتوح المعتصمية التى سارت بها الركبان وضربت بها الأمثال ، ولنا فتوح الرشيد ، ولنا الآثار الشريفة فى قتل بابك الخرمى بعد أن دامت فتنته فى دار الاسلام نحو ثلاثين سنة .

فأما الفقه والعلم والتفسير والتأويل ، فإن ذكرتموه لم يكن لكم فيه أحد وكان لنا فيه مثل على بن أبى طالب ، وعبد الله بن العباس ، وزيد ومحمد ابنى على بن الحسين بن على ، وجعفر بن محمد الذى ملأ الدنيا علمه وفقهه — ويقال إن أبا حنيفة من تلامذته وكذلك سفيان الثورى ، وحسبك بهما فى هذا الباب ، ولذلك نسب سفيان إلى أنه زيدى المذهب وكذلك أبو حنيفة — ومن مثل على بن الحسين زين العابدين ، وقال الشافعى فى الرسالة فى إثبات خبر الواحد : وجدت على بن الحسين — وهو أفقه أهل المدينة — يعول على أخبار الآحاد . ومن مثل محمد بن الحنفية وإبنه أبى هاشم الذى قرر علوم التوحيد والعدل حتّى قالت المعتزلة : غلبنا الناس كلهم بأبى هاشم الأول !

وإن ذكرتم النجدة والبسالة والشجاعة ، فمن مثل على بن أبى طالب ؟ وقد وقع اتفاق أوليائه وأعدائه على أنه أشجع البشر . ومن مثل حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله ؟ ومن مثل الحسين بن على ! قالوا يوم الطف : ما رأينا مكثوراً قد أفرد من إخوته وأهله وأنصاره أشجع منه ، كان كالليث المحرب يحطم الفرسان حطما ، وما ظنك برجل أبت نفسه الدنية وأن يعطى بيده فقاتل حتّى قتل هو وبنوه وإخوته وبنو عمه بعد بذل الأمان لهم والتوثقة بالأيمان المغلظة ، وهو الذى سن للعرب الإباء واقتدى بعده أبناء الزبير وبنو المهلب وغيرهم . ومن لكم مثل محمد وإبراهيم ابنى عبد الله ؟ ومن لكم مثل زيد بن على ، وقد علمتم كلمته التى قالها حيث خرج من عند هشام : — ما أحب الحياة إلا من ذل . فلما بلغت هشاماً قال : خارج ورب الكعبة . فخرج بالسيف ونهي عن المنكر ودعا إلى إقامة شعائر الله حتى قتل صابراً محتسباً . وقد بلغتكم شجاعة أبى إسحٰق المعتصم

ووقوفه فى مشاهد الحروب بنفسه حتى فتح الفتوح الجليلة ، و بلغتكم شجاعة عبد الله بن على وهو الذى أزال ملك بنى مروان وشهد الحروب بنفسه . وكذلك صالح بن على وهو الذى تبع مروان بن محمد إلى مصر حتى قتله .

قالوا : و إن كان الفضل والفخر فى تواضع الشريف و إنصاف السيد وسجاحة الخلق ولين الجانب للعشيرة والموالى ، فليس لأحد من ذلك مالبنى العباس . ولقد سألنا طارق بن المبارك — وهو مولى لبنى أمية وصنيعة من صنائعهم — فقلنا : أى القبيلين أشد نخوة وأعظم كبرياء وجبرية ! أبنو مروان أم بنو العباس ؟ فقال : والله لبنو مروان فى غير دولتهم أعظم كبرياء من بنى العباس فى دولتهم. وقد كان أدرك الدولتين . ولذلك قال شاعرهم :

إذا تائهٌ مِن عبدِ شمْسٍ رَأَيْته ... يَتيهُ فَرَشِّحْهُ لِـكلِّ عَظِيمِ
وَإِنْ تاه تَيَّاهٌ سِواهُمْ فإنَّما ... يَتيهُ لِنوْكٍ أو يَتيهُ لِلُومِ

ومن كلامهم : من لم يكن من بنى أمية تياهاً فهو دعى .

قالوا : و إن كان الـكبر مفخراً يمدح به الرجال و يعد من خصال الشرف والفضل ، فمولانا عمارة بن حمزة أعظم كبراً من كل أموى كان و يكون فى الدنيا ، وأخباره فى كبره وتيهه مشهورة متعالية

قالوا : و إن كان الشرف والفخر فى الجمال والـكمال وفى البسطة فى الجسم وتمام القوام ، فمن كان كالعباس بن عبد المطلب ! قالوا : رأينا العباس يطوف بالبيت وكأنه فسطاط أبيض . ومن مثل على بن عبد الله بن العباس وولده ، وكان كل واحد منهم إذا قام إلى جنب أبيه كان رأسه عند شحمة أذنه ، وكانوا من أطول الناس ، و إنك لتجد ميراث ذلك اليوم فى أولادهم . ثم الذى رواه أصحاب الأخبار وحمال الآثار فى عبد المطلب من التمام والقوام والجمال والبهاء ، وما كان من لقب هاشم بالقمر لجماله ولأنهم يستضيئون برأيه ، وكما رواه الناس أن عبد المطلب ولد عشرة كان الرجل منهم يأكل فى المجلس الجذعة ويشرب

الفرَق وترد أُنفهم قبل شفاههم ، وأن عامر بن مالك لما رآهم يطوفون بالبيت كأنهم جمال جون قال : بهؤلاء تمنع مكة وتشرف مكة ، وقد سمعتم ما ذكره الناس من جمال السفاح وحسنه ، وكذلك المهدى ، وابنه هرون الرشيد ، وابنه محمد بن زبيدة الى الواثق ، وكان الحسن بن على أصبح الناس وجهاً ، كان يشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذلك عبد الله بن الحسن المحض

وقالوا : ولنا ثلاثة فى عصر كلهم يسمى علياً ، وكلهم كان يصلح للخلافة بالفقه والنسك والمركب والرأى والتجربه والحال الرفيعة بين الناس : على بن الحسين بن على ، وعلى بن عبد الله بن العباس ، وعلى بن عبد الله بن جعفر . كل هؤلاء كان تاماً كاملا بارعا جامعاً . وكانت لُبابة بنت عبد الله بن العباس عند على بن عبد الله بن جعفر . قالت : ما رأيته ضاحكاً قط ولا قاطباً ولا قال شيئاً احتاج إلى أن يعتذر منه ولا ضرب عبداً قط ولا ملكه أكثر من سنة . قالوا : وبعد هؤلاء ثلاثة بنو عم ، وهم بنو هؤلاء الثلاثة ، وكلهم يسمى محمداً ، كما أن كل واحد من أولئك يسمى علياً ، وكلهم يصلح للخلافة بكرم النسب وشرف الخصال: محمد بن على بن الحسين بن على ، ومحمد بن على بن عبدالله بن العباس ومحمد بن على بن عبد الله جعفر ، قالوا : كان محمد بن على بن الحسين لا يسمع المبتلى الاستعاذة ، وكان ينهى الجارية والغلام أن يقولا للمسكين : ياسائل ، وهو سيد فقهاء الحجاز ، ومنه ومن ابنه جعفر تعلم الناس الفقه ، وهو الملقب بالباقر ، باقر العلم ، لقبه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يخلق بعد ، وبشر به ووعد جابر بن عبد الله برؤيته وقال : ستراه طفلا فاذا رأيته فأبلغه عنى السلام ، فعاش جابر حتى رأه وقال له ما وصى به . وتوعد خالد بن عبد الله القسرى هشام بن عبد الملك فى رسالة له إليه وقال : والله إنى لاعرف رجلا حجازى الأصل شامى الدار عراقى الهوى ! يريد محمد بن على بن عبد الله بن العباس .

وأما ما ذكرتم من أمر عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فإنا نذكر فاطمة

بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى سيدة نساء العالمين ، وأمها خديجة سيدة نساء العالمين ، وبعلها على بن أبى طالب سيد المسلمين كافة ، وابن عمها جعفر ذو الجناحين وذو الهجرتين ، وابناها حسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وجدهما أبوطالب بن عبد المطلب أشد الناس عارضة وشكيمة وأجودهم رأياً وأشهمهم نفساً وأمنعهم لما وراء ظهره ، منع النبى صلى الله عليه وسلم من جميع قريش ثم بنى هاشم و بنى المطلب ، ثم منع بنى إخوته من بنى أخواته من بنى مخزوم الذين أسلموا ، وهو أحد الذين سادوا مع الإقلال . وهو مع هذا شاعر خطيب . ومن يطيق أن يفاخر بنى أبى طالب وأمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم وهى أول هاشمية ولدت لهاشمى ، وهى التى ربى رسول الله فى حجرها وكان يدعوها : أمى ، ونزل فى قبرها وكان يوجب حقها كما يوجب حق الأم ؟ من يستطيع أن يسامي رجالا ولدهم هاشم مرتين من قبل أبيهم ومن قبل أمهم ؟ قالوا : ومن العجائب أنها ولدت أربعة كل منهم أسن من الآخر بعشر سنين : طالب وعقيل وجعفر وعلى . ومن الذى يعد من قريش أو من غيرهم ما يعده الطالبيون عشرة فى نسق كل واحد منهم عالم زاهد ناسك شجاع جواد طاهر زاك ؟ فمنهم خلفاء ، ومنهم مرشحون ، ابن ابن ابن ابن هكذا إلى عشرة . وهم : الحسن بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على . وهذا لم يتفق لبيت من بيوت العرب ولا من بيوت العجم

قالوا : فإن فخرتم بأن منكم اثنتين من أمهات المؤمنين : أم حبيبة بنت أبى سفيان وزينب بنت جحش ، فزينب امرأة من بنى أسد بن خزيمة ادعيتموها بالحلف لا بالولادة ؟ وفينا رجل ولدته أمان من أمهات المؤمنين : محمد بن عبد الله ابن الحسن المحض . ولدته خديجة أم المؤمنين ، وأم سلمه أم المؤمنين ، وولدته مع ذلك فاطمة بنت الحسين بن على ، وفاطمة سيدة نساء العالمين ابنة رسول الله ، وفاطمة بنت أسد بن هاشم . وكان يقال : خير النساء الفواطم والعواتك .

قالوا : ونحن إذا ذكرنا إنسانا فقبل أن نعد من ولده نأتى به شريفا فى نفسه مذكورا بما فيه دون مافى غيره . قلتم : لنا عاتكة بنت يزيد ، وعاتكة فى نفسها كامرأة من عرض قريش ليس فيها فى نفسها خاصة أمر تستوجب به المفاخرة . ونحن نقول :منا فاطمة ، وفاطمة سيدة نساء العالمين، وكذلك أمها خديجة الكبرى. وإنما تذكران مع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم اللتين ذكرهما النبى صلى الله عليه وسلم ، وذكر إحداهما فى القرآن ، وهن المذكورات من جميع نساء العالم من العرب والعجم . وقلتم : لنا عبد الله بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، ولده سبعة من الخلفاء . وعبد الله هذا فى نفسه ليس هناك . ونحن نقول : منا محمد ابن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، كلهم سيد ، وأمه العالية بنت عبد الله بن العباس ، وأخوته : داود وصالح وسليمان وعبد الله رجال كلهم أغر محجل ، ثم ولد الرؤساء إبراهيم الإمام وأخويه أبا العباس وأبا جعفر ومن جاء بعدهما من خلفاء بنى العباس . وقلتم : منا عبد الله بن يزيد . وقلنا : منا الحسين بن على سيد شباب أهل الجنة وأولى الناس بكل مكرمة وأطهرهم طهارة، مع النجدة والبصيرة والفقه والصبر والحلم والأنف، وأخوه الحسن سيد شباب أهل الجنة وأرفع الناس درجة وأشبههم برسول الله خَلقا وخُلقا ، وأبوهما على بن أبى طالب وهو الذى ترك وصفه أبلغ فى وصفه ، وعمهما ذو الجناحين ، وأمهما فاطمة ، وجدتهما خديجة ، وأخوالهما : القاسم وعبد الله وابراهيم ، وخالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم ، وجدتاهما : آمنة بنت وهب والدة رسول الله ، وفاطمة بنت أسد ابن هاشم ، وجدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم المحرس لكل مفاخر والغالب لكل منافر . قل ماشئت واذكر أى باب شئت من الفضل فإنك تجدهم قد حازوه .

قالت أمية :

نحن لاننكر فخر بنى هاشم وفضلهم فى الإسلام ، ولكن لافرق بيننا فى الجاهلية

إذ كان الناس فى ذلك الدهر لايقولون : هاشم وعبد شمس ، ولا هاشم وأمية ، بل كانوا لايزيدون فى الجميع على عبد مناف ، حتى كان أيام تميزهم فى أمر على وعثمان فى الشورى ، ثم ما كان فى أيام تحزبهم وحربهم مع على ومعاوية . ومن تأمل الأخبار والآثار علم أنهما كان يذكر فرق بين البيتين ، وإنما يقال : بنو عبد مناف . ألا ترى أن أبا قحافة سمع رجة شديدة وأصواتا مرتفعة — وهو يومئذ شيخ كبير مكفوف — فقال : ماهذا ! قالوا : قبض رسول الله . قال : فما صنعت قريش ؟ قالوا : ولوا الأمر ابنك . قال : ورضيت بذلك عبد مناف ؟ قالوا : نعم . قال : فلا مانع لما أعطى الله ولا معطى لما منع . . ولم يقل أرضى بذلك بنو هاشم ، أرضى بذلك بنو عبد شمس ! وإنما جمعهم على عبد مناف . لأنه كذلك كان يقال . وهكذا قال أبو سفيان بن حرب لعلى وقد سخط إمارة أبى بكر : أرضيتم يابنى عبد مناف أن تلى عليكم تيم ؟ ! ولم يقل أرضيتم يابنى هاشم ! وكذلك قال خالد سعيد ابن العاص حين قدم من اليمن وقد استخلف أبو بكر : أرضيتم معشر بنى عبد مناف أن تلى عليكم تيم : !

قالوا : وكيف يفرقون بين هاشم وعبد شمس وهما أخوان لأب وأم ! ويدل أن أمرهما كان واحدا وأن اسمهما كان جامعاً قول النبى صلى الله عليه وسلم وصنيعه حين قال : مناخير فارس فى العرب عكاشه بن محصن . وكان أسديا ، وكان حليفاً لبنى عبد شمس — وكل من شهد بدراً من بنى كثير بن داود وكانوا حلفاء بنى عبد شمس — فقال ضرار بن الازور الأسدى : ذاك منا يا رسول الله ! فقال عليه الصلاة والسلام : بل هو منا بالحلف . فجعل حليف بنى عبد شمس حليف بنى هاشم . وهذا بين لا يحتاج صاحب هذه الصفة إلى أكثر منه . قالو : ولهذا نكح هذا البيت فى هذا البيت ، فكيف صرنا نتزوج بنات النبى وبنات بنى هاشم على وجه الدهر إلا ونحن أكفاء وأمرنا واحد ؟ وقد سمعتم إسحق بن عيسى يقول لمحمد بن الحارث أحد بنى عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد : لولا حى أكرمهم الله

بالرسالة لزعمت أنك أشرف الناس . أفلا ترى أنه لم يقدم علينا رهطه إلا بالرسالة ؟

قالت هاشم

قلتم : لولا أنا كنا أكفاءكم لما أنكحتمونا نساءكم . فقد نجد القوم يستوون في حسب الأب ويفترقون فى حسب الأنفس. وربما استووا فى حسب أبى القبيلة كاستواء قريش فى النضر بن كنانة ، ويختلفون كاختلاف كعب بن لؤى وعامر بن لؤى ، وكاختلاف أبناء قصى عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى . والقوم قد يساوى بعضهم بعضاً فى وجوه ويفارقونهم فى وجوه ويستجيزون بذلك القدر مناكحتهم وإن كانت معانى الشرف لم تتكامل فيهم كما تكاملت فيمن زوجهم . وقد يزوج السيد ابن أخيه وهو حارض بن حارض ، على وجه صلة الرحم فيكون ذلك جائزاً عندهم . ووجوه فى هذا الباب كثيرة . فليس لكم أن تزعموا أنكم أكفاؤنا من كل وجه وإن كنا قد زوجناكم وساوينا كم فى بعض الآباء والأجداد !

وبعد ، فأنتم فى الجاهلية والإسلام قد أخرجتم بناتكم إلى سائر قريش وإلى سائر العرب : أفتزعمون أنهم أكفاؤكم عيناً بعين ؟

وأما قولكم إن الحيين كان يقال لهما عبد مناف . فقد كان يقال لهما أيضا مع غيرهما من قريش وبنيها: بنو النضر . وقال الله تعالى : «وأَنْذِر عشيرَتكَ الأقربين» فلم يدع النبي صلى الله عليه وسلم أحدا من بنى عبد شمس ، وكانت عشيرته الأقربون بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، وعشيرته فوق ذلك عبد مناف ، وفوق ذلك قصى . ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أُتى بعبد الله بن عامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس ، وأم عامر بن كريز أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم قال : هذا أشبه بنا منه بكم . ثم تفل فى فيه فازدرده ، فقال : أرجو أن تكون مسقيا . فكان كما قال : ففى قوله : هو أشبه بنا منه بكم . خصلتان إحداهما أن عبد شمس وهاشما لو كانا شيأ واحدا كما أن بنى عبد المطلب شىء واحد لما قال هو بنا أشبه به منكم . والأخرى إن فى هذا القول تفضيلا لبنى هاشم

على بنى عبد شمس ، ألا ترون أنه خرج خطيباً جوادا نبيلا وسيدا مَسقيا له مصانع وآثار كريمة !. لأنه قال : هو بنا أشبه به منكم؟. وأُتى عبد المطلب بعامر بن كريز — وهو ابن ابنته أم حكيم البيضاء — فتأمله وقال : وعظام هاشم ماولدنا ولدا أحرض منه . فكان كما قال . ولم يقل : وعظام عبد مناف . لأن شرف جده عبد مناف له فيه شركاء ، وشرف هاشم أبيه خالص له .

وأما ماذكرتم من قول أبى سفيان وخالد بن سعيد : أرضيتم معشر بنى عبد مناف أن تلى عليكم تيم ؟ فهذه الكلمة كلمة تحريض وتهييج ، فكان الأبلغ فيما يريد من اجتماع قلوب الفريقين أن يدعوهم لأب وأن يجمعهم على واحد ، وإن كانا مفترقين . وهذا المذهب سديد وهذا التدبير صحيح . قال معاوية بن صعصعة للأشهب بن رميلة وهو نهشلى ، وللفرزدق بن غالب وهو مجاشعى ، ولمسكين بن أنيف وهو عبدلى : أرضيتم معشر بنى دارم أن يسب آباءكم ويشتم أعراضكم كلب بنى كليب ؟ !(1) وإنما نسبهم إلى دارم الأب الأكبر المشتمل على آباء قبائلهم ليستووا فى الحمية ويتفقوا على الأنف ، وهذا فى مثل هذا الموضع تدبير صحيح .

قالوا : ويدل على ماقلنا ماقاله الشعراء في هذا الباب قبل مقتل عثمان وقبل صفين . قال حسان بن ثابت لأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

وَأَنْتَ مَنوطٌ نِيطَ في آلِ هَاشِمٍ كما نِيطَ خلفَ الرَّاكِبِ القدحُ الفَرْدُ

ولم يقل : نيط فى آل عبد مناف ! وقال آخر :

ما أنت مِن هاشِمٍ فى بَيْتِ مَكْرُمَةٍ ولا بَنى جمحَ الخُضْر الجلاعيدِ

ولم يقل : ما أنت من آل عبد مناف . وكيف يقولون هذا وقد علم الناس أن عبد مناف ولد أربعة : هاشما والمطلب وعبد شمس ونوفلا ؟ وأن هاشما والمطلب كانا يدا واحدة ، وأن عبد شمس ونوفلا كانا يداً واحدة . وكان مما أبطأ ببنى نوفل عن الإسلام إبطاء إخوتهم من بنى عبد شمس ، وكان مما حث بنى المطلب على

(1) يعنى جرير بن عطية الخطفى الشاعر

الإسلام فضل محبتهم لبني هاشم . لأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم كان بينا ، وإنما كانوا يمتنعون منه من طريق الحسد والبغضة . فمن لم يكن فيه هذه العلة لم يكن له دون الإسلام مانع . ولذلك لم يصحب النبي صلى الله عليه وسلم من بني نوفل أحد ، فضلا عن أن يشهدوا معه المشاهد الكريمة ، وإنما صحبه حلفاؤهم كيعلى ابن منبه ، وعتبة بن غزوان وغيرهما . وبنو الحارث بن المطلب كلهم بدرى : عبيدة وطفيل وحصين . ومن بنى المطلب : مسطح بن أثاثة بدرى ؟ وكيف يكون الأمر كما قلتم وأبو طالب يقول لمطعم بن عدى بن نوفل فى أمر النبي لما تمالأت قريش عليه :

جَزَى اللهُ عنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلاً ... جَزَاءَ مُسِيءٍ عَاجِلا غيرَ آجِلِ
أَمُطْعِمُ إِمَّا سَامَنِي القَوْمُ خِطَّةً ... فَإِنِّي مَتَى أُوكَلْ فَلَسْتَ بِآكِلِي
أَمُطْعِمُ لَمْ أَخْذِلْكَ فِي يَوْمِ شِدَّةٍ ... وَلاَ مَشْهَدٍ عِنْدَ الأُمُورِ الجَلاَئِلِ

ولقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسمة فجعلها فى بنى هاشم وبنى المطلب فأتاه عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وجبير ابن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف فقالا له : يارسول الله إن قرابتنا منك وقرابة بنى المطلب واحدة ، فكيف أعطيتهم دوننا ؟ فقال النبي : إنا لم نزل وبنى المطلب كهاتين . وشبك بين أصابعه . فكيف تقولون كنا شيئا واحدا ، وكان الاسم الذى يجمعنا واحداً ؟ ؟

قالت هاشم :

وإن كان الفخر بالأيد والقوة واهتصار الأقران ومباطشة الرجال ، فمن أين لكم كمحمد بن الحنفية ! وقد سمعتم أخباره وأنه قبض على درع فاضلة فجذبها فقطع ذيلها ما استدار منه كله . وسمعتم حديث الأيد القوى الذى أرسله ملك الروم إلى معاوية يفخر به على العرب ، وأن محمدا قعد له ليقيمه فلم يستطع فكأنما يحرك جبلا ، وأن الرومى قعد ليقيمه محمد فرفعه فوق رأسه ثم جلد به الأرض . هذه

مع الشجاعة المشهورة والفقه فى الدين والحلم والصبر والفصاحة والعلم بالملاحم والإخبار عن الغيوب حتى ادعى له أنه المهدى . وقد سمعتم أحاديث أبى اسحق المعتصم وأن أحمد بن أبى دواد عض ساعده بأسنانه أشد العض فلم يؤثر فيه ، وأنه قال: ما أظن الأسنة ولا السهام تؤثر فى جسده ! ؟ وإن كان الفخر بالبشر وطلاقة الأوجه وسجاحة الأخلاق ، فمن مثل على بن أبى طالب؟ وقد بلغ من سجاحة خلقه وطلاقة وجهه أن عيب بالدعابة . ومن الذى يسوى بين عبد شمس وهاشم فى ذلك ! كان الوليد جبارا ، وكان هشام شرس الأخلاق ، وكان مروان بن محمد لا يزال قاطبا عابساً ، وكذلك كان يزيد بن الوليد الناقص . وكان المهدى بن المنصور أسرى خلق الله وألطفهم خلقا ، وكذلك محمد الأمين وأخوه المأمون . وكان السفاح يضرب به المثل فى السرو وسجاحة الخلق .

قالوا : ولنا من أفراد الرجال من ليس لكم مثله . منا يحيى بن محمد بن على ابن عبد الله بن العباس ، كان شجاعا جريا ، وهو الذى ولى الموصل لأخيه السفاح فاستعرض أهلها حتى ساخت الأقدام فى الدم . ومنا يعقوب بن ابراهيم بن عيسى ابن أبى جعفر المنصور ، كان شاعرا فصيحا ، وهو المعروف بأبى الأسباط . ومنا محمد وجعفر ابنا سليمان بن على ، كانا أعظم من ملوك بنى أمية وأجل قدرا وأكثر أموالا ومكانا عند الناس . وأهدى محمد بن سليمان من البصرة إلى الخيزران مائة وصيفة فى يد كل واحدة منهن جام من ذهب وزنه ألف مثقال مملوء مسكا . وكان لجعفر بن سليمان ألفا عبد من السودان خاصة ، فكم يكون ليت شعرى غيرهم من البيض ومن الإماء ! وما رؤى جعفر بن محمد راكبا قط إلا ظُن أنه الخليفة . ومن رجالنا محمد بن السفاح ، كان جوادا أيدا شديد البطش . قالوا : ما رؤى أخوان أشد قوة من محمد وريطة أخته ولدى أبى العباس السفاح ، كان محمد يأخذ الحديد فيلويه فتأخذه هى فترده . ومن رجالنا محمد بن ابراهيم طباطبا صاحب أبى السرايا ، كان ناسكا عابدا فقيها عظيم القدر عند أهل بيته وعند الزيدية . ومن رجالنا عيسى بن

موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، وهو الذى شيد ملك المنصور وحارب ابنى عبد الله بن حسن وأقام عمود الخلافة بعد اضطرابه ، وكان فصيحا أديبا شاعرا . ومن رجالنا عبد الوهاب بن ابراهيم الامام ، حج بالناس وولى الشام ، وكان فصيحا خطيبا . ومن رجالنا عبد الله بن موسى الهادى ، كان أكرم الناس ، وجوادا ممدّحا أديبا شاعرا . وأخوه على بن موسى الهادى ، كان أكرم الناس وأجود الناس ، كان يلبس الثياب وقد حدد ظفره فيخرقها بظفره لئلا تعاد إليه . وعبد الله بن احمد بن عبد الله بن موسى الهادى ، كان أديبا ظريفا

قالوا : وقلتم : لنا عاتكة بنت يزيد يكتنفها خمسة من الخلفاء . ونحن نقول : لنا زبيدة بنت جعفر يكتنفها ثمانية من الخلفاء : جدها المنصور خليفة ، وعم أبيها السفاح خليفة ، وعمها المهدى خليفة ، وابن عمها الهادى خليفة ، و بعلها الرشيد خليفة ، وابنها الأمين خليفة ، وابنا بعلها المأمون والمعتصم خليفتان .

قالوا : وأما ما ذكرتم من الأعياص والعنابس ، فلسنا نصدقكم فيما زعمتموه أصلا لهذه التسمية ، و إنما سموا الأعياص لمكان العيص ، وأبى العيص ، والعاص وأبى العاص . وهذه أسماؤهم الأعلام ليست مشتقة من أفعالهم كريمة ولا خسيسة . وأما العنابس فانما سموا بذلك لأن حرب بن أمية كان اسمه عنبسة ، وأما حرب فلقبه . ولما كان حرب أمثلهم سموا جماعتهم باسمه فقيل « العنابس » كما يقال « المهالبة » و « المناذرة » ولهذا المعنى سمى أبو سفيان بن حرب : ابن عنبسة . وسمى سعيد بن العاص : ابن عنبسة .

* * *

وهذا آخر ما عثرت عليه من هذا الكتاب استخلصته بعد جهد وعناء

٣

من كتاب حجج النبوة

قال أبو عثمان :

أحمد لله الذى عرفنا نفسه وعلمنا دينه وجعلنا من الدعاة إليه والمحتجين له ، فنحن نسأله تمام النعمة والعون على أداء شكره وأن يوفقنا للحق برحمته إنه ولى ذلك والقادر عليه والمرغوب إليه فيه ، وصلى الله على محمد وسلم

ثم إنا قائلون فى الأخبار ومخبرون عن الآثار ، ومفرقون بين أسباب الشبهة وأسباب الحجة ، ثم مفرقون بين الحجة التى تلزم الخاصة دون العامة ، ومخبرون عن الضرب الذى يكون الخاصة فيه حجة على العامة ، وعن الموضع الذى يكون القليل فيه أحق بالحجة من الكثير ، ولم شاع الخبر وأصله ضعيف، ولم خفى وأصله قوى، وما الذى يؤمن من فساده وتبديله مع تقادم عصره وكثرة الطاعنين فيه، وعن الحاجة إلى رواية الآثار و إلى سماع الأخبار، وعن أخلاق الناس وآبائهم ومذاهب أسلافهم، وعن سير الملوك قبلهم وما صنعت الأيام بهم، وعن شرائع أنبيائهم وأعلام رسلهم ، وعن أدب حكمائهم وأقاويل أئمتهم وفقهائهم ، وعن حالات من غاب عن أبصارهم فى دهرهم ، ولم كان الإخبار على الناس أخف من الكتمان ، ولم كان الصمت أثقل عليهم من الكلام ، وما الضرب الذى يقدرون على كتمانه وطيه والضرب الذى لا يقدرون إلا على إذاعته ونشره ، ولم اجتمعت الأمم على الصدق فى أمور واختلفت فى غيرها ، ولم حفظت أموراً ونسيت سواها ، ولم كان الصدق أكثر من الكذب ، ولم كان الصمت أثقل والقول أفضل . والعجب من ترك الفقهاء تمييز الآثار وترك المتكلمين القول فى تصحيح الأخبار ، و بالأخبار يعرف الناس النبى من المتنبى والصادق من الكاذب ، وبها يعرفون الشريعة من السنة والفريضة من النافلة والحظر من الإباحة والاجتماع من الفرقة والشذوذ من الاستفاضة والردمن المعارضة والنار من الجنة وعامة المفسدة والمصلحة . فاذا نزلت الأخبار منازلها وقسمتها

ذكرتُ حجج الرسول صلى الله عليه وسلم ودلائله وشرائعه وسننه، ثم جنست الآثار على أقدارها ورتبتها فى مراتبها وقربت ذلك واختصرته وأوضحت عنه وبينته، حتى يستوى فى معرفتها من قل سماعه وساء حفظه، ومن كثر سماعه وجاد حفظه، بالوجوه الجلية والأدلة الاضطرارية.

ولم أرد فى هذا الكتاب جمع حجج الرسول عليه السلام وتفصيلها والقول فيها لنقص مسها أولوهن كان فى أصلها من ناقليها والمخبرين عنها، أو لأن طعن الملحدين نهكها وفرق جماعتها ونقض قواها! ولكن لأمور سأذكرها وأحتج لها. وكيف تقصر الحجة عن بلوغ الغاية وتنقص عن التمام والله تعالى المتوكل بها ومسخر أصناف البرية لها ومهيج النفوس على إبلاغها! وقد أخبر بذلك عن نفسه فى محكم كتابه عز ذكره حيث قال: «هوَ الذى أرسلَ رسُولهُ بالهدَى ودين الحق ليظهرَهُ على الدينِ كله ولو كَرِه المشركون» وأدنى منازل الإظهار إظهار الحجة على من ضاده وخالف عليه. وقال عز ذكره «يريدُونَ ليطفئُوا نورَ اللهِ بأفواهِهِمْ واللهُ متم نوره ولو كرِهَ الكافِرونَ» وأخبر أنه أمر الأحمر والأسود، ولم يكن ليأمر الأقصى كما يأمر الأدنى ويأمر الغائب على الحاضر، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام «ومَا أرْسلنَاكَ إلاَّ كافة للنَّاس بشيراً ونذيراً»

فأقول: إن كل منطيق محجوج، والحجة حجتان: عيان ظاهر، وخبر قاهر. فاذا تكلمنا فى العيان وما يفرع منه فلابد من التعارف فى أصله وفرعه منه، ولابد من التصادق فى أصله والتعارف فى فرعه، فالعقل هو المستدل، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله، ومحال كون الفرع مع عدم الأصل، وكون الاستدلال مع عدم الدليل. والعقل مضمن بالدليل والدليل مضمن بالعقل، ولابد لكل واحد منهما من صاحب، وليس لإبطال أحدهما وجه مع إيجاب الآخر. والعقل نوع واحد والدليل نوعان: أحدهما شاهد عيان يدل على غائب، والآخر مجىء خبر يدل على صدق.

ثم رجع الكلام إلى الإخبار عن دلائل النبى صلى الله عليه وسلم وأعلامه

والاحتجاج لشواهده وبرهاناته فأقول : إن السلف الذين جمعوا القرآن فى المصاحف بعد أن كان متفرقا فى الصدور ، والذين جمعوا الناس على قراءة زيد بعد أن كان غيرها مطلقاً غير محظور ، والذين حصنوه ومنعوه الزيادة والنقصان ، لو كانوا جمعوا علامات النبى صلى الله عليه وسلم وبرهاناته ودلائله وآياته وصنوف بدائعه وأنواع عجائبه فى مقامه وظعنه وعند دعائه واحتجاجه فى الجمع العظيم وبحضرة العدد الكثير الذين لا يستطيع الشك فى خبرهم إلا الغبى الجاهل والعدو المائل ، لما استطاع اليوم أن يدفع كونها وصحة مجيئها لا زنديق جاحد ولا دهرى معاند ولا متظرف ماجن ولا ضعيف مخدوع ولا حدث مغرور ، ولكان مشهوراً فى عوامنا كشهرته فى خواصنا ، ولكان استبصار جميع أعياننا فى حقهم كاستبصارهم فى باطل نصاراهم ومجوسهم ، ولما وجد الملحد موضع طمع فى غبى يستمليه وفى حدث يموه له ، ولولا كثرة ضعفائنا مع كثرة الدخلاء فينا الذين نطقوا بألسنتنا واستعانوا بعقولنا على أغبيائنا وأغمارنا لما تكلفنا كشف الظاهر وإظهار البارز والاحتجاج للواضح. إلا أن الذى دعا سلفنا إلى ذلك الاتكال على ظهورها واستفاضة أمرها ، وإذ كان ذلك كذلك فلم يؤت من أتى من جهالنا وأحداثنا وسفهائنا وخلعائنا إلا من قبل ضعف العناية وقلة المبالاة ومن قبل الحداثة والغرارة ، ومن قبل أنهم حملوا على عقولهم من دقيق الكلام قبل العلم بجليله ما لم تبلغه قواهم وتتسع له صدورهم وتحمله أقدارهم ، فذهبوا عن الحق يميناً وشمالا . لأن من لم يلزم الجادة تخبط ، ومن تناول الفرع قبل إحكام الأصل سقط ، ومن خرق بنفسه وكلفها فوق طاقتها ولم ينل ما لا يقدر عليه تعلمت منه ما كان يقدر عليه . فاذا كانوا كذلك فانما أتوا من قبل أنفسهم ولم يؤتوا من سلفهم ، أو لأن الله تبارك وتعالى صرف أسلافنا بنسيان أو غيره ليمتحن بذلك غيرهم فى آخر الزمان ، وليعرضهم لطاعته بالذب عن دينه والاحتجاج لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وليجرى هذا الخير على أيديهم كما أجرى أكثر منه على أيدى أسلافهم ، لئلا يبخس أحد خليقته من العلماء والفقهاء ، ولأن يجعل فضله مقسما بين جميع

الأولياء ، وإن كان الأول أحق بالتقديم والآخر أحق بالتأخير الذى قدموا من الاحتمال وأعطوا من المجهود ، ولأنهم أصل هذا الأمر ونحن فرعه ، والأصل أحق بالقوة من الفرع ، وهم السابقون ونحن التابعون ، وهم الذين وطئوا لنا وكلفونا ما لم نكن لنكلفه أنفسنا ، فتجرعوا دوننا المرار ومنحونا روح الكفاية ، ولأن الله تعالى اختارهم لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولأن القرآن نطق بفضيلتهم والله تعالى أعلم بمن بعدهم . والذى جمع أسلافنا الذين جمعوا الناس على قراءة زيد دون أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود ، والذين رأوا من قول عبد الله فى المعوذتين وقول أبي فى سورتى (١) العرب ومن تعلق الناس بالاختلاف فكانوا لا يزالون قد رأوا الرجل يروى الحرف الشاذ ويقرأ بالحرف الذى لا يعرفونه ، فرأوا أن تحصينه لا يتم إلا بحمل الناس على المقروء عندهم المشهور فيما بينهم ، وأنهم إن لم يشددوا فى ذلك لم ينقطع الطمع ولم ينزجر الطير . لأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة لتبين له فى نظامها ومخرجها وفى لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها ، وليس ذلك فى الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين ! ألا ترى أن الناس قد كان يتهيأ في طبائعهم ويجرى على ألسنتهم أن يقول رجل منهم : الحمد لله وإنا لله وعلى الله توكلنا وربنا الله وحسبنا الله ونعم الوكيل . وهذا كله فى القرآن غير أنه متفرق غير مجتمع . ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه ، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان . ورأوا بفهمهم وبتوفيق الله تعالى لهم أن يحصنوه مما يشكل ويمكن أن يفتعل مثله من الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين . وقد كانوا عرفوا الابتداع الكثير على البلغاء والشعراء وخافوا إن هم لم يتقدموا فى ذلك أن يتطرقوا عليه كما تطرقوا على الرواية ، لأنهم حين رأوا كثرة الرواية فى غير ذوى السابقة ورأوا كثرة اختلافها والغرائب التى لا يعرفونها لم يكن لهم إلا تحصين الشيء الذى عليه مدار الأمر وإن كانوا يعلمون

(١) كذا بالأصل . والظاهر ان بعض كلمات سقطت من الناسخ

أن الله بالغ أمره . فعلى الأئمة أن تحوط هذه الأمة كما حاط السلف أولها،وأن يعملوا بظاهر الحيطة إذ كان على الناس الاجتهاد ، وليس عليهم علم الغيوب ، و إنما ذلك كنحو رجل أبصر نبياً يحيي الموتى فعرف صدقه ، فلما انصرف سأله عنه بعض من لم ير ذلك ولا صح عنده فعليه أن لا يكتمه و إن كان يعلم أن الله تعالى سيعلمه ذلك من قبل غيره وأنه عز ذكره سيسمعه صحته على حبه وكرهه . ورأوا أن قراءة زيد أحق بذلك إذ كانت آخر العرض ، ولأن الجمع الذين سمعوا آخر العرض أكثر ممن سمع أوله . فحملوا الناس على قراءة زيد دون أبي وعبد الله ، و إن كان الكل حقا . إذ كان رُبَّ حق في بعض الزمان أقطع للقيل والقال وأجدر أن يميت الخلاف و يحسم الطمع،فتركوا حقا إلى حق العمل به أحق . ولو أن فقيهاً رأى إطباق العلماء على صوم يوم عرفة واستنكارهم الإفطار فيه فأفطر وأظهر ذلك ليعلمهم موضع الفريضة من النافلة،أو خاف أن يلحق الفرض على تطاول الأيام ماليس فيه كان مصيبا ، ولكان قد ترك حقا إلى أحق منه.وللحق درجات وللخلاف درجات وللحرام درجات . ألا ترى أن لِوَليِّ المقتول أن يقتل أو يصفح وأنه إن قتل قتل بحق و إن صفح صفح بحق ، والصفح أفضل من القتل . ولو أن رجلا أخرج ضا كنا بيتا له أواقتضى دينا له عند حلول أجله أوطلق زوجته وما دخل بها لكان ذلك له والحق فعل ؟ وغير ذلك الحق أولى به ؟ وكيف لا يكون أولى به وهو أحسن والثواب فيه أعظم وإلى سلامة الصدور أقرب ؟ وقد يكون الأمران حسنين وأحدهما أحسن ، وقد يكون الأمران قبيحين وأحدهما أقبح . و بعد فعلى الناس طاعة الأئمة في كل ما أمروا به إلا فيما تبين أنه معصية ، فأما غير ذلك فإنه واجب مفروض ولازم غير مدفوع . وعلموا أيضا أنهم لايبقون إلى أخر الزمان وأن من يجيء بعدهم لايقوم مقامهم ولا يفصل الأمور تفصيلهم ، ولو عرفوا كمعرفتهم وأرادوا ذلك كإرادتهم لما أطيعوا كطاعتهم . وعلموا أن الأكاذيب والبدع ستكثر وأن الفتن ستفتح،وأن الفساد سيفشو فكرهوا أن يجعلوا للمتطرقين علة ولأهل الزيغ

حجة ، بل لاشك أنهم لو تركوا الناس عامة يقرؤن على حرف فلان وكما أجاز في فلان عن فلان لألحق قوم في آخر الزمان بهم من ليس منهم ولا يجرى مجراهم ولا يجوز مجازهم

فصل منه في الاحتجاج للجمع على قراءة زيد

ولو كان زيد من آل أبي العاص أو من عرض بني أمية لوجد ابن مسعود متعلقاً ، ولو كان بدل زيد عبد الرحمن بن عوف لوجد إلى القول سبيلا ، ولو كان [غير] ابن مسعود رجلا من بني هاشم لوجد للطعن موضعا ، ولو كان عثمان رضي الله تعالى عنه استبد بذلك الرأي على علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وسعد وطلحة والزبير رحمهم الله وجميع المهاجرين والأنصار لوجد للتهمة مساغا . فأما والأمر كما وصفنا وبينا فما الطاعن على عثمان إلا رجل أخطأ خطة الحق وعجل على صاحبه ، ولكل بني آدم من الخطأ نصيب والله عز ذكره يغفر له ويرحمه . والذى يخطىء عثمان في ذلك فقد خطأ عليا وعبد الرحمن وسعدا والزبير وطلحة وما عليه الصحابة . ولو لم يكن ذلك رأى على لغيره ، ولو لم يمكنه التغيير لقال فيه ، ولو لم يمكنه في زمن عثمان لأمكنه في زمن نفسه ، وكان لا أقل من إظهار الحجة إن لم يملك تحويل الأمة ، وكان لاأقل من التجربة إن لم يكن من النجح على ثقة ، بل لم يكن لعثمان في ذلك مالم يكن لجميع الصحابة وأهل القدم والقدوة . ومع أن الوجه فيما صنعوا واضح بل لا نجد لما صنعوا وجها غير الاصابة والاحتياط والإشفاق والنظر للعواقب وحسم طعن الطاعن . ولو لم يكن ماصنعوا لله تعالى فيه رضا لما اجتمع عليه أول هذه الأمة وآخرها . وإن أمرا اجتمعت عليه المعتزلة والشيعة والخوارج والمرجئة لظاهر الصواب واضح البرهان على اختلاف أهوائهم وبغيهم لكل ماورد عليهم . فان قال قائل : هذه الروافض بأسرها تأبى ذلك وتنكره وتطعن فيه وترى تغييره؟ قلنا : إن الروافض ليست منا بسبيل ، لأن من كان أذانه غير أذاننا وصلاته غير صلاتنا وطلاقه غير طلاقنا وعتقه غير عتقنا وحجته غير حجتنا وفقهاؤه غير فقهائنا وإمامه غير

إمامنا وقراءته غير قراءتنا وحلاله غير حلالنا وحرامه غير حرامنا فلا نحن منه ولا هو منا . ولأى شيء جانب عن قراءة ابن مسعود ؟ فوالله ما كان أحد أفرط فى العمر يةمنه ولا أشد على الشيعة منه ! ولقد بلغ من حبه لعمر رضى الله تعالى عنه أن قال: لقد خشيت الله تعالى في حبي لعمر ! فلم يحامون عنه وهو كان شجاهم لو أدركهم

فصل منه : فأمن الله رجلا فارقهم ولزم الجماعة ، فان فيها الانس والحجة، وترك الفرقة فان فيها الوحشة والشبهة . والحمد لله الذى جعلنا لا نفرق بين أئمتنا كما جعلنا لا نفرق بين أنبيائنا .

فصل منه : والذى دعانا إلى تأليف حجج الرسول ونظمها و جمع وجوهها وتدوينها أنها متى كانت مجموعة منظومة نشط لحفظها وتفهمها من كان عسى أن لا ينشط لجمعها ولا يقدر على نظمها وجمع متفرقها، وعلى اللفظ المؤثر عنها، ومن كان عسى أن لا يعرف وجه مطلبها والوقوع عليها ، ولعل بعض الناس يعرف بعضها و يجهل بعضها ، ولعل بعضهم و إن كان قد عرفها بحقها وصدقها فلم يعرفها من أسهل طرقها وأقرب وجوهها، ولعل بعضهم أن يكون قد كان عرف فنسى أو تهاون بها فعمى، بل لا نشك أنها إذا كانت مجموعة محبرة مستقصاة مفصلة إنها ستزيد فى بصيرة العالم ، و يجمع الكل لمن كان لا يعرف إلا البعض ويذكر الناس ويكون عدة على الطاعن ، ولعل بعض من ألحد فى دينه وعمى عن رشده وأخطأ موضع حظه أن يدعوه العجب بنفسه والثقة بما عنده إلى أن يلتمس قراءتها ليتقدم فى نقضها و إفسادها فإذا قرأها فهمها و إذا فهمها انتبه من رقدته وأفاق من سكرته لعز الحق وذل الباطل ولإشراف الحجة على الشبهة، ولأن من تفرد بكتاب فقرأه ليس كمن نازع صاحبه وجافاه ، لأن الانسان لا يباهى بنفسه والحق بعد قاهر له ، ومع التلاقى يحدث التباهى وفى المحافل يقل الخضوع و يشتد النزوع .

ثم رجع الكلام إلى حاجة الناس إلى استماع الأخبار والتفقه فى تصحيح الآثار فأقول: إن الناس قد استغنوا عن التكرير وكفوا مؤنة البحث والتنقير لقلة

اعتبارهم، ومن قل اعتباره قل علمه، ومن قل علمه قل فضله، ومن قل فضله كثر نقصه، ومن قل علمه وفضله وكثر نقصه لم يحمد على خير أتاه ولم يذم على شر جناه ولم يجد طعم العز ولا سرور الظفر ولا روح الرجاء ولا برد اليقين ولا راحة الأمن. وكيف يشكر من لا يقصد، وكيف يلام من لا يتعمد، وكيف يقصد من لا يعلم، وماعسى أن يبلغ قدر سرور من لا يحس من السرور إلا بما سرت به حواسه ومسه جلده! وكيف يأتى أربح الأفعال وأبعد الشرين من ركب شراسة السباع وغباوة البهائم ثم لم يعط الآلة التى بها يستطيع التفرقة بين ما عليه وله والعلم بمصالحه ومفاسده فيقوى بها على عصيان طبائعه ومخالفة شهواته، وبها يعرف عواقب الأمور وما تأتى به الدهور، وفضل لذة القلب على لذة البدن، وأن سرور الجاهل لا يحسن فى جنب سرور العالم، وأن لذة البهائم لا تعادل لذة الحكيم العالم، وأى سرور كسرور العز والرياسة واتساع المعرفة وكثرة صواب الرأى والنجح الذى لا سبب له إلا حسن النظر والتقدم فى التدبير ثم العلم بالله وحده وأنك بعرض ولايته والجاه عنده وأنه الذى يرعاك ويكفيك وأنك إذا عملت اليسير أعطاك الكثير ومتى تركت له الفانى أعطاك الباقى ومتى أدبرت عنه دعاك ومتى رجعت إليه اجتباك، ويحمدك على حقك ويعطيك على نظرك لنفسك ولا يغنيك إلا ليقيك ولا يميتك إلا ليحييك ولا يمنعك إلا ليعطيك، وأنه المبتدىء بالنعمة قبل السؤال والناظر لك فى كل حال، وهذا كله لا ينال إلا بغريزة العقل، على أن الغريزة لا تنال ذلك بنفسها [بل] بما باشرته حواسها دون النظر والتفكر والبحث والتصفح، ولن ينظر ناظر ولا يفكر مفكر دون الحاجة التى تبعث على الفكرة وعلى طلب الحيلة. ولذلك وضع الله تعالى فى الإنسان طبيعة الغضب وطبيعة الرضا والبخل والسخاء والجزع والصبر والرياء والاخلاص والكبر والتواضع والسخط والقناعة، فجعلها عروقا، ولن تفى قوة غريزة العقل لجميع قوى طبائعه وشهواته حتى يقيم ما اعوج منها ويسكن ما تحرك دون النظر الطويل الذى يشدها والبحث الشديد الذى يشحذها والتجارب التى تحنكها والفوائد التى تزيد فيها، ولن يكثر النظر حتى

تكثر الخواطر، ولن تكثر الخواطر حتى تكثر الحوائج، ولن تبعد الروية إلا لبعد الغاية وشدة الحاجة .

ولو أن الناس تركوا وقدر قوى غرائزهم ولم يهاجوا بالحاجة على طلب مصلحتهم والتفكر فى معاشهم وعواقب أمورهم وألجئوا إلى قدر خواطرهم التى تولدها مباشرة حواسهم دون أن يسمعهم الله خواطر الأولين وأدب السلف المتقدمين وكتب رب العالمين لما أدركوا من العلم إلا اليسير ولما ميزوا من الأمور إلا القليل ، ولولا أن الله تعالى أراد تشريف العالم وتربيته وتسويد العاقل ورفع قدره وأن يجعله حكيما وبالعواقب عالما لما سخر له كل شىء ولم يسخره لشىء ولما طبعه الطبع الذى يجىء منه أريب حكيم وعالم حليم ، كما أنه عز ذكره لو أراد أن يكون الطفل عاقلا والمجنون عالما لطبعهم طبع العاقل ولسواهم تسوية العالم، كما أراد أن يكون السبع وثابا والحديد قاطعاً والسم قاتلا والغذاء مقيما ،فكذلك أراد أن يكون المطبوع على المعرفة عالما والمهيأ للحكمة حكيما وذو الدليل مستدلا وذو النعمة مستنفعاً بها ،فلما علم الله تبارك وتعالى أن الناس لا يدركون مصالحهم بأنفسهم ولا يشعرون بعواقب أمورهم بغرائزهم دون أن يرد عليهم آداب المرسلين وكتب الأولين والإخبار عن القرون والجبابرة الماضين طبع كل قرن من الناس على إخبار من يليه ووضع القرن الثانى دليلا يعلم به صدق خبر الأول ، لأن كثرة السماع للاخبار العجيبة والمعانى الغريبة مشحذة للأذهان ومادة للقلوب وسبب للتفكير وعلة للتنقير عن الأمور ، وأكثر الناس سماعا أكثرهم خواطر ،وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكراً، وأكثرهم تفكراً أكثرهم علما ، وأكثرهم علما أرجحهم عملا ، كما أن أكثر البصراء رؤية للأعاجيب أكثرهم تجاربا ! ولذلك صار البصير أكثر خواطر من الأعمى ، وصار البصير السميع أكثر خواطر من البصير الأصم . وعلى قدر شدة الحاجة تكون الحركة، وعلى قدر ضعف الحاجة يكون السكون . كما أن الراجى والخائف دائبان، والآيس والآمن وادعان . وإذا كان الله تعالى لم يخلق عباده فى طبع عيسى بن مريم

ويحيى بن زكريا وآدم أبي البشر صلوات الله عليهم أجمعين ، وخلقهم ناقصين وعن درك مصالحهم عاجزين وأراد منهم العبادة وكلفهم الطاعة وترك العيان للأمل البعيد وأرسل اليهم رسله وبعث فيهم أنبياءه وقال « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ولم يشهد أكثر عباده حجج رسله عليهم السلام ولا أحضرهم عجائب أنبيائه ولا أسمعهم احتجاجهم ولا أراهم تدبيرهم ، لم يكن بد من أن يطلع المعاينين على أخبار الغائبين ، وأن يسخر أسماع الغائبين لاخبار المعاندين ، وأن يخالف بين طبائع المخبرين وعلل الناقلين ليدل السامعين ومن يحبب من الناس على أن العدد الكثير المختلفي العلل المتضادى الأسباب المتفاوتي الهمم لايتفقون على تخرص الخبر فى المعنى الواحد ، وكما لا يتفقون على تخرص الخبر فى المعنى الواحد على غير التلاقى والتراسل إلا وهو حق فكذلك لايمكن مثلهم فى مثل عللهم التلاقى عليه والتراسل فيه ، ولو كان تلاقيهم ممكنا وتراسلهم جائزاً لظهر ذلك وفشا واستفاض وبدا ، ولو كان ذلك أيضا ممكنا وكان قولا متوهما لبطلت الحجة ولنقضت العادة ولفسدت العبرة ولعادت النفس بعلة الإخبار جاهلة ، ولكان للناس على الله أعظم الحجة ، وقد قال الله عز وجل « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » اذا كلفهم طاعة رسله وتصديق أنبيائه ورسله وكتبه والايمان بجنته وناره ولم يضع لهم دليلا على صدق الأخبار وامتناع الغلط فى الآثار ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

واعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ، ولم يحب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم ، لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة وكانوا مجبرين فى الأمور المتفقة والمختلفة لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة ، وفى هذا ذهاب العيش وبطلان المصلحة والبوار والتواء ، ولو لم يكونوا مسخرين بالأسباب مرتهنين بالعلل لرغبوا عن الحجامة أجمعين وعن البيطرة والقصابة والدباغة ، ولكن لكل صنف من الناس مزين عندهم ماهم فيه ومسهل ذلك عليهم . فالحائك

إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء حذق أو خرقا قال له ياحجام ، والحجام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له يا حائك . ولذلك لم يجمعوا على إسلام أبنائهم فى غير الحيا كة والحجامة والبيطرة والقصابة ، ولولا أن الله تعالى أرادأن يجعل الاختلاف سببا للاتفاق والائتلاف لما جعل واحداً قصيراً وآخر طويلا،وواحداً حسناًوالآخر قبيحاً،وواحداً غنياً وآخر فقيراً،وواحداًعاقلا وآخرمجنونا،وواحداً زكيا وآخر غبياً ، ولكن خالف بينهم ليختبرهم، وبالاختبار يطيعون وبالطاعة يسعدون ، ففرق بينهم ليجمعهم وأحب أن يجمعهم على الطاعة ليجمعهم على المثوبة . فسبحانه وتعالى ما أحسن ما أبلى وأولى وأحكم ماصنع وأتقن مادبر .لأن الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة ، ولو رغبوا بأجمعهم عن كد البناء لبقينا بالعراء ، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات ولبطل أصل المعاش . فسخرهم على غير إكراه ورغبهم من غير دعاء .ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها ومن البلاد إلا أعدلها ومن الأمصار إلا أوسطها ، ولو كان كذلك لتناجزوا على طلب الواسط وتشاجروا على البلاد العليا ولما وسعهم بلد ولما تم بينهم صلح ، فقد صار بهم التسخير إلى غاية القناعة . وكيف لا يكون كذلك وأنت لو حولت ساكنى الآجام إلى الفيافى وساكنى السهل إلى الجبال وساكنى الجبال إلى البحار وساكنى الوبر إلى المدر لأذاب قلوبهم الهم ولأتى عليهم فرط النزاع ، وقد قيل : عمر الله البلدان بحب الأوطان . وقال عبدالله بن الزبير رحمه الله تعالى : ليس الناس بشىء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم . وقال معاوية فى قوم من اليمن رجعوا إلى بلادهم بعد أن أنزلهم من الشام منزلا خصيباً وفرض لهم فى شؤون العطاء : يصلون أوطانهم بقطيعة أنفسهم . وقال الله جل وعز « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه إلا قليل منهم » فقرن الضن بالأوطان إلى الضن بمهج النفوس وليس على ظهرها إنسان إلا وهو معجب بعقله لا يسره أن له بجميع ماله ما لغيره ، ولولا ذلك لماتوا كمداً ولذابوا حسداً . ولكن

كل إنسان وإن كان يرى أنه حاسد فى شىء فهو يرى أنه محسود فى شىء

ولولا اختلاف الاسباب لتنازعوا بلدة واحدة واسما واحداً وكنية واحدة فقد صاروا كما ترى مع اختيار الأشياء المختلفة إلى الأسماء القبيحة والألقاب السمجة. والأسماء مبذولة والصناعات مباحة والمتاجر مطلقة ووجوه الطرق مخلاة، ولكنها مطلقة فى الظاهر مقسمة فى الباطن، وإن كانوا لا يشعرون بالذي دبره الحكيم من ذلك ولا بالمصلحة فيه، فسبحان من حبب إلى واحد أن يسمى ابنه محمداً وحبب إلى آخر أن يسميه شيطانا وحبب إلى آخر أن يسميه عبد الله وحبب إلى آخر أن يسميه حماراً، لأن الناس لولم يخالف بين عللهم فى اختيار الاسماء وجاز أن يجتمعوا على شىء واحد كان فى ذلك بطلان العلامات وفساد المعاملات. وأنت إذا رأيت ألوانهم وشمائلهم واختلاف صورهم وسمعت لغاتهم ونغمهم علمت أن طبائعهم وعللهم المحجوبة الباطنة على حسب أمورهم الظاهرة. وبعض الناس وإن كانوا مسخرين للحياكة فليس بمسخر للفسق والخيانة والاحكام والصدق والأمانة. وقد يسخر الملك لقوم بأسباب قديمة وأسباب حديثة فلا يزال ذلك الملك مقصوراً عليهم مادامت تلك الأسباب قائمة، فليس إذا كانوا للملك مسخرين وكان الناس لهم مسخرين بالجبرية والنخوة والفظاظة والقسوة ولطول الاحتجاب والاستتار وسوء اللقاء والتضييع، وقد يكون الانسان مسخراً لأمر ومخيراً فى آخر ولولا الأمر والنهى لجاز التسخير فى دقيق الأمور وجليلها وخفيها وظاهرها، لأن بنى الإنسان إنما سخروا له إرادة العائدة عليهم ولم يسخروا للمعصية كما لم يسخروا للمفسدة. وقد تستوى الأسباب فى مواضع وتتفاوت فى مواضع، كل ذلك ليجمع الله تعالى لهم مصالح الدنيا ومراشد الدين، ألا ترى أن أمة قد اجتمعت على أن عيسى عليه السلام هو الله، وأمة قد اجتمعت على أنه ابن الله، وأمة اجتمعت على أن الآلهة ثلاثة عيسى أحدها، ومنهم من يتذبذب، ومنهم من يتدهر، ومنهم من يتحول نسطوريا بعد أن كان يعقوبياً، ومنهم من أسلم بعد أن كان نصرانياً! ولست واجداً هذه الأمة مع اختلاف مذاهبها وكثرة تنقلها

انتقلت مرة واختلفت مرة متعمدة أو ناسية فى يوم واحد فجعلته وهو الجمعة يوم السبت . ولم تخطب فى يوم جمعة بخطبة يوم خميس ، ولا غلطت فى كانون الأول فجعلته كانون الآخر ، ولا بين الصوم والافطار، لأن الباب الأول فى باب الامكان وتعديل الأسباب والامتحان ، والباب الثانى داخل فى باب الامتناع وتسخير النفوس وطرح الامتحان . وقد زعم ناس من الجهال ونفر من الشكاك ممن يزعم أن الشك واجب في كل شيء إلا في العيان أن أهل المنصورة وافوا مصلاهم يوم خميس على أنه يوم الجمعة فى زمن منصورى ، وأن أهل البحرين جلسوا عن مصلاهم يوم الجمعة على أنه يوم خميس فى زمن أبى جعفر فبعث إليهم وقومهم. وهذا لا يجوز ولا يمكن فى أهل الامصار ولا فى العدد الكثير من أهل القرى، لأن الناس من بين صانع لا يأخذ أجرته ولا راحة له دون الجمعة ، وبين تجار قد اعتادوا الدعة فى الجمع والجلوس عن الأسواق ، ومن بين معلم كتاب لا يصرف غلمانه إلا فى الجمع، ومن بين معنى بالجمع يتلاقى هناك مع المعارف والاخوان والجلساء ، و بين معنى بالجمع حرصاً على الصلاة و رغبة فى الثواب ، ومن رجل عليه موعد ينتظره ، ومن صيرفى يصرف ذلك اليوم سفاتجه وكتب أصحابه ، ومن جندى فهو يعرف بذلك نو بته ، و بعض كالسؤال والمساكين والقصاص الذين يعدون أعناقهم للجمعة انتظاراً للصدقة والفائدة ، فى أمور كثيرة وأسباب مشهورة . ولو جاز ذلك فى أهل البحرين والمنصورة لجاز ذلك على أهل البصرة والكوفة، ولو جاز ذلك فى الأيام لكان فى الشهور أجوز ، ولو جاز ذلك فى الشهور لكان فى السنين أجوز، وفى ذلك فساد الحج والصوم والصلاة والزكاة والأعياد . ولو كان ذلك جائزاً لجاز أن يتفق الشعراء على قصيدة واحدة ، والخطباء على خطبة واحدة ، والكتاب على رسالة واحدة ، بل جميع الناس على لفظة واحدة . و إنما نزلت لك حالات الناس وخبرتك عن طبائعهم وفسرت لك عللهم لتعلم أن العدد الكثير لا يتفقون على

تحرص الخبر الواحد فى المعنى الواحد فى الزمن الواحد على غير التشاعر فيكون باطلا وسأبين لك موضع اختلافهم واتفاقهم وأنه لم يخالف بينهم فى بعض الوجوه إلا أرهاصاً لمصلحتهم ولتصح أخبارهم . ألا ترى أن أحداً لم يبع قط سلعة بدرهم إلا وهو يرى أن ذلك الدرهم خير له من سلعته ، ولم يشتر أحد قط سلعة بدرهم إلا وهو يرى أن تلك السلعة خير له من درهمه ، ولو كان صاحب السلعة يرى فى سلعته ما يرى فيها صاحب الدرهم وكان صاحب الدرهم يرى فى الدرهم ما يرى فيه صاحب السلعة مااتفق بينهما شراء أبداً ولا بيع أبداً ، وفى هذا جميع المفسدة وغاية الهلكة . فسبحان الذى حبب إلينا ما فى أيدي غيرنا وحبب إلى غيرنا ما فى أيدينا ليقع التبايع ، وإذا وقع التبايع وقع التراجح ، وإذا وقع التراجح وقع التعايش . ويدلك أيضاً على اختلاف طبائعهم وأسبابهم أنك تجد الجماعة و بين أيديهم الفاكهة والرطب فلا تجد يدين تلتقيان على رطبة بعينها وكل واحد من الجميع يرى ما حواه الطبق غير أن شهوته وقعت على واحدة غير التى آثرها صاحبه ، ولربما سبق الرجل إلى الواحدة وقد كان صاحبه يريدها فى نفسه غير أن ذلك لا يكون إلا فى الفرط ، ولو كانت شهواتهم ودواعيهم تتفق على واحدة بعينها لكان فى ذلك التمانع والتجاذب والمبادرة وسوء المخالطة والمؤاكلة . وكذلك هو فى شهوة النساء والإماء والمراكب والكسا . وهذا كثير والعلم به قليل ، و بأقل مما قلنا يعرف العاقل صواب مذهبنا ، والله تعالى نسأل التوفيق وهو الذى خالف بين طبائعهم وأسبابهم حتى لا يتفق على تحرص خبر واحد ، لأن فى اتفاق طبائعهم وأسبابهم فى جهة الأخبار فساد أمورهم وقلة فوائدهم واعتبارهم ، وفى فساد أخبارهم فساد متاجرهم والعلم بما غاب عن أبصارهم و بطلان المعرفة بأنبيائهم ورسلهم عليهم السلام ووعدهم ووعيدهم وأمرهم ونهيهم وزجرهم ورغبتهم وحدودهم وقصاصهم الذى هو حياتهم ، والذى يعدل طبائعهم ويسوى أخلاقهم ويقوى أسبابهم والذى به يتمانعون من تواثب السباع وقلة احتراس البهائم و إضاعة الأعمار ، و به تكثر خواطرهم وتفكيرهم وتحسن معرفتهم

ولم نقل إن العدد الكثير لايجتمعون على الخبر الباطل كالتكذيب والتصديق، ونحن قد نجد اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والدهرية وعباد البددة يكذبون النبي صلى الله عليه وسلم وينكرون آياته وأعلامه ، ويقولون لم يأت بشىء ولا بان بشىء . وإنما قلنا إن العدد الكثير لايتفقون على نفى مثل إخبارهم أن محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب التهامى الأبطحى عليه السلام خرج بمكة ودعا إلى كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا وأباح كذا ، وجاء بهذا الكتاب الذى نقرؤه فوجب العمل بما فيه وأنه تحدى البلغاء والخطباء والشعراء بنظمه وتأليفه فى المواضع الكثيرة والمحافل العظيمة فلم يرُم ذلك أحد ولا تكلفه ولا أتى ببعضه ولا شبيه منه ولا ادعى أنه قد فعل،فيكون ذلك الخبر باطلا ، وليس قول جمعهم أنه كان كاذبا معارضة لهذا الخبر إلا أن يسموا الانكار معارضة، وإنما المعارضة مثل الموازنة والمكايلة، فمتى قابلونا بأخبار فى وزن أخبارنا ومخرجها ومجيئها فقد عارضونا ووازنونا وكايلونا وقد تكافينا وتدافعنا . فاما الانكار فليس بحجة كما أن الاقرار ليس بحجة ، ولا تصديقنا النبى صلى الله عليه وسلم حجة على غيرنا ولا تكذيب غيرنا له حجة علينا ، وإنما الحجة فى المجىء الذى لايمكن فى الباطل مثله.

فان قلت : وأى مجىء أثبت [من] خبر النصارى عن عيسى بن مريم عليه السلام ! وذلك أنك لو سألت النصارى مجتمعين ومتفرقين لخبروك عن أسلافهم أن عيسى قد قال إنى إله ؟

قلنا : قد علمنا أن نصارى عصرنا لم يكذبوا على القرن الذي كان قبلهم والذين كانوا يلونهم ، ولكن الدليل على أن أصل خبرهم ليس كفرعه أن عيسى عليه السلام لو قال إنى إله لما أعطاه الله تعالى إحياء الموتى والمشى على الماء ! على أن فى عيسى عليه السلام دلالة فى نفسه أنه ليس بالله وأنه عبد مدبر ومقهور ميسر . وليس خبرهم هذا إلا كإخبار النصارى عن آبائهم والقرن الذى يليهم أن بولس قد كان

جاء بالآيات والعلامات . وكإخبار المانوية عن القرن الذى كان يليهم منهم أن مانى قد كان جاءهم بالآيات والعلامات، وكإخبار المجوس عن آبائهم والذين كانوا يلونهم أن زرادشت قد جاءهم بالآيات والعلامات. وقد علمنا أن هؤلاء النصارى لم يكذبوا على القرن الذى كان يليهم ولا الزنادقة ولا المجوس ، ولكن الدليل على أصل خبرهم ليس كفرعه . لأن الله تعالى جل وعز لا يعطى العلامات من لا يعرفه . لأن بولس إن كان عنده أن عيسى عليه السلام إلٰه فهو لا يعرف الله تعالى بل لا يعرف الربوبية من العبودية والبشرية من الالٰهية

فصل منه — وللنصارى خاصة رياء عجيب وظاهر زهد ، والناس أبطأ شىء عن التصفح وأسرع شىء إلى تقليد صاحب السن والسمت ، وظاهر العمل أدعى لهم من العلم .

فصل منه على ذكرهم — وكل قوم بنو على حب الاشكال والشغف بالرجال يشتد وجدهم به وحبهم له حتى ينقلب الحب عشقا والوجد صبابة ، للمشاكلة التى بين النفوس ، وعلى قدر ذلك يكون البغض والحقد ، لأن النصارى حين جعلوا ربهم إنسانا مثلهم بخعت نفوسهم بالاهيتهم له لتوهمهم الربوبية ، وسمحت بالمودة لتوهمهم البشرية . فلذلك قدروا من العبادة على مالم يقدر عليه سواهم ، وبمثل هذا السبب صارت المشبهة منا أعبد ممن ينفى التشبيه، حتى ربما رأيت المشبه يتنفس من الشوق إليه ويشهق عند ذكر الزيارة ويبكى عند ذكر الرؤية ويغشى عليه عند ذكر رفع الحجب ! وما ظنك بشوق من طمع فى مجالسة ربه جل جلاله ومحادثة خالقه عز ذكره ! ؟ ولقد غالت القوم غول ودعاهم أمر فانظر ماهو ؟ وإن سألتنى عنه خبرتك أنما هو نتيجة أحد أمرين : إما تقليد الرجال ، وإما طلب تعظيمهم . ولذلك السبب لم ترض اليهود من إنكار حق عيسى بتكذيبه حتى طلبت قتله وصلبه والمثلة به ، ثم لم ترض بذلك حتى زعمت أنه لغير رشدة . فلو كانت دون هذه المنزلة منزلة لما انتهت اليهود دون بلوغها ، ولو كانت فوق ماقالت النصارى

منزله لما انتهت دون غايتها . وبذلك السبب صارت الرافضة أشد صبابة وتحرقا وأفرط غضباً وأدوم حقداً وأحسن تواصلا من غيرهم أيضا . ورب خبر قد كان فاشيا فدخل عليه من العلل ما منعه من الشهرة ، ورب خبر ضعيف الأصل واهن المخرج قد تهيأ له من الأسباب ما يوجب الشهرة .

فصل منه : واعلم أن لأكثر الشعر ظعنا وحظوظا ، كالبيت يحظى ويسير حتى يحظى صاحبه بحظه،وغيره من الشعر أجود منه . وكالمثل يحظى ويسير وغيره من الأمثال أجود . وما ضاع من كلام الناس وضل أكثر مما حفظ وحكى . واعتبر ذلك من نفسك وصديقك وجليسك . وأمر الأسباب عجيب.ومن ذلك قتل على بن أبى طالب من السادة والقادة والحماة ماعسى لو ذكرته لاستكبرته واستعظمته. فأضرب الناس عن ذكرهم وجهلت العوام مواضعهم وأخذوا فى ذكر عمرو بن عبد ود فرفعوه فوق كل فارس مشهور وقائد مذكور.وقد قرأت على العلماء كتاب الفجار الأول والثانى والثالث وأمر المطيبين والأحلاف ومقبل أبي أزيهر ومجىء الفيل وكل يوم جمع كان لقريش فما سمعت لعمرو هذا فى شىء من ذلك ذكراً .

فإن قلت:إن نبل القاتل زيادة فى نبل المقتول فكل من قتله على بن أبى طالب رضوان الله تعالى عليه أنبل منه وأحق بالشهرة ، ولكن أشعار ابن ود ومناقلة الصبيان فى الكتاب هما اللتان أورثناه ما ترى وتسمع

فصل منه فى أمر الأخبار — وإنما ذكرت هذا لتعلم أن الخبر قد يكون أصله ضعيفا ثم يعود قويا ويكون أصله قويا فيعود ضعيفا ، للذى يعتريه من الأسباب ويحل به من الاعراض من لدن مخرجه وفصوله إلى أن يبلغ مدته ومنتهى أجله وغاية التدبير فيه والمصلحة عليه ، فلما كان هذا مخوفا وكان غير مأمون على المتقادم منه وضع الله تعالى لنا على رأس كل فترة علامة وعلى غاية كل مدة أمارة ليعيد قوة الخبر ويجدد ما قدهم بالدروس من أنباء المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين،لأن نوحا عليه السلام هو الذى جدد الأخبار التى كانت فى الدهر الذى

بينه و بين آدم عليه السلام حتى منعها الخلل وحماها النقصان بالشواهد الصادقة والامارات القائمة . وليس أن أخبارهم وحججهم قد كانت درست وأخلقت ! بل حين همت بذلك وكادت بعثه الله عز وجل بآياته لئلا تخلو الأرض من حججه ، ولذلك سموا آخر الدهر الفترة ، و بين الفترة والقطعة فرق . فاعرف ذلك . ثم بعث الله عز وجل إبراهيم عليه السلام على رأس الفترة الثانية التى كانت بينه و بين دهر نوح ، وإنما جعلها الله تعالى أطول فترة كانت فى الأرض لأن نوحا كان لبث فى قومه يحتج ويخبر و يؤكد و يبين ألف سنة إلا خمسين عاما ، ولأن آخر آياته كانت أعظم الآيات وهى الطوفان الذى أغرق الله تعالى به جميع أهل الأرض ، غيره وغير شيعته ، وإنما فار الماء من جوف تنور ليكون أعجب للآية وأشهر للقصة وأثبت للحجة . ثم ما زالت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بعضهم على أثر بعض فى الدهر الذى بين إبراهيم و بين عيسى عليهما السلام فلترادف حججهم وتظاهر أعلامهم وكثرة أخبارهم واستفاضة أمورهم ولشدة ما تأكد ذلك في القلوب ورسخ فى النفوس وظهر على الألسنة لم يدخلها الخلل والنقص والفساد فى الدهر الذى كان بين النبى عليه الصلاة والسلام و بين عيسى عليه السلام ، فحين همت بالضعف و كادت تنقص عن التمام وانتهت قوتها بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم فجدد أقاصيص آدم ونوح وموسى وهرون وعيسى ويحيى عليهم السلام ، وأموراً بين ذلك ، وهو الصادق بالشواهد الصادقة وأن الساعة آتية وأنه ختم الرسل عليهم السلام به ، فعلمنا عند ذلك أن حجته ستبقى الى مدتها و بلوغ أمر الله عز وجل فيها

فصل منه : ثم رجع الكلام إلى القول فى الأخبار فأقول : إن الناس موكلون بحكاية كل عجيب وميسرون للاخبار عن كل عظيم ، وليسوا للحسن أحكى منهم للقبيح ، ولا لما ينفع أحكى منهم لما يضر ، وعلى قدر كبر الشيخ تكون حكايتهم له واستماعهم منه ، ألا ترى أن رجلا من الخلفاء لو ضرب عنق رجل من العظماء لما

أمسى وفى عسكره أو بلدته جاهل ولا عالم إلا وقد استقر ذلك عنده وثبت فى قلبه ؛ لأن الناس بين حاسد فهو يحكى ذلك الذى دخل عليه من الشكل وقلة العدد ، و بين واجد يعجب الناس ، و بين واعظ معتبر ، و بين قوم شأنهم الأراجيف بالفاسد والصالح ، ولو كان ضرب عنقه فى يوم عيد أو حلبة أو استمطار أو موسم لـكان أشد لاستفاضته وأسرع لظهور ، ولو جاز أن يكتم الناس هـذا وشبهه على الايثار الكتمان وعلى جهة النسيان لـكنا لاندرى لعله قد كان فى زمن صفين والجمل والنهروان حرب مثلها أو أشد منها ، ولـكن الناس آثروا الكتمان واتفقوا على النسيان ، فاذا كان قتل الملك للرجل من العظماء بهذه المنزلة من قلوب الأعداء ومن قلوب الحكماء والغوغاء ، فما ظنك بمن لو أبصروا رجلا قد أحياه بعد أن ضرب عنقه وأبان رأسه من جسده ! أليس يكون تعجبهم من إحيائه أشد من تعجبهم من قتله ! ؟ وكان يكون إخبارهم من خلفوا فى منازلهم ومن ورد عليهم عن القتل ليكون سبباً للاخبار عن الإحياء ، إذ كان الأول صغيرا فى جنب الثانى ! فهذا يدل على أن أعلام الرسل عليهم الصلاة والسلام وآياتهم أحق بالظهور والشهرة والقهر للقلوب والأسماع من مخارجهم وشرائعهم ، بل قد نعلم أن موسى عليه السلام لم يذكر ولم يشهر إلا لأعاجيبه وآياته ، وكذلك عيسى عليه السلام . ولولا ذلك لما كانا إلا كغيرهما ممن لايشعر بموته ولامولده . وكيف تتقدم المعرفة بهما المعرفة بأعلامهما وأعاجيبهما وأنت لم تسمع بذكرهما قط دون ما ذكر من أعلامهما ! فاذا كان شأن الناس الاخبار عن كل عجيب وحكاية كل عظيم والإطراف بكل طريف و إيراد كل غريب من أمور دنياهم فما لا يمتنع فى طبائعهم ولا يخرج من قوى الخليقة فى البطش والحيلة أحق بالاخبار والاذاعة وبالاظهار والافاضة . هذا على أن يترك الطباع وما تولد عليه والنفوس وما تنتج والعلل ومايسخر، فكيف إن كان الله عز وجل قد خص أعلام أنبيائه وآيات رسله عليهم السلام من تهييج الناس على الاخبار عنها ومن تسخير الأسماع لحفظها بخاصة لم يجعلها لغيرها

فصل منه : فان قال قائل : إن الحجة لاتكون حجة حتى تعجز الخليقة وتخرج من حد الطاقة كإحياء الموتى والمشى على الماء وكفلق البحر وكاطعام الثمار فى غير أوان الثمار وكانطاق السباع وإشباع الكثير من القليل، وكما كان جسما مخترعاً وجرما مبتدعاً، وكالذى لا يجوز أن يتولاه إلا الخالق ولا يقدر عليه إلا الله عز وجل ذكره ، فأما الأخبار التى هى أفعال العباد وهم تولوها وبهم كانت وبقولهم حدثت فلا يجوز أن يكون حجة إذ كان لا حجة إلا مالا يقدر عليه الخليقة ومالا يتوهم من جميع البرية ؟

قلنا : إنا لم نزعم أن الأخبار حجة فيحتجوا علينا بها ، وإنما زعمنا أن مجيئها حجة، والمجىء ليس هو أمر يتكلفه الناس ويختارونه على غيره ، ولو كان كذلك لكانوا متى أرادوه فعلوه وتهيئوا له، ولفعلوه فى الباطل كما يجىء لهم فى الحق . والمجىء أيضاً ليس هو فعلا قائماً فيستطيعوه أو يعجزوا عنه، وإنما هو أن الانسان يعلم أنه إذا لقى البصريين فأخبروه أنهم قد عاينوا بمكة شيئاً ثم لقى الكوفيين فأخبروه بمثل ذلك ، أنهم قد صدقوا، إذ كان مثلهم لا يتواطأ على مثل خبرهم على جهلهم بالغيب وعلى اختلاف طبائعهم وهممهم وأسبابهم . فليس بين هذا وبين إحياء الموتى والمشى على الماء فرق ، إذ كان الناس لا يقدرون عليه ولا يطمعون فيه. والمجىء إنما هو معنى معقول وشىء موهوم إذا كان وكيف يكون، ومعلوم أن الناس لا يمكنهم أن يقدروا عليه ولا يستطيعون فعله ، وإنما مدار أمر الحجة على عجز الخليقة ، فمتى وجدت أمراً ووجدت الخليقة عاجزة عنه فهى حجة، ثم لا عليك جوهراً كان أو عرضاً أو موجوداً أو متوهما أو معقولا ، ألا ترى أن فلق البحر ليس هو من جنس اختراع الثمار؟ لأن الفلق هو انفراج أجزاء والثمار أجرام حادثة ! وكذلك لو ادعى رجل أن الله عز وجل أرسله فجعل حجته علينا الإخبار بما أكلنا وادخرنا وأضمرنا لكان قد احتج علينا.

فان قلت: إن المنجمين ربما أخبروا بالضمير وبالأمر المستور وببعض ما يكون؟

قلنا: هناك فرق ، فان خطأ المنجمين كثير وصوابهم قليل، بل هو أقل من القليل. وأنتم لا تقدرون أن تقفوا من إخبار المرسلين عليهم السلام فى كثير إخبارهم على

خطأ واحد . والذى سهل قليل المنجمين طرافة ذلك منهم ، لأنهم لو قالوا فأخطأوا أبدا لما كان عجبا ، لأنه ليس بعجب أن يكون الناس لا يعلمون ما يكون قبل أن يكون ، ومن أعجب العجب أن يوافق قولهم بعض ما يكون ، وقد نجد المنجمين يختلفون فى القضية الواحدة ويخطئون فى أكثرها . وقد نجد الرسول يخبرهم عما يأكلون ويشربون ويدخرون ويضمرون فى الأمور الكثيرة المعانى والمختلفة فى الوجوه حتى لا يخطىء فى شىء من ذلك . وليس فى الأرض منجم ذكر شيأ أو وافق ضميرا إلا وأنت واجد بعض من يزجر قد يجىء بمثله وأكثر منه

فإن قلت: إن الناس يكذبون فى الإخبار عن الأعراب والكهان من كل جيل!

قلنا: فهم فى إخبارهم عن المنجمين أكذب. وبعد، فالناس غير مستعظمين لكثرة كذب المنجمين وخطئهم وخدعهم، والناس يستعظمون اليسير من المرسلين عليهم السلام . وكلما كان الرجل فى عينك أعظم وكان عن الكذب أزجر كان كذبه عندك أعظم . وإنما المنجم عند العوام كالطبيب الذى إن قتل المريض علاجه كان عندهم أن القضاء هو الذى قتله ، وإن برأ كان هو أبرأه . على ان صوابهم أكثر ودليلهم أظهر. وقد صار الناس لا يقتصرون للمنجمين على قدر ما يسمعون منهم دون أن يولدوا لهم ويضعوا الأعاجيب على ألسنتهم، وكل ملحد فى الأرض [مبغض] للرسول طاعن عليه عائب له ، يرى أن يصدق عليه كل كذاب يريد ذمه ، وأن يكذب كل صادق يريد مدحه

وبعد فلو كان خبر المنجمين فى الصواب كخبر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام الذى هو حجة لما كان خبر المنجمين حجة

فان قلت : ولم ذاك ؟ قلت لأن من كثر صوابه على غير استدلال ومقايسة وعلى غير حساب وتجربة أو على نظر ومعاينة، لم يكن الأمر من قبل الوحى ، لأنك لو قلت قصيدة فى نفسك فحدثك بها رجل وأنت تعلم أنه ليس بمنجم وأنشدكها كلها لعلمت أن ذلك لا يكون إلا بوحى ، ومثل ذلك رجل اشتد وجع عينه فعالجه طبيبه

فبرىء، فلو جعل الطبيب ذلك حجة على نبوته لوجب علينا تكذيبه . ولوقال رجل من غير أن يمسه أو يدنو إليه : اللهم إن كنت صادقا عليك فاشفه الساعة ! فبرىء من ساعته، لعلمنا أنه صادق. فان قالوا: وما علمنا أن محمدا عليه الصلاة والسلام لم يكن منجما؟ قلنا: إن علمنا بذلك كعلمنا بأن العباس وحمزة وعليا وأبا بكر وعمر رضوان الله عليهم أجمعين لم يكونوا منجمين ولا أطباء متكهنين . وكيف يجوز أن يصير إنسان عالما بالنجوم من غير أن يختلف إلى المنجمين أو يختلفوا إليه أو يكون علم النجوم فاشيا فى أهل بلاده أو يكون فى أهله واحد معروف به ، ولو بلغ إنسان فى علم النجوم وليست معه علة من هذه العلل وكان ذلك يخفى لكان ذلك كبعض الآيات والعلامات ! ومتى رأينا حاذقا بالكلام أو بالطب أو بالحساب أو بالغناء أو بالنجوم أو بالعروض خفى على الناس موضعه وسببه وجميع ما ذكرنا فمناية الناس به وعداوتهم له وشهرته فى نفسه دون محمد صلى الله عليه وسلم . وهل نسب أحد قط لأحد إلا دون ما نسبه له رهطه وأدانى أهله ومن معه فى بيته ور بعه؟؟ وما أعرف يرحمك الله المعاند والمسترشد والمصدق والمكذب ينكر أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن منجما ولا طبيبا ، و إذا قال الجاهل إنه قد كان يعلم الخط فخفى له ذلك ، وتعلم الأسباب والقضاء فى النجوم فخفى له ذلك ، وتعلم البيان وقدر منه على ما يعجز أمثاله عنه وخفى ذلك، أليس مع قوله ما يعلم خلافه يعلم أنه قد سلم له أعجوبة كأعجوبة إبراء الأكمة والأبرص والمشى على الماء ؟ إذ كان ذلك لا يجوز ولا يمكن فى الطبائع والعقل والتجربة

وافهم يرحمك الله ما أنا واصفه لك ، هل يجد التارك لصديقه أنه لا يدرى بزعمه لعله كان أعلم الخلق بالنجوم ناظرا لنفسه غير معاند لحجة عقله ، وهو لم يجد أحدا قط برع فى صناعة واحدة تخفى على الناس موضعه بكل ما حكينا وفسرنا ؟ وأنت كيف تعلم أنه ليس فى إخوانك من ليس بمنجم وأن فيهم من ليس بطبيب إلا بمثل ما يعرف به رهط النبى صلى الله عليه وسلم وآله منه ! وكيف لم يشتهر ذلك، ولم يحتج به عليه! ولقد بلغ من إسرافهم فى شتمه و إفراطهم عليه أن نافقوا وأحالوا

لأنهم كانوا يقولون له أنت ساحر وأنت مجنون . و إنما يقال للرجل ساحر لخلابته وحسن بيانه ولطف مكائده وجودة مداراته وتحببه ، و يقال مجنون لضد ذلك كله

فصل منه — وليس ينتفع الناس بالكلام فى الأخبار إلا مع التصادق ، ولا تصادق إلا مع كثرة السماع والعلم بالأصول ، لأن رجلا لو نازع فى الأخبار وفى الوعد والوعيد والخاص والعام والناسخ والمنسوخ والفريضة والنافلة والسنة والشريعة والاجماع والفرقة ، ثم حسنت نيته وناصح عن نفسه ، لما عرف حقائق باطل دون أن يكون قد عرف الوجوه وسمع الجمل وعرف الموازنة وما كان فى الطبائع وما يمتنع فيها ، وكيف أيضا يقول فى التأويل من لم يسمع بالتنزيل ، وكيف يعرف صدق الخبر من لم يعرف سبب الصدق ؟

واعلم أن من عود قلبه التشكك اعتراه الضعف ، والنفس عزوف فما عودتها من شىء جرت عليه ، والمتخير إلى تقوية قلبه ورد قوته عليه و إفهامه موضع رأيه وتوقيفه على الأمر الذى شغل صدره أحوج منه إلى المنازعة فى فرق مابين المجىء الذى يكذب مثله والمجىء الذى لا يكذب مثله . وسنتكلف من علاج دائه وترتيب إفهامه إن أعان على نفسه بما لا يبقى سببا للشك ولا علة للضعف والله تعالى المعين على ذلك والمحمود عليه

فصل منه — ومتى سمعنا نبى الله عليه السلام اتكل على عدالته وعلى معرفة قومه بقديم طهارته وقلة كذبه دون أن جاءهم بالعلامات والبرهانات ؟ ولعمرى لو لم نجد الحافظ ينسى والصادق يكذب والمؤمن يبدل لقد كان ماذهبوا اليه وجها

فصل منه فى ذكر دلائل النبى صلى الله عليه وسلم — وباب آخر يعرف به صدقه وهو إخباره عما يكون وإخباره عن ضمائر الناس وما يأكلون وما يدخرون، ولدعائه المستجاب الذى لا تأخير فيه ولا خلف له ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم حين لقى من قريش والعرب مالقى من شدة أذاهم له وتكذيبهم إياه واستعانتهم عليه بالأموال والرجال دعا الله عز وجل أن يجدب بلادهم وأن يدخل الفقر فى بيوتهم

فقال صلى الله عليه وسلم : ألهم سنين كسنى يوسف ألهم اشدد وطأتك على مضر. فأمسك الله عز وجل عنهم المطر حتى مات الشجر وذهب الثمر وقلت المزارع وماتت المواشى وحتى اشتووا القِدَّ والعِلْهِزَ ، فعند ذلك وفد حاجب بن زرارة على كسرى يشكو إليه الجهد والأزل ويستأذنه فى رعى السواد ، وهو حين ضمنه عن قومه وأرهنه قوسه . فلما أصاب مضر خاصة الجهد ونهكهم الأزل و بلغت الحجة مبلغها وانتهت الموعظة منتهاها عاد بفضله صلى الله عليه وسلم على الذي بدأهم به فسأل ربه الخصب و إدرار الغيث،فأتاهم منه ماهدم بيوتهم ومنعهم حوائجهم،فكلموه فى ذلك فقال: ألهم حوالينا ولا علينا . فأمطر الله عز وجل ما حولهم وأمسك عنهم . وكتب إلى كسرى يدعوه إلى نجاته وتخليصه من كفره فبدأ باسمه على اسمه فأنف من ذلك كسرى لشقوته وأمر بتمزيق الكتاب . فلما بلغه صلى الله عليه وسلم قال : ألهم مزق ملكه كل ممزق . فمزق الله جل وعز ملكه وجدَّ أصله وقطع دابره . لأن كل ملك فى الأرض و إن كان قد أخرج من معظم ملكه فهو مقيم على بقية منه ، وذلك أن الأسلام لم يترك ملكا بحيث تناله الحوافر والأخفاف والأقدام إلا أزاله عنه وأخرجه منه إلى عقاب يعتصم بها ومعاقل يأوى إليها أوطرده إلى خليج منيع لا يقطعه إلا السفن . فهم من بين هارب قد دخل فى وجار أواختفى فى غيضة أو مقيم على فم شعب ورأس مضيق ، قد سخت نفسه عن كل سهل وأسلم كل مرج ، أو ملك لاقرارله وليس بذى مدر فيؤتى وإنما أصحابه أكراد يطلبون النجعة أو كخوارج يطلبون الغرة . فأما أن يكون ملك يصمد لهم ويقيم بإزائهم ويناديهم الحرب ويعبيهم ويساجلهم الظفر ويناهضهم، كما كانت ملوك الطوائف، وكالذى كان بين فارس والروم فلا ، وذلك لقوله تعالى « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »

فلم يرض أن أظهر دينه حتى جعل أهله الغالبين بالقدرة والظاهرين بالمنعة والآخذين الإتاوة . وكتب كسرى إلى فيروز الديلمى وهو من بقية أصحاب سيف ابن

ذى يزن: أن احمل إلى هذا العبد الذى بدأ باسمه قبل اسمى واجترأ على ودعانى إلى غير دينى . فأتاه فيروز فقال : إن ربى أمرنى أن أحملك إليه . فقال صلى الله عليه وسلم : إن ربى خبرنى أنه قد قتل ربك البارحة ، فأمسك على ريث ما يأتيك الخبر فإن تبين لك صدقى وإلا فأنت على أمرك . فراع ذلك فيروز وهاله وكره الإقدام عليه والاستخفاف به . فإذا الخبر قد أتاه أن شيرويه قد وثب عليه فى تلك الليلة فقتله . فأسلم وأخلص ودعا من معه من بقية الفرس إلى الله عز ذكره فأسلموا

فصل منه : فى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم : ثم إن الذى تقدمه صلى الله عليه وسلم من البشارات فى الكتب المتقادمة فى الأزمان المتباعدة والبلدان الموجودة بكل مكان على شدة عداوة أهلها وتعصب حامليها ومع قوة حسدهم وشدة بغيهم وما ذلك ببديع منهم ومن آبائهم ، على أنهم أشبه بآبائهم منهم بأزمانهم ، وكل الناس أشبه بأزمانهم منهم بآبائهم ، وآباؤهم الذين قتلوا أنبياءهم عليهم السلام وتعنتوا رسلهم صلى الله عليهم حتى خلاهم الله عز وجل من يده وأفقدهم عصمته وتوفيقه ، ولم أستدل على ذكره فى التوراة والأنجيل والزبور وعلى صفته والبشارة به فى الكتب إلا لأنك متى وجدت النصرانى واليهودى يسلم بأرض الشام وجدته يعتل بأمور ويحتج بأشياء مثل الأمور التى يحتج بها من أسلم بالعراق ، وكذلك من أسلم بالحجاز ومن أسلم باليمن من غير تلاق ولا تعارف ولا تشاعر ، وكيف يتلاقون ويتراسلون وهم غير متعارفين ولا متشاعرين ! ولو كانوا كذلك لظهر ذلك ولم ينكتم ، كما حكينا قبل هذا ، ولو قابلت بين أخبارهم واحتجاجهم مع كثرة الألفاظ واختلاف المعانى لوجدتها متساوية .

فصل منه : فإن قال قائل : لم كانت أعلام موسى عليه السلام فى كثرتها مع غى بنى اسرائيل ونقصان أحلام القبط فى وزن أعلام محمد صلى الله عليه وسلم وفى قدرها مع أحلام قريش وعقول العرب ؟ ومتى أحببت أن تعرف غى بنى إسرائيل ونقص أحلام القبط ورجحان عقول العرب وأحلام كنانة فانظر بواديهم ورعاعهم

وانظر إلى بنيهم و بقاياهم كما نظرت إلى غى بنى إسرائيل ونقص بنى من مضى من القبط تعتبر ذلك وتعرف ما أقول . ثم أنظر فى الأشعار الصحيحة والخطب المعروفة والأمثال المضروبة والألفاظ المشهورة والمعانى المذكورة مما نقلته الجماعات عن الجماعات وكلام العرب ومعانيهم فى الجاهلية ، ثم تفقد وسل أهل العلم والخبرة عن بنى اسرائيل فإن وجدت لهم مثلا سائرا كما تسمع للقبط والفرس فضلا عن العرب فقد أبطلنا فيما قلنا . وقد كان الرجل من العرب يقف المواقف وينشىء عدة أمثال كل واحد منها ركن يبنى عليه وأصل يتفرع منه . أو هل تسمع لهم بكلام شريف أو معنى يستحسنه أهل التجربة وأصحاب التدبير والسياسة أو حكم أو حكمة أوحذق فى صناعة مع ترادف الملك فيهم وتظاهر الرسالة فى رجالهم ، وكيف لاتقضى عليهم بالغى والجهل ولم تسمع لهم بكلمة فاخرة أو معنى نبيه لا ممن كان فى المبدا ولا ممن كان فى المحضر ولا من قاطنى السواد ولا من نازلى الشام ، ثم انظر إلى أولادهم مع طول لبثهم فينا وكونهم معنا هل غير ذلك من أخلاقهم وشمائلهم وعقولهم وأحلامهم وآدابهم وفطنهم؟ فقد صلح بنا كثير من أمور النصارى وغيرهم، وليس النصارى كاليهود ، لأن اليهود كلهم من بنى إسرائيل إلا القليل. و بعد فلم يضرب فيهم غيرهم لأن منا كحهم مقصورة فيهم ومحبوسة عليهم قصورا ولهم موداة إلى آخره وعقول أسلافهم مردودة على أخلافهم ثم اعتبر بقولهم لنبيهم عليه السلام: «إجعل لنا إلها كما لهم آلهة» حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم يعبدونها وكقولهم « أرنا الله جهرة » وكعكوفهم على عجل صنع من حليهم يعبدونه من دون الله بعد أن أراهم من الآيات ما أراهم، وكقولهم « إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.» فكان الذى جاء به موسى عليه السلام مع نقص بنى اسرائيل والقبط مثل الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم مع رجحان قريش والعرب . وكذلك وعد محمد عليه الصلاة والسلام بنار الأبد كوعيد موسى بنى اسرائيل بالقاء الهلاس على زروعهم والهم على أفئدتهم وتسليط الموتان على ماشيتهم وباخراجهم من ديارهم وأن يظفر بهم عدوهم ، فكان تعجيل العذاب

الأدنى فى استدعائهم واستمالتهم وردعهم عما يريد بهم وتعديل طباعهم ، كتأخير العذاب الشديد على غيرهم ، لأن الشديد المؤخر لا يزجر إلا أصحاب النظر فى العواقب وأصحاب العقول التى تذهب فى المذاهب. فسبحان من خالف بين طبائعهم وشرائعهم ليتفقوا على مصالحهم فى دنياهم ومراشدهم فى دينهم. مع أن محمدا صلى الله عليه وسلم مخصوص بعلامة لها فى العقل موقع كموقع فلق البحر من العين ، وذلك قوله لقريش خاصة وللعرب عامة مع ما فيها من الشعراء والخطباء والبلغاء والدهاة والحلماء وأصحاب الرأى والمكيدة والتجارب والنظر فى العاقبة: إن عارضتمونى بسورة واحدة فقد كذبت فى دعواى وصدقتم فى تكذيبى. ولا يجوز أن يكون مثل العرب فى كثرة عددهم واختلاف عللهم والكلام كلامهم وهو سيد عملهم قد فاض بيانهم وجاشت به صدورهم وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم حتى قالوا فى الحيات والعقارب والذئاب والكلاب والخنافس والجعلان والحمير والحمام وكلما دب ودرج ولاح لعين وخطر على قلب ، ولهم بعد أصناف النظم وضروب التأليف كالقصيد والرجز والمزدوج والمجانس والأسجاع والمنثور ، و بعد فقد هجوه من كل جانب، وهاجى أصحابه شعراءهم، ونازعوا خطباءهم، وحاجوه فى المواقف، وخاصموه فى المواسم، و بادروه العداوة ، وناصبوه الحرب، فقتل منهم وقتلوا منه وهم أثبت الناس حقدا وأبعدهم مطلبا وأذكرهم لخير أو لشر وأنفاهم له وأهجاهم بالعجز وأمدحهم بالقوة. ثم لا يعارضه معارض ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر. ! ومحال فى التعارف ومستنكر فى التصادق أن يكون الكلام أخصر عندهم وأيسر مؤنة عليهم ، وهو أبلغ فى تكذيبهم وأنقض لقوله وأجدر أن يعرف ذلك أصحابه فيجتمعوا على ترك استعماله والاستغناء به وهم يبذلون مهجهم وأموالهم و يخرجون من ديارهم ، فى إطفاء أمره وفى توهين ماجاء به ولا يقولون بل لا يقول واحد من جماعتهم: لم تقتلون أنفسكم وتستهلكون أموالكم وتخرجون من دياركم والحيلة فى أمره يسيرة والمأخذ فى أمره قريب ؟ ليؤلف واحد من شعرائكم وخطبائكم كلاما فى نظم كلامه كأقصر سورة

يخذلكم بها و كأصغر آية دعاكم إلى معارضتها ، بل لو نسوا ماتركهم حتى يذكرهم، ولو تغافلوا ماترك أن ينبههم ، بل لم يرض بالتنبيه دون التوقيف ، فدل ذلك العاقل على أن أمرهم فى ذلك لا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكونوا عرفوا عجزهم وأن مثل ذلك لايتهيأ لهم فرأوا أن الإضراب عن ذكره والتغافل عنه فى هذا الباب وإن قرعهم به أمثل لهم فى التدبير وأجدر أن لاينكشف أمرهم للجاهل والضعيف وأجدر أن يجدوا إلى الدعوى سبيلا و إلى اختداع الأنبياء سببا،فقد ادعوا القدرة بعد المعرفة بعجزهم عنه وهو قوله عز ذكره « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا »وهل يذعن الأعراب وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز والتوقيف على النقص ثم لايبذلون مجهودهم ولا يخرجون مكنونهم وهم أشد خلق الله أنفة وأفرط حمية وأطلبه بطائلة ، وقد سمعوه فى كل منهل وموقف .! والناس موكلون بالخطابات مولعون بالبلاغات ، فمن كان شاهدا فقد سمعه ومن كان غائبا فقد أتاه به من لم يزوده ، وإما أن يكون غير ذلك ولا يجوز أن يطبقوا على ترك المعارضة وهم يقدرون عليها ، لأنه لا يجوز على العدد الكثير من العقلاء والدهاة والحكماء مع اختلاف عللهم و بعد هممهم وشدة عداوتهم على بذل الكثير وصون اليسير ،وهذا من ظاهر التدبير ومن جليل الأمور التى لا تخفى على الجهال فكيف على العقلاء وأهل المعارف ، فكيف على الأعداء ؟ لأن تحبير الكلام أهون من القتال ومن إخراج المال ، ولم يقل أن القوم قد تركوا مساءلته فى القرآن والطعن فيه بعد أن كثرت خصومتهم فى غيره .! ويدلك على ذلك قوله عز وجل «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » وقوله عز ذكره « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله » وقوله تعالى ذكره « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » ، ويدلك كثرة هذه المراجعة وطول هذه المناقلة على أن التقريع لهم بالعجز كان فاشياً ، وأن عجزهم كان ظاهراً ، ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم تحداهم بالنظم والتأليف ولم يكن أيضاً أزاح عللهم حتى قال تعالى : « قل فأتوا بعشر سور مثله

مفتريات» وعارضوني بالكذب لقد كان في تفصيله له وتركيبه وتقديمه له واحتجاجه ما يدعوا إلى معارضته ومغالبته وطلب مساويه ! ولو لم يكن تحداهم في كل ما قلنا وقوعهم بالعجز عما وصفنا، وهل هذا إلا تحديه له وإكثاره فيه لكان ذلك سببا موجبا لمعارضته ومغالبته وطلب تكذيبه ، إذ كان كلامهم وهو سيد عملهم والمؤنة فيه أخف عليهم وقد بذلوا النفوس والأموال ، وكيف ضاع منهم وسقط على جماعتهم نيفا وعشرين سنة مع كثرة عددهم وشدة عقولهم واجتماع كلمتهم ، وهذا أمر جليل الرأى ظاهر التدبير

فصل منه : في كراهة امتناعهم عن معارضة القرآن لعجزهم عنها — : والذي منعهم من ذلك هو الذي منع ابن أبي العوجاء وإسحق بن طالوت والنعمان بن المنذر وأشباههم من الأرجاس الذين استبدلوا بالعز ذلا وبالإيمان كفرا وبالسعادة شقوة وبالحجة شبهة ، بل لا شبهة في الزندقة خاصة، فقد كانوا يصنعون الآثار ويولدون الأخبار ويبثونها في الأمصار ويطعنون في القرآن ويسألون عن متشابهه وعن خاصه وعامه ويضعون الكتب على أهله . وليس شيء مما ذكرنا يستطيع دفعه جاهل غبي ولا معاند ذكي .

فصل منه : ولما كان أعجب الأمور عند قوم فرعون السحر ولم يكن أصحابه قط في زمان أشد استحكاماً فيه منهم في زمانه ، بعث الله موسى عليه السلام على إبطاله وتوهينه وكشف ضعفه وإظهاره ونقض أصله لردع الأغبياء من القوم ولمن نشأ على ذلك من السفلة والطغام ، لأنه لو كان أتاهم بكل شيء ولم يأتهم بمعارضة السحر حتى يفصل بين الحجة والحيلة لكانت نفوسهم إلى ذلك متطلعة ولا عتل به أصحاب الأشغال ولشغلوا به بال الضعيف، ولكن الله تعالى جده أراد حسم الداء وقطع المادة وأن لا يجد المبطلون متعلقاً ولا إلى اختداع الضعفاء سبيلا ، مع ما أعطى الله موسى عليه السلام من سائر البرهانات وضروب العلامات . وكذلك زمن

عيسى عليه السلام كان الأغلب على أهله وعلى خاصة علمائه الطب ، وكانت عوامهم تعظمهم على خواصهم ، فأرسله الله عز وجل بإحياء الموتى ، إذ كانت غايتهم علاج المرضى. وإبراء الأكمه، إذ كانت غايتهم علاج الرمد . مع ما أعطاه الله تعالى عز وجل من سائر العلامات وضروب الآيات . لأن الخاصة إذا بخعت بالطاعة وقهرتها الحجة وعرفت موضع العجز والقوة وفصل ما بين الآية والحيلة ، كان أنجع للعامة وأجدر أن لا يبقى فى أنفسهم بقية . وكذلك دهر محمد صلى الله عليه وسلم كان أغلب الأمور عليهم وأحسنها عندهم وأجلها فى صدورهم حسن البيان ونظم ضروب الكلام مع علمهم له وانفرادهم به ، فحين استحكمت لغتهم وشاعت البلاغة فيهم وكثر شعراؤهم وفاق الناس خطباؤهم، بعثه الله عز وجل فتحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه ، فلم يزل يقرعهم بعجزهم وينقصهم على نقصهم حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم، كما تبين لأقويائهم وخواصهم ، وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قط ، مع سائر ما جاء به من الآيات ومن ضروب البرهانات . ولكل شىء باب ومأتى واختصار وتقريب ، فمن أحكم الحكمة إرسال كل نبى بما يفحم أعجب الأمور عندهم ويبطل أقوى الأشياء فى ظنهم

فصل منه : فى ذكر أخلاق النبى عليه الصلاة والسلام — : وآية أخرى لا يعرفها إلا الخاصة، ومتى ذكرت الخاصة فالعامة فى ذلك مثل الخاصة . وهى الأخلاق والأفعال التى لم تجتمع لبشرى قط قبله ، ولا تجتمع لبشرى بعده ، وذلك أنا لم نرو ولم نسمع لأحد قط كصبره ولا كحلمه ولا كوفائه ولا كزهده ولا كجوده ولا كنجدته ولا كصدق لهجته وكرم عشرته ، ولا كتواضعه ولا كعلمه ولا كحفظه ولا كصمته إذا صمت ولا كقوله إذا قال ولا كعجيب منشئه ولا كقلة تلونه ولا كعفوه ولا كدوام طريقته وقلة امتنانه . ولم نجد شجاعاً قط إلا وقد جال جولة وفرفرة وانحاز مرة من معدودى شجعان الاسلام ومشهورى فرسان الجاهلية كفلان وفلان . وبعد فقد نصر النبى صلى الله عليه وسلم وهاجر معه قوم ولم نر كنجدتهم نجدة ولا كصبرهم

صبراً ، وقد كانت لهم الجولة والفرة ، كما قد بلغك عن يوم أحد وعن يوم حنين وغير ذلك من الوقائع والأيام ، فلا يستطيع منافق ولا زنديق ولا دهرى أن يحدث أن محمد صلى الله عليه وسلم جال جولة قط أو فرفرة قط أو خام عن غزوة أو هاب حرب من كاثره

***

ثبتك الله بالحجة ، وحصن دينك من كل شبهة ، وتوفاك مسلماً ، وجعلك من الشاكرين : قد أعجبنى حفظك الله استهداؤك العلم وفهمك له، وشغفك بالانصاف وميلك إليه ، وتعظيمك الحق وموالاتك فيه ، ورغبتك عن التقليد وزرايتك عليه، ومواترة كتبك على بعد دارك وتقطع أسبابك وصبرك إلى أوان الامكان ، واتساعك عند تضايق العذر . وفهمت حفظك الله كتابك الأول وما حشت عليه من تبادل العلم والتعاون على البحث والتحاب فى الدين والنصيحة لجميع المسلمين. وقلت: اكتب إلى كتابا تقصد فيه إلى حاجات النفوس وإلى صلاح القلوب وإلى معتلجات الشكوك وخواطر الشبهات ، دون الذى عليه أكثر المتكلمين من التطويل ومن التعمق والتعقيد ، ومن تكلف مالا يجب وإضاعة مايجب ، وقلت: كن كالمعلم الرفيق والمعالج الشفيق الذى يعرف الداء وسببه والدواء وموقعه ويصبر على طول العلاج ولا يسأم كثرة الترداد. وقلت : اجعل تجارتك التى إياها تؤمل وصناعتك التى إياها تعتمد إصلاح الفاسد ورد الشارد . وقلت: ولابد من استجماع الأصول ومن استيفاء الفروع ومن حسم كل خاطر وقمع كل ناجم وصرف كل هاجس ودفع كل شاغل حتى تتمكن من الحجة وتهنأ بالنعمة وتجد رائحة الكفاية وتثلج ببرد اليقين وتفضى إلى حقيقة الأمر . وإن كان لابد من عوارض العجز ولواحق التقصير، فالبر لها أجمل والضرر علينا فى ذلك أيسر ، وقلت : إبدأ بالأخف فالأخف وبكل ما كان آنق فى السمع وأحلى فى الصدور . وبالباب الذى منه يؤتى الريض المتكلف والجسور المتعجرف وبكلما كان أكثر علماً وأنفذ كيداً ، وسألتنى بتفتيح الاستداد والعجلة إلى الاعتقاد وصفة الأناة ومقدارها ومقدمات العلوم ومنتهاها ، وزعمت أن من اللفظ

ما لا يفهم معناه دون الاشارة ودون معرفة السبب والهيئة دون إعارته وركته وتحديده واحتيازه . وقلت : فان أنت لم تصور ذلك كله صورة تغنى عن المشافهة ويكتفى بظاهرها عن المراسلة أحوجتنا إلى لقائك على بعد دارك وكثرة أشغالك وعلى ما تخاف من الضيعة وفساد المعيشة . فكتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسى وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلى فى الاحتجاج للقرآن والرد على طعان ، فلم أدع فيه مسألة لرافضى ولا لحديثى ولا لحشوى،ولا لكافر مباد ولا لمنافق مقموع ولا لأصحاب النظّام ولمن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن حق وليس تأليفه بحجة وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة ، فلما ظننت أنى قد بلغت أقصى محبتك وأتيت على معنى صفتك أتانى كتابك تذكر أنك لم ترد الاحتجاج لنظم القرآن ، و إنما أردت الاحتجاج لخلق القرآن ، وكانت مسألتك مبهمة ولم أك أن أحدث لك فيها تأليفه فكتبت لك أشق الكتابين وأثقلهما وأغمضهما معنى وأطولهما طولا، ولولا ما اعتللت به من اعتراض الرافضة واحتجاج القوم علينا بمذهب معمر وأبى كلدة وعبد الحميد وثمامة وكل من زعم أن أفعال الطبيعة مخلوقة على المجاز دون الحقيقة ، وأن متكلمى الحشوية والنابتة قد صار لهم بمناظرة أصحابنا و بقراءة كتبنا بعض الفطنة ، لما كتبت لك رغبة بك عن أقدارهم وضنا بالحكمة عن أغثارهم ، وإنما يكتب عَلَى الخصوم الاكفاء وللأولياء على الأعداء ، ولمن يرى للنظر حقاً وللعلم قدراً وله فى الانصاف مذهب وإلى المعرفة سبب . وزعمت أنك لم تر فى كتب أصحابنا إلا كتابا لاتفهمه أو كتابا وجدت الحجة على واضع الكتاب فيه أثبت. وقلت: وإياك أن تتكل على مقدار ماعندهم دون أن تعتصر قوى باطلهم وتوفيهم جميع حقوقهم وإذا تقلدت الإخبار عن خصمك فحطه كحياطتك لنفسك، فان ذلك أبلغ فى التعليم وآيس للخصوم . وقلت: وزعموا أنه يلزمك أن تزعم أن القرآن ليس بمخلوق إلا على المجاز كما ألزم ذلك نفسه معمر وأبو كلدة وعبد الحميد وثمامة وكل من ذهب مذهبهم وقاس قياسهم . فتفهم فهمك الله تعالى ما أنا واصفه لك ومورده عليك :

إعلم أن القوم يلزمهم ما ألزموه أنفسهم ، وليس ذلك إلا لعجزهم عن التخلص بحقهم و إلا لذهابهم عن قواعد قولهم وفروع أصولهم ، فليس لك أن تضيف العجز الذى كان منهم إلى أصل مقالتهم وتحمل ذلك الخطأ على غيرهم ، فرب قول شريف الحسب جيد المركَّب وافر العرض برىء من العيوب سليم من الأفن قد ضيعه أهله وهجنه المقترون عليه، فألزموه مالا يلزمه وأضافوا إليه مالا يجوز عليه. ولو زعم القوم على أصل مقالتهم أن القرآن هو الجسم دون الصوت والتقطيع والنظم والتأليف وأنه ليس بصوت ولا تقطيع ولا تأليف، إذ كان الصوت عندهم لا يخترع كاختراع الأجسام المصورة ولا يحتمل التقطيع كاحتمال الاجرام المتجسدة ، والصوت عرض لا يحدث من جوهر إلا بدخول جوهر آخر عليه ، ومحال أن يحدث إلا وهناك جسمان قد صك أحدهما صاحبه، ولا بد من مكانين مكان زال عنه ومكان زال إليه، ولا بد من هواء بين المصطكين. والجسم قد يحدث وحده ولا شيء غيره ، والصوت على خلاف ذلك . والعرض لا يقوم بنفسه ولا بد من أن يقوم بغيره ، والاعراض من أعمال الاجسام لا تكون إلا منها ولا توجد إلا بها وفيها ، والجسم لا يكون إلا من جسم ولا يكون إلا من مخترع الاجسام وليست لكون الجسم له علة توجبه ، ولا يحدث إذا حدث إلا اختياراً و إلا ابتداعاً واختراعاً، والصوت لا يكون إلا عن علة موجبة ولا يكون إلا توليداً ونتيجة، ولا يحدث إلا من جرمين كاصطكاك الحجرين وكقرع اللسان باطن الاسنان ، و إلا من هواء يتضاغط وريح تختنق ونار تلتهب ، والريح عندهم هواء تحرك ، والنار عندهم ريح حارة ، هكذا الأمر عندهم . فلو قالو لا يكون الشيء مخلوقاً فى الحقيقة دون المجاز على مجارى اللغة إلا وقد بان الله عز وجل باختراعه وتولاه بابتداعه ، وكان منه على اختيار . والابتداع الذى يمكن تركه و إنشاء عقيبة بدلا منه على ما كان تولده ونتيجته من أجسام يستحيل أن يخلق من أفعالها ويحلها الله منها . والقرآن على غير ذلك جسم وصوت ، وذو تأليف وذو نظم و تقطيع، وخلق قائم بنفسه مستغن عن غيره ، ومسموع فى الهواء ومرئ فى الورق

ومفصل وموصل،ذواجتماع وافتراق، ويحتمل الزيادة والنقصان والفناء والبقاء. وكلما احتملته الاجسام ووصفت به الاجرام ، كل ما كان كذلك فمخلوق فى الحقيقة دون المجاز وتوسع أهل اللغة ، فلو كانوا قالوا ذلك لكانوا أصابوا فى القياس ووافقوا أهل الحق وكانوا مع الجماعة ولم يضاهوا أهل الخلاف والفرقة ولم يفهموا أنفسهم بقول المشبهة ، إذ كان ظاهر قولهم على التشبيه أدل وبه أشبه . ولا يجوز أن أذكر موضع موافقى لهم ومخالفتى عليهم فى صدر هذا الكتاب، لأن التدبير فى وضع الكتاب والسياسة فى تعليم الجهال أن يبدأ بالاوضح فالأوضح والأقرب فالأقرب وبالاصول قبل الفروع حتى يكون آخر الكتاب لآخر القياس ، وآخر الكلام لا يفهم أرشدك الله تعالى ولا يتوهم إلا على ترتيب الأمور وتقديم الأصول ، فاذا رتبنا الأمور وقدمنا الأصول صارت أواخر المعانى فى الفهم كأوائلها ودقيقها كجليلها ، وقد علمنا أن بعض مافيه الاختلاف بين من ينتحل الاسلام أعظم فرية وأشد بلية وأشنع كفراً وأكبر إثماً من كثير مما أجمعوا على أنه كفر

وبعد فنحن لا نكفر إلا من أوسعناه حجة ، ولم نمتحن إلا أهل التهمة ، وليس كشف المتهم من التجسس ولا امتحان الظنين من هتك الستار ، ولو كان كل كشف هتكا وكل امتحان تجسساً لكان القاضى أهتك الناس لستر وأشد الناس كشفاً لعورة

والذين خالفوا فى العرش إنما أرادوا نفى التشبيه فغلطوا ، والذين أنكروا أمر الميزان إنما كرهوا أن تكون الأعمال أجساما وأجراما غلاظا . فإن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم ، وإن كانوا قد أخطؤا فان خطأهم لا يتجاوز بهم الى الكفر ، وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالق بالمخلوق ، فبين المذهبين أبين الفرق . وقد قال صاحبكم للخليفة المعتصم يوم جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة والمحصلين إعذارا وإنذارا : إمتحنتنى وأنت تعرف المحنة وما فيها من الفتنة ، ثم امتحنتنى من بين جميع هذه الأمة ؟ قال المعتصم : أخطأت ، بل كذبت .. ! وجدت الخليفة قبلى قد حبسك

وقيدك ، ولو لم يكن حبسك على تهمة لأمضى الحكم فيك، ولولم يخفك على الاسلام ماعرض لك ! فسؤالى إياك عن نفسك ليس من المحنة ولا من طريق الاعتساف ولا من طريق كشف العورة ، إذ كانت حالك هذه الحال وسبيلك هذه السبيل .

وقيل للمعتصم في ذلك المجلس : ألا تبعث إلى أصحابه حتى يشهدوا إقراره و يعاينوا انقطاعه فينتقض ذلك استبصارهم فلا يمكنه جحد ما أقربه عندهم؟ فأبى أن يقبل ذلك وأنكره عليهم وقال : لا أريد أن أوتى بقوم إن اتهمتهم سرت فيهم بسيرتى فيه ، و إن بان لى أمرهم أنفذت حكم الله فيهم ، وهم مالم أوت بهم كسائر الرعية وكغيرهم من عوام الأمة ، وما شيء أحب الى من الستر ، ولا شيء أولى بى من الأناة والرفق . وما زال به رفيقاً وعليه رقيقاً . و يقول : لأن استحييك بحق أحب إلى من أن أقتلك بحق . حتى رآه يعاند الحجة و يكذب صراحاً عند الجواب ، وكان آخر ماعاند فيه وأنكر الحق وهو يراه أن أحمد بن أبى دواد قال له : أليس لاشيء إلا قديم أو حديث؟ قال: نعم. قال : أوليس القرآن شيأ ؟ قال: نعم. قال: أو ليس لاقديم إلا الله؟ قال: نعم. قال: فالقرآن إذا حديث! قال: ليس أنا متكلم. وكذلك كان يصنع فى جميع مسائله حين كان يجيبه فى كل ما سأل عنه حتى إذا بلغ المخنق والموضع الذى إن قال فيه كلمة واحدة برىء منه أصحابه قال : ليس أنا متكلم . فلا هو قال فى أول الأمر لاعلم لى بالكلام ولا هو حين تكلم فبلغ موضع ظهور الحجة خضع للحق. فمقته الخليفة وقال عند ذلك: أف لهذا الجاهل مرة والمعاند مرة . وأما الموضع الذى فيه واجه الخليفة بالكذب والجاعة بالقحة وقلة الاكتراث وشدة التصميم فهو حين قال له أحمد بن أبى دواد : أتزعم أن الله تعالى رب القرآن ؟ قال : لو سمعت أحداً يقول ذلك لقلت! قال: أفما سمعت ذلك قط من حالف ولا سائل ولا من قاص ولا فى شعر ولا فى حديث؟ قال : فعرف الخليفة كذبه عند المسألة كما عرف عناده عند الحجة . وأحمد بن أبي دواد حفظك الله تعالى أعلم بهذا الكلام و بغيره من أجناس العلم من أن يجعل هذا الاستفهام مسألة و يعتمد عليها فى مثل تلك الجماعة ، ولكنه أراد أن يكشف

لهم جرأته على الكذب كما كشف لهم جرأته فى المعاندة . فعند ذلك ضرب الخليفة. وأية حجة لكم فى امتحاننا إياكم وفى إكفارنا لكم وزعم يومئذ أن حكم كلام الله تعالى كحكم علمه ، فكما لا يجوز أن يكون علمه محدثا ومخلوقا فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقا ومحدثا ، فقال له: أليس قد كان الله يقدر أن يبدل اية مكان آية وينسخ آية بآية وأن يذهب بهذا القرآن ويأتى بغيره ، وكل ذلك فى الكتاب مسطور؟ قال: نعم. قال: فهل كان يجوز هذا فى العلم وهل كان جائزاً أن يبدل الله علمه ويذهب به ويأتى بغيره؟ قال: لا . وقال له: روينا فى تثبيت ما تقول الآثار وتلونا عليك الآية من الكتاب وأريناك الشاهد من العقول التى بها لزم الناس الفرائض وبها يفصلون بين الحق والباطل فعارضنا أنت الآن بواحدة من الثلاث؟ فلم يكن ذلك عنده ولا استخزى من الكذب فى هذا المجلس ، لأن عدة من حضره أكثر من أن يطمع أحد أن يكون الكذب يجوز عليه، وقد كان صاحبكم هذا يقول : لا تقية إلا فى دار الشرك . فلو كان ما أقر به من خلق القرآن كان منه على وجه التقية فقد أعملها فى دار الاسلام وقد أكذب نفسه ، وإن كان ما أقر به على الصحة والحقيقة فلستم منه وليس منكم . على أنه لم ير سيفاً مشهوراً ولا ضرب ضرباً كثيراً ولا ضرب إلا بثلاثين صوتاً مقطوعة الثمار مشعبة الأطراف حتى أفصح بالاقرار مراراً، ولا كان فى مجلس ضيق ولا كانت حاله حالة مؤيسة ولا كان مثقلا بالحديد ولا خلع قلبه بشدة الوعيد ، ولقد كان ينازع بألين الكلام ويجيب بأغلظ الجواب ، ويرزنون ويخف ويحلمون ويطيش . وعبتم علينا إكفارنا إياكم واحتجاجنا عليكم بالقرآن والحديث ، وقلتم تكفروننا على إنكار شىء يحتمل التأويل ويثبت بالأحاديث ؟ فقد ينبغى لكم أن لا تحتجوا فى شىء من القدر والتوحيد بشىء من القرآن والحديث وأن لا تكفروا واحداً خالفكم فى شىء وأنتم أسرع الناس إلى إكفارنا وإلى عداوتنا والنصب لنا

فصل : وأصحابنا حفظك الله إذا قاسوا خطأهم ومروا على غلطهم فانما ينقضون

أ من العرض والجوهر وشيأ من قولهم فى المعلوم والمجهول فقط ، وهم قوم يكفيهم
تنبه أقله ، ومن القول أيسره . وخطأ النابتة وقول الرافضة تشبيه مصرح، وكفر
. فليس هذا الجنس من ذلك الجنس والحمد لله

وأما إخبارهم عن عيننا إياهم حين لم يقولوا إن الله تبارك وتعالى رب القرآن
ا من لا يقول إن الله تعالى رب الكفر والايمان ، فإنا لم نسألهم عن ذلك من
مايتوهمون، وإنما سألناهم عنه بجحدهم ما يرون بأبصارهم ويسمعون بآذانهم
أشعار المعروفة، وفى الخطب المشهورة، وفى الابتهال عند الدعاء ، وعلى ألسنة العوام،
د العهود والايمان ، وعند تعظيم القرآن، وما يسمعون من السؤال فى الطرقات،
القصاص فى المساجد ، لا يرون عائباً ولا يسمعون زاريا . وليس أنا جعلنا هذا
آلة على من أنكر خلق القرآن. ولكنا أردنا أن نبين للضعفاء معاندتهم وفرارهم
البهت ومكابرتهم إذا سمعوا أنهم لم يسمعوا الناس يقولون : ورب القرآن، ورب
، ورب طه ، وأشباه ذلك . ولعمرى أن لو سمعوا الناس يقولون عند أيمانهم
بتهالهم إلى ربهم على غير قصد إلى خلاف ولا وفاق : ورب الزنا والسرقة، ورب
كفر والكذب . كما سمعوهم وهم يقولون: ورب القرآن، ورب يس، ورب طه . ثم
مناهم خلق القرآن بمثل مالهم علينا فى خلق الزنا لقد كان ذلك معارضة صحيحة وموازنة
روفة . وأما قولهم: إن معنا العامة والعباد والفقهاء وأصحاب الحديث ، وليس معهم
أصحاب الأهواء ومن يأخذ دينه من أول الرجال؟ فأى صاحب تقوى يرحمك الله
مد من الجماعة من الرافضة، وهم فى هذا المعنى أشقياؤهم وأولياؤهم ، لأن ماخالفوهم
، صغير فى جنب ما وافقوهم عليه . والذين سموهم أصحاب أهواءهم المتكلمون
لمصلحون والمستصلحون وأصحاب الحديث، والعوام هم الذين يقلدون ولا يحصلون
لا يتخيرون. والتقليد مرغوب عنه فى حجة العقل منهى عنه فى القرآن، قد عكسوا الأمور
أترى ونقضوا العادات، وذلك أنا لا نشك أن من نظر وبحث وقابل ووزن أحق بالتبيين
أولى بالحجة . وأما قولهم منا النساك والعباد ! فعباد الخوارج وحدهم أكثر عدداً

من عبادهم ، على قلة عدد الخوارج فى جنب عددهم . على أنهم أصحاب نية وأطمع طعمة وأبعد من التكسب وأصدق ورعاً وأقل زيا وأدوم طريقة وأبذل للمهجة وأقل جمعا ومنعاً وأظهر زهداً وجهداً. ولعل عبادة عمرو بن عبيد تفي بعبادة عامة عبادهم. وأما قولهم إن للقرآن قلباً وسناماً ولساناً وشفتين وأنه يتدس ويشفع ويمحل . فان هذا كله قد يجوز أن يكون مثلا ويجوز أن يجعله الله كذلك إذا كان جسما والله على ذلك قادر وهو له غير معجز ومنه غير مستحيل ، وكل فعل لا يكون عيباً ولا ظلماً ولا بخلا ولا كذباً ولا خطأ فى التدبير فهو جائز والتعجب منه غير جائز

فصل منه : وما أكثر من يجيب فى المسائل ويؤلف الكتب على قدر ما يسنح له فى وهمه وعلى قدر ما يتصور له فى حاله تلك لا يعمل على أصله ولا يشعر بالذى انبنى عليه ذلك الأصل ، وإن كان ممن يعمل على أصل ، وإنما صار علماؤنا إلى ما صاروا إليه لأنهم لا يقفون من القول فى خلق القرآن على جواب مهذب ومذهب مصفى ، وعلى قول مفروغ منه وعلى جوابات بأعيانها، فقد رددوا فيها النظر وامتحنوها بأغلظ المحن وقلبوها وتبطنوا معانيها بأبلغ التفكير وتعرفوا كل ما فيها واعتصروا جميع قواها وسهلوا سبلها وذبوا العناد عنها احتقارا منهم لمن خالفهم واتكالا على طول السلامة منهم وثقة بطول الظفر بهم. ومن تمام أمر صاحب الحق أن لا يتكل على عجز الخصم وأن لا يعجب بظهوره على من لا حظ له فى العلم. وعلى العلماء أن يخافوا دول العلم كما يخاف الملوك دول الملك . وقد رأيت البكرية والجبرية والفضيلية والشمرية وإنهم لأحقر عند المعتزلة من جعل، ومازالوا يستقون من علمائهم ويستمدون من كبرائهم ويدرسون كتبهم ويأخذون ألفاظهم فى جميع أمورهم حتى رأيت شيبهم ونابتتهم يدعون أنهم أكفاء ويجمع بينهم فى البلاء ، والنابتة اليوم فى التشبيه به مع الرافضة وهم دائبون فى التألم من المعتزلة، عددهم كثير ونصبهم شديد والعوام معهم والحشو، يطيعهم الآن معك أمران السلطان وميلهم إليه وخوفهم منه . والعاقبة للمتقين

٤

من كتاب الحجاب

قال أبو عثمان :

أطال الله بقاك ، وجعلني من كل سوء فداك ، وأسعدك بطاعته ، وتولاك بكرامته ، ووالى إليك مزيده :

إعلم أنه يقال — أكرمك الله — إن السعيد من وعظ بغيره ، وإن الحكيم من أحكمته تجاربه . وقد قيل : كفاك أدباً لنفسك ما كرهت من غيرك . وقيل : كفاك من سوء الفعل سماعه . وقيل : إن من يقظة الفهم للواعظ مايدعو النفس إلى الحذر من الخطأ والعقل إلى تصفيته من القذى . وكانت الملوك إذا أتت ما يجل عن المعاتبة عليه ضُربت لها الأمثال وعُرِّض لها بالحديث . وقال الشاعر :

أَلْعَبْدُ يُقْرَعُ بِالْعَصَا   وَالْحُرُّ تَكْفِيهِ الْمَلَامَه

وقال آخر : « ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها » . وقال عبد المسيح المتلمس :

لِذِي الْحِلْمِ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تُقْرَعُ الْعَصَا   وما عُلِّمَ الإِنْسَانُ إلاَّ لِيَعْلَمَا

وقال بعضهم : في خفي التعريض ما أغنى عن شنيع التصريح .

وقد جمعت في كتابي هذا ما جاء في الحجاب من خبر وشعر ومعاتبة وعذل وتصريح وتعريض . وفيه ما كفى وبالله التوفيق . وقد قلت :

كَفَى أَدَباً لِنَفْسِكَ مَا تَرَاهُ   لِغَيْرِكَ شَائِناً بَيْنَ الأَنَامِ

ماجاء في الحجاب والنهي عنه : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ثلاث من كن فيه من الولاة اضطلع بأمانته وأمره ! إذا عدل في حكمه ، ولم يحتجب دون غيره ، وأقام كتاب الله في القريب والبعيد . وروى عنه عليه الصلاة والسلام

أنه وجه على بن أبى طالب إلى بعض الوجوه فقال له فيما أوصاه به : إنى قد بعثتك وأنا بك ضنين ، فابرز للناس ، وقدم الوضيع على الشريف ، والضعيف على القوى والنساء قبل الرجال ، ولا تدخلن أحداً يغلبك على أمرك ، وشاور القرآن فإنه إمامك . وكان عمر بن الخطاب إذا استعمل عاملا شرط عليه أربع : لا يركب برذونا ، ولا يتخذ حاجباً ، ولا يلبس كتاناً ، ولا يأكل درمكا . ويوصى عماله فيقول : إياكم والحجاب، واظهروا بالبراز ، وخذوا الذى لكم واعطوا الذى عليكم ، فان امرأً ظلم حقه مضض حتى يغدو به مع الغادين . وكتب عمر إلى معاوية وهو عامله على الشام :

أما بعد فانى لم آلك فى كتابى إليك ونفسى خيراً . إياك والاحتجاب دون الناس ، وأذن للضعيف وأدنه حتى ينبسط لسانه ويجترىء قلبه ، وتعهد الغريب فإنه إذا طال حبسه وضاق إذنه ترك حقه وضعف قلبه ، وإنما أتوى حقه من حبسه . واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستبن لك القضاء ، وإذا حضر الخصمان بالبينة العادلة والايمان القاطعة فامض الحكم والسلام . وكتب عمر إلى أبى موسى الأشعرى: آس بين الناس فى نظرك وحجابك وإذنك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك ، وأعلم أن أسعد الناس عند الله تعالى يوم القيامة من سعد به الناس ، وأشقاهم من شقوا به .

وروى الهيثم بن عدى عن ابن عباس قال : قال لى عبيد الله بن أبى المخترق القينى: استعملنى الحجاج على الفَلُّوجَة العليا فقلت أههنا دهقان يعاش بعقله ورأيه ؟ فقيل لى : بلى، هنا جميل بن بصبهرى . فقلت: على به . فأتانى . فقلت : إن الحجاج استعملنى على غير قرابة ولا دالة ولا وسيلة ، فأشر على ؟ قال: لا يكون لك بواب حتى إذا تذكر الرجل من أهل عملك بابك لم يخف حجابك ، وإذا حضرك شريف لم يتأخر عن لقائك ، ولم يحكم مع شرفك حاجبك، وليطل جلوسك لأهل عملك تهبك عمالك ، ويتق مكانك ، ولا يختلف لك حكم على شريف ولا وضيع . ليكن حكمك واحداً على الجميع يثق الناس بعقلك ، ولا تقبل من أحد

هدية فإن صاحبها لا يرضى بأضعافها مع ما فيها من الشهرة . !

من عهد الى حاجبه — قال موسى الهادى لحاجبه : لا تحجب الناس عنى فإن ذلك يزيل التزكية ، ولا تلق إلىّ أمراً إذا كشفته وجدته باطلا فإن ذلك يوقع[فى]الملكة . وقال بعض الخلفاء لحاجبه : إذا جلست فأذن للناس جميعاً على ، وأبرز لهم وجهى وسكن عنهم الأحراس ، واخفض الجناح ، وأطل لهم بشرك ، ولن لهم فى المسألة والمنطق ، وارفع لهم الحوائج ، وسو بينهم فى المراتب ، وقدم على الكفاية والغَناء لا على الميل والهوى . وقال آخر لحاجبه : إنك عينى التى أنظر بها،وجُنتى التى أستنيم إليها ، وقد وليتك بابى فما تراك صانعا برعيتى ؟ قال : أنظر إليهم بعينك ، وأحملهم على قدر منازلهم عندك ، وأضعهم لك فى إبطائهم عن بابك ، ولزومهم خدمتك مواضع استحقاقهم فى رتبهم حيث وضعهم ترتيبك ، وأحسن إبلاغك عنهم و إبلاغهم عنك .قال:قد وفيت بما عليك قولا إن وفيت به فعلا ، والله ولى كفايتك ومعونتك .

وعهد أمير إلى حاجبه فقال : إن أداء الأمانة فى الأعراض أوجب منها فى الأموال . وذلك أن الأموال وقاية للأعراض ، وليست الأعراض بوقاية للأموال . وقد ائتمنتك على أعراض الغاشين لبابى . وإنما أعراضهم أقدارهم فصنها لهم ووفرها عليهم ، وصن بذلك عرضى . فلعمرى إن صيانتك أعراضهم صيانة لعرضى ووقايتك أقدارهم وقاية لقدرى ، إذ كنت الحظي بزين إنصافهم إن أنصفوا،والمبتلى بشين ظلمهم إن ظلموا فى غشيانهم بابى وحضورهم فنائى ، أوف كل امرىء قدره ولا تجاوز به حده، وتوق الجور فى ذلك التوقى كله ، أقبل على من تحجب بإبداء البشر وحلاوة العذر وطلاقة الوجه ولين القول و إظهار الود ، حتى يكون رضاه عنك لما يرى من بشاشتك به وطلاقتك له كرضا من تأذن له عنك لما يمنحه من التكريم و يحويه من التعظيم ، فإن المنع عند الممنوع فى لين المقالة يكاد يكون كالنيل عند العظماء فى نفع المقالة ، أنه إلى حاجات كل من يغشى بابى من وجيه

وخامل وذى هيئة وأخى رثاثة فيما يحضرون له بابى و يتعلقون به من إتيانى ، فربما بز مثله بمخبره من يروق العيون بمنظره ، إنك إن نقصت الكريم مايستحقه من مال لا يغضب بعد أن تستوهبه منه ، و إن نقصته من قدره أسخطته أشد الإسخاط إذ كان يريد دنياه ليصون بها قدره ولا يريد قدره ليتقى به دنياه ، لكنه لتحيف عرضه أشد توقيا منه لتحيف ماله . إن المحجوب و إن كان عدلنا فى حجابه كعدلنا على المأذون له فى إذنه يتداخله انكسار إذا حجب ورأى غيره قد أذن له ، فاختصه لذلك من بشاشتك به وطلاقتك له ما يتحلل به عنه انكساره . فلعمرى لو عرف أن صوابنا فى حجابه كصوابنا فى الإذن لمن أذنا له ما احتجنا إلى ما أوصيناك به من اختصاصه بالبشر دون المأذون له . إن اجتمع فى دارى الأعلون والأوسطون والأدنون فدعوت بواحد منهم دون من يعلوه فى القدر لأمر لا بد من الدعاء به له فأظهر العذر له فى ذلك لئلا تخبث نفس من علاه ، فإن الناس تتغالب لمثل ذلك عليهم سوء الظنون ، والواجب على من ساسهم التوقى على نفسه من سوء ظنونهم وعليه تقويم نفوسهم ، إذ هو كالرأس يألم لألم الأعضاء ، وهم كالأعضاء يألمون لألم الرأس .

قال المدائنى : قال زياد بن أبيه لحاجبه : ياعجلان ، قد وليتك بابى وعزلتك عن أربعة : طارق ليل فشر ماجاء به أو خير ، ورسول صاحب الثغر فإنه إن تأخر ساعة بطل به عمل سنة ، وهذا المنادى بالصلاة ، وصاحب الطعام فإن الطعام إذا ترك برد و إذا أعيد عليه التسخين فسد .

سبب الحجاب — الهيثم بن عدى قال : قال خالد بن عبد الله القسرى لحاجبه : لا تحجبن عنى أحداً إذا أخذت مجلسى ، فإن الوالى لا يحتجب إلا عن ثلاث : إما رجل عيي يكره أن يطلع على عيه ، وإما رجل مشتمل على سوأة ، أو رجل بخيل يكره أن يدخل عليه إنسان يسأله شيأ .

أنشدنى محمود الوراق لنفسه فى هذا المعنى :

إِذَا اعْتَصَمَ الْوَالِي بِإِغْلَاقِ بَابِهِ … وَرَدَّ ذَوِي الحاجاتِ دُونَ حِجَابِهِ
ظَنَنْتُ بِهِ إِحْدَى ثَلَاثٍ وَرُبَّمَا … نَزَعْتُ بِظَنٍّ وَاقِعٍ بِصَوَابِهِ
فَقُلْتُ بِهِ مَسٌّ مِنَ الْعِيِّ ظَاهِرٌ … فَفِي إِذْنِهِ لِلنَّاسِ إِظْهَارُ مَا بِهِ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِيَّ اللِّسَانِ فَغَالِبٌ … مِنَ الْبُخْلِ يَحْمِي مَالَهُ عَنْ طِلَابِهِ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَلَا ذَا فَرِيبَةٌ … يُصِرُّ عَلَيْهَا عِنْدَ إِغْلَاقِ بَابِهِ

وأنشدنى بعض المحدثين فى ابن المدبر :

لَوْلَا مُقَارَفَةُ الرِّيَبْ … مَا كُنْتَ مِمَّنْ يَحْتَجِبْ
أَوْلَا عَيِيٌّ مِنْكَ أَوْ … بُخْلٌ على أَهْلِ الطَّلَبْ
فَاكْشِفْ لَنَا وَجْهَ الْحِجَابِ … وَلَا تُبَالِي مَنْ عَتَبْ

من ينبغى أن يتخذ للحجاب — قال المنصور للمهدى : لاينبغى أن يكون الحاجب جهولا ولا عييا ولا غبيا ولا ذهولا ولا متشاغلا ولا خاملا ولا محتقرا ولا جهماً ولا عبوساً . فانه إن كان جهولا أدخل على صاحبه الضرر من حيث يقدر المنفعة ، و إن كان عييا لم يؤد إلى صاحبه ولم يؤد عنه ، و إن كان غبيا جهل مكان الشريف فأحله غير منزلته وحطه عن مرتبته وقدم الوضيع عليه وجهل ما عليه وماله ، و إن كان ذهولا متشاغلا أخل بما يحتاج إليه صاحبه فى وقته وأضاع حقوق الغاشين لبابه واستدعى الذم من الناس له وأذن عليه لمن لا يحتاج إلى لقائه ولا ينتفع بمكانه ، و إذا كان خاملا محتقرا أحل الناس صاحبه فى محله وقضوا عليه به ، و إن كان جهما عبوسا تلقى كل طبقة من الناس بالمكروه ، فترك أهل النصائح نصائحهم وأخل بذوى الحاجات فى حوائجهم وقلت الغاشية لباب صاحبه فرارا من لقائه .

روى الهيثم بن عدى عن الشعبى أن عبد الملك بن مروان قال لأخيه عبد العزيز حين ولاه مصر : إن الناس قد أكثروا عليك ولعلك لا تحفظ فاحفظ عنى ثلاثا؟ قال : قل ياأمير المؤمنين . قال : أنظر من تجعل حاجبك

ولا تجعله إلا عاقلا فهما مفهما ، صدوقاً لا يورد عليك كذباً ، يحسن الأداء إليك والأداء عنك ، ومُر أن لا يقف على بابك أحد من الاحرار إلا أخبرك حتى تكون أنت الآذن له أو المانع ، فإن لم تفعل كان هو الأمير وأنت الحاجب ، واذا خرجت إلى أصحابك فسلم عليهم يأنسوا بك ، وإذا هممت بعقوبة فتأن فيها فانك على استدراكها قبل فوتها أقدر منك على انتزاعها بعد فوتها .

وقال سهل بن هٰرون للفضل بن سهل : إن الحاجب أحد وجهى الملك يعتبر عليه برأفته ويلحقه ما كان فى غلظته وفظاظته ، فاتخذ حاجبك سهل الطبيعة معروفاً بالرأفة مألوفاً منه البر والرحمة ، وليكن جميل الهيئة حسن البسطة ذا قصد فى نيته وصالح أفعاله ، ومره فليضع الناس على مراتبهم وليأذن لهم فى تفاضل منازلهم وليعط كلا بسطة من وجهه وليستعطف قلوب الجميع إليه حتى لا يغشى الباب أحد . وهو يخاف أن يقصر به عن مرتبته ولا أن يمنع فى مدخل أو مجلس أوموضع إذن شيئاً يستحقه ، ولا يمنع أحدا مرتبته وليضع كلا عند منزلته وتعهده ، فإن قصر مقصر قام بحسن خلافته و بتزيين أمره .

وقال كسرى أنو شروان فى كتابه المسمى « شاهى » ينبغى أن يكون صاحب إذن الخاصة رجلا شريف البيت بعيد الهمة بارع الكرم متواضعاً طلقاً معتدل الجسم بهى المنظر لين الجانب ، ليس ببذخ ولا بطر ولا مرح ، لين الكلام طالباً للذكر الحسن مشتاقاً إلى محادثة العلماء ومجالسة الصلحاء ، محباً لكل ما زين عمله معاندا للسعاة مجانباً للكذابين، صدوقا إذا حدث وفياً إذا وعد، متفهماً اذا خوطب مجيباً بالصواب اذا روجع، منصفاً اذا عامل ، آنساً مؤانساً محباً للأخيار شديد الحنو على المملكة ، أديباً له لطافة فى الخدمة وذكاء فى الفهم و بسطة فى المنطق ورفق فى المحاورة وعلم بأقدار الرجال وأخطارها . وقال فى حاجب العامة : ينبغى أن يكون حاجب العامة رجلا عبد الطاعة دائم الحراسة للملكة مخوف اليد حسن الكلام مروعاً غير باطش إلا بالحق ، لا أنيس ولا مأنوس دائم العبوس شديداً

على المريب ، غير مستخف بخاصة الملك ومن يهوى ويقربه من بطانته

محل الحاجب وموضعه ممن يحجبه : قال عبد الملك لأخيه عبد العزيز حين وجهه إلى مصر : إعرف كاتبك وحاجبك وجليسك . فإن الغائب يخبره عنك كاتبك ، والمتوسم يعرفك بحاجبك ، والخارج من عقدك يعرفك بجليسك . وقال يزيد بن المهلب لابنه مخلد حين ولاه جرجان : إستظرف كاتبك ، واستعقل حاجبك . وقال الحجاج : حاجب الرجل وجهه ، وكاتبه كله . وقال ابن أبي زرعة : قال رجل من أهل الشام لأبي الخطاب الحسن بن محمد الطائي يعاتبه في حجابه :

هَذَا أَبُو الْخَطَّابِ بَدْرٌ طَالِعٌ مِنْ دُونِ مَطْلَعِهِ حِجَابٌ مُظْلِمُ
وَيقَالُ وَجْهُ الْمَرْءِ حَاجِبُهُ كَمَا بِلِسَانِ كَاتِبِهِ الْفَتَى يَتَكَلَّمُ
أَدْنَيْتَ مِنْ قَبْلُ اللِّقَاءِ وَبَعْدَهُ أَقْصَيْتَ هَلْ يَرْضَى بِذَا مَنْ يَفْهَمُ؟
وَإِذَا رَأَيْتَ مِنَ الْكَرِيمِ فَظَاظَةً فَإِلَيْهِ مِنْ أَخْلَاقِهِ أَتَظَلَّمُ

وقال الفضل بن يحيى : إن حاجب الرجل عامله على عرضه ، وإنه لا عوض لحر من نفسه ، ولا قيمة عنده لحريته وقدره . وأنشدني ابن أبي كامل في هذا المعنى :

وَاعْلَمَنْ إِنْ كُنْتَ تَجْهَلَهُ أَنَّ عِرْضَ الْمَرْءِ حَاجِبُهُ
فِيهِ تَبْدُو مَحَاسِنُهُ وَبِهِ تَبْدُو مَعَايِبُهُ

من عوتب على حجابه أو هجي به : روى إسحق الموصلي عن ابن كناسة قال : أخبرت أن هانيء بن قبيصة وفد على يزيد بن معاوية فاحتجب عنه أياما ثم إن يزيد ركب يوماً فتلقاه هانيء ، فقال : يا يزيد ، إن الخليفة ليس بالمحتجب المختلي ولا المتطرف المتنحي ، ولا الذي ينزل على الغدران والفلوات ويخلو للذات والشهوات ، وقد وليت أمرنا فأقم بين أظهرنا وسهل إذننا واعمل بكتاب الله فينا ، فإن كنت قد عجزت عما ههنا فاردد علينا بيعتنا لنبايع من يعمل بذلك فينا ويقيمه لنا ، ثم عليك بخلواتك وصيدك وكلابك ! ؟ قال : فغضب يزيد وقال : والله لولا أن أسن

بالشام سنة العراق لأقمت أودك . ثم انصرف وما هاجه بشيء وأذن له ولم تتغير منزلته عنده وترك كثيراً مما كان عليه .

الموصلي قال : كان سعيد بن سلم والياً على إرمينية فورد عليه أبو دُهمان الغلابى فلم يصل إليه إلا بعد حين ، فلما وصل قال وقد مثل بين السماطين : والله إني لأعرف أقواماً لو علموا أن سف التراب يقيم من أود أصلابهم لجعلوه مُسكة لأرماقهم ، إيثاراً للتنزه عن العيش الرقيق الحواشي ، والله إني لبعيد الوثبة بطيء العطفة ، إنه والله ما يثنيني عليك إلا مثل ما يصرفني عنك ، ولأن أكون مملقا مقربا أحب إلى من أن أكون مكثراً مبعداً ، والله ما نسأل عملا لا نضبطه ولا مالا إلا ونحن أكثر منه ، و إن الذى صار فى يدك قد كان فى يد غيرك فأمسوا والله حديثاً إن خيراً فخير و إن شراً فشر ، فتحبب إلى عباد الله بحسن البشر ولين الحجاب فان حب عباد الله موصول بحب الله وهم شهداء الله على خلقه وأمناؤه على من اعوج عن سبيله .

إسحق بن ابراهيم الموصلي قال : استبطأني جعفر بن يحيى وشكا ذلك إلى أبي فدخلت عليه — وكان شديد الحجاب — فاعتذرت إليه وأعلمته أنني أتيت إليه مراراً للسلام فحجبني نافذ غلامه . فقال لى وهو مازح : متى حجبك فنله . فأتيته بعد ذلك للسلام فحجبني ، فكتبت إليه رقعة فيها :

جُعِلْتُ فِدَاؤُكَ مِنْ كلِّ سُوءِ ... إلى حُسْنِ رَأْيِكَ أشكو أُناسا
يَحُولُون بَيْني وَبَيْنَ السلام ... فما إنْ أُسَلِّمُ إلا اخْتِلاسا
وأنفذْتُ أمْرَكَ فى نافذٍ ... فما زَادَهُ ذَاكَ إلا شِماسا

وسألت نافذاً أن يوصلها ففعل ، فلما قرأها ضحك حتى فحص برجليه وقال : لا تحجبه أى وقت جاء . فصرت لا أحجب .

وحجب أحمد بن أبي طاهر بباب بعض الكتاب فكتب إليه : ليس لحر من نفسه عوض ، ولا من قدره خطر ، ولا لبذل حريته ثمن ، وكل ممنوع فمستغنى عنه

بغيره ، وكل مانع ما عنده فني الأرض عوض منه ومندوحة عنه ، وقد قيل : أرخص ما يكون الشيء عند غلائه . وقال بشار : « والدر يترك من غلائه » ونحن نعوذ بالله من المطامع الدنية والهمة القصيرة، ومن ابتذال الحرية ، فان نفسي والله أبية ما سقطت وراء همة، ولا خذلها ناصر عند نازلة، ولا استرقها طمع، ولا طبعت على طَبَع، وقد رأيتك وليت عرضك من لا يصونه، ووكلت ببابك من يشينه ، وجعلت ترجمان كرمك من يكثر من أعدائك، وينتقص من أوليائك، ويسيء العبارة عن معروفك، ويوجه وفود الذم إليك، ويضغن قلوب إخوانك عليك ، إذ كان لا يعرف لشريف قدراً، ولا لصديق منزلة ، ويزيل المراتب عن جهاتها ودرجاتها ، فيحط العلي إلى مرتبة الوضيع، ويرفع الدنيء إلى مرتبة الرفيع ، ويقبل الرُّشا ، ويقدم على الهوى ، وذلك إليك منسوب وبرأسك معصوب ، يلزمك ذنبه ويحل عليك تقصيره . وقد أنشدني أبو علي البصير :

كم مِنْ فتًى تُحْمَدُ أخلاقُهُ وتَسْكُنُ الأحرارُ في ذِمَّتِهْ
قدْ كَثَّرَ الحاجِبُ أعْداءَهُ وأحْقَدَ النّاسَ على نِعْمَتِهْ

وأنشدت لبعضهم :

يدُلُّ على سَرْوِ الفتى وَاحْتِمالِهِ إذا كانَ سهلاً دُونَهُ إذْنُ حاجِبِهْ
وَقدْ قيلَ ما البوَّابُ إلاَّ كرَبِّهِ إذا كانَ سَهلاً كانَ سَهْلاً لِصَاحِبِهْ

وقال الطائي :

حَشَمُ الصديقِ عُيُونُهُمْ بَحَّاثَةٌ لِصَديقِهِ عنْ صِدْقِهِ وَنِفاقِهِ
فَلْيَنْظُرَنَّ المرْءُ مَن غِلْمانُهُ فَهمُ خَلائقُهُ على أخْلاقِهِ

وقال آخر : إعْرَفْ مَكانَكَ مِنْ أخيكَ وَمِنْ صَديقِكَ بالحَشَمْ

قال ابن أبي عيينة :

إنَّ وَجْهَ الغلامِ يُخْبِرُ عَمَّا في ضَميرِ المولَى مِنَ الكِتْمانِ

فإذا مَا جَهِلْتَ وِدَّ صَدِيقٍ فامْتَحِنْ ما أرَدْتَ بالغِلْمَانِ

وقال آخر: وَمِحْنَةُ الزَّائرِين بَيِّنَةٌ تُعْرَفُ قَبْلَ اللِّقَاءِ بالحشَمِ

وأنشدنى عبد الله بن أحمد المهر فى على بن الجهم:

أعلِيُّ دُونَكَ يا علِيُّ حِجابُ يُدْنِى البعيدَ وَيُحْجَبُ الأصْحابُ؟

هَذَا بإذْنِكَ أمْ برَأْيِكَ أمْ رَأَى هَذَا عليْكَ العَبْدُ وَالبوَّابُ؟

إنَّ الشَّرِيفَ إذا أُمُورُ عَبِيدِهِ غَلَبَتْ عَلَيْهِ فأمْرُهُ مُرْتابُ

أخذه من قول الطائى:

أبَا جَعْفَرٍ وَأُصُولُ الفَتَى تَدُلُّ عَلَيْهِ بأغْصَانِهِ

ألَيْسَ عَجِيباً بأنَّ امْرأً رَجَاكَ لِحَادِثِ أزْمَانِهِ

فَتأْمُرُ أنْتَ بإِعْطائِهِ وَيأْمُرُ فَتْحٌ بحِرْمَانِهِ

وَلَسْتُ أُحِبُّ الشَّرِيفَ الظَرِيفَ يكونُ غُلَامَاً لِغِلْمَانِهِ

وحجب ابن أبى طاهر بباب بعض الكتاب فكتب إليه: إنه من لم يرفعه الإذن لم يضعه الحجاب، وأنا أرفعك عن هذه المنزلة وأربأ بقدرك عن هذه الخليقة وما أحد أقام فى منزله — عظم أو صغر قدره — إلا ولو حاول حجاب الخليفة عنه لأمكنه، فتأمل هذه الحالة وانظر إليها بعين النصفة تراها فى أقبح صورة وأدنى منزلة. وقد قلت:

إذَا كُنْتَ تَأْتِى المَرْءَ تُعْظِمُ حَقَّهُ وَيَجْهَلُ مِنْكَ الحَقَّ فالهَجْرُ أوْسَعُ

فَفِى النَّاسِ أبْدَالٌ وَفِى العِزِّ رَاحَةٌ وَفِى اليَأْسِ عمَّنْ لا يُوَاتِيكَ مَطْمَعُ

وَإنَّ امْرأً يَرْضَى الهَوَانَ لِنَفْسِهِ حَرِىٌّ بِجَدْعِ الأنْفِ وَالجَدْعُ أشْنَعُ

فَدَعْ عَنْكَ أفْعالاً يَشِينُكَ فِعْلُهَا وَسَهِّلْ حِجاباً إذْنُهُ لَيْسَ يَنفَعُ

وحدثنى عبد الله بن أبى مروان الفارسى قال: ركبت مع ثمامة بن أشرس إلى أبى عباد الكاتب فى حوائج كتب إلى فيها أهل إرمينية من المعتزلة والشيعة،

فأتيناه فأعظم ثمامة وأقعده في صدر المجلس وجلس قبالته — وعنده جماعة من الوجوه — فتحدثنا ساعة ثم كلم ثمامة في حاجتي وأخرجت كتب القوم فقرأها — وقد كانوا كتبوا إلى أبي عباد كتبا وكانوا أصدقاءه أيام كونه بارمينية — فقال لي : بكر إلى غدا حتى أكتب جواباتها إن شاء الله . فقلت : جعلني الله فداك ، تأمر الحاجب إذا جئت أن يأذن لي . فغضب من قولي واستشاط مني فقال : متى حجبت أنا؟ أولي حاجب أو لأحد على حجاب ؟ قال عبد الله — وقد كنت أتيته فحجبني بعض غلمانه — فحلف بالأيمان المغلظة أن يقلع عيني من يحجبني . ثم قال : ياغلام لاتبق في الدار غلاما ولا منقطعا إلينا إلا أحضرتمونيه الساعة . فأتى بغلمانه — وهم نحو من ثلثمائة — فقال : أشر إلى من شئت منهم ؟ فغمزني ثمامة . فقلت : جعلت فداك ، لا أعرف الغلام بعينه . فقال : ما كان لي حاجب قط ولا احتجبت ، وذلك لأنه سبق مني قول لأني كنت وأنا بالري وقد مات أبي وخلف لي بها ضياعا فاحتجت إلى ملاقاة الرجال والسلطان فيما كان لنا، فكنت أنظر إلى الناس يدخلون ويصلون وكنت أحجب أنا وأقصى فتتقاصر إلى نفسي ويضيق صدري ، فآليت على نفسي إن صرت إلى أمر من السلطان أن لا أحتجب أبدا .

وحدثني الزبير بن بكار قال : إستأذن نافع بن جبير بن مطعم على معاوية فمنعه الحاجب فدق أنفه ، فغضب معاوية — وكان جبير عنده — فقال معاوية : يانافع أتفعل هذا بحاجبي ؟ قال : وما يمنعني منه وقد أساء أدبه وأسأت اختياره ، ثم أنا بالمكان الذي أنا به منك ؟ فقال جبير : فض الله فاك ، ألا تقول وأنا بالمكان الذي أنا به من بني عبد مناف . . ! فتبسم معاوية وأعرض عنه .

ووفد رجل من الأساورة على بعض ملوكهم فأقام ببابه حولا لا يصل إليه ، فكلم الحاجب فأوصل له رقعة فيها أربعة أسطر ، الأول فيه : *الأمل والضرورة أقدماني عليك* . وفي الثاني : *ليس على المعدم صبر على المطالبة* . وفي الثالث : *رجوع بلا فائدة شماتة العدو والقريب* . وفي الرابع : إما « نعم » مثمرة ، وإما « لا »

مؤيسة . ولا معنى للحجاب بينهما . فوقع تحت كل سطر منها . وأنشد الوليد بن عبيد البحترى فى ابن المدبر يهجو غلامه بشرا :

وَكَمْ جِئْتُ مُشْتَاقاً عَلَى بُعْدِ غَايَةٍ ... إِلَى غَيْرِ مُشْتَاقٍ وَكَمْ رَدَّنِى بِشْرُ
فما بالُهُ يَأْبى دُخُولِى وَقَدْ رَأى ... خُروجِىَ مِنْ أَبْوَابِهِ وَيَدِى صِفْرُ

وأنشدت لبعضهم :

لَعَمْرِى لَئِنْ حَجَبَتْنِى العَبِيدُ ... بِبَابِكَ مَا يَحْجُبوا القافيَهْ
سأَرْمِى بها مِنْ وَرَاءِ الحِجابِ ... جَزَاءَ قُروضٍ لَـكُم وَافيَهْ
تُصِمّ السَّميعَ وتُعْمِى البَصِيرَ ... وَيُسْأَلُ مِنْ أَجْلِها العافيَهْ

وأنشدنى أحمد بن أبى فنن بن محمد بن حمدون بن إسماعيل :

وَلَقَدْ رَأَيْتُ بِبَابِ دارِكَ جَفْوَةً ... فيها لِحُسْنِ صَنيعةٍ تَكْديرُ
ما بالُ دَارِكَ حِينَ تَدْخُلُ جَنَّةً ... وَبِبابِ دَارِكَ مُنْكَرٌ وَنَكِيرُ

وأنشدنى أبو على الدرهمى اليمامى فى أبى الحسن على بن يحيى :

لا يُشْبِهُ الرَّجُلُ الكَرِيمُ نِجارُهُ ... ذَا اللُّبِّ غَيْرَ بَشَاشَةِ الحُجَّابِ
وَبِبَابِ دَارِكَ مَنْ إذَا مَا جِئْتُهُ ... جَعَلَ التَّبَرُّمَ وَالعُبُوسَ ثَوَابِى
أَوْصَيْتَهُ بالإذْنِ لِى فَكَأَنَّمَا ... أَوْصَيْتَهُ مُتَعَمِّداً بِحِجَابِى

وأنشدنى أبو على البصير فيه أيضاً :

فِى كلِّ يَوْمٍ لِى بِبابِكَ وَقْفَةٌ ... أَطْوِى إِلَيْهَا سَائِرَ الأَبْوَابِ
فَإِذَا حَضَرْتُ رَغِبْتُ عَنْكَ فإِنَّهُ ... ذَنْبٌ عقُوبَتُهُ عَلَى البَوَّابِ

وأنشدنى أبو على اليمامى — وعاتب بعض أهل العسكر فى حاجته فلم يأذن له الحاجب بعد ذلك ، فكتب إليه :

صَارَ العِتَابُ يَزِيدُنِى بُعْداً ... وَيَزِيدُ مَنْ عاتَبْتُهُ صَدّاً

وَإِذَا شَكَوْتُ إِلَيْهِ حَاجِبَهُ ... أَغْرَاهُ ذَاكَ فَزَادَنِي رَدَّا

وأنشدنى العجيبى فى بعض أهل العسكر يعاتبه فى حجابه ويهجو حاجبه :

إِنَّمَا يَحْسُنُ المَدِيحُ إِذَا مَا ... أَنْشَدَ المَادِحُ الفَتَى المَمْدُوحَا
وَأَرَانِي بِبَابِ دَارِكَ عُمْرَتُ ... طَوِيلاً مُقْصًى مُهَاناً طَرِيحاً
إِنَّ بِالبَابِ حَاجِباً لَكَ أَمْسَى ... مُنْكَرٌ عِنْدَهُ ظَرِيفاً مَلِيحاً
مَا سَأَلْنَاهُ عَنْكَ قَطُّ وَإِلاَّ ... رَدَّ مِنْ بُغْضِهِ مَرَدًّا قَبِيحَا

وأنشدت لبعضهم فى هجاء حاجب :

سَأَتْرُكُ بَاباً أَنْتَ تَمْلِكُ إِذْنَهُ ... وَلَوْ كُنْتُ أَعْمَى عَنْ جَمِيعِ المَسَالِكِ
فَلَوْ كُنْتَ بَوَّابَ الجِنَانِ تَرَكْتُهَا ... وَحَوَّلْتُ رَحْلِي مُسْرِعاً نَحْوَ مَالِكِ

وكتب بعض الكتاب إلى الحسن بن وهب :

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ طَرْفَكَ مَلَّنِي ... وَرُمِيتُ مِنْكَ بِجَفْوَةٍ وَعَذَابِ
فَإِذَا هَوَاكَ عَلَى الَّذِي قَدْ كَانَ لِي ... وَإِذَا بَلِيَّتُنَا مِنَ البَوَّابِ
فَاعْلَمْ جُعِلْتُ فِدَاكَ غَيْرَ مُعَلَّمٍ ... أَنَّ الأَدِيبَ مُؤَدِّبُ الحُجَّابِ

قال رزين العروضى لجعفر بن محمد الأشعث :

إِنْ كُنْتَ تَحْجُبُنِي لِلذَّنْبِ مُزْدَهِياً ... فَقَدْ لَعَمْرِي أَبُوكُمْ كَلَّمَ الذِّيبَا
فَكَيْفَ لَوْ كَلَّمَ اللَّيْثَ الهَصُورَ إِذاً ... تَرَكْتُمُ النَّاسَ مَأْكُولاً وَمَشْرُوبَا
هَذَا السُّنَيْدِيُّ مَا سَاوَى إِتَاوَتَهُ ... يُكَلِّمُ الفِيلَ تَصْعِيداً وَتَصْوِيبَا
إِذْهَبْ إِلَيْكَ فَمَا آسَى عَلَيْكَ وَمَا ... أُلْفَى بِبَابِكَ طَلاَّباً وَمَطْلُوبَا

المدائنى قال : كان يزيد بن عمر الأسيدى على شرطة البصرة فأتاه الفرزدق فى جماعة فوقف ببابه فأبطأ عليه إذنه فقال — وكان عمر يلقب بالوقاح — :

أَلَمْ يَكُ مِنْ نَكْسِ الزَّمَانِ عَلَى اسْتِهِ ... وُقُوفِي عَلَى بَابِ الوَقَاحِ أُسَائِلُهْ

فَإِنْ تكُ شُرْطِيًّا فإِنِّي لِغالِبٍ إذا نَزَلتْ أَرْكانَ فَخٍّ مَنازِلُهْ

وقال أبو علي البصير — وحجبه محمد بن غسان ، بعد أنس كان بينهما — :

قدْ أَتَيْنا لِلْوَعْدِ صَدْرَ النَّهارِ فدُفِعنا مِنْ دُونِ بَابِ الدَّارِ
فأَحطْنا بِكُلِّ مَا غَابَ مِنْ شأْ نِكَ عَنَّا خُبْراً بِلاَ اسْتِخْبَارِ
فإِذا أَنْتَ قَدْ وَصلْتَ صَبُوحاً بِغَبُوقٍ وَدُلْجَةً بِابْتِكارِ
وَإذا نَحْنُ لا تُخَاطِبُنَا الغِلْمَا نُ إلاَّ بالْجَحْدِ وَالإِنكارِ
فانصَرَفْنَا وَطالَمَا قدْ تلَقَّوْ نَا بِأُنْسٍ مِنْهُمْ وَباسْتِبْشَارِ
ذاكَ إذْ كانَ مَرَّةً لكَ فِينَا وَطَرٌ فانقْضَى مِنَ الأَوْطارِ
حِينَ كُنَّا المُقَدَّمِينَ عَلَى النَّا سِ وَكُنَّا الشِّعَارَ دُونَ الدِّثارِ
كَمْ تَأَنَّيْتُ وَانتَظَرْتُ فَأَفْنَيْـ تَ تَأَنِّيَّ كُلَّهُ وَانتِظَارِى
فعَلَيْكَ السلامُ كُنَّا مِنَ الْ أَهْلِ فصِرْنا مِنْ جُمْلَةِ الزُّوَّارِ

وله إليه أيضاً :

قدْ أَطَلْنا بالْبَابِ أَمْسِ القُعُودَا وَجُفِينا بِهِ جَفاءً شَديداً
وَذَمَمْنا العَبِيدَ حَتَّى إِذَا نَحْنُ بَلَوْنا الموْلَى عَذَرْنا العبيدا
وَعَلى مَوْعِدٍ أَتيْناكَ مَعْلومٍ وَأَمْرٍ مُؤَكَّدٍ تأْكِيدَا
فأَقمْنا لا الإِذْنُ جاء ولا جَـــاءَ رَسولٌ قالَ انصَرِفْ مَطْرُودَا
وَصبَرْنَا حَتَّى رَأَيْنا قُبَيْلَ الظُّهْرِ بِرْذَوْنَ بَعْضِهِمْ مَرْدُوداً
وَاستَقرَّ المكانُ بالقَوْمِ وَالْـ غِلْمَانُ فى ذاكَ يَمْنَحُونا صُدُودَا
وَيُشِيرُونَ بالمضِيِّ فلمَّا أُخْرِجُوا جَرَّدُوا لنا تَجْرِيدا
فانْصَرَفْنا فِي ساعَةٍ لوْ طرَحْـ تَ اللَّحمَ فيها نِيأً كُفيتَ الْوَقودا
فلعَمْرِى لوْ كُنْتَ تعْتَدّ لِي ذنباً عَظِيماً وَكُنْتَ فظًّا حَقودَا

وَطلبْتَ المزيدَ لى فى عَذابٍ فوْقَ هَذا لما وَجَدْتَ مَزيدَا
كانَ ظَنِّى بكَ الجميلَ فألفيْـ ـتُكَ مِنْ كلِّ ما ظَننْتُ بَعيداً
فعَليْكَ السلامُ تسْليمَ مَنْ لا يُضْمِر الدَّهْرَ بَعْدهَا أنْ يَعُودَا

وله فى أحمد بن داود البسّي — وقصد إليه بكتاب اسحٰق بن سعد الكاتب — :

يا ابْنَ سَعْدٍ إنَّ العُقوبةَ لا تلْزمُ إلاَّ مَنْ نَالَهُ الإعْذَارُ
وَابْنُ دَاوُدَ مُسْتخِفٌّ وَقدْ وَافتهُ مَشْحُوذةً عَليْهِ الشِّفارُ
فاهْدِهِ لِلَّتِى يكونُ لهُ مِنْها مَفرٌّ مَا دامَ يُنْجِى الفِرارُ
سامَنِى أحْمَدُ بْنُ داوُد أمْراً ما عَلَى مِثْلِهِ لدىَّ اصْطِبارُ
لِى إليْهِ فى كلِّ يَوْمٍ جَديدٍ رَوْحَةٌ ما أُغِبُّها وَابْتِكارُ
وَوُقُوفٌ ببابهِ أمْنَعَ الإذْ نَ عَليهِ وَتدْخُل الزُّوَّارُ
خُطَّةٌ مَنْ يُقِمْ عَليهامنَ النا سِ ففيها ذُلٌّ له وَصَغارُ
لوْ يُنالُ الغِنَى لمَا كان فى ذا لِكَ حَظٌّ يَنالهُ مُخْتارُ
عَزُبَ الرَّأْىُ فيهِ عَنهُ وَغرَّ تْهُ أنَاةٌ طَوِيلةٌ وَانْتِظارُ

وحجب بباب بعض الكتاب فكتب إليه :

أقمْتُ بِبابِك فى جَفْوَةٍ يُلوِّنُ لِى قوْلَهُ الحَاجِبُ
فيُطْمِعُنِى تارةً فى الوُصُو لِ وَرُبَّما قال لِى راكِبُ
فأعْلمُ عِنْدَ اخْتِلافِ الكلا مِ وَتخْليطِهِ أنَّهُ كاذِبُ
وَأعْزِمُ عَزْماً فيأْبَى علىَّ إمْضاءهُ رَأْيىَ الثّاقِبُ
وَإنِّى أُرَاقِبُ حتَّى يَثُوبَ لِلحُسْنِ مِنْ رَأْيِهِ ثائِبُ
فإنْ تعْتَذِرْ تُلْفِنِى عاذِراً صَفوحاً وذاكَ هُوَ الوَاجِبُ

وَإلاَّ فإنِّى إذا ما الحِبالُ … رَثَّتْ قوَاها لها قاضِبُ

وقال لعلى بن يعقوب الكاتب ، وقد حجبه بوابه :

قدْ أتيناكَ للسَّلامِ فصادفْ … نا على غيْرِ ما عَهِدْنا الغُلاَما

وَسألْناهُ عَنْكَ فاعْتَلَّ بالنَّـ … ـومِ وَمَا كانَ مُنْكَراً أنْ تَنَامَا

غيْرَ أنَّ الجَوابَ كانَ جَواباً … سَيِّئاً يُعْقِبُ الصديقَ احْتِشاما

فانصرَفْنا نُوَجِّهُ العُذْرَ إلاَّ … أنَّ فى مُضْمَرِ القُلُوبِ اضطِراما

يَاابْنَ يعقُوبَ لاَ يَلومَنَّ إلاَّ … نَفْسَهُ بَعْدَ هَذِهِ مَنْ لاَمَا

وقال لعلى بن يحيى المنجم وقد حجبه غلامه :

لَيْسَ يَرْضَى الحُرُّ الكَرِيمُ وَإنْ … أقْطَعْتَهُ الْأَرْضَ أن يَذِلَّ لِعَبْدِ

فعلَيْكَ السلامُ إلاّ عَلَى الطُّرْ … قِ وَحُبِّى كما عَلِمْتَ وَوُدِّى

وقال أبو هفان لعلى بن يحيى يعاتبه فى حجابه :

أبا حَسَنٍ وَفَنا حَقَّنا … بِحَقِّ مَكارِمِكَ الوَافِيَهْ

أأُحْجَبُ دُونَكَ شَرَّ الحجابِ … وَتَدْخُلُ دُونى بَنو العافيهْ

أعُوذُ بِفضْلِكَ مِنْ أنْ أُسا … ءَ وَأسألُ رَبِّى لكَ العافيَهْ

فإنِّى امْرُؤٌ تَتَّقِينِى المُلوكُ … وَتَدْخُلُ فى حِلْفِىَ الصافيَهْ

كَتَبْتُ عَلى نَفسِ مَنْ رَامَنِى … بِبَعْضِ الأَذَى لِلرَّدَى قافيَهْ

وأنشدت لبرقوق الأخطل ، وقد حجب بباب بعض الكتاب :

قَدْ حُجِبْنا وكانَ خَطْباً جَليلاً … وقَليلُ الجفاءِ لَيْسَ قَليلا

لم أكُنْ قَبْلَهَا ثقيلاً وَهـ … ـلْ يَثْقُلُ مَنْ خافَ أنْ يكونَ ثَقيلا

غيْرَ أنِّى أظُنُّ لاَ زالَ هَذا الظَّـ … ـنُّ يَنقَادُ أنْ يَكونَ مَلالاَ

أخذه من قول الآخر :

لمَّا تحَاجبْتَ وَقدْ خِفتَ أنْ ... تدْنو مَنْ وَدَّكَ بالمقْبَلِ
أقْلَلْتُ مِنْ إتْيانِكم إنَّهُ ... مَنْ خافَ أنْ يَثْقُلَ لمْ يَثقُلِ

وأنشدنى أبو عبد الرحمن العطوى :

لِأَبِى بَكْرٍ خَلِيلِى ... حُسْنُ رَأْيٍ فى الْحِجَابْ
يا أبابكْرٍ سَقَاكَ الـــــهُ مِنْ صَوْبِ السَّحَابْ
لَنْ تَرَانِى بَعْدَهَا مِنْ ... بَعْدِهَا قَارِعَ بَابْ
إنْ يَنُبْ خَطْبٌ فَفِى ... الرُّسْلِ بَلَاغٌ وَالْكِتَابْ

ولخالد الكاتب فى جعفر بن محمود :

إحْتَجَبَ الكَاتِبُ فى دَهْرِنا ... وكان لا يَحْتَجِبُ الكَاتِبُ
القَوْمُ يَخْلُونَ بِحُجَّابِهِمْ ... فَيَنْكَحُ المحجوبُ والحَاجِبُ

ولأبي سعيد المخزومى فى الحسن بن سهل :

تَرَهَّبَ بَعْدَكَ الْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ ... وَأغْلَقَ بابَهُ دُونَ المَدِيحِ
كَذَبْتُ له وَلَمْ أَكْذِبْ عَلَيْهِ ... كما كَذَبَ النصارَى لِلمَسِيحِ

وأنشدنى البلاذرى فى بعض كتاب أهل العسكر :

أيَحجُبُنِى مَنْ ليسَ مِنْ دُونِ عِرْسِهِ ... حِجابٌ وَلا مِنْ دُونِ وَجْعائِهِ سِتْرُ
وَمَنْ لوْ أماتَ اللهُ أهْوَنَ خَلقِهِ ... عَليهِ لَأضْحَى قد تَضَمَّنَهُ قَبْرُ ؟

وأنشدنى حبيب بن أوس فى موسى بن ابراهيم أبو المغيث :

أمُوَيْسُ لا يُغْنِى اعْتِذَارُكَ طَالباً ... ودِّى فما بَعْدَ الهجاء عِتابُ
هَبْ مَنْ له شَىْءٌ يُرِيدُ حِجابَهُ ... ما بالُ لَا شَىْءَ عَليهِ حِجابُ ؟
ما إنْ سَمِعْتُ وَلا أرَانِى سامعاً ... يَوْماً بِصحْرَاء عليها بابُ
مَنْ كانَ مَفقُودَ الحياءِ فَوَجْهُهُ ... مِنْ غَيْرِ بَوَّابٍ له بوَّابُ

ولآخر :

بَخِلَ الأَمِيرُ بِإِذْنِهِ   فَجَلَسْتُ فِى بَيْتِى أَمِيرًا
وَتَرَكْتُ إِمْرَتَهُ لَهُ   وَاللهُ مَحْمُودٌ كَثِيرًا

وأنشدنى الزبير بن بكار لبعض الشعراء :

سَأَتْرُكُ هَذَا البَابَ مادامَ إِذْنُهُ   عَلَى ما أَرَى حَتَّى يَلِينَ قَلِيلاَ
إِذَا لَمْ نَجِدْ لِلإِذْنِ عِنْدَكَ سُلَّمًا   وَجَدْنَا إِلَى تَرْكِ المَجِيءِ سَبِيلاَ

الزبير بن بكار قال : وفد ابن عم لداود بن يزيد المهلبى عليه فحجبه وجعل يمطله بحاجته فكتب إليه :

أَبا سُلَيْمَانَ وَعْدًا غَيْرَ مَكْذُوبِ   اليَأْسُ أَرْوَحُ مِنْ آمالِ عُرْقُوبِ
أَرَى حَمامَةَ مَطْلٍ غَيْرَ طَائِرَةٍ   حَتَّى تُنَقِّبَ عَنْ بَعْضِ الأَعَاجِيبِ
لاَتَرْكَبَنَّ بِشِعْرِى غَيْرَ مَرْكَبِهِ   فَيَرْكَبُ الشِّعْرُ ظَهْرًا غَيْرَ مَرْكُوبِ
لَئِنْ حُجِبْتُ فَلَمْ تَأْذَنْ عَلَيْكَ فَمَا   شِعْرِى إِذَا سَارَ عَنْ إِذْنٍ بِمَحْجُوبِ
إِنْ ضَاقَ بَابُكَ عَنْ إِذْنٍ شَدَدْتُ غَدًا   رَحْلِى إِلَى المطَرِيِّينَ المَنَاجِيبِ
قَوْمٌ إِذَا سُئِلُوا رَقَّتْ وُجُوهُهُمُ   لاَ يَسْتَفِيدُونَ إِلاَّ لِلْمَوَاهِيبِ

وللأحوص بن محمد الأنصارى فى أبى بكر بن حزم :

أَعَجِبْتَ أَنْ رَكِبَ ابْنُ حَزْمٍ بَغْلَةً   فَرُكُوبُهُ فَوْقَ المنابِرِ أَعْجَبُ
وَعَجِبْتَ أَنْ جَعَلَ ابْنُ حَزْمٍ حاجِبًا   سُبْحانَ مَنْ جَعَلَ ابْنَ حَزْمٍ يَحْجُبُ

وأنشدت لابن حازم يعاتب رجلا فى حجابه :

صَحِبْتُكَ إِذْ أَنْتَ لاَ تُصْحَبُ   وَإِذْ أَنْتَ لاَ غَيْرُكَ المَرْكَبُ
وَإِذْ أَنتَ تَفْرَحُ بِالزَّائِرِينَ   وَنَفْسُكَ نَفْسُكَ تَسْتَحْجِبُ
وَإِذْ أَنتَ تُكْثِرُ ذَمَّ الزمانِ   وَمَشْيُكَ أَضْعَافُ ما تَرْكَبُ
فَقُلْتُ كَرِيمٌ لَهُ هِمَّةٌ   يَنَالُ وَأَدْرَكَ ما يَطْلُبُ

وَأَصْبَحْتُ عَنْكَ إِذَا مَا أَتَيْــــتُ دُونَ الْوَرَى كُلِّهِمْ أُحْجَبُ

وأنشدني أبو تمام الطائي :

وَمُحَجَّبٍ حاوَلْتُهُ فَوَجَدْتُهُ نَجْماً عَنِ الرَّكْبِ الْعُفَاةِ شَسُوعا
لَمَّا عَدِمْتُ نَوَالَهُ أَعْدَمْتُهُ شُكْرِي فَرُحْنَا مُعْدِمِينَ جَمِيعاً

ووقف العتبي بباب إسماعيل بن جعفر يطلب إذنه فأعلمه الحاجب أنه في الحمام فقال:

وَأَمِيرٍ إِذَا أَرَادَ طَعَاماً قَالَ حُجَّابُهُ أَتَى الْحَمَّامَا
فَيَكُونُ الْجَوَابُ مِنِّي لِلْحَاجِبِ مَا إِنْ أَرَدْتُ إِلاَّ السَّلاما
لَسْتُ آتِيكُمْ مِنَ الدَّهْرِ إِلاَّ كُلَّ يَوْمٍ نَوَيْتُ فِيهِ الصِّيَامَا
إِنَّنِي قَدْ جَعَلْتُ كُلَّ طَعَامٍ كَانَ حِلاً لَكُمْ عَلَيَّ حَرَامَا

وأنشدني إسحق بن خلف البصري له :

أَيَحْجُبُنِي أَبُو الْحَسَنِ وَهَذَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ
وَلَيْسَ حِجَابُهُ إِلاَّ عَلَى الزَّيْتُونِ وَالْجُبْنِ

وأنشدني بعضهم :

لا تَتَّخِذْ بَاباً وَلاَ حَاجِباً عَلَيْكَ مِنْ وَجْهِكَ بَوَّابُ
أَنْتَ وَلَوْ كُنْتَ بِدَوِّيَّةٍ عَلَيْكَ أَبْوَابٌ وَحُجَّابُ

ولعلي بن جَبَلَة في الحسن بن سهل :

أَلْيَأْسُ عِزٌّ وَالذِّلَّةُ الطَّمَعُ يَضِيقُ أَمْرٌ يَوْماً وَيَتَّسِعُ
لا تَسْتَرِيبَنَّ إِذْنَ مُحْتَجِبٍ إِنْ لَمْ تَكُنْ بِالدُّخُولِ تَنْتَفِعُ
أَحَقُّ شَيْءٍ بِطُولِ مَهْجَرِهِ مَنْ لَيْسَ فِيهِ رِيٌّ وَلاَ شِبَعُ
قُلْ لاِبْنِ سَهْلٍ فَإِنَّنِي رَجُلٌ إِنْ لَمْ تَدَعْنِي فَإِنَّنِي أَدَعُ
أَلْيَأْسُ مَالِي وَجُبَّتِي كَرَمٌ وَالصَّبْرُ وَالٍ عَلَيَّ لا الْجَزَعُ

ولأبى تمام الطائى فى أبى المغيث :

لاَ تَكْلَفَنّ وَارْضَ وَجْهكَ وَجْهَهُ ... مِنْ غَيْرِ مَنْفعَةٍ مُؤْنَةَ حاجِبِ

لاَ تَمْتَهِنّى بالحِجابِ فإنّنِى ... فَطِنُ البَدِيهَةِ عالِمٌ بِمَا رَبِى

ولبعض الشعراء فى العباس بن خالد ، وخبرت أنه لابن الأعمش :

أتَحْجُبُنِى وَلَيْسَ لدَيْكَ نَيْلٌ ... وَقد ضيّعْتَ مَكْرُمَةً وَمَجْداً

وَفى الآفاقِ أبْدَالٌ وَرِزْقٌ ... وَفى الدُّنيَا مَرَاحٌ لِى وَمَغْداً

وأنشدنى أبو الخطاب لدعبل فى غسان بن عباد :

لَقَطْعُ الرِّمَالِ وَنَقْلُ الجِبَالِ ... وَشُرْبُ البحارِ التى تَصْطخِبْ

وَكَشْفُ الغِطَاءِ عَنِ الجِنّ أو ... صُعُودُ السَّماءِ لِمَنْ يَرْتَقِبْ

وَإحْصَاءِ لؤْمِ سَعِيدٍ لنَا ... أو الثّكلُ فى وَلَدٍ مُنْتَخَبْ

أخَفُّ عَلَى المرْءِ مِنْ حاجَةٍ ... تَكَلَّفَ غَشّانَها مُرْتَقِبْ

لَهُ حاجِبٌ دُونَهُ حاجِبٌ ... وَحَاجِبُ حَاجِبِه مُحْتَجِبْ

ولمرواس بن حزام الأسدى فى بشير بن جرير بن عبد الله :

أتَيْتُ بَشِيراً زائِراً فَوَجَدْتُهُ ... أخَا كِبْرِيَاء عَالِمًا بِالمَعَاذِرِ

فَصَدَّ وَأبْدَى غِلْظَةً وَتَجَهُّماً ... وَأغْلَقَ بابَ العُرْفِ عَنْ كلِّ زَائِرِ

حِجَاباً لِحُرٍّ لاَ جَوَادًا بِمَالِهِ ... وَلاَ صَابِراً عِنْدَ اخْتِلافِ البَوَاتِرِ

وحجب أبو العتاهية بباب احمد بن يوسف الكاتب فكتب إليه :

ألَمْ تَرَ أنَّ الفَقْرَ يُرْجَى لَهُ الغِنَى ... وَأنَّ الغِنَى يُخْشَى عَلَيْهِ مِنَ الفَقْرِ

فإنْ نِلْتَ تِيهاً بِالّذِى نِلْتَ مِنْ غِنًى ... فإنَّ غِنَانِى بِالتَّكَرُّمِ وَالصَّبْرِ

وله أيضاً فيه :

إنِّى أتَيْتُكَ لِلسَّلامِ ... تَكَلُّفاً مِنِّى وَحُمْقَا

فَصَدَدْتَ عَنِّى نَخْوَةً ... وَتَجَبُّراً وَلَوَيْتَ شِدْقَا

فَلَوْ أَنَّ رِزْقِي فِي يَدَيْكَ　　لَمَا طَلَبْتُ الدَّهْرَ رِزْقَا

ولأحمد بن أبي طاهر :

لَيْسَ الْعَجِيبُ بِأَنْ أَرَى لَكَ حَاجِباً　　وَلَأَنْتَ عِنْدِي مِنْ حِجَابِكَ أَعْجَبُ

فَلَئِنْ حَجَبْتَ لَقَدْ حَجَبْتَ مَعَاشِرًا　　مَا كَانَ مِثْلُهُمُ بِبَابِكَ يُحْجَبُ

وله في بعض الكتاب :

رَدَّنِي بِالذُّلِّ حَاجِبُهُ　　إِذْ رَآى أَنِّي أُطَالِبُهُ

لَيْسَ كَشْخَانًا فَأَشْتُمَهُ　　إِنَّمَا الْكَشْخَانُ صَاحِبُهُ

وله أيضاً في علي بن يحيى يعاتبه في بعض قصائده :

أَصَوَابًا تَرَاهُ أَصْلَحَكَ اللهُ　　فَمَا إِنْ رَأَيْتُهُ بِصَوَابِ

صِرْتُ أَدْعُوكَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ　　وَلَقَدْ كُنْتَ حَاجِبَ الْحُجَّابِ

أتى أبو العتاهية باب احمد بن يوسف الكاتب في حاجة فلم يؤذن له فقال :

لَئِنْ عُدْتُ بَعْدَ الْيَوْمِ إِنِّي لَظَالِمُ　　سَأَصْرِفُ وَجْهِي حَيْثُ تُبْغَى الْمَكَارِمُ

مَتَى يَنْجَحُ الْغَادِي إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ　　وَنِصْفُكَ مَحْجُوبٌ وَنِصْفُكَ نَائِمُ

ولآخر :

رَأَيْتُكَ تَطْرُدُنَا بِالْحِجَابِ　　عنك يَرُوقُكَ طَرْدًا جَمِيلَا

وَلَكِنَّ فِي طَمَعِ الطَّامِعِينَ　　وَالْحُرُّ مِنْ ذَا يُفِكُّ الْعُقُولَا

فَهَلْ لَكَ فِي الْإِذْنِ لِي بِالرَّحِيلِ　　فَقَدْ أَبَتِ النَّفْسُ إِلَّا الرَّحِيلَا

وحدثني أبو علي البصير قال : حدثني محمد بن غسان بن عباد قال : كنت بالرقة وكان بها موسوس يقول الشعر المحال والمنكسر ، فغديته يوما معي احتسابا للثواب ، فأتاني من غد وعندي جماعة من العمال فحجبه الغلام ، فلما كان من غد وقف على الباب وصاح :

عَلَيْكَ إِذْنٌ فَإِنَّا قَدْ تَغَدَّيْنَا　　نَعُودُ لِلْأَكْلِ إِنَّا قَدْ تَعَدَّيْنَا

يا أكلةً سلفتْ أبقتْ حرارتُها … داءً بقلبكَ ما صمْنا وصلّينا

قال : وما علمته قال شعرا على استواء غيره ، ولـكنى وعظت به فوقع مكروهى على لسانه . وأنشدت لحماد عجرد يعاتب بعض الملوك :

إذَا كُنْتَ مُكتَفياً بالحِجَاب … دُونَ الإمَامِ تركْتُ الإمَامَا

وَإلاَّ فأَوْصِ هَدَاكَ المَلِيكُ … بوّابَكُمْ بِي وأوْصِ الغُلامَا

فإنْ كُنْت أُدْخِلْتُ في الزَّائرينَ … إمَّا قعُوداً وإمَّا قِيَاماً

وَإنْ لمْ أكُنْ مِنكَ أهْلاً لِذَاكَ … فلا لَوْمَ لَسْتُ أحِبُّ المَلامَا

فإنِّى أذُمُّ إليْكَ الأنَامَ … أخْزاهُمُ اللهُ ربِّي أنَامَا

فإنِّى وَجَدتُّهمُ كُلَّهُمْ … يُميتُونَ مَجدًا ويُحْيُونَ ذامَا

ولأبى الأسد الشيبانى يعاتب أبا دلف فى حجابه :

ليْتَ شِعْرِى أضاقتِ الأرْضُ عَنِّي … أمْ نَفِيٌّ مِنَ البلادِ طَرِيدُ

أمْ قُدَارٌ أمِ الحُبَابَةُ أمْ … أحمرُ لاقتْ بهِ البلاءَ ثمُودُ

أمْ أنَا قانِعٌ بأدْنَى مَعَاشٍ … همَّتِي القَوْدُ والقليلُ الزهيدُ

مِقْوَلِي قاطِعٌ وَسَيْفِي حُسامٌ … وَيَدِي حُرَّةٌ وقَلْبِي شديدُ

رُبَّ عِزٍّ مَنْ رَامَ مِنْ بابِكَ اليَوْمَ … عَليهِ عَسَاكِرٌ وَجُنودُ

قد وجدْنَاهُ دَاخلِينَ غُدُوًّا … وَرَواحاً وأنتَ عنهُ مَذودُ

فاكْفُفِ اليومَ مِن حجابكَ إذْ … لَسْتَ أميراً ولا حَميساً تَقُودُ

لَنْ يُقيمَ العزيزُ في البَلَدِ الهُوْ … نِ وَلا يَكسدُ الأديبُ الجليدُ

كُلُّ مَنْ فَرَّ مِنْ هَوَانٍ فإنَّ … الرُّحْبَ يلْقاهُ والفضاءُ العَتيدُ

ولعلى بن جبلة فى بعض الملوك :

حِجابُكَ ضيِّقٌ وَندَاكَ نَزْرٌ … وَإذْنُكَ قَدْ يُرَادُ عَليْهِ أجْرُ

وَذلٌّ أنْ يقُومَ إليْكَ حُرٌّ … وَتطلابُ الثَّوابِ لديْكَ فَقْرُ

وأنشدنى التمامى فى أبى الصقر إسماعيل بن بُلْبُلٍ يعاتبه فى حجابه :

لِكُلِّ مُؤَمِّلٍ جَدْوَى كَرِيمٍ عَلَى تَأْمِيلِهِ يَوْمًا ثَوَابُ
وَأَنْتَ الْحُرُّ مَا خَانَتْكَ نَفْسٌ وَلاَ أَصْلٌ إِذَا وَقَعَ انْتِسَابُ
وَشُكْرِى ظَاهِرٌ وَرَجَاىَ جَزْلٌ فَفِيمَ جَزَاىَ مِنْ ذُلٍّ حِجَابُ
وَحَقِّى أَنْ تُكَافِيَنِى مَزِيدًا بِشُكْرِى إِذْ بِهِ نَزَلَ الْكِتَابُ

وأنشدت لأبى مالك الأعرج :

عَلَّقْتُ عَيْنِى بِبَابِ الدَّارِ مُنْتَظِرًا مِنْكَ الرَّسُولَ فَخَلَّصْهَا مِنَ الْبَابِ
لَمَّا رَأَيْتُ رَسُولِى لاَ سَبِيلَ لَهُ إِلَى لِقَائِكَ مِنْ دَفْعٍ وَحُجَّابِ
صَانَتْ فِيكَ بِمِثْلِى مَا أُؤَمِّلُهُ فِيمَا لَدَيْكَ وَهَذَا سَعْىُ خُيَّابِ

ولبشار بن برد فى عبيد الله بن قَزَعة :

إِذَا سُئِلَ الْمَعْرُوفَ أَغْلَقَ بَابَهُ فَلَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ وَأَنْتَ كَمِينُ
كَأَنَّ عُبَيْدَ اللهِ لَمْ يَرَ مَاجِدًا وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ الْمَكْرُمَاتِ تَكُونُ
فَقُلْ لأَبِى يَحْيَى مَتَى تُدْرِكُ الْعُلَى وَفِى كُلِّ مَعْرُوفٍ عَلَيْكَ يَمِينُ

وأنشدت لأبى زرعة — رجل من أهل الشام — فى أبى الجهم بن سيف :

وَلَكِنْ أَبُو الْجَهْمِ إِنْ جِئْتَهُ لَهِيفًا حُجِبْتَ عَنِ الْحَاجِبِ
وَلَيْسَ بِذِى مَوْعِدٍ صَادِقٍ وَيَبْخَلُ بِالْمَوْعِدِ الْكَاذِبِ

وحجب سعيد بن حميد بباب الحسن بن مخلد فكتب إليه :

رُبَّ بِشْرٍ يُصَيِّرُ الْحُرَّ عَبْدًا لَكَ غَالَتْهُ جَفْوَةُ الْحُجَّابِ
وَفَتًى ذِى خَلاَئِقٍ مُعْجِبَاتٍ أَفْسَدَتْهَا خَلاَئِقُ الْبَوَّابِ
وَكَرِيمٍ قَدْ قَصَّرَتْ بِأَيَادِيهِ عَبِيدٌ تُسِىءُ بِالآدَابِ

لاَ أرَى لِلْكَرِيمِ أَنْ يَشْتَرِى الدُّنْيا جَمِيعاً بِوَقْفَةٍ فِي الْبابِ
إنْ تَرَكْتَ الْعَبِيدَ وَالْحُكْمَ فِينا صارَ فَضْلُ الرُّؤُسِ لِلأَذْنَابِ
فَأَحَلُّوا أَشْكالَهُمْ رُتَبَ الفَضْلِ وَحُطَّ الْأَحْرَارُ عَفْرَ التُّرَابِ

وأنشدت لعبد الله بن العباس :

أَنا بِالْبابِ وَاقِفٌ مُنْذُ أَصْبَحْتُ عَلَى السَّرْجِ مُمْسِكاً بِعِنانِي
وَبِعَيْنِ الْبَوَّابِ كُلُّ الَّذِى بِي وَيَرَانِي كَأَنَّهُ لاَ يَرَانِي

وأنشدت لابن أبي عيينة المهلبي ، واسمه عبدالله بن محمد — يعاتب رجلا من قومه :

أَتَيْتُكَ زَائِراً لِقَضاء حَقٍّ فَحَالَ السِّتْرُ دُونَكَ وَالْحِجابُ
وَلَسْتُ بِساقِطٍ فِى قِدْرِ قَوْمٍ وَإِنْ كَرِهُوا كَما يَقَعُ الذُّبابُ
وَرَائِي مَذْهَبِي عَنْ كُلِّ نَاءٍ بِجانِبِهِ إِذَا عَزَّ الذَّهابُ

وأنشدنى ابن أبى فنن :

مَاضاقَتِ الْأَرْضُ عَلَى رَاغِبٍ فِى طَلَبِ الرِّزْقِ وَلاَ رَاهِبِ
بَلْ ضاقَتِ الْأَرْضُ عَلَى صابِرٍ أَصْبَحَ يَشْكُو جَفْوَةَ الْحَاجِبِ
مَنْ شَتَمَ الْحَاجِبَ فِي ذَنْبِهِ فَإِنَّما يَقْصِدُ لِلصَّاحِبِ
فَارْغَبْ إِلَى اللهِ وَإِحْسانِهِ لاَ تَطْلُبِ الرِّزْقَ مِنَ الطَّالِبِ

قال المدائنى : أتى عويف القوافى باب عمر بن عبد العزيز فحجب أياما ثم استأذن له خبيش صاحب إذن عمر ، فلما قام بين يديه قال :

أَجِبْنِى أَبا حَفْصٍ لَقِيتَ مُحَمَّداً عَلَى حَوْضِهِ مُسْتَبْشِراً بِدُعَاكَا

فقال عمر : أقول : لبيك وسعديك . فقال :

وَأَنْتَ امْرُؤٌ كِلْتا يَدَيْكَ طَلِيقَةٌ شِمالُكَ خَيْرٌ مِنْ يَمِينِ سِوَاكَا
عَلاَمَ حِجابِى زَادَكَ اللهُ رِفْعَةً وَفَضْلاً وَمَاذَا لِلْحِجابِ دَعَاكَا ؟

فقال : ليس ذاك إلا الخير . وأمر له بصلة .

وقال المدائنى : أقام عبد العزيز بن زرارة الكلابى بباب معاوية حينا لا يؤذن له ثم دخل عليه فقال :

دَخَلْتُ عَلَى مُعاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ ... وَكُنْتُ وَقَدْ يَئِسْتُ مِنَ الدُّخُولِ
رَأَيْتُ الحَظَّ يَسْتُرُ كلَّ عَيْبٍ ... وَأَيْهاتَ الْحُظُوظُ مِنَ الْعُقُولِ

قيل لِحُبَّةَ المدنية : ما الجرح الذى لا يندمل ؟ قالت : حاجة الكريم إلى اللئيم ثم لا يجدى عليه . قيل لها : فما الذل ؟ قالت: وقوف الشريف بباب الدنىء ثم لا يؤذن له . قيل لها : فما الشرف ؟ قالت : اعتقاد المنن فى أعناق الرجال تبقى للأعقاب فى الأحقاب .

وقيل لعروة بن عدى بن حاتم وهو صبى فى وليمة كانت لهم : قف بالباب فاحجب من لا تعرف وادخل من تعرف . فقال : والله لا يكون أول شىء أستكفيه منع الناس من الطعام . وأنشدت لابن أبى عيينة المهلبى :

بُلغَةٌ تَحْجِبُ الْفَتَى عَنْ دَنَاءَةٍ ... وَعِقابٌ يُخَافُ أَوْ لاَ يُخَافُ
هُوَ خَيْرٌ مِنَ الرُّكُوبِ إِلَى بَابِ حِجابٍ عُنْوَانُهُ الْإِنْصِرَافُ
بِئْسَ لِلدَّوْلَةِ الَّتِى تَرْفَعُ السِّفْلَةَ فِيها وَتَسْقُطُ الْأَشْرَافُ

وأنشدت لموسى بن جابر الحنفى :

لاَ أَشْتَهِى يَاقَوْمِ إِلاَّ مُكْرَهًا ... بَابَ الأَمِيرِ وَلاَ دِفَاعَ الْحَاجِبِ
وَمِنَ الرِّجَالِ أَسِنَّةٌ مَذْرُوبَةٌ ... وَمُزَنَّدُونَ شُهُودُهُمْ كَالْغَائِبِ
مِنْهُمْ أُسُودٌ لاَ تُرَامُ وَمِنْهُمُ ... مِمَّا قَمَشْتَ وَضَمَّ حَبْلُ الْحَاطِبِ

وأنشدنى بعض أصحابنا :

إِنِّى امْرُؤٌ لاَ أَرَى بِالْبابِ أَقْرَعُهُ ... إِذَا تَنَمَّرَ دُونِى حاجِبُ الْبابِ

وَلاَ أَلُومُ امْرَأً فِي وُدِّ ذِي شَرَفٍ   وَلاَ أُطَالِبُ وُدَّ الْكَارِهِ الآبِي

وأنشدني ابن أبي فنن :

أَلْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ طُولِ الْوُقُوفِ عَلَى   بَابٍ عَلَيَّ لِبَوَّابٍ عَلَيْهِ يَدُ

مَا لِي أُقِيمُ عَلَى ذُلِّ الْحِجَابِ كَأَنْ   قَدْ مَلَّنِي وَطَنٌ أَوْ ضَاقَ بِي بَلَدُ

وأنشدني الزبير بن بكار لجعفر بن الزبير :

إِنَّ وُقُوفِي مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ   يَعْدِلُ عِنْدِي قَلْعَهُمْ أَنْيَابِي

وأنشدت لمحمود الوراق :

شَادَ الْمُلُوكُ حُصُونَهُمْ وَتَحَصَّنُوا   مِنْ كُلِّ طَالِبِ حَاجَةٍ أَوْ رَاغِبِ

غَالُوا بِأَبْوَابِ الْحَدِيدِ لِعِزِّهَا   وَتَنَوَّقُوا فِي قُبْحِ وَجْهِ الْحَاجِبِ

فَإِذَا تَلَطَّفَ لِلدُّخُولِ عَلَيْهِمُ   رَاجٍ تَلَقَّوْهُ بِوَعْدٍ كَاذِبِ

فَاضْرَعْ إِلَى مَلِكِ الْمُلُوكِ وَلاَ تَكُنْ   بَادِي الضَّرَاعَةِ طَالِبًا مِنْ طَالِبِ

وأنشدني أبو موسى المكفوف :

لَنْ تَرَانِي لَكَ الْعُيُونُ بِبَابٍ   لَيْسَ مِثْلِي يُطِيقُ ذُلَّ الْحِجَابِ

قَاعِدًا فِي الْخَرَابِ يُحْجَبُ عَنَّا   مَا سَمِعْنَا إِمَارَةً فِي خَرَابِ

وأنشدني أبو قنبر الكوفي :

وَلَسْتُ بِمُتَّخِذٍ صَاحِبًا   يُقِيمُ عَلَى بَابِهِ حَاجِبَا

إِذَا جِئْتُهُ قِيلَ لِي نَائِمٌ   وَإِنْ غِبْتُ أَلْفَيْتُهُ عَاتِبَا

وَيَلْزَمُ إِخْوَانَهُ حَقَّهُ   وَلَيْسَ يَرَى حَقَّهُمْ وَاجِبَا

فَلَسْتُ بِلاَقِيهِ حَتَّى الْمَمَاتِ   إِنْ أَنَا لَمْ أَلْقَهُ رَاكِبَا

وأنشدني أبو بكر محمد بن احمد — من أهل رأس العين — لنفسه في بعض بني عمران بن محمد الموصلي :

أَأَبَا الفَوَارِسِ أَنْتَ أَنْتَ فَتَى النَّدَى شَهِدَتْ بِذَاكَ وَلَمْ تَزَلْ قَحْطَانُ
فَلِأَيِّ شَيْءٍ دُونَ بَابِكَ حَاجِبٌ مِنْ مَسِّهِ يَتَخَبَّطُ الشَّيْطَانُ
فَإِذَا رَآنِي مَالَ عَنِّي مُعْرِضاً فَكَأَنَّهُ مِنْ خَوْفِهِ سِرْطَانُ

من عاتب على حجابه والاذن لغيره — قال الأشهب بن رُمَيْلة :

وَأَبْلِغْ أَبَا دَاوُدَ أَنِّي ابْنُ عَمِّهِ وَأَنَّ البُعَيْثِيَّ مِنْ بَنِي عَمِّ سَالِمِ
أَتُولِجُ بابَ المُلْكِ مَنْ لَيْسَ أَهْلَهُ وَرِيشُ الذُّنَابَى تَابِعٌ لِلْقَوَادِمِ ؟

وقال عاصم الزِّمَّانى من بنى زِمَّان :

أَبْلِغْ أَبَا مِسْمَعٍ عَنِّي مُغَلْغَلَةً وَفِي العِتَابِ حَيَاةٌ بَيْنَ أَقْوَامِ
أَدْخَلْتَ قَبْلِي رِجَالاً لَمْ يَكُنْ لَهُمُ فِي الحَقِّ أَنْ يَلِجُوا الأَبْوَابَ قُدَّامِي

وقال هشام بن أبيض من بنى عبد شمس :

وَلَيْسَ يَزِيدُنِي حُبِّي هَوَانَا عَلَيَّ وَلاَ تَرَانِي مُسْتَكِينَا
فَإِنْ قَدَّمْتُمُوا قَبْلِي رِجَالاً أَرَانِي فَوْقَهُمْ حَسَباً وَدِينَا
أَلَسْنَا عَائِدِينَ إِذَا رَجَعْنَا إِلَى مَا كَانَ قَدَّمَ أَوَّلُونَا ؟
فَأَرْجِعُ فِي أَرُومَةِ عَبْشَمِيٍّ يَرَى لِيَ المَجْدَ وَالحَسَبَ السَّمِينَا

وقال دينار بن نعيم الكلبي :

وَأَبْلِغْ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ وَدُونَهُ وَرَاسِخُ يُطْوَى الطَّرْفُ وَهْوَ حَدِيدُ
بِأَنِّي لَدَى عَبْدِ العَزِيزِ مُدَفَّعٌ يُقَدَّمُ قَبْلِي رَاسِبٌ وَسَعِيدُ
وَإِنِّي لَأَدْنَى فِي القَرَابَةِ مِنْهُمَا وَأَشْرَفُ إِنْ كُنْتَ الشَّرِيفَ تُرِيدُ

وقال المدائنى : أتى ابن فضالة بن عبد الله الغنوى باب قتيبة بن مسلم فأساء إذنه فقال :

كَيْفَ المُقَامُ أَبَا حَفْصٍ بِسَاحَتِكُمْ وَأَنْتَ تُكْرِمُ أَصْحَابِي وَتَجْفُونِي

أَرَاهُمُ حِينَ أَغْشَى بابَ حُجْرَتِكُمْ ... يَدْعُوهُمُ النَّقَرَى دُونِى وَيَقْصُونِى
كَمْ مِنْ أَمِيرٍ كَفانِى اللهُ سَخْطَتَهُ ... مُذْ ذَاكَ أَوْلَيْتَهُ مَا كَانَ يُولِينِى
إِنِّى أَبَى لِىَ أَنْ أَرْضَى بِمَنْقَصَةٍ ... عَمٌّ كَرِيمٌ وَخَالٌ غَيْرُ مَأْفُونِ
خَالِى كَرِيمٌ وَعَمِّى غَيْرُ مُؤْتَشِبٍ ... ضَخْمُ الْجُمَالَةِ أَبَّاءٌ عَلَى الْهُونِ

وقال المدائنى : كان مسلمة بن عبد الملك تزوج ابنة زفر بن الحارث الكلابى ، وكان ببابه عاصم بن زيد الهلالى ، والهذيل وكوثر ابنا زفر ، فكان يأذن لهما قبل عاصم . فقال :

أَمَسْلَمُ قَدْ مَنَّيْتَنِى وَوَعَدْتَنِى ... مَوَاعِدَ صِدْقٍ إِنْ رَجَعْتَ مُؤَمَّرَا
أَيُدْعَى هُذَيْلٌ ثُمَّ أُدْعَى وَرَاءَهُ ... فَيَالَكَ مَدْعًى مَا أَذَلَّ وَأَحْقَرَا
وَكَيْفَ وَلَمْ يَشْفَعْ لِىَ اللَّيْلَ كُلَّهُ ... شَفِيعٌ وَقَدْ أَلْقَى قِنَاعًا وَمِئْزَرَا
فَلَسْتُ بِرَاضٍ عَنْكَ حَتَّى تُجِبَّنِى ... كَحُبِّكَ صِهْرَيْكَ الْهُذَيْلَ وَكَوْثَرَا

وقال الأصحم — أحد بنى سعد بن مالك بن صعصعة بن قيس بن ثعلبة — يذكر خالد بن عبد الله القسرى وأبان بن الوليد البجلى ، وحجبه خالد :

وَمَنْزِلَةٍ لَيْسَتْ بِدَارِ مَثَابَةٍ ... أَطَالَ بِهَا حَبْسِي أَبَانُ وَخَالِدُهْ
فَإِنْ أَنَا لَمْ أَتْرُكْ بِلَادًا هُمَا بِهَا ... فَلَا سَاغَ لِى مِنْ أَعْذَبِ الْمَاءِ بَارِدُهْ
إِذَا مَا أَتَيْتُ الْبَابَ صَادَفْتُ عِنْدَهُ ... بَجِيلَةَ أَمْثَالَ الْكِلَابِ تُرَاصِدُهْ
عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الْخَزِّ تَبْكِى كَمَا بَكَتْ ... كَرَاسِيُّهُ مِنْ لُؤْمِهِ وَوَسَائِدُهْ
وَيُدْعَوْنَ قُدَّامِى وَيُجْعَلُ دُونَنَا ... مِنَ السَّاجِ مَسْمُورًا تَئِطُّ حَدَائِدُهْ

وقال المدائنى : كان تميم بن راشد مولى باهلة حاجبا لقتيبة بن مسلم فى خراسان فكان يأذن لسويد بن هوبر النهشلى ، ومخفر بن حرب الكلابى قبل الحصين ابن المنذر الرقاشى ، فقال الحصين :

وَإِنِّى لَأَلْقَى مِنْ تَمِيمٍ وَبَابِهِ عَنَاءً وَيَدْعُو مُخْفِراً وَابْنَ هَوْبَرَا
تَزِيعَيْنِ مِنْ حَيَّيْنِ شَتَّى كَأَنَّمَا يَرَى بِهِمَا الْبَوَّابُ كِسْرَى وَقَيْصَرَا

وقال عبيد الله بن الحر الفاتك لعبد الله بن الزبير — وشكا إليه مصعبا وحجبه — فقال :

وَأَبْلِغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَصِيحَتِى فَلَسْتُ عَلَى رَأْيٍ قَبِيحٍ أُوَارِبُهْ
أَفِى الْحَقِّ أَنْ أُجْفَى وَيُجْعَلُ مُصْعَبٌ وَزِيرًا لَهُ مَنْ كُنْتُ فِيهِ أُحَارِبُهْ
وَمَا لِامْرِئٍ إِلاَّ الَّذِى اللهُ سَائِقٌ إِلَيْهِ وَمَا قَدْ خَطَّ فِى الزُّبْرِ كَاتِبُهْ
إِذَا مَا أَتَيْتُ الْبَابَ يَدْخُلُ مُسْلِمٌ وَيَمْنَعُنِى أَنْ أَدْخُلَ الْبَابَ حَاجِبُهْ
لَقَدْ رَابَنِى مِنْ مُصْعَبٍ أَنَّ مُصْعَباً أَرَى كُلَّ ذِى غِشٍّ لَنَا هُوَ صَاحِبُهْ

وقال يحيى بن نوفل لخالد بن عبد الله القسرى ، وقد حجبه :

فَلَوْ كُنْتُ عُوتِياً لَأَدْنَيْتَ مَجْلِسِى إِلَيْكَ أَخَا قَسْرٍ وَلَكِنَّنِى فَحْلُ
رَأَيْتُكَ تُدْنِى نَاشِئاً ذَا عَجِيزَةٍ بِمَحْجَرِ عَيْنَيْهِ وَحَاجِبِهِ كُحْلُ
فَوَاللهِ مَا أَدْرِى إِذَا مَا خَلَوْتُمَا وَأَرْخَيْتُمَا الْأَسْتَارَ أَيُّكُمَا الْفَحْلُ

وقال عمرو بن الوليد في عقبة بن أبى مُعيط :

أَفِى الْحَقِّ أَنْ نُدْنَى إِذَا مَا فَزِعْتُمُ وَنُقْصَى إِذَا مَا تَأْمَنُونَ وَنُحْجَبُ
وَيُجْعَلُ فَوْقِى مَنْ يَوَدُّ لَوَ أَنَّكُمْ شِهَابٌ بِكَفَّىْ قَابِسٍ يَتَلَهَّبُ
فَإِنْ أَنْتُمُ دَاوَيْتُمُ الْكَلْمَ ظَاهِراً فَمَنْ لِكُلُومٍ فِى الصُّدُورِ تُحَوِّبُ
فَقُلْتُ وَقَدْ أَغْضَبْتُمُونِى بِفِعْلِكُمْ وَكُنْتُ امْرَأً ذَا مِرَّةٍ حِينَ أَغْضَبُ
أَمَالِىَ فِى أَعْدَادِ قَوْمِىَ وَاحِدٌ وَلاَ عِنْدَ قَوْمِى إِنْ تَعَتَّبْتُ مَعْتَبُ

المدائنى قال : كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج : أن يستعمل سبع بن مالك على سجستان فولاه إياها فأتاه الضحاك بن هشام فلم ينله خيراً وأقصاه فقال :

وما كنتُ أخشى يابنَ كبشةَ أن أرى لبابكَ بوّابًا ولإستِك منبرا
وما شجرَ الوادى دعوتُ ولا الحصَى ولكن دعوتُ الخرقتين وجحدرا
أخذنا بآفاقِ السماء فلم ندع لعينيكَ فى آفاقها الخضرِ منظرا

من مدح برفع الحجاب — قال أيمن بن خريم فى بشر بن مروان:

ولو شاء بشرٌ كان من دون بابه طماطمُ سودٌ أو صقالبةٌ حمرُ
ولكنَّ بشرًا سهّلَ البابَ للتى يكونُ له من دونها الحمدُ والشكرُ
بعيدُ مرادِ الطرْفِ ماردَّ طرفهُ حذارَ الغواشى بابُ دارٍ ولا سترُ

وله أيضا فى عبد العزيز :

لعبدِ العزيزِ على قومهِ وغيرهمُ مننٌ ظاهرهْ
فبابُكَ ألينُ أبوابهمْ ودارُكَ مأهولةٌ عامرهْ
وكلبُكَ أرأفُ بالمعتفينَ من الأمِّ بابنتها الزائرهْ
وكفُّكَ حين ترى السائلينَ أندى من الليلةِ الماطرهْ
فمنكَ العطاء ومنا الثناء بكلِّ محبَّرةٍ سائرهْ

ولآخر أيضاً :

مالى أرى أبوابهمْ مهجورةً وكأنَّ بابَكَ مجمعُ الأسواقِ
إنى رأيتُكَ للمكارمِ عاشقاً والمكرماتُ قليلةُ العشَّاقِ

وللتميمى :

يزدحمُ الناسُ على بابهِ والمنهلُ العذبُ كثيرُ الزحامْ

ولأشجع بن عمرو السلمى :

على بابِ ابنِ منصورٍ علاماتٌ من البذلِ
جماعاتٌ وحسبُ البابِ جودًا كثرةُ الأهلِ

وأنشدت لعمارة بن عقيل فى خالد بن يزيد :

تَأْبَى خَلاَئِقُ خَالِدٍ وَفِعالُهُ … إِلاَّ تَجَنُّبَ كلِّ أَمْرٍ عَائِبِ
وَإِذَا حَضَرْنَا الْبَابَ عِنْدَ غَدَائِهِ … أَذِنَ الْغَدَاءُ بِرَغْمِ أَنْفِ الْحَاجِبِ

وأنشدت لبعضهم :

أَبْلَجُ بَيْنَ حَاجِبَيْهِ نُورُهُ … إِذَا تَغَدَّى رُفِعَتْ سُتُورُهُ

ولثابت قطنة فى يزيد بن المهلب :

أَبَاخَالِدٍ زِدْتَ الْحَيَاةَ مَحَبَّةً … إِلَى النَّاسِ أَنْ كُنْتَ الْأَمِيرَ الْمُتَوَّجَا
وَحَقٌّ لَهُمْ أَنْ يَرْغَبُوا فِى حَيَاتِهِمْ … وَبَابُكَ مَفْتُوحٌ لِمَنْ خَافَ أَوْ رَجَا
يَزِيدُ الَّذِى يَرْجُو نَدَاكَ تَفَضُّلاً … وَتُؤْمِنُ ذَا الْإِجْرَامِ إِنْ كُنْتَ مُحْرِجَا

فيمن أمل حجابه ولم يزم عليه — المدائنى قال : حضر أبو سفيان بن حرب باب عثمان بن عفان فحجب عنه فقال له رجل يغريه به : حجبك أمير المؤمنين يا أبا سفيان ! فقال : لاعدمت من قومى من إذا شاء أن يحجبنى حجبنى . وأنشدنى الطائى فى اسحٰق بن ابراهيم الموصلى :

يا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَأْمُولُ نَائِلُهُ … وَجُودُهُ لِمَرَاعِى جُودِهِ كَثَبُ
لَيْسَ الْحِجَابُ بِمُقْصٍ عَنكَ لِى أَمَلاً … إِنَّ السَّمَاءَ تُرَجَّى حِينَ تَحْتَجِبُ

وله فى مالك بن طوق :

قُلْ لِابْنِ طَوْقٍ رَحَى سَعْدٍ إِذَا خَبَطَتْ … حَوَادِثُ الدَّهْرِ أَعْلاَهَا وَأَسْفَلَهَا
أَصْبَحْتَ حَاتِمَهَا جُودًا وَأَحْنَفَهَا … حِلْمًا وَ كَيِّسَهَا عِلْمًا وَدَغْفَلَهَا
مَالِى أَرَى الْقُبَّةَ الْفَيْحَاءَ مُقْفَلَةً … عَنِّى وَقَدْ طَالَمَا اسْتَفْتَحْتُ مُقْفَلَهَا
كَأَنَّهَا جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مُعْرِضَةً … وَلَيْسَ لِى عَمَلٌ زَاكٍ فَأَدْخُلَهَا

ولأبى عبد الرحمن العطوى فى ابن المدبر :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُرْسِلْ وَجِئْتُ فَلَمْ أَصِلْ ... مَلَأْتُ بِعُذْرٍ مِنْكَ سَمْعَ لَبِيبِ
قَصَدْتُكَ مُشْتَاقًا فَلَمْ أَرَ حَاجِبًا ... وَلَا نَاظِرًا إِلَّا بِعَيْنِ غَضُوبِ
كَأَنِّي غَرِيمٌ مُقْتَضٍ أَوْ كَأَنَّنِي ... طُلُوعُ رَقِيبٍ أَوْ نُهُوضُ حَبِيبِ
فَقُمْتُ وَقَدْ فَكَّ الْحِجَابُ عَزِيمَتِي ... عَلَى شُكْرِ سَبْطِ الرَّاحَتَيْنِ وَهُوبِ
عَلَيْهِ الْإِخْلَاصُ مَا رَدَعَ الْهَوَى ... أَصَالَةُ رَأْيٍ أَوْ وَقَارُ مَشِيبِ

وأنشدنى الخثعمى :

كَيْفَ مَا شِئْتَ فَاحْتَجِبْ يَا أَبَا الْأَ ... يْثِ وَمَنْ شِئْتَ فَاتَّخِذْ بَوَّابَا
أَنْتَ لَوْ كُنْتَ دُونَ أَعْرَاضِ قَحْـ ... ـطَانَ وَأَسْبَلْتَ دُونَهُ الْأَبْوَابَا
لَرَأَيْنَاكَ فِي مَرَايَا أَيَادِيكَ يَقِيـ ... ـنًا وَلَوْ أَطَلْتَ الْحِجَابَا

وأنشدنى البلاذُرى فى عبيد الله بن يحيى بن خاقان :

قَالُوا اصْطِبَارُكَ لِلْحِجَابِ وَذُلُّهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ مَدَى الزَّمَانِ وَعَابُ
فَأَجَبْتُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْلٍ صَادِقٍ ... أَوْ كَاذِبٍ عِنْدَ الْكَرِيمِ جَوَابُ
إِنِّي لَأَغْتَفِرُ الْحِجَابَ لِمَاجِدٍ ... لَيْسَتْ لَهُ مِنَنٌ عَلَيَّ رِغَابُ
قَدْ يَرْفَعُ الْمَرْءُ اللَّئِيمُ حِجَابَهُ ... ضَعَةً وَدُونَ الْعُرْفِ مِنْهُ حِجَابُ
وَالْحُرُّ مُبْتَذَلُ النَّوَالِ وَإِنْ بَدَا ... مِنْ دُونِهِ سِتْرٌ وَأُغْلِقَ بَابُ

***

يقول حسن بن احمد السندوبى جامع هذه الرسائل وكاشفها : قد نقلت هذ الرسالة عن الشهاب الخفاجى وفى نفسى من نسبتها إلى الجاحظ شيء ربما بينته فى قول خاص

٥

كتاب التربيع والتدوير

قال أبو عثمان :

كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول . وكان مربعاً وتحسبه لسعة جُفرته واستفاضة خاصرته مدوراً . وكان جعد الأطراف قصير الأصابع ، وهو فى ذلك يدعى السباطة والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه أخمص البطن معتدل القامة تام العظم . وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعى أنه طويل الباد [1] رفيع العماد عادى القامة عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة فى الجسم والسعة فى العلم . وكان كبير السن متقادم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد . وكان أدعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها ، وتكلفه للإبانة عنها على قدر غباوته فيها . وكان كثير الاعتراض ، لهجاً بالمراء ، شديد الخلاف ، كلفا بالمجاذبة ، متتايعاً فى العنود ، مؤثراً للمغالبة ، مع إضلال الحجة والجهل بموضع الشبهة ، والخطرفة عند قصر الزاد ، والعجز عند التوقف ، والمحاكمة مع الجهل بثمرة المراء ومغبة فساد القلوب ونكد الخلاف ، وما فى الخوض من اللغو الداعى إلى السهو ، وما في المعاندة من الأثم الداعى إلى النار ، وما فى المجاذبة من النكد ، وما فى المغالبة من فقدان الصواب . وكان قليل السماع غمْراً وَصَحَفِياً غُفْلا [2] لا ينطق عن فكر ويثق بأول خاطر ولا يفصل بين اعتزام الغمر واستبصار المحق . يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب ، وليس فى يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب .

---

(١) الباد : باطن الفخذ

(٢) الغمر بضم الغين : من لم يجرب الامور . والصحفى : من لم يلق العلماء وانما أخذ علمه عن الصحف . والغفل : المجرد من المزايا

فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا ، وكدنا نعتاد مذهبه ونألف سبيله ، رأيت أن أكشف قناعه ، وأبدى صفحته للحاضر والبادى وسكان كل ثغر وكل مصر ، بأن أسأله عن مائة مسألة أهزأ فيها وأعرف الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كان فى مكة ليكفوا عنا من غربه ، وليردوه بذلك إلى ما هو أولى به . كأنه لم يسمع بقول النبى صلى الله عليه وسلم فى السائب بن صيفى : « هذا شريكى الذى لا يشارى ولا يمارى » . ولا بقول عثمان : إذا كان لك صديق فلا تماره ولا تشاره ، ولا بقول ابن أبى ليلى : لا أمارى أخى إما أن أكذبه وإما أن أغضبه . ولا بقول ابن عمر : لا يصيب الرجل حقيقة الإيمان حتى يترك المراء وهو محق . وكأنه لم يسمع بقول الشاعر :

خِلافاً عَلَيْنَا مِنْ فَيَالَةِ رَأْيِهِ كَما قِيلَ قَبْلَ الْيَوْمِ خَالِفْ فَتُذْكَرَا

ولم يسمع بقول الأول : رَآهُ مُعِدًّا لِلْخِلافِ . البيت . ولا بقول الآخر :

لَنَا صَاحِبٌ مُولَعٌ بِالْخِلَافِ كَثِيرُ الْمِرَاءِ قَلِيلُ الصَّوَابِ

أَلَجُّ لَجَاجاً مِنَ الْخُنْفُسَاءِ وَأَزْهَى إِذَامَا مَشَى مِنْ غُرَابِ

وقالوا : فلان أخلف من بول الجمل . ولذلك قال الشاعر :

وَأَخْلَفُ مِنْ بَوْلِ الْبَعِيرِ فَإِنَّهُ إِذَا قِيلَ لِلْإِقْبَالِ أَقْبِلْ أَدْبَرَا

قال رجل لزهير البابى : أين نبت المراء ؟ قال: عند أصحاب الأهواء . وقال عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل . وكان عمر ابن هبيرة يقول : أللهم إنى أعوذ بك من المراء وقلة خيره ، ومن اللجاج وتندم أهله. وقال بعض المذكورين : أللهم إنا نعوذ بك من المراء وقلة خيره وسوء أثره على أهله ، فانه يهلك المروءة ويذهب المحبة ويفسد الصداقة ويورث القسوة ويُضَرِّى على القِحة ، حتى يصير الموجز خطلا والحليم نزقاً [1] والمتوقى خبوطاً ،

(١) الرجل الخطل : هو الذى لا يحسن الكلام . والنزق الذى به خفة وطيش.

والصدوق كذوبا . والمراء من أسباب الغضب ، وأقرب ما يكون الرجل من غضب الله إذا غضب كما أنه أقرب مايكون من رحمة الله إذا سجد . لقول الله عز وجل « واسجدْ واقتربْ ».

وقال لقمان لابنه : إياك والمراء فإنه لا تعقل حكمته ولا تؤمن لجته . وقال آخر : المراء غضبة والصمت حكمة ، ولو كان المراء فحلا والفخر أما ما ألقحا إلا الشر . وقال الشعبي : إنى لأستحيي من الحق أن أعرفه ثم لا أرجع إليه . وقال ابن عيينة [1] قال الحسن [2] : ما رأيت فقيهاقط يدارى ولا يمارى ، إنما ينشر حكمته فان قبلت حمد الله وإن ردت حمد الله . عن إبراهيم بن إسماعيل بن عائذ بن المبارك بن سعيد قال : قال مجاهد : صحبت رجلا من قريش ونحن نريد الحج فقلت له يوماً : هلم نتفاتح الرأى؟ فقال : دع الود كما هو . فعلمت والله أن القرشى قد غلبنى . وقال إسحٰق الموصلى : كثرة الخلاف حرب ، وكثرة المتابعة غش .

بسم الله الرحمٰن الرحيم : أطال الله بقاءك وأتم نعمته عليك وكرامته لك . قد علمت حفظك الله أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة ، وضخم الهامة ، وعلى حور العين ، وجودة القد ، وعلى طيب الأحدوثة ، والصنيعة المشكورة ، وأن هذه الأمور هى خصائصك التى بها تَكْلَفُ ، ومعانيك التى بها تلْهَجُ ، وإنما يحسد أبقاك الله المرء شقيقه فى النسب ، وشفيعه فى الصناعة ، ونظيره فى الجوار ، على طارف قدره أوتالد حظه ، أو على كرم فى أصل تركيبه ومجارى أعراقه وأنت تزعم أن هذه المعانى خالصة لك مقصورة عليك ، وأنها لا تليق إلا بك ولا تحسن إلا فيك ، وأن لك الكل وللناس البعض ، وأن لك الصافى ولهم المشوب . هذا سوى الغريب الذى لا نعرفه ، والبديع الذى لا نبلغه . فما هذا الغيظ الذى أنضجك ، وما هذا الحسد الذى أكمدك ، وما هذا الإطراق الذى قد اعتراك ، وما هذا الهم الذى قد أضناك ؟ وهل رأيت أخسر صفقة ولا أوهن قوة ممن

(١) هو سفيان بن عيينة من أكابر التابعين

(٢) هو الحسن البصرى سيد التابعين

يُجرى العتاق مع الكوادن ، والروائع مع الحواسر ، وممن حا كم من يسائله ، وجاذب من يقلده ؟ وهل رأيت مكيناً يقلق ومصنوعاً له يسخط ، وهل زدت على أن أطمعت فى نفسك ومكنت للشبهة فى أمرك ، وأنشأت للخامل ذكراً وللوضيع قدراً ؟ إنك لا تعرف الأمور مالم تعرف أشباهها ، ولا عواقبها مالم تعرف أقدارها ولن يعرف الحق من يجهل الباطل ، ولا يعرف الخطأ من يجهل الصواب ، ولا يعرف الموارد من يجهل المصادر ! فانظر لم تسالمت النفوس مع تفاوت منازلها ، ولم تجاذبت عند تقارب مراتبها ، ولم اختلف الكثير واتفق القليل ، ولم كانت الكثرة علة للتخاذل والقلة سبباً للتناصر . وما فرق ما بين المجاراة والتحاسد و بين المنافسة والتغالب ؟ فإنك متى عرفت ذلك استرحت منا ورجونا أن نستريح منك ، وكيف يعرف السبب من يجهل المسبب ، وكيف يعرف الوصل من يجهل الفصل وكيف يعرف الحدود من لم يسمع الفصول ، وكيف يعرف الحجة من الشبهة والعذر من الحيلة والواجب من الممكن والنُفل من الموسوم والمعقول من الموهوم ، والمحال من الصحيح والأسرار المجهولة من ذوات الدلائل الخفية ، وما يعلم مالايعلم وما يعلم باللفظ دون الإشارة مما لا يعلم إلا بالاشارة دون اللفظ ، ومايعلم معتقداً مما لايعلم مكيناً وما يعلم مكينا مما لايعلم معتقداً ، وما المستغلق الذى يجوز أن يفارقه استغلاقه والمستبهم الذي لايفارقه استبهامه ، ومن هو طائر مع العوام حيث طارت وساقط معها حيث سقطت مع الزراية [1] عليها والرغبة عنها ، قد ظلمها بفضل ظلمه لنفسه وجرى معها بقدر مناسبتها لقدره . فاعرف الجنس من الصنف والقسم من النصف ، وفرق ما بين الذم واللوم ، وفصل ما بين الحمد والشكر وحد الاختيار من الإمكان والاضطرار من الايجاب . وسنعرفك من جملة ما ذكرنا باباً أنت إليه أحوج وهو علينا أرد

إعلم أن الحسد اسم لما فضل عن المنافسة ، كما أن الجُبن اسم لما فضل عن التوقى والبخل اسم لما قَصر عن الاقتصاد ، والسَّرَفَ ما جاوز الجود . وأنت جُعلت فداك لا تعرف هذا ولو أدخلتك الكير [2] ونفخت عليك إلى يوم ينفخ فى

---

(١) الزراية : العيب والانتقاص

(٢) الكير : منفخة الحداد يكون من زق او جلد له حافات . والكور : المبنى من الطين

الصور . وهل فى الأرض إقرار أثبت أو دليل أوضح أو شاهد أصدق من شاهدى على ماادعيت لنفسك من الرقة مع ماظهر من حسدك لأهل الضعة ؟ وهل تكون بعد ذلك إلا فاسد الحس ظاهر العنود أو جاهلا بالمحال . ! ؟

و بعد فأنت أبقاك الله فى يدك قياس لاينكسر، وجواب لا ينقطع ، ولك حد لايفل،وغرب لاينثنى . وهو قياسك الذى إليه تنسب ومذهبك الذى إليه تذهب، أن تقول : وما علىَّ أن يرانى الناس عريضاً وأكون فى حكمهم غليظا وأنا عند الله طويل جميل وفى الحقيقة مقدود رشيق ! وقد علموا حفظك الله أن لك مع طول الباد (١) زاكباً طول الظهر جالساً ، ولكن بينهم فيك إذا قمت اختلاف ، وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل . ومن غريب ما أعطيت و بديع ما أوتيت أنا لم نر مقدودا واسع الجُفْرَةِ (٢) غيرك ، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك ! فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب . فياشعرا جمع الأعاريض وياشخصا جمع الاستدارة والطول ! بل مايهمك من أقاويلهم ويتعاظمك من اختلافهم والراسخون فى العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن استفاضة عَرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سَمكك ، وأن ماذهب منك عَرضاً قد استغرق ماذهب منك طولا . ولئن اختلفوا فى طولك لقد اتفقوا فى عَرضك . وإذ قد سلَّموا لك بالرغم شطراً ومنعوك بالظلم شطراً فقد حصلت ماسلَّموا وأنت على دعواك فيما لم يسلِّموا . ولعمرى إن العيون لَتخطىء ، وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل إذ كان زماما على الأعضاء وعيارا على الحواس . ومما يُثبت أيضاً أن ظاهر عَرضك مانع من إدراك حقيقة طولك قول أبى دُوَاد الإيادى فى إبله :

سَمِنَتْ وَاسْتَحَشَّ أَكْرُعُهَا لاَ النَّيُّ نِيٌّ وَلاَ السَّنَامُ سَنَامُ

(١) الباد : باطن الفخذ

(٢) الجفرة بضم الجيم : جوف الصدر وماوسع البطن والجنبين

وقول رافع بن هُرَيم :

أَدَقٌّ شَوَاهَا عِنْدَ بُهْرَةِ جَوْفِهَا سَنَامٌ كَقَصْرِ الْهَاجِرِيِّ مُقَرْمَدُ

ولو لم يكن من العجب إلا أنك أول من تعبده الله تعالى بالصبر على خطأ الحس و بالشكر على صواب الذهن ، لقد كنت فى طولك آية للسابلين ، وفى عرضك منارا للضالين : وقد تظلم المربوع مثلى من الطويل مثل محمد ومن القصير مثل أحمد [١] إذ زعم محمد أنه إنما أفرط في الرشاقة ونسب إلى القضافة [٢] لأن إفراط طوله غمر الاعتدال من عرضه . وزعم أحمد أنه إنما أفرط فى العرض ونسب إلى الغلظ لأن إفراط عرضه غمر الاعتدال من طوله . وكلاهما يحتاج إلى الاعتذار و يفتقر إلى الاعتلال . والمربوع بحمد الله قد اعتدلت أجزاؤه فى الحقيقة كما اعتدلت فى المنظر ! فقد استغنى بعز الحقيقة عن الاعتذار و بحكم الظاهر عن الاعتلال . وقد سمعنا من يذم الطوال كما سمعنا من يزرى على القصار ، ولم نسمع أحداً ذم المربوع ولا أزرى عليه ولا وقف عنده ولا شك فيه ، ومن يذمه إلا من ذم الاعتدال ، ومن يُزرى عليه إلا من أزرى على الاقتصاد ، ومن يَنصِبُ للصواب [٣] الظاهر إلا المعاند ، ومن يمارى فى العيان إلا الجاهل ! بل من يُزرى على أحد بتفاقم التركيب و بسوء التنضيد مع قول الله جل ثناؤه «مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ» .

و بعد ، فأى قدٍّ أردى وأى نظام أفسد من عَرض مجاوز للقدر وطول مجاوز للقصد ؟ ومتى لم يضرب العرض بسهمه على قدر حقه و يأخذ الطول من نصيبه على مثل وزنه خرج الجسد [٤] من التقدير وجاوز التعديل . و إذا خرج من التقدير تفاسد ، وإذا جاوز التعديل تباين ! ولئن جاز هذا الوصف وحسن

---

(١) فى نسخة : من الطويل مثل عمر ومن القصير مثل عمرو

(٢) القضافة : النحافة

(٣) ينصب للصواب : يعاديه . وفى نسخة : ومن يعيب الصواب . والذى أثبتناه هو اللائق لانه من استعمالات الجاحظ .

(٤) فى رواية : خرج الجسم

هذا النعت كان لقاسم التمّار (١) من الفضيلة ماليس لأحمد بن عبد الوهاب. وهذا كله بعد أن يصدقوك على ما ادعيت لطولك فى الحقيقة واحتججت لعرضك فى الحكومة. على أنك باعتلالك لما ينفيه العيان واستشهادك لما تنكره الأذهان متعرض (٢) للصدق من المتكرم ومتحكك بالحكم من المتغافل! وأى صامت لاينطقه هذا المذهب، وأي ناطق لا يغريه هذ القول! وإذا كان هذا ناقضا لعزم المتسلم فما ظنك بمادة المتكلف! فأنشدك الله أن تغرى بك السفهاء أو تنقض عزائم الحلماء! وما أدرى حفظك الله فى أى الأمرين أنت أعظم إثما، وفى أيهما أنت أفحش ظلما، أبتعرضك للعوام، أم بإفسادك حكم الخواص.

وبعد، فما يحوجك إلى هذا وما يدعوك إليه، وأشباهك من القصار كثير، ومن ينصرك منهم غير قليل (٣). وقد رأيتك زمانا تحتج بالنعمان بن المنذر، وبضَمرة بن ضَمرة، وبمجّاعة بن مُرارة وبمُجّاعة بن سِعر، وبأوفَى بن زُرارة، وبعبد الله بن الجارود، وبعلباء بن الهيثم، وبسعيد بن قيس، وبأبى اليسر كعب ابن عمرو، وبحَسَكَة بن عتّاب، وبمخارق بن غفار، وبعمران بن حِطّان، وبيوسف ابن عمر، وباياس بن معاوية، وبمعن بن زائدة، وبعقبة بن سلم، وبرجال ناهيك بهم رجالا وبأعلام كفاك بهم أعلاما.

ورأيتك تقول: إن كان الفضل فى النكاية وفى الشدة والصلابة فقصار كل شيء أشد ضرراً وأدق مدخلا وأظهر قوة وجلداً، كالحجارة أصلبها الحصى، وكالحيات أقتلها الأفعى، وكالبعوض أضرها القرقس (٤) وكالعقارب أقتلها الجرارات (٥) وكذلك أحرار الطير وبغاثها وصغار البراغيث وكبارها

(١) فى نسخة: كان لابراهيم بن السندى ماليس.
(٢) فى نسخة: كما انك بأعمالك لما تبقه العيان واستشهادك لماتذكره الاذهان متعرض
(٣) فى نسخه: غير ذليل
(٤) القرقس بكسر القافين. هو الجرجس وهو صغار البعوض.
(٥) الجرارات: صغار العقارب لانها تجر أذنابها

وقلت : إن كان الفضل فى العدد فمنا يأجوج ومأجوج، ومنا الذر والفراش، ومنا الدعاميص[1] والبعوض، ومنا الرمل والتراب وقطر السحاب . واحتججت بأن الحسن والفضل لصغار مافى الانسان كالناظرين والأنثيين وحبة القلب وأم الدماغ وزعمت أن الانسان إذا طال جسمه وامتد شخصه أسرع الإنهدام إلى بدنه والإنحناء إلى ظهره ، وأن القصير لايتقوس ظهره ولا يميل عنقه ولا يضطرب شخصه ولا تعوج عظامه ، ويسعه كل باب ويقطعه كل ثوب ولا تخرج رجلاه من النعش ولا تفضلا عن الفراش ، وهو بعد أخف على القلوب وأخلط بالنفوس وأبعد من السماجة وأدخل فى كل باب ملاحة .

وقلت: وتقول الناس : ما هو إلا فلفلة ، وماهو إلا زنبقة، وما هو إلا شرارة ، وما لسانه إلا لسان ضبة . ولم أزل أراك تقدم العرض على الطول وتزعم أن الأرض لم توصف بالعرض دون الطول إلا لفضيلة العرض على الطول . وذلك كقول الشعراء ووصف العلماء ، وقال الشاعر :

كَأَنَّ بِلَادَ اللهِ وَهْيَ عَرِيضَةٌ عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كِفَّةُ حَابِلِ

ولم يقل : كأن بلاد الله وهى طويلة . وقال آخر :

وَفِى الْأَرْضِ لِلْمَرْءِ الْعَرِيضَةِ مَذْهَبُ

ولم يقل : الطويلة . وقال :

وَلَا تَحْسُدَانِى بَارَكَ اللهُ فِيكُمَا عَلَى الْأَرْضِ ذَاتِ الْعَرْضِ أَنْ تُوسِعَا لِيَا

وقال الراجز :

تَقْطَعُ أَرْضاً وَتُلَاقِى أَرْضاً إِنَّ الْبِلَادَ غَلَبَتْنِى عَرْضاً

ولم يقل: طولا . وقلت: لولا فضيلة العرض على الطول لما وصف الله الجنة بالعرض دون الطول حيث يقول جل ثناؤه « وجنة عرضها السموات والأرض » فهذه براهينك الواضحة ودلالاتك الظاهرة ، ولو لم يكن فيك من الرضا والتسليم ومن القناعة

(١) الدعاميص : فرخ السمك وصغاره التى يتكون فى الغدران

والإخلاص إلا أنك ترى أن ما عند الله خير لك مما عند الناس ، وأن الطول الخفى أحب إليك من الطول الظاهر ، لـكان فى ذلك ما يقضى لك بالإنصاف ويحكم لك بالتوفيق .

وأنا أبقاك الله أتعشق إنصافك كما أتعشق المرأة الحسناء ، وأتعلم خضوعك للحق كما أتعلم التفقه فى الدين ، ولربما ظننت أن جورك إنصاف قوم آخرين ، وأن تعقدك سماح رجال منصفين ، وما أظنك صرت إلى معارضة الحجة بالشبهة ومقابلة الإختيار بالاضطرار واليقين بالشك واليقظة بالحلم ، إلا الذى خُصصت به من إيثار الحق وألهمته من فضيلة الإنصاف ، حتى صرت أحوج ما تكون إلى الإنكار أذعن ما تكون بالإقرار ، وأشد ما تكون إلى الحيلة فقراً أشد ما تكون للحجة طلباً ، إلا أن ذلك بطرف ساكن وصوت خافض وقلب جامع وجأش رابط و بنية حسنة و إرادة تامة مع غفلة كريم وفطنة عليم ! إن انقطع خصمك تغافلت ، و إن خرق ترفقت ، غير منخوب ولا متشغب ولا مدخول ولا مشترك ولا ناقص النفس ولا واهن العزم ولا حسود ولا منافس ولا مغالب ولا معاقب ، تفل الحز وتصيب المفصل وتقرب البعيد وتظهر الخفي وتميز الملتبس وتخلص المشكل ، وتعطى المعنى حقه من اللفظ كما تعطى اللفظ حقة من المعنى ، وتحب المعنى إذا كان حياً يلوح وظاهراً يصيح ، وتبغضه إذا كان مستهلكا بالتعقيد ومستوراً بالتغريب . وتزعم أن شر الألفاظ ما أغرق المعانى وأخفاها وأسرها وعمّاها وإن راقت سمع الغُمر واستمالت قلب الريض . أعجب والألفاظ عندك مارق وعذب وخف وسهل وكان موقوفا على معناه ومقصوراً عليه دون ماسواه ، لا فاضل ولا مقصر ولا مشترك ولا مستغلق ، قد جمع خصال البلاغة واستوفى خلال المعرفة . فاذا كان الكلام على هذه الصفة وألف على هذه الشريطة لم يكن اللفظ أسرع إلى السمع من المعنى إلى القلب ، وصار السامع كالقائل والمتعلم كالمعلم ، وخفت المؤنة واستغنى عن الفكرة وماتت الشبهة وظهرت الحجة ، واستبدلوا بالخلاف وفاقا وبالمجاذبة موادعة وتهنؤا بالعلم وتشفوا ببرد اليقين واطمأنوا بثلج الصدور

وبان المنصف من المعاند وتميز الناقص من الوافر وذل المخطل وعز المحصل و بدت عورة المبطل وظهرت براءة المحق .

وقلت: والناس و إن قالوا فى الحسن : كأنه طاقة ريحان ، وكأنه خوط بان ، وكأنه قضيب خيزران ، وكأنه غصن بان ، وكأنه رمح رديني ، وكأنه صفيحة يمانيه ، وكأنه سيف هند واني ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان . فقد قالوا : وكأنه المشترى ، وكأن وجهه دينار هرقلى ، وما هو إلا البحر ، وما هو إلا الغيث وكأنه الشمس ، وكأنها دارة قمر ، وكأنها الزهرة ، وكأنهـا درة ، وكأنها غمامة ، وكأنهـا مهاة . فقد تراهم وصفوا المستدير والعريض بأكثر مما وصفوا به القضيف والطويل :

وقلت : وجدنا الأفلاك ومافيها والأرض وماعليها على التدوير دون التطويل، وكذلك الورق والتمر والحب والثمر والشجر

وقلت : والرمح و إن طال فان التدوير عليـه أغلب ، لأن التدوير قائم فيـه موصولا ومفصلا ، والطول لا يوجد فيـه إلا موصولا . وكذلك الانسان وجميع الحيوان .

وقلت : ولايوجد التربيع إلا فى المصنوع دون المخلوق،وفيما أكره على تركيبه دون ما خلى وسوم طبيعته ، وعلى أن كل مربع ففى جوفه مدور . فقد بان المدور بفضله وشارك المطول فى حصته . ومن العجب أنك تزعم أنك طويل فى الحقيقة ثم تحتج للإستدارة والعرض ، فقد أضربت عما عند الله صفحاً ، ولهجت بما عند الناس . فأما حور العين فقد انفردت بحسنه وذهبت ببهجته وملحه ، إلى ما أبانك الله به من الشكلة فانها لا تكون فى اللئام ولا تفارق الكرام . وقال الشاعر :

وَلاَ عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ شُكْلَةِ عَيْنِهَا كَذَاكَ عِتَاقُ الطَّيْرِ شُكْلٌ عُيُونُهَا

وقال آخر :

وَشُكْلَةُ عَيْنٍ لَوْ حُبِيتَ بِبَعْضِهَا لَكُنْتَ مَكَانَ النَّجْمِ مَرْأًى وَمَسْمَعَا

فأما سواد الناظر وحسن المحاجر وهَدَب الأشفار ورقة حواشي الأجفان، فعلى أصل عنصرك ومجارى أعراقك . وأما إدراكك الشخص البعيد وقراءتك الكتاب الدقيق ونقش الخاتم قبل الطبع وفهم المشكل قبل التأمل ، مع وهن الكبر وتقادم الميلاد ، ومع تخون الأيام وتنقص الأزمان ، فمن توتياء الهند وترك الجماع ، ومن الحمية الشديدة وطول استقبال الخضرة . فأنت ياعم حين تصلح ماأفسد الدهر وتسترجع ما أخذت منك الأيام ، لكما قال الشاعر :

عَجُوزٌ تُرَجِّى أَنْ تَكُونَ فَتِيَّةً وَقَدْ لَحِبَ[1] الْجَنْبَانِ وَاحْدَوْدَبَ الظَّهْرُ
تَدسُّ إِلَى الْعَطَّارِ مِيرَةَ أَهْلِهَا وَهَلْ يُصْلِحُ الْعَطَّارُ مَا أَفْسَدَ الدَّهْرُ

وكيف أطمع فى نزوعك عن اللجاج وقد سقيته قبل الحجاج ، وكيف أرجو إقرارك جهراً وقد أبيته سراً ، وكيف تجود به صحيحا مطمعا وقد بخلت به مريضاً مؤيسا ، وكيف يرجو خيرك من يراك تطاول أباجعفر[2] وتخاشنه وتنافره وتراهنه، ثم لاتفعل ذلك إلا فى المحافل العظام وبحضرة كبار الحكام ، ثم تستغرب ضحكا من طمعه فيك وتعجب الناس من مجاراته لك ، وأشهد لك بعد هذا أنك ستخاشن عمرو بن بحر وتعاقله ثم تظارفه وتطاوله ، وتغنى مع مخارق وتنكر فضل زُرزور ، وتستجهل النظّام وتستبرد الأصمعى ، وتستغبي قيس بن زهير ،وتستخف الأحنف ابن قيس ، وتبارز أبا الحسن على بن أبى طالب رضى الله عنه . ثم تخرج من حد الغلبة إلى حد المراء ، ومن حد الأحياء إلى حدود الموتى ! هذا وليس لك مساعد ولا معك شاهد واحد ولا رأيت أحداً يقف فى الحكم عليك أو ينتظر تحقيق دعواك ، ولا رأيت مبصِّراً يخليك من التأنيب ، ولا مؤنباً يخليك من الوعيد ، ولامتوعداً يخليك من الإيقاع ، ولاموقعاً يرثي لك ، ولا شافعا يشفع فيك.

ياعم لم تحملنا على الصدق ، ولم تجر عنا مرارة الحق ، ولم تعرضنا لأداء الواجب ،

(١) لحب : أنحلها الكبر

(٢) ابو جعفر : هو محمد بن عبدالملك الزيات

ولم تستكثر من الشهود عليك ، ولم تحمل الاخوان على خلاف محبتهم لك ؟ إجعل بدل ماتجنى على نفسك أن تجنى على عدوك ، و بدل ماتضطر الناس إلى أن يصدقوا فيك أن تضطرهم إلى أن يمسكوا عنك . ولابد يرحمك الله لمن فاته الطول من أن يلقى بيده (١) أو من أن يقول بخلاف ما يجد فى نفسه . فوالله إنك لجيد الهامة ، وفى ذلك خلف من حسن القامة ، و إنك لحسن الخط ، وفى ذلك عوض من حسن اللفظ ، و إنك لقليل الشيب قليل البول ، و إنك لتجد مقالا ، و إنك لتعد خصالا . فقل معروفا فإنا من أعوانك ، واقتصد فإنا من أنصارك ، وهات فانك لو أسرفت لقلنا قد اقتصدت ، ولو جرت لقلنا قد اهتديت . ولكنك تجىء بشىء «تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا» ولو غششناك لساعدناك ، ولو نافقناك لأغريناك ، ولو باعدناك ولان جانبي لك فأقول: خرف الشيخ إذا كان جاداً ، وعبث إن كان هازلا . وقد يعجل الخرف إلى أحدث منك سناً و يبطىء عن أطول منك عمراً . بل من هذا الذى يعدمن السنين ماتعد و بلغ من الكبر ما بلغت ؟ وعند من يدرك هـذا العلم إلا عند النجوم أو عند إبليس الرجيم ؟ بل من يعرف ذلك إلا فاطر السموات والأرض . لو عرفت عقبان خطفة ونسور السراة وأحناش الرمل وعير العانة وورشان الغابة وشيوخ اليمامة وهرمى فرغانة ، إنك لا تعد عمر نوح عمراً ولا النجوم يوماً ، و إنك قد فت التاريخات وجزت حساب الباورات (٢) واستقللت الأحقاب وخرجت من خطوط الهند لما استطالت بأعمارها ولا فرحت بطول أيامها ! فياقعيد الفلك كيف أمسيت ، ويا قوة الهيولى كيف أصبحت ، و يا نسر لقمان كيف ظهرت ، و يا أقدم من دوس و يا أسن من لُبد ويا صنى المشقر و يا صاحب المسند .

حدثني كيف رأيت الطوفان ، ومتى كان سيل العرم ، ومذ كم مات عوج ؟

(١) فى نسخة : يلقي بيده الى التهلكة . وليس هنا مكانها وإنما المراد يلقى بيده يسلم ويذعن

(٢) هكذا يستعمله الجاحظ فى جميع كتبه . ولا أدرى ماهو ، ولعله اسم لحساب معروف بلغة غير العربية . أما العرب فيقولون : ربوة وربوات . لمقادير كبيرة فى المال

ومتى تبلبلت الألسن ، وما حبس غراب نوح ، وكم لبثتم فى السفينة ، ومذ كم كان زمان الخنان ويوم السلان ويوم خزاز ووقعة البيداء . هيهات ! أين عاد وثمود ، وأين طَسْم وجَديس ، وأين أميم ووبار ، وأين جُرهم وجاسم ، أيام كانت الحجارة رطبة وإذ كل شيء ينطق ، ومذ كم ظهرت الجبال ونضب الماء عن اللحف ، وأي هذه الأودية أقدم ، أنهر بلخ أم النيل أم الفرات أم دجلة أم جيحان أم سيحان أم مكران ، وأين تراب هذه الأودية ، وأين طين ما بين سفوح الجبال إلى أعاليها ، فى أى بحر كبست وفى أى هبطة شحنت ، وكم نشأ لذلك من أرض وحدث من عين ؟

جعلت فداك ، من أبو جُرهم ، ومن رهط الدجال ، وهل تعرف له شبيها ؟ أين طُويس ، وما قصة ابن صائد ، وممن سوشى المنتظر [1] . وخبرنى عن هَرمس أهو إدريس ؟ وعن أرميا أهو الخضر ؟ وعن يحيى بن زكريا أهو إيليا ؟ وعن ذى القرنين أهو الإسكندر ؟ ومن أبوه ومن أمه ، ومن قيرى وعيرى ، ومن جُلَنْدَى ، ومن أولاد الناس من السعالى [2] ، وما الحوش من الابل . وخبرنى عن قحطان ، ألعابر هو أم لإسماعيل . وعن قضاعة ، ألمعد بن عدنان أم لمالك بن حمير . ومتى تخزعت خُزاعة ، ومتى طوت المناهل طىء ، ومن ابن بنصر ، وما تلك السبيل ، وما قصة الزهرة ، وما شأن سهيل ، وما القول فى هاروت وماروت ، وما شأن الإربيانة [3] ، وما قصة الفأرة وجرم الوزغة ، وما إحسان الحمامة ، وما تفريط العظاية ، وما خصب الضفادع ، وما تسبيح الصرد ، وما عداوة ما بين الديك والغراب ، وما صداقة ما بين الجن والأروية ، ومن أين لها الماء ، وما بلغ من عقل الهدهد ، وأين قبر أمه ، ولم تنتن ريحه .

(١) سوشى المنتظر : فى أساطير المجوس أن سوشى هذا هو مهديهم المنتظر ، وأنه يخرج لهم راكبا ثورا فيجدد لهم فى زعمهم دين زرادشت

(٢) فى أساطير العرب أن عمرو بن يربوع أبو قبيلة من العرب أمه سعلاة ، والسعالى زعموا أنها قبيلة من الجن .

(٣) الاربيان : سمك صغير كالدود . ولعله الجمبرى .

وخبرني عن الأمة التي مسخت ثم فقدت ، ممن كانت وإلى أي شيء صارت؟ أأخذت براً أم بحراً؟ فإن كانت بَحْرِيةً أفهي الجِرِّيُّ[1] ، وإن كانت برية أفهي الضباب ؟ وما آوى ، وما حُبين ، وما عُرس ، وما أوبر ، وما وردان ، وما قصة الطرائيث ، وما سبب كون السنانير ، وما علة خلق الخنزير ، وكيف اجتمع في النبابة سم وشفاء ؟ وكيف لم يقتل الأفعى سمها ، وكيف لم يحرق الشمس ما عند قرصها .

وخبرني عن الأبدال ، أهم اليوم بالعرج أم ببيسان أم كما كانوا متفرقين ، وخبرني أ كلهم موال أم كلهم عرب أم هم أخلاط ، وما فعل صاحب إنطاكية ولم أقيم سَلمان بعد بلال ، ومن جعل بعد سلمان ، ومن عشائرهم وأين دورهم وأين أهلوهم ، وكيف لم يتقدموهم ويتفقدوهم ، وكيف صارت بَيْسَان لسان الأرض يوم القيامة ! وكيف صارت كبد الحوت أول طعام أهل الجنة ، ولم تسمى نونا ، وهل الرجفة من حركته ، وهل الزلزلة من تنقله ، وما الخسف ، وكيف شاهدت المسخ على طول الأيام ، أتقلبت خلقتهم أم صار ذلك ضربة واحدة ، وهل عاشوا أم أبلسوا أم تركوا ثلاثا ثم أبطلوا ، وهل كانوا يتعارفون بعد المسخ ويعرفون بعض ما قد نزل بهم بعد القلب .

وخبرني عن بحار بنطس ، وعن قبيس وعن الأصم وعن المظلم ، وعن جبل الماس ، وعن الباكي ، وعن قاف ، وأين كنت عام الجحاف ، ومذ كم كان زمن الفِطَحْل ، وأين كان ملك الأزد ، ، وأين كان من ملك الإشكان ، وأين كان من ملك بني ساسان ، وأين كان خره أردشير من استاشف ، وأين كان أبرويز من أنو شروان ، وأين جُذيمة من تُبعٌ ، وأين القَتَجَبْ من بلهره ، وأين يغبور من قيصر .وخبرني عن الفراعنة ، أهم من نسل العمالقة ؟ وعن العمالقة أهم من قوم عاد . وخبرني أهم من عاد الأولى أو من عاد الأخرى ؟ وخبرني عن عطارد الهندى

(١) الجري : سمك

وجوابه لعطارد السماوى حين هبط إليه من فلكه ، وهل جرى بينهما إلا ما سمعنا ومذ كم كان ذلك .

وخبرنى : كيف كان أصل الماء فى ابتدائه فى أول ما أفرغ فى إنائه ، أ كان بحراً أجاجا استحال عذبا زُلالا ، أم كان زُلالا عذبا استحال أجاجا بحراً ؟

خبرنى : كيف صار الماء أبعد من الفلك ولا يكون إلا فى بطن الأرض، وهو أشبه بالهواء كما أن الهواء أشبه بالنار ، وكيف يكون أحق بالوسط والأرض أبعد من سية الفلك ، وكيف طمع جعلت فداك الدهرى فى مسئلة العَلاَة والمطرقة وفى البيضة والدجاجة ، مع تقادم ميلادك ومرور الأشياء على بدنك ، وكيف كان بدء أمر البُدِّ فى الهند ، وعبادة الأصنام فى الأمم ، وقصة عَمرو بن لُحَى فى العرب .

وخبرنى عن عَنَاق بنت آدم ، وعن ميسرةَ ومسرةَ ، وعن مهنةَ ومهنينةَ ، وعن بهيا وطبحيا ، ومذ كم عمرت جزيرة العرب ، ومذ كم بادت يونان ، وعن فصل مابين السند والهند ، والهند والميد ، وعن جميع من هلك بالرُّعاف ، وعن من أفناهم النمل : وعن من أجحف بهم السيل ، وعن أصحاب النعمان كم صنفهم ، وما تقول فى الرجم السماوى أ كان من عظام البَرَد أم كحجارة الطير الأبابيل التى خلقت من سجيل ؟

وخبرنى : عن معنى الفرات على حقه وصدقه ، وعن نضوب البحر ، وعن تنقص الأرض ، ولم عمل الفلك فى هذا العالم وليس بينهما شبه ! وهلا عمل فيه بقدرة منه ، وهل يجوز أن يعمل شىء فى شىء إلا والآخر يعمل فيه .

وخبرنى : مذ كم كان الناس أمة واحدة ولغاتهم متساوية ، وبعد كم بطن اسودّ الزنجى وابيض الصقلبى ، ولم صار اللون أسرع تنقصاً من الجود ، ولم كان الولد يجىء على شبه مافى أبيه من الأمور الحادثة فى بدنه غير القديمة فى أصل تركيبه ، ومع ذلك لم يولد صبى قط فى العرب مجنونا ، وما هذه الخاصية التى منعت من هذا المعنى .؟ وفى كم تمت لكل فرقة بعد التبلبل لغتها واستفاض لسانها

خبرنى: جعلت فداك ، أيما أطول عمرا : ألناس أم عَير العانة أم الحية أم الضب، ومتى تستغنى الحية عن الغذاء ، ومتى ينتفع الضب بالنسيم ، ومتى ينقطع النسر عن السفاد ، وكيف صار البغل لا ينسل وهو ولد الرمكة من العير ، وكذلك السِّمْعُ لا ينسل وهو ولد الضبع من الذئب ، والراعى ينسل وهو ولد الحمام من الوَرَشَان ، والبُختى ينسل وهو من ولد العراب من الفوالج ، ولم يسمع فى الظلف إذا اختلفت ولم يسمع فى الحافر ولا فى الخف إذا اختلف . وخبرنى عن الزَّرافة أمن ولد الناقة أم من الضبع ، وعن الشَّبُّوط أمن ولد البُنِّىِّ من الزَّجر (١) . وخبرنى : ما عنقاء مُغرب وما أبوها وما أمها ، وهل خلقت وحدها أم من ذكر وأنثى ، ولم جعلوها عقيما وجعلوها أنثى ، ومتى تهد لذلك الصبى ، ومتى تظل بجناحها شيعة الإمام ، ومتى يلتقى فى فيها اللجام ، ومتى يباع له الكبريت الأحمر و يساق إليه جبل الماس.

وخبرنى عن بناء سور الأُبُلَّة وعمن حير الحيرة ، ومن أنشأ بنيان مصر ، ومن صاحب كردبنداذ ومدينة سمرقند . وخبرنى : عن البناء الذى يضاف بالمدائن إلى سام ، أهو لسام ؟ وعن تدمر أهو لسليمان ! وأين ملك أخاذ بن عمرى من ملك نمروذ الخاطىء ، وأين وقع ملك ذى القرنين من ملك سليمان .

وقد كنت أطال الله بقاءك فى الطول زاهداً وعن القصر راغباً ، وكنت أمدح المربوع وأحمد الاعتدال ، ولا والله أن يقوم خير الإعتدال بشر قصر العمر ، ولا جمال المربوع بما يفوت من منفعة العلم ، فأما اليوم فياليتنى كنت أقصر منك وأضوى ، وأقل منك وأقمى ، وليس دعائى لك بطول البقاء طلباً للزيادة ، ولكن على جهة التعبد والاستكانة ، فإذا سمعتنى أقول أطال الله بقاءك ، فهذا المعنى أريد ، و إذا رأيتنى أقول لا أخلى الله مكانك ، فإلى هذا المعنى أذهب . وقد زعموا جعلت فداك أن كل ما طال عمره من الحيوان زائد فى شدة الأركان وفى طول العمر وصحة الأبدان ، كالوَرْشَانِ ، والضِّباب ، وحُمُر الوحش ، وكالحم النسر لمن

(١) الشبوط : سمك دقيق الذنب عريض الوسط لين اللمس صغير الرأس كأنه بربط . والبنى : ضرب من السمك . والزجر : سمك عظام .

أكله ، ولحم الحية لمن استحله ، فإن كان هذا الأمر حقا وكان هذا العلاج نافعا وكنت له مستعملا و فيه متقدما وتراه رأيا و إن كنت عنه غنيا ، أخذنا منه بنصيب وتعلقنا منه بسبب . وكيف لى بذلك وأنا صغير الأذن وأذنك أذن أبى سهيل ، وأنا دقيق العنق وعنقك عنق قاسم التمار ، وأنا صغير الرأس ورأسك رأس جالوت ، وفيك أمران غريبان وشاهدان بديعان : جواز الكون والفساد عليك ، وتعاور النقصان والزيادة إياك . جوهرك فلكى وتركيبك أرضى ، ففيك طول البقاء ومعك دليل الفناء . فأنت علة للمتضاد وسبب للمتنافى . وما ظنك بخلق لا تضره الإحالة ولا يفسده التناقض ..!؟

جعلت فداك ما لقى منك الذهب ، وأى بلاء دخل بك على الحمر ، كانا يتيهان بطول العمر ويبهجان ببقاء الحسن وبأن الدهر يحدث لهما الجدة إذا أحدث لجميع الأشياء المخلوقة ، فلما أربى حسنك على حسنهما وغمر طول عمرك أعمارهما ذلا بعد العز وهانا بعد الكرامة ، ومالى فيك قول إلا قول الاعرابى حين ضل الطريق فى الظلمة فلما عرف قصده عند طلوع القمر رفع رأسه شاكراً وهو يقول : ما أقول ! أقول رفعك الله وقد رفعك ، أم أقول جملك الله وقد جملك ، أم أقول عمرك الله وقد عمرك ؟.. ولكن أقول : وهل أنطق إن نطقت إلا رجيعاً ، وأقول ما قلت إلا لغواً . وقد زعم ناس ممن ينتحل الاعتبار ويتعاطى الحكمة ويطلب أسرار الأمور أنه ليس شىء مما يساكن الانسان فى منزله وربعه وفى داره وموضع منقلبه إلا والانسان يفضله فى طول العمر وفى البقاء على وجه الدهر ، كالحمام والدجاج والسنانير والكلاب والبقر والغنم والحمير والخيل والجواميس والابل . وزعموا أن أقصرها أعماراً العصافير ، وأن أطولها أعماراً البغال ، وأن العلة فى طول بقاء البغل قلة السفاد ، وفى قصر عمر العصافير كثرة السفاد . وأن مما يقضى بهذه العلة ويثبت هذه القضية ما يعم الخصيان من طول العمر ، ويعم الفحولة من قصر العمر . وما أرى حفظك الله بهذا القياس بأساً فى ظاهر الرأى وما

أجده بعيداً فى أغلب الظن ، ولو كنت أقتل ذلك علما وأعلمه يقيناً لكان أحب الأمور إلى أن يكون لى فيه سلف صدق وإمام لا يغلط ، وأن أحكيه عن مَعدل وأسنده إلى مَقنع ! فقل نسمع وأشر نتبع !

يعجبنى — جعلت فداك — منك بغض الشهرة ودبيبك فى غمار الحشوية استغناء بنفسك ، وصونا لقدرك ، ومعرفة بما أعطيت ، وثقة بالذى أوتيت . وما أقل بحمد الله ما سبقك به إبليس ، وما أيسر ما فاتك به آدم . فزاد الله شاكرك نعمة وناصرك عزة . وقد ذكرت الرواة فى المعمرين أشعاراً وصنعت فى ذلك أخباراً ، ولم نجد على ذلك شهادة قاطعة ولا دلالة قائمة ، ولا نقدر على ردها بجواز معناها ، ولا على تثبيتها إذ لم يكن معها دليل يثبتها ، وقد تعرف مافى الشك من الحيرة ، ومافى الحيرة من القلق ، ومافى القلق من النصب ، ومافى النصب من طول الفكرة ومافى طول الفكرة من الوحشة ، ومافى طول الوحشة من التعرض للوساوس والخفقة ومافى إتعاب القلب وإنضاء النفس من كلال الحد ، ومافى الإلحاح من دواعى الضجر ، ومافى الجهل من النقص ، ومافى نزاع النفس من الكد . فافتح لبيتك باباً نستريح إليه ، وأقم له علماً نقف عنده . فقد علمت ما ذكروا من عمر نابغة بنى جعدة ، ومالك ذى الرقيبة ، ونصر بن دُهمان ، وابن بقيلة الغسانى ، والربيع بن ضبيع ، ودُوَيد بن نهد . وأنت أبقاك الله تعرف ميلاد آبائهم وأجدادهم وقبائلهم وعمائرهم وأصولهم وأجذامهم ، فخبرنى أكذبوا أم صدقوا ، أم اقتصدوا أم أسرفوا

فأما ما رووا لأجسام الناس من الطول والعرض ، وثبتوا لهم من السمن والعظم والضخم سوى ما نطق به الكتاب عن أجسام عاد ، فالشاهد على كذبهم حاضر ، والدليل على فساد عقولهم ظاهر ، كالذى رأينا من أقدار سيوف الأشراف وأزِجَّة رماح الفرسان ، وكتيجان الملوك التى فى الكعبة ، وكضيق أبوابهم وقصر سمك عتب درجهم فى قصورهم العادية ومدنهم الغُدْمُليةِ ، ويدل على ذلك الجرون التى كانت مقابرهم وأبواب مدافنهم فى بطون أرضيهم وشعف جبالهم ومطاميرهم ومواضع قناديل كنائسهم ومجالسهم وبيوت عباداتهم وملاعبهم من

قم رؤسهم . ولو حضرنا من الشواهد على ما ادعوا من أعمارهم مثل الذى حضرنا من الشواهد على تكذيبهم فى طول قاماتهم إذاً لما عنيناك ولا ابتذلناك ، وعلى أنه لو كان السبب فى طول قاماتهم وضخم أبدانهم تقادم ميلادهم وحدة قوة الأرض قبل أن تخلق وشبابها قبل أن تهرم ، لكان ينبغى لمن كان قبلهم أن يكون أعظم منهم ، ولكان نقصان من بعدهم ممن يلى عصرهم ومن يلى أولئك على حساب ذلك .

وخبرنى أبقاك الله من كان بانى ريام ، ومن أنشأ كعبه نجران ، ومن صاحب غُمدان ، ومن بانى تدمر ، ومن ـ ـ الهرمين ، ومنذ كم بنيت مأرب ، وأين كان الأبلق الفرد من المشقر ، وأين قصر النوبهار من قصر سنداد ، ومن صاحب عقرقوف ولم قضيت جعلت فداك لِخُمَعَةَ الإيادية على بنت الخُس ولابن شرية على شِقٍّ وللنخار على ابن النطاح ، ولابن الكيس على ابن لسان الحُمَّرةِ ، وأين كانت الزباء من ملكة سبأ ، وأين خاتون من بوران ، وأين جُلندى من أسباد ، وأين حذيم من أفعى ، وأين كان لقيم من لقمان ، وأين كان كُرز بن علقمة من مُجَزِّزٍ المدلجى . وأين كان رافع المخش من دعيميص الرمل . ؟

وخبرنى عن عظامة أقاليم الخراب وعن خلاء شق الجنوب ، أذلك قائم مذ دار الفلك وكان النمو ، أو الدول بينهما مقسومة والأيام عليهما موقوفة ! ولم قدمت إقليم دوس على إقليم بابل . وخبرنى عن الشهب أتكون نهاراً أم تكون ليلا ، ولم قدمت الروم فى الصنعة على أهل الصين ، ولم قدمت تُبَّتْ على الزابج ، ولم فضلت السكون على الحركة ، ولم جعلت السكون فسادا والافتراق اجتماعاً .؟ قد وحدتك جعلت فداك خفت أن تكون ابن صائد ، ورجوت أن تكون الدجال ، ولعلك دابة الأرض ، وما أدرى لعلك سوشى ! ولست بمحمد الله الخضر . والذى لا أشك فيه أنك غير المسيح ، وأظن روحك روح شيقرة بل روح بلمذبون ، بل روح دلالا ، وأنك الأركون المنتظر .

واحتمل لي مسألة واحدة ولا أعود ، وسأجعلها طويلة ولا أزيد : كم بين ود وسواع ويغوث ويعوق ، وبين مناة والعزى والغبغب وعائم ، وبين مناف ونهم وسعد ومنهب ، ومذ كم نكح أساف نائلة ، ومذ كم مسخا في الكعبة ؟ وخبرني عن برهوت وبلهوت ، وعن الجابية وموضع الطاغية ، وعن سيف الصاعقة، ومن ألقى ذلك إلى الرافضة ، وما كان مال قارون ، وما كان كنز النطف، ولمن كانت البليهة ، وما قرط مارية ، وما أصل مال ابن جُدعان وكيف كان مشورة أمه. وخبرني عن ذلك المال الذي من أخذ منه ندم ومن تركه ندم

جعلت فداك قد شاهدت الإنس مذ خلقوا ، ورأيت الجن قبل أن يحجبوا ، ووجدت الأشياء بنفسك خالصة وممزوجة وأغفالا وموسومة وسالمة ومدخولة ، فما يخفى عليك الحجة من الشبهة ، ولا السقم من الصحة ، ولا الممكن من الممتنع، ولا المستغلق من المستبهم ، ولا النادر من البديع ، ولا شبه الدليل من الدليل . وعرفت علامة الثقة من علامة الريبة ، حتى صارت الأقسام عندك محصورة ، والحدود محفوظة ، والطبقات معلومة ، والدنيا بجذافيرها مصورة ، ووجدت السبب كما وجدت المسبب، وعرفت الاعتلال كما عرفت الإحتجاج ، وشاهدت العلل وهي تولد والأسباب وهي تصنع ، فعرفت المصنوع من المخلوق ، والحقيقة من التمويه . فما تقول في الرقى وما تقول في الرؤيا ، وماتقول في أكسير الكيمياء ، وماتقول في كيموس الصنعة وما تقول في الزجر ، وما تقول في الفراسه ، وما تقول في الفأل، وما تقول في الطِّيَرَةِ وما تقول في نمت الظلم ؟ وماتقول في معنى البركة ، وماتقول في النجوم ، وما تقول في الخيلان ، وما تقول في أسرار الكف ، وما تقول في النظر في الأكتاف ، وما تقول في قرض الفأرة ، وما تقول في إلحاح الخنفساء ، وما تقول في دوائر الرأس ، وفي أوضاح الخيل ، وفي النمس والسنور ، وفي الديك الأفرق والسنور الأسود ، وفي البول في النفق ، وفي الإطلاع في عاديّ الآبار ، وفي النوم بين البابين ، وماتقول

فى التميمة وفى الرتيمة (١) وفى تعليق كعب الأرنب ، وفى حلى السليم ، وفى البلايا والولايا ، وما تقول فى الهامّ والاستمطار بالسَّلَع وَالعُشَر (٢) ، وما تقول فى شق البرقع ، وفى لمر الرداء ، وفى كى الصحيح عن ذى العُر ، وفى فقء العين للسواف وفى نزع المسر للعارة ، وما تقول فى الآمر والناهى والمتربص ، وفى التطيح والقعيد والسانح والبارح ، وما تقول فى وطء المقلات للقتلى ، وفى دماء الملوك للكلَبَ ، وما تقول فى صرع الشيطان ، وفى تلون الغيلان ، وفى عزيف الجنان ، وفى ظهور العُمّار ، وفى طاعتهم للعزائم ، وفى رئى المأمور الحارثى وعتيبة بن الحارث اليربوعى وما فصل ما بين العراف والكاهن والحازى والمتبوع ، وما تقول فى تحول إبليس فى صورة سراقة المدلجى وفى صورة الشيخ النجدى ؟ وخبرنى عن شنقناق وشيصبان . وعن سملقه وزوبعة ، وعن المذهب والسعلاة وعن بركوير ودركاذاب ، وأين كان مسحل شيطان الأعشى من عمرو شيطان المنخّل . ! ؟

قد والله عافانا الله بك وابتلى ، وأنعم بك وانتقم ، فدحًا لمن زهد فيك وسقياً لمن رغب إليك وويل لمن جهل فضلك ، بل الويل لمن أنكر فضلك . إنك جعلت فداك كما لم تكن فكنت فكذا لا تكون بعد أن كنت ، وكما زدت فى الدهر الطويل فكذا تنقص فى الدهر الطويل ، إذ كل طويل فهو قصير ، وكل متناه فهو قليل ، فإياك أن تظن أنك قديم فتكفر ، وإياك أن تنكر أنك محدث فتشرك ، فان الشيطان فى مثلك أطماعا لا يصيبها فى سواك ، ويجد فيك عللا لا يجدها فى غيرك .

ولست جعلت فداك كابليس وقد تقدم الخبر فى بقائه إلى انقضاء أمر العالم

(١) فى نسخة : التمنمة ولا معنى لها هنا . والتميمة : خرزة رقطاء تنظم فى سير ثم يعقد فى العنق . والرتيمة : كان العربى إذا أراد سفرا عمد إلى شجرة فيعقد منها غصنين فاذا رجع وكانا على حالهما علم أن أهله لم تخنه ، وإلا فقد خانته .

(٢) السلع : شجرمر . والعشر : شجر فيه حراق لم يقتدح الناس فى أجود منه وفيه مرارة . وكان العرب فى الجاهلية اذا استنوا علقوا السلع مع العشر بثيران الوحش وحدوروها من الجبال واشعلوا فى ذلك السلع والعشر النار يستمطرون بذلك

وفنائه، ولولا الخبر لما قدمته عليك ولا ساويته بك ، وأنت أحق من عذر وأولى من ستر ، ولو ظهر لى لما سألته كسؤالى إياك ، ولما ناقلته الكلام كمناقلتى لك ، وإن كان فى التجاذب مثلك فهو فى النصيحة على خلافك ، ولأنك إن منعت شيئاً فمن طريق التأديب أو التقويم ، وهو إن منع منع بالغش والإرصاد ، وأنت على حال أشكل ، ونحن نرجع إلى أصل ونلتقى إلى أب ويجمع بيننا دين .

وخبرنى عن الشق ، وعن واقواق ، وعن النسناس ، وعن دوالباى ، وعن الكركدن ، وعن عنقاء مغرب، وعن الكبريت الأحمر ، وعن نور الله فى الأرض؟ وحدثنى عن شعب رضوى ، وعن جبال حسمى ، ومتى ترى الماء الأسود والجو الأكاف والطين الأزرق ، وكيف ذلك النمر ، وهل يظمأ ذلك الأسد ، وهل باض الخفاش ، وهل أمنت الحبارى ، ومتى تتعلم ما فى الجفر وتحكم ما فى الزبر ، وما فعل نحل وبار ، ونعاج أبى المرقال ، وما الحجة فى الرجعة، والقول فى المناسخة ، ومن أين قلتم بالبداء ، ومن أين جعلتم العلا فعلا والزيادة قلتا ، وما القول فى النفس؟

وخبرنى ما السحر وما الطلسم ، وما الدنهش وما الخلقطير ، وما الهيكل ، وما الطوالق ، وما قولهم فى اللبان الذكر ، وفى مراعاة المشتري ، ولم توحشوا من الناس ولم باتوا بالبراح وأقاموا بالخراب واغتسلوا بالماء القراح ، ولم قدموا التصديق وأخرجوا الصرة ، ولم أجابوا وأكرموا ، ولم منعوا وقتلوا . ! ؟

وخبرنى من خانق الغريض وقاتل سعد [1] يوم النفق ، ومن الذى استهوى عمرو بن عدى ، ومن صاحب عمارة بن الوليد ، ومن يصرع منهم الأصحاء ، ومن يبرىء المرضى ويستهوى العقلاء ، وعن فصل ما بين الشيطان والجنى وما بين الجن والحن ومن طعامه الجَدَفُ [2] . وخبرنى عن أشعار الهاتف وما يسمع بالليل من جوائب الأخبار . وخبرنى عن النميرى صاحب الورقة ، وعن تميم الدارى صاحب الردم . وخبرنى عن شقلون ، وعن أهرمن ،

(١) الغريض : هو المغنى المشهور . وسعد : هو سعد بن عبادة الخزرجى الصحابى .

(٢) الجدف : كل طعام لا يذكر اسم الله عليه . أو هو نبات يمنى لا يحتاج آكله إلى شرب الماء عليه .

وعن كان وكان ، ومره ، وايدش ، وافردش،وابرشارش ، وابربارش،وخونرث بام ، وكيف صارت خونرث هـذه أعمر العوالم ، وأيما أكثر يأجوج أم مأجوج ، وأيما أقصر وأيما أطول أعماراً ، وأيما أفضل منكر أم نكير ، وأيما أخبث هاروت أم ماروت ، وأى حوت ابتلع يونس ، وأى حية ابتلعت المهلب ، ومن أى حية كانت سفينة نوح ، ولم ملح الحمض ، ولم طوقت الحمامة ، وما فرق ما بين الطاس والكاس ، وما كان سبب اتخاذ الأقبية ، وما سبب صنعة الزجاج ، وماقصة الرخام أكيمياء أم مخاوق ، ولم امتنع عمل الذهب والزجاج أعجب منه ،ومن صاحب الميناوتودين الحجارة ،ومن صاحب التطليف ،ومن صاحب النوشاذر ،وماتقول فى التنين ومافراتق الاسد ، وماصداقةمابين الخنفساء والعقرب ،وما بال السواد يصبغ ولاينصبغ وما بال البياض ينصبغ ولا يصبغ ، ومن صاحب الاصطرلاب ، ومن صاحب القرسطون . ولم أسألك عن الحداد و إنما سألتك عن الفيلسوف وعن علته فى المد والجزر .

وخبرنى عن جوهر الأرض وعن جميع الفلز أشىء مفروغ من خلقه أم أرض يستحيل إليه ، ولم عمل بعض السم فى العصب و بعضه فى الدم و بعضه فيهما جميعا ، ولم كان بعضه سم مجاز و بعضه سم جهاز ، ولم صار لا يقتل مع العادة وقتل قبل العادة ، ألأن الطبائع تنكر الشىء الغريب أم لأنه ضد فى نفسه ، وكيف صار مع ريق الأفعى ريق بعض الناس فى القتل وفى أيهما سم ، ولم خالف البيش فى العصب والدم ، ولم يقتل العقرب إنساناً ويقتله آخر ، ولم صارت الافعى قاتلة وتأكلها القنافذ ولا تضرها وتأكلها الأروى فلا تتأذى بها ، ولم صارت الهندية تقتل كل شىء ولا يقتلها شىء ولا يستمرئها شىء ، ولم خالف النيل جميع الأودية فى النقصان والزيادة ، ولم بلغت جريته الشمال ، ولم صار أقصاه كأدناه ، ومتى يدال منه ومتى يحوله الامام . . ! ؟

وقد علمت جعلت فداك أن الخبر إذا صح أصله وكان للناس علة فى نشره

وكأن فى الدلالة على الحق كالعيان وفى الشفاه كالسماع ، على أن الخبر لا يعرف به تكيف الأمور لكن يعرف به جمل الأشياء إلا خبرك فإنك لا تحتاج إلى إشارة ولا إلى إعادة ولا إلى[علة ولا إلى] تفسير حتى يقوم خبرك فى الشفاه وفى كيفية الشىء مقام العيان . وقد كنت أتعجب من محمد بن عبد الملك وأقول : ما تقولون فى رجل لم يقل قط بعد انقضاء خصومته وذهاب خصمه : لو كنت قلت كذا كان أفضل ، أو كنت لم أقل كذا كان أمثل ، فما بال عفوه أكثر من جهدكم وبديهته أبعد من أقصى فكرتكم ؟ فلما رأيتك علمت أنك عذاب صبه الله على كل رفيع ، ورحمة أنشأها لكل وضيع .

تخبرنى ما كان بينك و بين هرمس فى طبيعة الفلك ، وعن سماعك من أفلاطون ومادار فى ذلك بينك و بين أرسطاطاليس ، وأى نوع اعتقدت ، وأى شىء اخترت فقد أبت نفسى غيرك وأبت أن تشتفى إلا بخبرك ، ولولا أنى كلف برواية الاقاويل ومغرم بمعرفة الاختلاف ، وأنى أستجيز مسألتك عن كل شىء وابتذالك فى كل أمر ، لما سمعت من أحد سواك ، ولما انقطعت إلى أحد غيرك .

واعلم جعلت فداك أنى لم أرد بمزاحك إلا ضحك سنك ، ولا كانت غايتى فيك إلا لأنفق عندك ، وقد كنت خفت ألا أكون وقفت على حده وأشفقت من المجاوزة لقدره . والمُزاح باب ليس المخوف فيه التقصير ، ولا يكون الخطأ فيه من جهه النقصان . وهو باب متى فتحه فاتح وطرّق له مطرّق لم يملك من سده مثل الذى يملك من فتحه ، ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم من نفسه ، لأنه باب أصل بنائه على الخطأ ، ولا يخالطه من الأخلاق إلا ما سخف ، ومن شأنه التزيد وأن يكون صاحبه قليل التحفظ ، ولم نر شيئاً أبعد من شر ولا أطول له صحبة ولا أشد خلافاً ولا أكثر خلطاً من الجد والمزاح والمناظرة والمراء . قال القعقاع ابن شور : ليس لمزّاح مروءة ولا لمار خُلة . وقال معاوية: المزاح هو الشنار الأصغر[1].

---

(١) الشنار : أقبح العيب والعار.

وقال الحسن بن حى : المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى . وعاب عمر بعض العظماء[1] فقال : ذاك رجل فيه دُعابة . وقال الشاعر : «وجد القول يقدمه المزاح» وقال الآخر « رب كبير ساقه صغير » وقال الآخر « رب جد ساقه اللعب »

فان كنت لم أقصر عن الغاية ، ولم أتجاوز حد النهاية ، فبما أعرف من يمن مكاتبتك وبركة مكاتبتك ، ومن حسن تقويمك وجودة تثقيفك . وإن كنت قد أخطأت الطريق ، وجاوزت حد المقدار ، فما كان ذلك عن جهل بفضلك ولا إنكار لحقك ، ولكن حدود الأشياء إذا خفيت ومقاديرها إذا أشكلت ، ولم يكن مع الناظر فيها مثل تمامك ، ولا مع المتكاف لها مثل كمالك ، دخل عليه من الخلل بقدر عجزه ، وسلم منه بقدر نفاذه ، نعم ولو كان من العلماء الموصوفين والأدباء المذكورين .

ومن المُزاح جعلت فداك باب مكر وجنس خدع يتكل المرء فى إساءته إلى جليسه وإسماعه لصديقه على أن يقول : مزحت ؛ وعلى أن يقول عند المحاكمة : عبثت ، وعلى أن يقول : من يغضب من المزاح إلا كز الخلق ، ومن يرغب عن المفاكهة إلا ضيق العطن . وبعد فمتى أعدت النفس عذراً كانت إلى القبيح أسرع ومتى لم تجده كانت عنه أبطأ . ومن أسباب الغلط فيه ومن دواعى الخطأ إليه أن كثيراً ممن تمازحه يضحك وإن كنت قد أغضبته ، ولا يقطع مزاحك وإن كنت قد أوجعته ، فان حقد ففى الحقد الداء ، وإن عجل فذلك البلاء .

فان قلت : فما أدخلك فى شىء هذا سبيله وهكذا جوهره وطريقه ؟ قلت : لأنى حين أمنت عقاب الإساءة ووثقت بثواب الإحسان وعلمت أنك لا تقص إلا على العمد ، ولا تعذب إلا على القصد ، صار الأمن سائقاً والأمل قائداً . وأى عمل أردّ وأى متجر أربح مما جمع السلامة والغنيمة والأمن والمثوبة . ولو كان هذه ذنباً لكنت شريكى فيه ، ولو كان تقصيراً لكنت سببى إليه ، لأن دوام التغافل شبيه بالإهمال ، وترك التعريف يورث الإغفال ، والعفو المتتابع والبشر الدائم

١) قيل أن المقول فيه ذلك هو سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

يؤمنان من المكافأة و يذهبان بالتحفظ . ولذلك قال عيينة بن حصن لعثمان بن عفان رضى الله عنه : عمر كان خيراً لى منك ، رهبنى فاتقانى وأعطانى فأغنانى . فإن كنت اجترأت عليك فلم أجترىء عليك إلا بك ، و إن كنت أخطأت فلم أخطىء عليك إلا لك ، لأن حسن الظن بك والثقة بعفوك سبب فى قلة التحفظ وداعية إلى ترك التحرز .

و بعد ، فمن وهب الكبير فكيف يقف عند الصغير ، ومن لم يزل يعفو عن العمد كيف يعاقب على السهو ؟ ولو كان عظم قدرى هو الذى عظم ذنبى لكان عظم قدرك هو الذى شفع لى ، ولو استحققت عقابك باقدامى عليك مع خوفى لك لاستوجبت عفوك عن إقدامى عليك بحسن ظنى بك . على أنى متى أوجبت لك العفو فقد أوجبت لك الفضل ، ومتى أضفت إليك العقاب فقد وصفتك بالانصاف ، ولا أعلم حال الفضل إلا أشرف من حال العدل ، ولا الحال التى توجب لك الشكر إلا أرفع من الحال التى توجب لك الصبر . و إن كنت لا تهب عقابى لحرمتى فهبه لأياديك عندى ، فان النعمة تشفع فى النعمة ، فإن لم تفعل ذلك للحرمة فافعله لحسن الأحدوثة ، و إن لم تفعل ذلك لحسن الأحدوثة فعد إلى حسن العادة و إن لم تفعله لحسن العادة فأت ما أنت أهله . واعلم أنى و إياك متى تحاكمنا إلى كرمك قضى لى عليك ومتى ارتفعنا إلى عقلك حسن العفو عنى عندك . وفصل ما بيننا و بينك وفرق ما بين أقدارنا وقدرك أنا نسيء وتغفر ، ونذنب وتستر ، ونعوج وتقوم ، ونجهل وتحلم ، و إن عليك الإنعام وعلينا الشكر ، ومن صفاتك أن تفعل ومن صفاتنا أن نصف ، فإذا فعلت ماتقدر عليه من العقاب كنت كمن فعل مايقدر عليه من التعرض ، وصرت ترغب عن الشكر كما رغبنا عن السلم ، وصار التعرض لعفوك بالأمن باطلا ، والتعرض لعقابك بالخوف حقا ، ورغبت عن النبل والبهاء وعن السؤدد والسناء ، وصرت كمن يشفى غيظا أو يداوى حقداً أو يظهر القدرة أو يحب أن يذكر بالصولة . ولم نجدهم أبقاك الله يحمدون القدرة إلا عند استعمالها فى الخير ، ولا يذمون العجز إلا لما يفوت به من إتيان الجميل . وأنى لك بالعقاب وأنت

خير كلك ، ومن أين اعتراك المنع وأنت أبهجت الجود لأهله ، وهل عندك إلا مافى طبعك ، وكيف لك بخلاف عادتك ، ولم تستكره نفسك على المكافأة وطباعها الصفح ، ولم تكدّها بالمنافسة ومذهبها المسامحة ؟ ! فسبحان من جعل أخلاقك وفق أعراقك وقولك وفق عملك ، ومن جعل ظنك أكثر من يقيننا ، وفراستك أثبت من عياننا ، وعفوك أرجح من جهدنا ، و بداهتك أجود من تفكرنا ، وفعلك أرفع من وصفنا ، وغيبتك أهيب من حضور السادة ، وعتبك أشد من عقاب الظلمة . وسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المصرّ ، وتتغافل عن المبادىء ، وتصفح عن المتهاون ، حتى إذا صرت إلى من ذنبه نسيان وتو بته إخلاص وهفوته بكر وشفيعه الحرمة ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، ولا الأنعام إلا منك ، ولا العلم إلا من تأديبك ، ولا الأخلاقَ إلا من تقويمك ، ومن لم يقصر فى بعض طاعتك إلا لما رأى من احتمالك ، ولا نسى بعض ما يجب لك إلا لما داخله من تعظيمك ، صرت تتوعد بالصرم وهو دليل كل بلية ، وتستعمل الإعراض وهو قائد كل هلكة . وقد علمت أن عتابك أشد من الصريمة ، وأن تأنيبك أغلظ من العقوبة ، وأن منعك إذا منعت فى وزن إعطائك إذا أعطيت ، وأن عقابك على حسب ثوابك ، وأن جزعى من حرمانك فى وزن سرورى بفوائدك ، وأن شَين غضبك كزين رضاك ، وأن موت ذكرى بانقطاع سببى منك كحياة ذكرى مع اتصال سببى بك ، ومالى اليوم عمل أنا إليه أسكن ولا شفيع أنا به أوثق من شدة جزعى من عتبك و إفراط هلعى من خوفك ، ولست ممن إذا جاد بالصفح ومنّ بالعفو لم يكن لصاحبه منه إلا السلامة و إلا النجاة من الهلكة ، بل تُشفع ذلك بالمراتب الرفيعة والمطايا الجزيلة والعز فى العشيرة والهيبة فى الخاصة والعامة ، مع طيب الذكر وشرف العقب ومحبة الناس .

وأما ذكرى القد والخرط والطول والعرض وما بيننا و بينك فى ذلك من التنازع والتشاجر والتحاكم والتنافر ، فإن الكلام قد يكون فى لفظ الجد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد . ولو استعمل الناس الدُّعابة

فى كل حال والجد فى كل مقال وتركوا التسمح والتسهيل وعقدوا فى كل دقيق وجليل لكان السفه صراحا خيرا لهم، والباطل محضا أردّ عليهم. ولكن لكل شيء قدر ولكل حال شكل. فالضحك فى موضعه كالبكاء فى موضعه ، والتبسم فى موضعه كالقطوب فى موضعه،وكذلك المنع والبذل والعقاب والعفو وجميع القبض والبسط . فإن ذممنا المزاح ففيه لعمرى مايذم ، وإن حمدناه ففيه مايحمد . وفصل مابينه و بين الجد أن الخطأ إلى المزاح أسرع وحاله بحال السخف أشبه ، فأما أن يذم حتى يكون كالظلم وينفى حتى يصير كالغدر ، فلا. لأن المزاح مما يكون مرة قبيحا ومرة حسنا ، والظلم لا يكون مرة قبيحاً ومرة حسنا . فاذا ملنا إلى الجد ورغبنا عن الهزل وتركنا المُزاح وجلسنا للحكمة فقد أغناك الله عن الحجة كما سلمت من الشبهة ، ولم يكلفك الاحتجاج كما رغب بك عن الإعتلال ، فأصبحت لامحتجا ولامحجوجاً ، ولا عُذَلاً ولاموسوماًولا ملوماً ولامعذوراً، ولا فيك اختلاف ولا بك حاجة إلى ائتلاف ؛ وليس مع العيان وحشة ولا مع الضرورة وجمة (١) ولا دون اليقين وقفة . وهل فى تمامك ريب حتى تعالج بالحجة ؟ وهل رد فضلك جاحد حتى يثبت بالبينة ، وهل لك خصم فى العلم أو ند فى الفهم أو مجار فى الحكم أوضد فى العزم ؟ وهل يبلغك الحسد ،أوتضرك العين ،أو تسمو إليك المنى، أو يطمع فيك طامع ، أو يتعاطى شأوك باغ ؟ وهل يطمع فاضل أن يفوقك ، أو يأنف شريف أن يقصر دونك ، أو يخشع عالم أن يأخذ عنك؟ وهل غاية الجميل إلا وصفك؟ وهل زين البليغ إلا مدحك،وهل يأمل الشريف إلا اصطناعك؟ وهل يقدر الملهوف إلا غياثك ؟وهل للطلاب غرض سواك ؟ وهل للغوانى مَثَلٌ غيرك ؟ وهل الماتح رجز إلا فيك (٢) وهل يحدو الحادى إلا بذكرك ؟ فلولا أن يأخذ الواصف بنصيبه منك و بحصته من الصدق فيك ، و بسهمه من الشكر لك ، لكان الإطناب عندهم فى وصفك لغوا ، وكان تشقيق الكلام عجزاً ، ولكان تكلفه فضلا ، ومن هنا الذى يضعه أن

(١) الوجمة : الاسكاتة والوقفة مع الاستكراه .

(٢) الماتح : هو المستقي ، وكان العرب يتناشدون الاراجيز على أفوه الآبار .

يكون دونك ، أو يمتحن بالتسليم لك ، أو يعد إقراره إحسانا وخضوعه إنصافا ؟ وهل تقع الأبصار إلا عليك ؟ وهل تصرف الإشارة إلا إليك ؟ أم من الشبيه لك فى منزلتك ؟ ألست خلف الأخيار وبقية الأبرار ؟ وأى أمرك ليس بغاية ، وأى شيء منك ليس فى النهاية ؟ وهل فيك شيء يفوق شيئاً أو يفوقه شيء أو يقال لو لم يكن كذا لكان أحسن أو لو كان كذا لكان أتم ؟ وأين الحسن الخالص والجمال الفائق والملح المحض والحلاوة التى لا تستحيل والتمام الذى لا يحيل إلا فيك أو عندك أو لك أو معك ، خالصة لك ومقصورة عليك ، لا تليق إلا بك ولا تحسن إلا فيك ، فلك منه الكل وللناس البعض ، ولك الصافى وللناس المشوب ؛! هذا سوى الغريب الذى لا نعرفه ، والبديع الذي لا نبلغه ، لا بل أين الحسن المصمت ، والجمال المفرد ، والقد العجيب ، والكمال الغريب ، والملح المنثور ، والفضل المشهور إلا لك وفيك ؟ وهل على ظهرها جميل حسيب أو عالم أريب إلا وظنك أكبر من شخصه ، وظنك أكثر من علمه ، و إسمك أفضل من معناه ، وحكمك أثبت من نجواه ، وصمتك أفضل من نجواه ؟ وهل فى الأرض حليم سواك ، وهل أظلت الخضراء ذا لهجة أصدق منك ، وهل حملت النساء أجل منك !

ولربما رأيت الرجل حسناً جميلا وحلوا مليحاً وعتيقاً رشيقاً وفخما نبيلا ثم لا يكون موزون الأعضاء ولا مقدود الأجزاء ، وقد يكون أيضاً الأقدار متساوية غير متقاربة ولا متفاوتة ، و يكون قصداً ومقداراً عدلا ، و إن كانت هناك دقائق خفية لا يراها إلا الألمعى ، ولطائف غامضة لا يعرفها إلا الذكي . فأما الوزن المحقق والتعديل المصحح والتركيب الذى لا يفضحه التفرس ولا يحصره التعنت ولا يتعلل جاذبه ولا يطمع فى التمويه ناعته ، فهو الذى خصصت به دون الأنام ودام لك على الايام . وكذا الحسن إذا كان حراً مرسلا وعتيقاً مطبقاً لا يتحكم عنيه الدهر ولا يذيله الزمان ولا يحتاج إلى تعليق التمائم ولا إلى الصون والكن ولا إلى المناقش والكحل ، ولو لم يكن لحسن وجهك إلا أنه قد سُهل فى العيون تسهيلا وحُبب إلى القلوب

تحبيبا وقُرب إلى [illegible]يبا ، حتى امتزج بالأرواح وخالط الدماء وجرى فى العروق وتمشى فى العظم بحيث لا يبلغه السم ولا الوهم ولا السرور الشديد ولا الشراب الرقيق ، لكان فى ذلك المزية الظاهرة والفضيلة البينة . ولو لم يكن لك إلا أنا لا نستطيع أن نقول فى الجملة وعند الوصف والمدحة : هو أحسن من القمر وأضوأ من الشمس وأبهى من الغيث ، ولهو أحسن من يوم الحلبة ، وأنا لا نستطيع أن نقول فى التفاريق : كأن عنقه إبريق فضة ، وكأن قدمه لسان حية ، وكأن وجهه ماوية ، وكأن بطنه قبطيه ، وكأن ساقه برديه ، وكأن لسانه ورقة ، وكأن أنفه حد سيف ، وكأن حاجبه حط بقلم ، وكأن لونه الذهب ، وكأن عوارضه البرد وكأن فاه خاتم ، وكأن جبينه هلال ، ولهو أطهر من الماء وأرق طباعا من الهواء ، ولهو أمضى من السيل وأهدى من النجم ، لكان فى ذلك البرهان النير والدليل البين . وكيف لا تكون كذلك وأنت الغاية فى كل فضل ، والنهاية فى كل شكل .

وأما قول الشاعر :

يَزِيدُكَ وَجهُهُ حُسْنًا   إذَا ما زِدتَهُ نَظَرا

وقول الدمشقيين: ما تأملنا قط تأليف مسجدنا وتركيب محرابنا وقبة مصلانا إلا أثار لنا التأمل واستخرج لنا التفرس غرائب حسن لم نعرفها وعجائب صنعة لم نقف عليها ، وما ندرى أجواهر مقطعاته أكرم فى الجواهر أم تنضيد أجزائه فى تنضيد الأجزاء . فان ذلك معنى مسروق منى فى وصفك ومأخوذ من كتبى فى مدحك . والجملة التى تنفى الجدال وتقطع القيل والقال أنى لم أرك قط إلا ذكرت الجنة ، ولا رأيت أجمل الناس فى عقب رؤيتك إلا ذكرت النار . والعجب أيها السامع أنى مقصر ، و إذا رأيته علمت أنى فيما يجب له مفرط ، وهو رجل طينته حرة وعرقه كريم ومغرسه طيب ومنشؤه محمود ، غذى بالنعمة وعاش فى الغبطه وأرهفه التأديب ولطفه طول التفكير وخامره الأدب وجرى فيه ماء الحياء وأحكمته التجارب وعرف العواقب ، فأفعاله كأخلاقه ، وأخلاقه كأعراقه ، وعادته كطبيعته

وآخره كأوله . تحكى اختياراته التوفيق ومذاهبه التسديد : لا يعرف التكلف ويرغب عن التجوز وينبل عن ترك الإنصاف ، ولا يمتنع عليه معرفة المبهم ولا يلتحج (١) باستبانة المشكل ، يتخير من الألفاظ أرقها مخرجا ومن المعانى أدقها مسلكا ، وأحسنها قبولا ، وأجودها وقوعا وأتمها إطاعاً ، بأقوى الكلام وأوجزه وأعذبه وأحسنه ، يقلل عدد حروفه ويكثر عدد معانيه . ومن الفعل بعد ذلك أكمله تحقيقاً . إذا أقبل هبناه ، وإذا أدبر اغتبناه ، مع تمكنه وعقله وسعة صدره . وبعد ولا يعرف الشك إلا فى غيره ولا العى إلا سماعاً . فمن يطمع فى عيبك بل من يطمع فى قدرك ؟ وكيف وقد أصبحت وما على ظهرها خَوْدٌ إلا وهى تعثر باسمك ، ولا قينة إلا وهى تغنى بمدحك ، ولا فتاة إلا وتشكو تباريح حبك ، ولا محجوبة إلا وهى تُنقب الخروق لمرك ، ولا عجوز إلا وهى تدعو لك ، ولا غيور إلاوقد شقى بك ، فكم من كبد حرّى منضجة ، ومصدوعة مفرثة ، وكم من حشا خافق ، وقلب هائم ، وكم عين ساهرة وأخرى جامدة وأخرى باكية ، وكم عَبْرَى مولهة ، وفتاة معذبة ، قد أقرح قلبها الحزن وأجمد عينها الكمد ، قد استبدلت بالحَلْيِ العُطلة ، وبالأنس الوحشه ، وبالتكحيل المره ، فأصبحت والهة مبهوتة ، وهائمة مجهودة ، بعد طرف ناصع ، وسن ضاحك ، وغُنج ساحر ، وبعد أن كانت ناراً تتوقد ، وشعلة تتوهج ؟

وليس حسنك أبقاك الله الحسن الذى تبقى معه توبة ، أوتصح معه عقيدة ، أو يدوم معه عهد ، أو يثبت معه عزم ، أو يمهل صاحبه التثبت ، أو يتسع للتخير ، أو ينهنهه زجر ، أو يهذبه خوف . هو أعزك الله شىء ينقض العادة ، ويفسخ المُنَّة ، ويعجل عن الروية ، ويطرح بالعرا ، وتنسى معه العواقب ، ولو أدركك عمر بن الخطاب لصنع بك أعظم مما صنع بنصر بن الحجاج ، ولركبك بأعظم مما ركب به جعدة السلمى ، بل لدعاه الشغل بك إلى ترك التشاغل بهما ، والغيظ عليك إلى الرحمة

(١) لا يلتحج : لا يعيا ولا يضطرب ولا يختلط .

لها . فمن كان عيب حسنه الإفراط عليه من جهة الزيادة ، كيف يرومه عاقل أو ينتقصه عالم . فلا تعجب إن كنت نهاية الهمة وغاية الأمنية ، فان حسن الوجه إذا وافق حسن القوام ، وجودة الرأى ، وكثرة العلم ، وسعة الخلق ، والمغرس الطيب ، والنصاب الكريم ، والطرف الناصع ، واللسان البين ، والنعمة البهجة والمخرج السهل ، والحديث الموتق ، مع الإشارة الحسنة ، والنبل فى الجلسة ، والحركة الرشيقة ، واللهجة الفصيحة ، والتمهل فى المحاورة ، والهذ عند المناقلة ، والبديه البديع ، والفكر الصحيح ، والمعنى الشريف ، واللفظ المحذوف ، والإيجاز يوم الإيجاز ، والإطناب يوم الاطناب ، يفل الحز ، ويصيب المفصل ، ويبلغ بالعفو ما يقصر عنه الجهد ، كان أكثر لتضاعف الحسن ، وأحق بالكمال والحمد . والتاج بهىّ ، وهو على رأس الملك أبهى ، والياقوت كريم حسن ، وهو على جيد المرأة الحسناء أحسن ، والشعر الفاخر حسن ، وهو من فم المنشد أحسن ، وإن كان قول المنشد فريضة من نَحْتِهِ ومختبره فقد بلغ الغاية وقام على النهاية .

وما ندرى فى أى الحالين أنت أجمل ، وفى أى المنزلتين أنت أكمل ، إذا فرقناك أم إذا جمعناك ، وإذا ذكرنا كلك أم إذا تأملنا بعضك ؟ فأما كفك فهى التى لم تخلق إلا للتقبيل والتوقيع ، وهى التى يحسن بحسنها كل ما اتصل بها ، ويختال بها كل ما صار فيها ؛ كما أصبحنا وما ندرى : ألكأس فى يدك أحسن أم القلم أم الرمح الذى تحمله ، أم المخصرة أم العنان الذى تمسكه ، أم السوط الذى تعلقه . وكما أصبحنا وما ندرى أى الأمور المتصلة برأسك أحسن وأيها أجمل وأشكل ، اللِّمة أم مِخَطّ اللحية ، أم الإكليل أم العصابة أم التاج ، أم العمامة ، أم القناع ، أم القلنسوة ! فأما قدمك فهى التى يعلم الجاهل كما يعلم العالم ويعلم البعيد الأقصى كما يعلم القريب الأدنى ، انها لم تخلق إلا لمنبر ثغر عظيم ، أو ركاب طِرْفٍ كريم . أما فوك فهو الذى لا ندرى أى الذى تتفوه به أحسن ، وأىّ الذى يبدأ به أجمل : الحديث ، أم الشعر ، أم الاحتجاج ، أم الأمر والنهى ، أم التعليم والوصف . وعلى أننا ما ندرى أى ألسنتك أبلغ ، وأى بيانك أشفى ، أقلمك

أم خطك ، أم لفظك ، أم إشارتك ، أم عقدك . وهل البيان إلا لفظ أو خط أو إشارة أو عقد ؟ وأنت فى ذلك فوقهم والحمد لله ، وواحدهم وأعيذك بالله ، وأنت تجوز الغاية ، وتفوق النهاية .

وقد علمنا أن القمر هو الذى يضرب به الأمثال . ويشبه بة أهل الجمال وهو مع ذلك يبدو ضئيلا نضواً ، ويظهر معوجاً شختاً [1] وأنت أبداً قمر بدر وفخم غمر . ثم مع ذلك يحترق فى السرار ويتشاءم به فى المحاق ، ويكون نحساً كما يكون سعداً ، ويكون نفعاً كما يكون ضراً ، ويقرض الكتان ، ويشحب الألوان ، ويخمّ فيه اللحم . وأنت دائم اليمن ، ظاهر السعادة ، ثابت الكمال ، شائع النفع ، تكسو من أعراه ، وتكن من أشحبه ، وعلى أنه قد محق حسنه المحاق وشانه الكلف ، وليس بذى توقد واشتعال ولا خالص البياض ولا متلألىء ، ويعلوه برد ويكسوه ظل الأرض . ثم لايعتريه ذلك إلا عند كماله وليلة فخره واحتفاله ، وكثيراً ما يعتريه الصفار من بخار البحار . وأنت ظاهر التمام ، دائم الكمال ، سليم الجوهر ، كريم العنصر ، نارى التوقد ، هوائى الذهن ، درى اللون ، روحانى البدن . وإن احتجوا عليك بالجزر والمد ، احتججت عليهم بالعلم والحلم ، وبأن طاعتك اختيار واعتبار ، وطاعته طباع واضطرار ، وبأن له سيرة قد قصر عليها ، ومنازل لايجاوزها ، ولا تمكنه البدوات ، وليس فى قواه فضل للتصرف ، وعلى أن ضياءه مستعار من الشمس ، وضياؤك عارية عند جميع الخلق . فكم بين المعير والمستعير ، والمتبين والمتحير ، وبين العالم وما لا حس فيه . ولا زالت الأرض بك مشرقة ، والدنيا معمورة ، ومجالس الخير مأهوله ، ونسيم الهواء طيباً ، وتراب الأرض عبقاً . إن تفتيت فالرشاقة والملح ، وإن تمسكنت فالرهبانية والاخلاص ، وإن ترزنت « فثهلان ذو الهضبات ما يتحلحل » .

وطباعك جعلت فداك طباع الخمر إلا أنك حلال كلك ، وجوهرك جوهر

---

(١) الشخت : الدقيق الضامر

الذهب إلا أنك روح كما أنت . وقد حويت خصال الياقوت إلا ما زادك الله عليه ، وأخذت خصال المشترى إلا ما فضلك الله به ، وجمعت خلال الدر إلا ما خصصت به دونه . فلك من كل شيء صفوته ولبابه وشرفه وبهاؤه . وهل يضر القمر نباح الكلب ، وهل يزعزع النخلة سقوط البعوضة عليها . ؟

فأما القول فى المزاح فقد بقى أكثره ومضى أقله . وقد ذهب الناس فى المزاح إلى مذاهب متضادة ، وسلكوا منه فى طرق مختلفة . فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد . وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان ، وأن الحمد والذم بينهما نصفان .

وسنأتى على هذه الأقاويل ثم نذكر ما نقول إن شاء الله .

فأما المحامى على الهزل والمفضل للمزح فانه قال : أول ما أذكر من خصال الهزل ومن فضائل المزح أنه دليل على حسن الحال وفراغ البال ، وأن الجد لا يكون إلا من فضل الحاجة ، والمزح لا يكون إلا من فضل الغنى . وأن الجد غضب والمزح جمام . والجد مبغضة والمزح محبة . وصاحب الجد فى بلاء ما كان فيه وصاحب المزح فى رخاء إلى أن يخرج منه . والجد مؤلم وربما عرضك لأشد منه ، والمزح ملذ وربما عرضك لألذ منه . فقد شاركه في التعريض للخير والشر ، وباينه بتعجيل الخير دون الشر . وإنما تشاغل الناس ليفرغوا ، وجدوا ليهزلوا ، كما تذللوا ليعزوا وكدوا ليستريحوا . وإن كان المزاح إنما صار معيباً ، والهزل إنما صار مذموماً لأن صاحبه لا يكون معرضاً لمجاوزة القدر ومخاطراً بمودة الصديق . فالجد داعية إلى الإفراط كما أن المزاح داعية إلى مجاوزة القدر . والتجاوز للحد قاطع بين القرينين في جميع النوعين . فقد ساواه المزاح فيما هو له وباينه فيما ليس له . وإن كان المزح قبيحاً لأنه يورث الجد ، فأقبح من المزح ما صير المزح قبيحاً ، لأن الذى يكون بعده الجد ، ولم يصير الجد قبيحاً لأن الذى بعده المزح ، كان الجد فى هذا الوزن أقبح من المزح ، وكان المزح على هذا التقدير أحسن من الجد ، لأن ما جعل الشيء قبيحا أقبح من الشيء ، كما أن ما جعل الشيء حسنا أحسن من الشيء .

وأما الذي عدل بينهما فإنه زعم أن المزح في موضعه كالجد في موضعه ، كما أن المنع في حقه كالبذل في حقه . قال : ولكل شيء موضع وليس شيء يصلح في كل موضع . وقد قسم الله الخير على المدلة ، وأجرى جميع الأمور إلى غاية المصلحة ، وقسط أجزاء المثوبة على العزيمة والرخصة وعلى الإعلان والتقية ، فأمر بالمداراة كما أمر بالمباداة ، وجوز المعاريض كما أمر بالإفصاح ، وسوغ في المباح كما شدد في المفروض، وجعل المباح جماما للقلوب وراحة للأبدان وعونا على معاودة الأعمال . فصار الإطلاق كالحظر والصبر كالشكر . وليس للإنسان من الخيرة في الذكر شيء إلا وله في النسيان مثله ، ولا في الفطنة شيء إلا وله في الغفلة مثله ، ولا في السراء شيء إلا وله في الضراء مثله ، ولو لم يرزق الله العباد إلا بالصواب محضا وبالصدق صرفا وبمر الحق صفحا ، لهلك العوام وانتقض أمر الخواص . ولو ذكر الإنسان كل ما أنسيه لشقي ، ولو جد في كل شيء لانتكث . وقد يكون الذكر إلى الهلكة سلما كما يكون النسيان للسلامة سببا . وسبيل المزاح والجد كسبيل المنع والبذل . وعلى ذلك مجرى جميع القبض والبسط . فهذا وما قبله جمل أقاويل القوم .

ونحن نعوذ بالله أن نجعل المزح في الجملة كالجد في الجملة ، بل نزعم أن بعض المزح خير من بعض الجد ، وعامة الجد خير من عامة المزح ، والحق أن ينضح عن بعض المزح ويحتج لجمهور الجد ، وكيف لنا بذم جميع المزح مع ما نحن ذاكرون قال الشاعر : « وَذُو بَاطِلٍ إن شِئتَ أَلْهَاكَ باطِلُهُ » وقال آخر :

أَخُو الجِدِّ إن يَجِدِ فَمَا مِنْ وَتيرةٍ لَدَيه وإنْ يهزِلْ يُعَلِّلكَ باطِلُهُ

وإن كانوا قد تسموا بعابس وعباس وشتيم وكالح وقاطب وحرب ومرة وصخر وحنظلة وحزن وحجر وقرد وخنزير ، فقد تسموا بالضحاك والبطال وبسام وهزال ونشيط . وقد مزح رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا يقال كان فيه مُزاح، وكذلك لا يقال مزّاح . وكذلك الأئمة ومن هزل في بعض الحالات من أهل الحلم والوقار . فمما روى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « يا أبا عُمير ما فعل النُّغير » وقوله : « لا تدخل الجنة عجوز »

وقوله : « زوجك الذى فى عينيه بياض » وقد كان على رضى الله عنه يمزح . وقال عمر: إنا إذا خلونا كنا كأحدكم. وقد كان عمر عبوسا قطوبا . وقد كان زياد مع كلوحه وقطوبه يمازح أهله فى الخلا كما يجد فى الملا . وكان الحجاج مع عتوه وطغيانه وتمرده وشدة سلطانه يمازح أزواجه و يرقص صبيانه . وقال له قائل : أيمازح الأمير أهله ؟ فقال: والله إن ترونى إلا شيطانا ، والله لربما رأيتنى و إنى أقبل رجل إحداهن!

فقد ذكرنا خير العالمين وجلة من خيار المسلمين وجباراً عنيدا وكافراً لعينا

و بعد ، فمن حرم المُزاح وهو شعبة من شعب السهولة وفرع من فروع الطلاقة ! وقد أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ولم يأتنا بالانقباض والقسوة وقد أمرنا بإفشاء السلام وبالبشر عند التلاقى وأمرنا بالتوادد والتصافح والتهادى. قالوا : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك تبسما . وقالوا : كان لا يستغرق ضحكا . وقال : « دفقوا على صاحبكم » . وقال : «هذه أيام أكل وشرب وتملل» وسمع جوارى تضرب الكَبَر[1] عند عائشة فلم ينكره . وضحك من قيافة مُجَزِّز المدلجى ، ومن الأعرابى صاحب الدجال .

قد اعتذرنا فى معصيتك والخلاف على محبتك مرة بالمزح ومرة بالنسيان ، ومرة بالاتكال على عفوك وعلى ماهو أولى بك . على أنى لم أرد بمزاحك إلا ضحك سنك ؛ إنظر هل هرمتُ إلا فى طاعتك ، وهل أخلقنى إلا معاناة خدمتك ؟ وفى الجملة إنا لوتعمدنا ثم أصررنا ثم أنكرنا لكان فى غضلك ما يتغمدنا ، وفى كرمك ما يوجب التغافل عنا . فكيف وإنما سهونا ثم تذكرنا ثم اعتذرنا ثم أطنبنا ، فان تقبل فحظك أصبت ولنفسك نظرت ، وإن لم تقبل فاجهد جهدك ثم اجهد جهدك ، ولا أبقى الله عليك إن أبقيت ، ولا عفا عنك إن عفوت ، وأقول كما قال أخو بنى منقر :

فما بقّيا علىّ تركتُمانى ولكنْ خِفتُما صَرَدَ النبال

(١) الكبر : الطبل له وجه واحد

والله لئن رميتني ببجيلة لأرمينك بكنانة [١] ، ولئن نهضت بصالح بن علي لأنهضن بأحمد بن خلف وباسماعيل بن علي ، ولئن صلت عليّ بسليمان بن وهب لأدمغنك بالحسن بن وهب ، ولئن تهت علي بمنادمة جعفر الخياط لأتيهن عليك بحسة وهب الدلال ! وأنا أرى لك أن تقبل العافية وترغب الى الله تعالى في طول السلامة ، واحذر البغي فان مصرعه وخيم ، واتق الظلم فان مرعاه وبيل ، وإياك أن تتعرض لجرير إذا هجا ، وللفرزدق إذا فخر ، ولهرثمة إذا دبر [٢] ولقيس بن زهير إذا مكر ، وللأغلب إذا كر [٣] . ولطاهر إذا صال [٤] ، ومن عرف قدره عرف قدر خصمه ، ومن جهل قدر نفسه لم يعرف قدر غيره .

وقد رعيت لك حق نبيذك وحسن شرابك وإن كان فوق العيوق ودونه بيض الأنوق ، وحق توتياتك وإن بعثت به ممزوجا فكيف لو بعثت به خالصا . وعليك بالجد فانه خير لك ، ودع البيات فانه أمثل بك ، فأنت والله يا أخي تعلم علم الاضطرار وعلم الاختيار وعلم الإخبار أني أشد منك عقلا ، وأظهر منك حزما وألطف كيدا ، وأكثر علما ، وأوزن حلما وأخف روحا ، وأكرم عينا ، وأقل غشا ، وأجل قدا وأبعد غورا ، وأجمل وجها ، وأنصع ظرفا ، وأكثر ملحا ، وأنطق لسانا ، وأحسن بيانا وأجهر جهارة ، وأحسن إشارة . وأنت رجل تشدو من العلم وتنتف من الأخبار ، وتموه نفسك ، وتغر من قدرك ، وتتهيأ بالثياب ، وتتنبل بالمراكب ، وتتحبب بحسن اللقاء . ليس عندك إلا ذلك . فلم تزاحم البحار بالجداول ، والأجسام بالأعراض ، وما لا يتناهى بالجزء الذي لا يتجزأ .. ! ؟

فأما الباد والقامة فمن يعدل بين القناة والكرة ، ومن يمثل بين النخلة والدكان وبين رحى الطحان وسيف يمان ! وإنما يكون التمثيل بين أتم الخيرين وأنقص الشرين ، وبين المتقارب بين دون المتفاوتين ، فأما الخل والعسل والحصاة

(١) بجيلة : قبيلة يمانية ومنها احمد بن عبدالوهاب . وكنانة قبيلة الجاحظ .
(٢) هو هرثمة بن أعين احد قواد الدولة العباسية وله شأن في وقعة الامين والمأمون .
(٣) والاغلب احد قواد الدولة العباسية وكان اميرا على إفريقية .
(٤) هو طاهر بن الحسين كان من اكابر قواد الدولة العباسية وفتح بغداد للمأمون وقهر الامين .

والجبل ، والسم والغـذاء ، والفقر والغنى ، فهذا ما لا يخطئ فيه الذهن ولا يكذب فيه الحس ، والخطأ ثلاث : خطأ الحس ، وخطأ الوهم ، وخطأ الرأى ، كل ذلك سبيله التنبيه والتذكير والتقويم والتأنيب ، والعمد نوع واحد وسبيله القمع والحظر والضرب والقتل ، وأول ذلك أن يهجره صاحب الحكمة ولا يطمعه فى وعظ ولا مجالسة . وقد رأيت من يعاند الحق إذا كانت المعرفة به استنباطاً ، ولم أر من يعاند الحق إذا كانت المعرفة به عيانا . وأنت لاترضى بجحد العيان حتى تدعو اليه ، ولا ترضى بالدعاء إليه حتى تعادى فيه ، ولا ترضى بالعداوة فيه حتى تكون لك فيه الرآسة ، ولا ترضى بالرآسة دون السابقة ، ولا بالطارف دون التالد ، ولابالتالد دون الأعراق التى تسرى والمواليد التى تنمى ، ولا ترضى أن تكون أولا حتى تكون آخراً ، ولا بالمداراة دون المباداة ، ولابالجدال دون القتال . وحتى ترى أن التقية حرام ، وأن التقصير كفر .

وحتى لو كنت إمام الرافضة لقُتلت فى طرفة ، ولو قُتلت فى طرفة لهلكت الأمة . لأنك رجل لا عقب لك ، والإمامة اليوم لاتصلح فى الاخوة ولو صلحت فى الاخوة كانت تصلح فى ابن العم ، ثم إنها دنت من الأرحام بعد ذلك فصارت لاتصلح إلا فى الولد ، وفى هذا القياس إنها بعد أعوام لا تصلح إلا ببقاء الامام نفسه آخر الأبد . وهذا هو علة أصحاب التناسخ وأنت رافضى ، ولم يكن هذا عندك . فاهد إلى الآن من خالص التوتياء كما أهديت اليك باب التناسخ . وأنت ترى القتل فى حق المعاندة شهادة ، وتري أن مباينة المنصفين فى تعظيم العنود سعادة ، وأن الرئاسة فى دفع الحقائق مرتبة ، وأن الإقرار بما يظهر للعيون ضعة ، وأن الشهرة بالمبالغة رفعة . أظهر القوم عندك حجة أرفعهم صوتا ، وأخلقهم للمثوبة أصلبهم وجها ، وأحسنهم تقية أقلهم حرجا ، وأكثرهم عندك إنصافا أشدهم شغبا . تعشق المتهور وتكلف بالجموح وتصافى الوقاح . والأديب عندك من عاب أحاديث الجلساء ، واعترض على نوادر الإخوان ، وغمز فى قفا النديم ، ونصب للعالم ،

وأبغض العاقل ، واستثقل الظريف ، وحسد على كلّ نعمة ، وأنكر كل حقيقة .

جعلت فداك ، إنما أخرجك من شيء إلى شيء ، وأورد عليك الباب بعد الباب ، لأن من شأن الناس ملالة الكثير واستثقال الطويل وإن كثرت محاسنه وجمت فوائده ، وإنما أردت أن يكون استطرافك للآتي قبل أن ينقضي استطرافك الماضي ، لأنك متى كنت للشيء منتظرا وله متوقعا كان أحظى لما يرد عليك وأشهى لما يهدى إليك ، وكل منتظر معظم ، وكل مأمول مكرم . كل ذلك رغبة في الفائدة ، وصبابة بالعلم ، وكلفا بالاقتباس ، وشحا على نصيبي منك ، وضنا بما أؤمله عندك ، ومداراة لطباعك ، واستزادة من نشاطك . ولأنك على كل حال بشر ، ولأنك متناهي القوة مدبر .

خبرني : كيف كانت خدائع المتنبئين ، ومخاريق الكذابين ممن قد كان ترشح للتنبؤ ، ومن لم يظهر دعوته ، ومن دعا واجتهد ، ومن أجيب ، ومن لم يجب . وصف لي أبواب مصايدهم وأجناس كيدهم وحيلهم ، وعن اعتمادهم على المواطأة ، وعن تقدمهم في الحجة ، وعمن ذهب في طريق التفهم ، وعن أصحاب الزَّجر والتنجيم ، وعن أصحاب الاسترحام ، وعن إظهار الزهد وتحريم الاستمتاع ، ومن وافق صورته وحاله بعض ما في البشارات المتقدمة وما في الكتب الصحيحة ، ومن اتفق له غير ذلك من الشبهة . فقل في شيث بن آدم ، وقل في زرادُشت ، وفي ماني ، وفي فولس ، وفيما ادُّعِيَ لمرقس ومتّى ولوقا ويوحنا . وخبرني عن الأسود العَنْسي ، ومُسيلمة الحنفي ، وطُليحة الأسدي ، وبنت عقُفان ، وربعي ، وأمية بن أبي الصلت ، وما قصة الطائرين الأخضرين ، وما كان شأن الرماح . وخبرني عن سُلمي بن جندل ، وما قال الهند في نزول البدّ ، وقصة ابن ديصان ، وما قول عبدة الكيان وعباد قوة الهيولى وأصحاب البيضة ، ومن عبد النجوم وثبت لها الحس والعلم والنفع والضر ، ومن جعل كل داع إلى الله بالصواب والعدل وصلة الرحم ونفي الجهل نبياً ، ومن أنكر أصل النبوة البتة ، وما تقول في حنظلة

ابن صفوان ، وخالد بن سنان ؟ وقل فى الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها ، وهل يجوز أن يكفر نبي أو يشرك أو يضل بعد هدايته ، ويصير عدواً بعد ولايته ، ويدل الله على كذبه كما دل على صدقه ؟ وكيف صار النبي عندكم يعصى ويخطىء والإمام لايعصى ولا يخطىء ؟ وكيف ساغ ذلك فى جميع النبيين وأمكن فى جميع المرسلين ، على كثرة عدد النبيين والمرسلين ، ولم يجز ذلك فى إمام واحد مع قلة عدد الأئمة مذ كانوا ؟

وخبرنى : لِمَ تنصر النعمان ويزيد بن الحارث ، وتهود ذو نواس ، وتمجست ملوك سبأ ؟ وكيف صارت العرب فرقا بين مُحِلٍّ ومُحرم وأحمسى ، سوى تفرقهم فى الملل ؛ وكيف لم نر أمة قط دهرية وقد علمنا أنه لا يجوز أن يتنبأ دهرى ؟ وكيف لم يتدهر ملك ، وكيف لم نجد قول الدهرية إلا فى الخاص والشاذ والرجل النادر ؟ ولم كان لجميع أهل الأديان مملكة وملوك إلا الزنادقة ؟ ولم قتلهم جميع الأمم السالفة ؟ ولم قضيت بهذا وقد رأينا المصدقيةَ والدِّينَاوَرِيَّةَ والتغزغزية ! فان قلت : لأن من لم يكن من دينه القتال ولا من غريزته البأس فهو مسلوب أو مُسترَق ، فما بال الروم تمنع أن تسترق وأن تسلب وليس من دينهم قتال ولا جدال ولا مكافأة ولا دفع .

جعلت فداك ، أين كان عبد الله بن هلال الحميرى صديق إبليس من كردباش الهندى ، وأين كان يقع منهما صالح الديبرى ، وأين عبيد مُج من البطيحى ، وأين عبد الوارث من الهُجيمى ، وأين كان أبو منصور فى المخاريق من جرمى ، وأين باءونة من حَسْدَه ، وأين قِشة اليهودى من كُشة ، وما فصل ما بين الكهانة والشعبذة ، وما فصل ما بين الحازى والعراف ، وأين كان عزّى سلمة من سطيح الذئبى ، وأين كان الأبلق الأسدى من رياح بن كهيلة ، وأين كاهن سعد هذيم من حُليس الخطاط . وحدثنى عن ساحرة حفصة وساحرة عائشة أقتلتاها باقرار منهما أم بمعرفة منهما بكيفية السحر ؟ . وحدثنى عن صاحب جُنْدَب ابن زهير باقرار قتله أم عن معرفة منه بمعنى السحر ؟ . وهل ثبت جعلت فداك

أن النبي صلى الله عليه وسلم سُحر فى جُف طَلعة ووضع تحت راعوفة البئر أم لا ؟

وخبرنى : ما البحر باى ، وما البارباى ، وما الكروريات ، وما الخواتيم ، وما المناديل والسعي والأمر الذى كان فى خاتم سليمان ، وما السكينة التى كانت فى التابوت ، فقد اختلف المفسرون فيها وزعموا أنها كانت رأس هر . وما سعسف ياسينية، وماالفتل، وما التوجيه ؟ وخبرنى : ما تأويل الزّمزمة، وما فَعل المال الذى من أخذ منه ندم ومن لم يأخذ منه ندم . وخبرنى عن قول الخليل فى الوهم القديم ؟

وخبرنى جُعلت فداك عن قولك فى الشعر الذى تنشده فى المنام مما لم نسمع بأجود منه فى اليقظة ، وعن الشعر الذى تخترعه عن مناقلة الكلام وموازنة الأمور وحال النوم ، وحال الآفة والنقص وصاحبة مغمور أم شبيه بالمغمور ولا يجرى عليه قلم ولا يلام ولا يشكر ، ولم صرنا نتذكر الشيء المهم فلا نقدر عليه حتى ندعه فآيسنا منه أجمع ما نكون أنفساً وأحسن مانكون تذكراً ، ثم يعارضنا ويخطر على بالنا فى حال سهر أو في حال نوم وأغنى ما نكون عنه وأقل ما نكون احتفالا به ! ولم صرنا ننسى من القصيدة بيتاً أو آية من جميع السورة أو كلمة من جميع كلام الخطبة ، ولم صار البلغم بالباء أولى منه بالتاء ، ولم كانت المِرَّةُ السوداء بالجيم أولى منها بالحاء ، وكذلك القلب المانع من الحفظ . وهل بد للحقيقة من خصائص أسباب وأعيان علل ؟ و إلا فقد يجوز أن تنسى هذه القصيدة بدل تلك ، ولم صار بعض الناس أحفظ للنسب وبعضهم أحفظ للاسناد ، وبعضهم أحفظ للمعانى ، و بعضهم أحفظ للألفاظ . ولم صرنا لا ننسى السباحة وبالاكتساب عرفناها والعادة أن المكتسب قد ينسى و يجهل ، وأن الضروريات لا تجهل . وقل لى لم لم تضرب السامرى ، ولم لم تعض مانى وتعضه ، ولم لم تبزق فى وجه فرعون . أم إن الطبيعة التى هيبتك من هِشام بن خلف بن قوالة الكنانى حين قال على رأس النعمان وأنت رجل يمان هى التى منعتك من أن تبزق فى وجه فرعون وأنت سمعته يقول : «وما رب العالمين» ؟ ولم أزعم أنك رجل يمان لولادة لك فى قحطان، كيف وأنت أقدم من قَحطان ومَعد بن عدنان ، ومن القرون التى خبر الله عن كثرتها وعن آبائها

وأجدادها ! ولكنك منهم بالهوى والنصرة ، ولأنهم كانوا لك أحشاماً وصنيعة .

وقل لم صار جميع الحيوان يسبح إلا الانسان والقرد والعقرب والفرس الأعسر؟ وأى شيء عندك فى آصف ، وفى سفر آدم ، وفى جراب موسى ، وفى درسب ، وفى شنلة ، وفى كتاب الأسماء ، وفى قولهم دعا فلان باسم الله الأعظم ، وما تقول فى ابن عقيب ، وفى أشج بن عمرو ، وفى شعيب وصالح ، وفى السفيانى ، وفى الأصفر القحطانى .

وخبرنى جعلت فداك مذ كم صنعت حساب المسرح ، ومن صاحب خطوط الهند ، وأين كتب قوم صنعة السند هند والاركند وحساب كلا سفر ؟ ومذ كم عمل الباب الجامع ، ومذ كم عمل الارتماطيقى ، ومن سمى الجبر بالجبر ، والجذر بالجذر ، والنشاذر بالبارود ، والاكدرية من أى شيء اشتقت ، وما تأويل الدحال ، وما تأويل الجمل ، ومن أول من عد إلى عشرة وجعل العشرة منتهى وغاية ، ثم ضاعفها وجعل غايات الأعداد عشر العشرات وعشرات عشرات العشرات أبداً ، ثم كسر على العشرة مما دون أعدادها ، لأن الأصابع عشرة ، وكيف لم يجعل الغاية ما له نصف وثلث وربع وسدس وثمن ، أم رأى أن التضعيف أبداً لا يكون إلا للعشرات ، فقد نجده فى عشر العشرات ، أم القول الأول الأشياء كلها عشرات ، ولست أعرف جعلت فداك قوله إن الانسان عشرة أشياء ، كما لم أعرف قول الفزارى أن العقل كرىٌّ ، وقد علمت أن القلب كرى ، وأن الرأس الذى جمع الحواس كرى . فأما العلم والقول وما أشبههما فإنا لا نعرف هذه الأمور إلا على خلاف الأجرام الموصولة والمقطوعة ، وقد شدوت من الموسيقى ولم أبلغ منه شهوتى

فخبرنى أين كان أقليدس وميرسطوس من فيثاغورس ، وأين تلامذتهما من تلامذته ، وهلا قدمتم أقليدس مع صنعة البرابط والمعازف ؟ وأين أرشخانس من مورسطس ، وأين ريوشت من فلهوذ ، ولم قتله وهو فوقه فى الإطراب والصنعة وفى الرواية والرآسة ، ولم عفا سابور عن قتله بعد إقراره بقتله وبعد أن سحب إلى الفيلة وعزم على إمضاء الحكم . وأين كانت هر وفرتنا من الجرادتين ، وأبو طيبة

والرباب من السردان والمهراس ، وأين حبابة من سلاّمة صاحبتى يزيد ، وأين عزة الميلاء من جميلة الحدباء ، وأين حبية من الميلاء . وخبرنى عن غناء الركبانية للمصطلق أخذته منه الركبان أم للركبان وهل رجعه بخسر المصطلق ، وزعمت أن الاهزاج لليمن ، وأن النصب للقينات ، فلمن السناد ؟ فخبرنى أين كان ضبيس بن حرام من المصطلق بن سعيدة ، ولم جعل المعلم النغم يعد لليونانى ست عشرة نغمة ؟ ألأنه لم يدرك أكثر منها أم لأنه ليس فى الحلقة إلا ما أدرك ، ولم جعل الرعب للسوداء ، والحزن للبلغم ، والجرأة للصفراء ، والسرور للدم . ولم فسر الأوتار على ذلك فجعل الزير للصفراء ، والمثنى للدم ، والمثلث للبلغم ، والبم للسوداء ! وقال: ألزير لطيف نارى خفيف ، والمثنى هوائيٌّ بين طبيعة النار وهو دون النار فى الخفة و بين طبيعة الماء وهو فوق الماء فى الخفة ، والمثلث كالماء ، والبم كالأرض ، وفى المثنى ضعف وزن الزير ، وفى المثلث ضعفا وزن الزير ، وفى البم ثلاثة أضعاف . ولم زعم أن من اللحون ما يقلق و يفرق فإن زيد فيه نقض و إن قوى قتل . وأن فيها ما يغير فان زيد فيه غشًى و إن قوى أجمد فإن قوى قتل . فجعل لحناً مطلقاً يقتل بالإذابة ، وجعل لحناً يقتل بالإجماد . ولم وصف اللحون بالإجماد والاضاعة كما توصف السموم القاتلة ؟ . خبرنى عن صنعة البربط ، للمك[1] أم لرفائيل أم لأقليدس ؟ وما تقول فى قولهم إن لمكا عمل العود على صورة فخذ ابنه ساقها وقدمها وأصابعها وأنه جعل الصدر الفخذ ، والساق الإبريق ، والقدم المشط ، والأصابع الملاوى ، والأوتار العصب والعروق

جعلت فداك كيف حفظك لكتاب كاوريد ، وقد خبرنى بعض المتكلمين أنه رأى بسيراف مجوسيا يحفظه وهو فى ألف جلد بخط مقارب . وكيف حفظك لكتاب الطرف وهل لقيت واضعه أيام أدخلك بلاد الروم نزول عطارد ؟ وخبرنى عن أسرار الهند ألرجل بعينه أم لشورى ؟ ولم زعموا أن العقوق يورث البرص ،

(١) لمك : قالوا إنه أبونوح عليه السلام

وهذا مما لا يعرف فى الطب . ومن صاحب الشطرنج ، ومن صاحب كليلة ودمنة ، ومن واضع الكوكلة ، ومن طبع القلعة ، ولم صار الهندى والرومي لا يحفلان بالسندى فى حال الأسر و يرغبان عنه فى حال القتال . وقد اختلفوا علينا فى النعال السندية فزعم قوم أن صاحب كتاب الباه كان قصيراً منكراً و كان بالنساء مستهتراً وأنه احتال بهـا لجسمه حتى وصلها برجله ليكون مخها زائداً فى طوله فلما طالت الأيام ومضت الدهور ظن من لا علم له أنها اتخذت للزينة أو لضرب من المرفق . وقال آخرون : بل اتخذت للعقارب ليلا وللطين نهاراً ، فلما طال عليها الدهر نسى السبب ، وذلك أن أكثر الرداغ لا تستغرق مخها وابرة العقرب لاتكاد تجاوزها وقال آخرون : بل إنما اتخذتها ملوكها لمكان أصواتها وصريرها استئذاناً على أزواجها وأمهات أولادها وعلى جميع محارمها للحالات تكنّ عليهـا وأمور تكن فيها ، فصار صريرها تدناً واستئذانا . وزعم إسماعيل بن على أنك أنت الذى كنت أمرت باتخاذها وأشرت بصنعها ، وأنك تكتم السر الذى فيه ، وأنك الذى علمتهم مضغ التانبول ودبغ تحمير الاسنان ، وتطييب النكهة ، وأكل السعد لما أنت أعلم به ، والتصندل لما لايجوز المكاتبة فيه ، وأنك أول من احتبى هناك واستاك وفرق شعره وعلم الخضاب أهله . وكيف وقد زعمت أن الاحتباء إنما صار فيهم وفى العرب لأن نازلة العمد والصحارى وسكان الفيافى والبرارى وكل من ليس لشماله مرفقة ولا لظهره مسندة ولالفخذه جُنة لابد أن يشتكى ظهره إذا طال انتصابه وكثر جلوسه ، ومن احتاج احتال ، ومن استغنى تبلد . فأخرجت لهم الحبكة للحبوة حتى قامت لهم مكان المتكأ والمسند . فقد قال لك كسرى : فما بال الترك والخزر وجميع أهل الصحارى والعمد لايعرفون الاحتباء ، والحاجة واحدة والعقول سليمة ، فلم أمسكت يومئذ عن الجواب ؟ ألأنه استفهام استفهام الراد أو نفست به على من شهد ذلك المشهد ؟

وأنا جعلت فداك أعلم أنى أسمع ولا أعقل كيفية السمع ، وأعلم أنى أبصر ولا

أعقل كيفية البصر ، ولا أدرى أمعدن العقل الدماغ والقلب بابه وطريقه ، كما أن معدن اللون جميع النفس والعين بابه وطريقه ، أم معدن العقل القلب دون الدماغ أو لعلهما موصولان غير مقطوعين . وقد اعتل قوم للدماغ بأن جميع الحواس فى الرأس . واعتل قوم بالحس وبما يجدون فى قلوبهم من الرعب والإضطراب وغير ذلك . فكيف القول فيه وعلام عزمت منه . وكيف صار الناظر يبتدى من جهة وإن كان يعرف الله فكيف عرفه ، أباضطرار أم باكتساب . وكيف جهل سليمان موضع ملكة سبأ ، وهو ملك وشأنه عظيم والجن له مسخرة والطير له برد والريح له أداة ، وكيف جهل يوسف مكان أبيه وحاله فى الحزن عليه حاله وهو ملك نبي ، وكيف جهل أبوه مكانه وهو نبي ، وليس أنبه من نبي ، وملك هذا بالشام والآخر بمصر . وما تقول فى أهل التيه وعن ترددهم أربعين عاما فى مكان واحد وعقولهم معهم ، وإنما يجولون ليقفوا على الطريق ، فكيف أضل الجميع الطريق مع ارتفاع الذكر وشدة الطلب . وخبرنى عن كلام عيسى فى بطن أمه ثم فى المهد ، وعن عقل يحيى فى حال الصبا ، أكانا فى حالهما يتعقلان ما لا يعلمان أم ينطقان بما يعلمان ؟ وكيف علما ، أبتجربة واستنباط وعن تمام أداة وكمال آلة ، أم من طريق الإلهام والإخراج من العادة .

وقد تعجب ناس من إطالتى ومن كثرة مسألتى ، وتعجبى من تعجبهم أشد والذى كان من إنكارهم أعظم ولو رغبوا فى العلم رغبتي ورأوا فيه مثل رأيي وكانوا قرأوا كتابى إليك فى شبيبتى وأيام شباب رغبتى لاستقلوا من ذلك ما استكثروا ولاستقصروا منه ما استطالوا . فان أذنت لى أظهرته ، وإن تجد على أعلنته

وستقول : مادعاك إلى التنويه بذكرى وتعريف الناس مكانى ، وقد تعرف حشمتى وانقباضى وتفورى واستيحاشى ! ولولا أنك جعلت فداك مسؤل فى كل زمان والغاية فى كل دهر لما تفردتك بهذا الكتاب ، ولما أطمعت نفسى فى الجواب . ولكنك قد كنت أذنت فى مثلها لهرمس ، ثم لافلاطون ، ثم لأرسطاطاليس ، ثم

أجبت معبد الجهنى ، وغيلان الدمشقى ، وعمرو بن عُبيد ، وواصل بن عطاء ، وإبراهيم بن سيار ، وعلى بن خالد الاسوارى ، فتربية كفك والناشى تحت جناحك أحق بذلك وأولى ، وقد كان يجب أن تكون على ذلك أحرص و به أعنى .

وخبرنى عن المرائى كيف صارت ترى الوجوه ويبصر فيها الخلق وكذلك كل أملس صقيل وصاف سا كن ، كالسيف ، والوذيلة ، (١) والقوارير ، والماء الرا كد ، حتى الحبر البراق ، والحدقة السوداء إذا كان الناظر فى الحدقة أبيض والحدقة المغربة إذا كان الناظر فيها أسود . وكيف صار الماء الجارى والنار الملتهبة والشمس ذات الشعاع لا تقبل الصورة ولا يثبت فيها الخلق . وعن قول من زعم أنه ليس في القمر محق ثابت ، ولا كد جامد ، ولا سواد وا كد ، و إنما ذلك شيء رآه الناس فيه إذ كان أملس صقيلا بمقابلة الأرض وما فيها كما يرى من قابل الحدقة صورة إنسان ، وليس هناك صورة ، وإنما هو شيء يوجد عند المقابلة . ولم صار بعض المرائى يرى الوجه والقفا و يرى الرأس منكساً ، ولم كنت لا تجد كتاب الستور والمطارح فيها أبداً إلا مقلوباً ، وما تلك الصورة الثابتة فى المرآة أعرض أم جوهر أم أى شيء ، وحقيقة أم تخييل ، والذى نرى أهو وجهك أو غير وجهك . فان كان عرضاً فما الذى ولده وما الذى أوجبه والوجه لم يماسه ولم يعمل فيه . وهل أبطلت تلك الصورة المرئية صورة مكانها فى المرآة ، ولم وأنت لست تراها فى نفس صفيحة المرآة ، ولم و كأنك تراها في هواء خلف جوفها ، وهل أبطل ذلك اللون الذى هو فى مثال لونك لون المرآة ؟ فإن لم يكن أبطله فهناك إذاً صورتان فى جسم فى حال واحد ، أو لونان فى جوهر واحد . وإن كان قد أبطل لون الحديد فكيف أبطله من غير أن يكون عمل فيه ، وكيف يعمل فيه وحيزه غير حيزه وهو لا مماس ولا متصل ولا مصادم . وسواء ذكرنا صفيحة الحديد أم ما خلفها من الهواء وما قدامها من الفرجة ، كل ذلك جسم ذو لون . فان اعتللت

(١) الوذيلة : المرآة والقطعة من الفضة المجلوة كالمرآة

بالشعاع الفاصل والشعاع يخالف فى الحس، كذلك الحساس وكذلك المحسوس ، وكيف نرى المخالف وكيف والشعاع لون و بياض والنفس الحساسة لا تدرك بشىء من الحواس وما الفرق بين الأشبان والاحلال وعن قول ما بين السمون والحفرة .

وخبرنى عن القرسطون كيف أخرج أحد رأسيه ثلثمائة رطل زاد ذلك أم نقص ووزن جميعه ثلاثون رطلا زاد ذلك أم نقص . وما تقول فى السراب ، وما تقول فى الصدى ، وما تقول فى القوس ، وماتقول فى طريقة الحمرة ، وفى طريقة الخضرة ، وكيف اختلفتا والهواء واحد وما يقابلهما واحد ، وهل ذلك اللون حقيقة أم تخييل .

وخبرنى عن لون ذنب الطاوس ماهو ، أتقول بأنه لا حقيقة له و إنما يتلون بقدر المقابلة أم تقول إن هناك لوناً بعينه والباقى تخييل ! وما تقول فى عس الماء كيف اشتد صوته بلا باب والصوت لابد له من هوا. ، و إذا اشتد فلا بد له من باب ، وما تقول فى خضر السماء ، أهو خضر جلدها كما تقول ، أم ذلك لحر الهواء كما يقول خصمنا ؟ وهل تزعم أن الأفلاك ذات لون ؟ فان كان لها لون فقد احتملت جميع الأشكال،وهذا خلاف مايقولون . و إن لم تكن ذات لون فالسماء إذاً غير الفلك فهذا هذا . وتقول أيضاً إن كنا لا نرى القُرى المستطيلة البنيان المختلفة من البعد إلا مستديرة فلعل الشمس مصلبة والكواكب مربعة . وما تقول فى المد والجزر ، أمن ملك يضع رجلا ويرفع رجلا ، فان كان كذلك فلعل مدبر الفلك ملك ولعل صوت الرعد صوت زجر ملك ، فندع الفلسفة ونأخذ بقول الجماعة ، أم نزعم أن المد والجزر من نفس الجواذب إذا جذب وإذا رفع ! وما تقول فى قول من زعم أن القمر مائى وأشبه الكواكب بطبيعة الأرض ، فانما يكون الجزر والمد على مقادير جذبه للماء و إرساله له ، ذلك معروف فى منازله ومجاريه يعرف ذلك أهل الجزر والمد .

وخبرنى كيف صارت القيافة فى النسبة وفى الماء والجو والتربة ، وليست القيافة تكلفاً وصنعة ، ولا عرفت بالاستنباط والفكرة ، فتكون لمن تعلم دون من يتعلم ، نجدها فى بنى مدلج ، ثم فى خاص من خثعم ، وكذلك خزاعة ، وهى فى قريش أقل . وهى فى بنى أسد أقل ، وليس هؤلاء لأب ولا يجمعهم بلد ، وليس فيما بين البلدين قافة وهى فيهم على هذه الصفة . وكيف لم يختلفوا فى لغتهم فينطق بعضهم بالزنجية وبعضهم بالنبطية وبعضهم بالفارسية . فان قلت فارقهم المعجم والشاعر والبكى والغرير ، فان الشاعر وإن كان القريض عليه أسهل وهو على القوافى أقدر فإنه يتروى الشعر ويصنعه ويتفرد له ويفكر فيه ، وكيف صار الانسان يعيش حيث تعيش النار ويموت حيث تموت النار ، يصاب علم ذلك فى الجباب وفى الغيران ، ولم صار يبصر النجوم من قعر البئر العميقة ولا يبصرها أبداً إلا وهو خالص الظلمة . وخبرنى عن الظلام أجسم موجود عند زوال الضوء ، أم تأويل قولنا ظلام إنما نريد به دفع الضوء ! فإن كان الظلام معنى أفتراه أنقمع فى الأرض وكمن عند انبساط الضوء وردع الشعاع ، أم الأرض قرص الظلام كما أن عين الشمس قرص الضياء ، وإن كان قائماً فكيف لم يتنافيا . وإن كانا قد تداخلا فكيف لم نجدهما على منظر الأعين ، ولو كان الأمر كذلك فنحن إذاً لم نرى ضياء قط ولا ظلاماً

وخبرنى جعلت فداك لم زعمت أن الحس للعصب ، وأن الشر عصب جامد وأن الرئة لاحس لها ، وأن من أدام سف اللبان لم يؤلمه المؤلم وألذه الملذ ، وكيف يلذ من لا يألم ، ولو جاز ذلك لعرف الصواب من يجهل الخطأ ، ولعرف الصدق من يجهل الكذب. هذا ما عندى من العلم البرانى وأنت أبصر بالعلم الجوانى .

وزعم بعض تلاميذك أنك تعلم لم كان الفرس لا طحال له ، ولم صار البعير لامرارة له ، ولم كانت السمكة لا رئة لها ، ولم كانت حيتان البحر لا ألسنة لها ، ولم حاضت الأرنب ولم اجترت ، ولم كان قضيبه من عظام ولم كانت علائق أجواف السبع أفراداً إلا الكلية . وزعمت أنك تعرف في الخفاش سبعين أعجوبة ، ونحن لا نعرف إلا سبعاً ، وأنك تعرف فى الذهب مائة خصلة كريمة ، والناس لا يعرفون

إلا عشراً ، وأنك تعرف فى البعير ألف داء ودواء ، والأعراب لا تدعى إلا مائة داء غير دواء .

جعلت فداك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كاد البيان أن يكون سحراً » وقال: « إن من البيان لسحراً » وقال عمر بن عبد العزيز وسمع رجلا يتكلم بكلام بليغ عجيب لطيف رقيق : هذا والله السحر الحلال . وقال الناس لذى المكر والخلابة ولذى الرفق والتأتى : ما هو إلا ساحر ، وقد سحر بكلامه . وقالوا للمرأة : ساحرة العينين . وقد ذكر الله السحرة فى القرآن وأخبر عن هاروت وماروت وخبر عن النفاثات فى العقد . وقال الناس : لهو أقبح من السحر . إذا أرادوا نفس المعنى المشبه به والمعنى المحمول عليه والسحر نفسه . وما الذى اشتقت منه هذه الأمثال ؟ ولم تجدهم أبقاك الله سموا كهان العرب سحرة ، ولا العرّاف ساحراً ، ولا الحازى ، ولا صاحب الطَّرْق ، ولا من كان معه رئىٌّ ، ولا من ادعى تابعة من لدن عمرو بن لحىٍّ إلى يومنا هذا . وما قاله [الساحر] إذا عقد عقداً أو دفن صورة بالأندلس لرجل بفرغانة وإذا صور شمعتين وخرطهما على مثال إنسانين ودفنهما وخبأ مكانهما وقابل بين وجوههما تقابلا بالمودة ، وإن دابر بينهما تدابراً بالعداوة . وقل لى من يتولى هذا له ومن يقوم له به ومن يتطوع به عليه ، فإن قلت : الشيطان ، فلم فعل هذا له وأول شيطنته أن لا يطيع من هو فوقه ؟ فإن قلت : بالعزائم التى لا ترد والأيمان التى لا تدفع ، فقد عزم الله عليه بالقرآن والتوراة والانجيل فلم يجده يحفل بذلك ولا يرى له قدراً ولا يكترث له ولا يراه سبباً . وأخبرنى ما هذه العزيمة التى إذا سمع بها أجاب ، وإذا ظهرت له أناب ، ومن أين عرف الإنسان هذه العزيمة ، ومن أين وقع عليها ، ومن له بها ، أهو صنعها أم صنعت له فإن يكن الشيطان هو الذى ابتدأه بها فقد ابتدأه إذاً بتعريف العزيمة قبل أن يعزم عليه ، وقد تطوع بأعظم الأمور ، فما الذى يحوجه إلى العزيمة فى أصغرها ، فقل فى هذا . وإن زعمت أن العازم صاحبه دون الشيطان ، والعازم مسلم وإن كان مسلماً ولذلك أجاب العزيمة

وعظم الإخلاف ، فلم يخبل له الأحياء ويقتل المرضى ولم يحبّب ويبغض ، ولم يفرق بين المرء وأهله ، وبين الولد البارّ وأمه ، ولم يجتلب العفائف إلى الزناة ، ولم يعذب ويقتل ؟ وهذا متناقض .

ولم قيل أعق من ضب وأبر من هرة ، وهما جميعاً يأكلان أولادهما ، ولم عال الذئب أولاد الضبع إذا قتلت أو ماتت حتى قال الشاعر : « حتى عال أوس عيالها » وهل يفهم الضبع قولهم : خامرى أم عامر ؟ وما بال الظبي لايدخل كناسه إلا مستدبراً وهل يجوز قولهم فى نوم الذئب قال الشاعر :

يَنَامُ بِإِحْدَى مُقْلَتَيْهِ وَيَتقِي الْمَنَايَا بِأُخْرَى فَهْوَ يَقْظَانُ هَاجِعُ

ولم نامت الأرنب مفتوحه العينين ، ولم أكل الذئب صاحبه إذا رأى به دماً ، وما بال الجن والثيران ، وما بال الشياطين والورشان ، وهل فى الحيات جنان . وما معنى قولهم : كأنما كسر فجبر . وما تأويل الحديث : يؤخذ للجماء من القرناء . ويكلف أن يعقد بين شعيرتين .

ولم زعمت أن عمر نوح أطول الأعمار مع قولك أن جميع الأنبياء قد حذرت من الدجال ، وأن الدجال إنسان . وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لاتحسن من هذا قليلا ولا كثيراً ، فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها وما فيها خرافة وما فيها محال وما فيها صحيح وما فيها فاسد ، فالزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابى وابتدىء بنفى التشبيه والقول بالبداء واستبدل بالرفض الاعتزال ، وأن أتنكر منعك بعد التمكين والبذل وبعد التقريع والشحذ فلا يبعد الله إلا من ظلم

وقد بقيت لى عليك مسائل وهى خاتمة الكتاب ومنتهى المسائل : أيهما أحسن قول بقراط مفسراً: العمر قصير والصناعة طويلة والزمان جديد والتجربة خطأ والقضاء عسر ، أم قول أفلاطون مجملا : لولا أن فى قولى أنى لا أعلم تثبيتا لانى أعلم لقلت إنى لا أعلم ، أم تواضع أرشخانس حيث يقول : ليس معى من فضيلة العلوم الإعلمى بأني لست بعالم . فانظر فى آخر هؤلاء ثم انظر فى قول ديمقراط : عالم معاند خير من عالم منصف جاهل ، وفى قول تلميذه الأول : الجاهل لا يكون منصفاً

والعالم لا يكون معانداً وقد يكون العالم معاندا . ثم انظر فى قول ريسموس : لولا العمل لم يطلب علم ، ولولا العلم لم يطلب عمل ، ولأن أدع الحق جهلا به أحب إلى من أن أدعه زهداً فيه ، وإن كان الجهل لا يكون إلا من نقصان فى آلة الحس فان المعاندة لى زيادة فى آلة الشر ، ولأن أترك جميع الخير أحب إلى من أن أفعل بعض الشر، ثم انظر فى قول تومقراط : العلم روح والعمل بدن ، والعلم أصل والعمل فرع ، والعلم والد والعمل مولود ، وكان العمل لمكان العلم ولم يكن العلم لمكان العمل . فالسبب الجالب خير من السبب المجلوب ، والغالب خير من المغلوب . وانظر فى قول اقليميون : ألعلم كان من العمل والعمل غاية ، والعلم رائد والعمل مرشد . ثم انظر فى قول ارسطاطاليس : ليس طلبى العلم طمعا فى بلوغ قاصيته ولا سبيلا إلى غايته ولكن التمس مالا يسع جهله ولا يحسن بالعاقل خلافه . ثم انظر فى قوله : قد عرفت الارثماطيقى ، وأيقنت معرفة الموسيقى ، وعرفت المساحة ، فلم يبق إلا علم الآلاهى ومعرفة الاصلاح . ثم انظر فى قول مورسطوس : عرفت أكثر المقصود وأقل ما يوقف عليه من المبسوط ، وقلل الكثير كثير ، وكثير القليل كثير ،

ثم انظر فى قول افليمون : ما أقل منفعة كثير المعرفة مع شرف الطبيعة واقتصاد الشهوة . ثم انظر فى قول تلميذه الأول : غلبة الطبيعة تبطل المعرفة وتنسى العاقبة ولو كانت المعرفة ثابتة لكانت هى الغالبة . ثم انظر فى قول تلميذه الثانى : ليس بعلم ما كان مغلوباً وليس بفهم ما كان مغموراً بل لا يكون مغلوباً إلا بالنقص والخبال ولا مغموراً إلا بالغلبة والانتقاص. ثم انظر فى قول ماسرجس : من قصر عن طلب العلم لرغبة أو رهبة أو منافسة أو شهرة . كان حظه من الرغبة وحظه من الرهبة على مقدار حق الرهبة . ومن طلب العلم لكرم العلم والتمسه لفضل الإستبانة كان حظه منه بقدر كرمه وقدره ؛ وانتفاعه به على حسب استحقاقه فى نفسه .

وقد اختلفوا فى العقل بأكثر من اختلافهم فى العلم ، فمنعنى من ذكره لك

غموضه عليك واستتاره عنك ، وعلمت أنى لا أقدر أن أصوره لك دون دهر طويل ، ولا أضمنك معناه دون ترتيب كثير .

هذا الكتاب مُرْض مع ما فيه من الأخلاط من أشكال وأضداد ، ومن الجد والهزل ، ومن الحظر والإطلاق ، ومن الاستئناف والقطع ، ومن التحفظ والتضييع ، ومن التثبيت والتهاون . إذا أريد به تقريع معجب أو تكشيف مموه ، أو امتحان مشكل ، أو تخجيل وقاح ، أو قمع عمار ، أو ممازحة ظريف ، أو مساءلة عالم ، أو مدارسة حافظ ، أو تنبيها على الطريق ، أو تجديداً للذهن .

والعقل حفظك الله أطول رقدة من العين ، وأحوج إلى الشحذ من السيف ، وأفقر إلى التعهد ، وأسرع إلى التغير ، وأدواؤه أقتل ، وأطباؤه أقل ، وعلاجه أعضل . فمن تداركه قبل التفاقم أدرك أكثر حاجته ، ومن رامه بعد التفاقم لم يدرك شيئاً من حاجته . ومن أكبر أسباب العلم كثرة الخواطر ثم معرفة وجوه المطالب ، ثم فى الخواطر الغث والسمين ، والفاسد والصحيح ، والمسرع إليك والبطىء عنك ، والدقيق الذى لا يكاد يفهم ، والجليل الذى لا يلتى الفهم . ثم هى على طبقاتها فى التقديم والتأخير ، وعلى منازلها فى التباين والتمييز . والمطالب طرق ، ولدرك الحقائق أبواب ، فمن أخطأها وانتظر كان أسوأ حالا ممن لم يخطئها ولم ينتظر . وعلى قدر صحة العقل يصح الخاطر ، وعلى قدر التفرغ يكون التنبه . هذا جماع هذا الباب وجمهوره وأقسامه وجملته . ثم من أنفع أسبابه الحفظ لما قد حصل والتقييد لما ورد والانتظار لما يرد أن لا تخلى نفسك من الفكرة إلا بقدر جَمام الطبيعة ، وأن تعلم أن مكان الدرس من الحفظ كمكان الحفظ من العلم ، وأن تعرف فضل ما بين طلب العلم للمنافسة والشهرة و بين طلبه للرغبة والرهبة ، وأن تعلم أن العلم لا يجود بمكنونه ولا يسمح بسره ومخزونه إلا لمن رغب فيه لكرم عنصره ، وفضله لحقيقة جوهره ، ورفعه عن التكسب وصانه عن التبذل ، وأنه لا يعطيك خالص الحكمة حتى تعطيه خالص المحبة . وكان يقال : من شاب شيب له . وخصلة ينبغى أن تعرفها

وتصطنعها وتتذكرها وتقف عندها ، وهى أن تبدأ من العلوم بالمهم ، وأن تختار من صنوفه ما أنت له أنشط والطبيعة به أعنى ؛ فان القبول على قدر النشاط ، والبلوغ فيه على قدر العناية . ثم من أفضل أسبابه تخليص أخلاطه وتمييز أجناسه والمعرفة بأقداره حتى تعطى كل معنى حقه من التقريب والرفعة ، وقسطه من الإبعاد والضعة وحتى لا تتشاغل إلا بالسمين الثمين وبالخطير النفيس ، ولا تلقى إلا الغث الخسيس والحقير السخيف ، فانك متى كنت كذلك لم تميز فضل ما بين النظرين ، ولا فرق ما بين النعتين . والكَيْسُ كل الكَيْسِ والحذق كل الحذق أن لا تعجل ولا تبطىء وأن تعلم أن السرعة غير العجلة ، وأن تعلم أن الأناة خلاف الإبطاء ، وأن تكون على يقين من درك الحق إذا وفيته شرطه ، وعلى ثقة من ثواب النظر إذا أعطيته حقه .

هذا جملة العذر فى هذه الرسالة ، وجملة الحجة فيما قدمنا من الإفتنان والإطالة . فان كنا أصبنا فالصواب أردنا وإلى غايته أجرينا ، وإن كنا قد أخطأنا فما ذلك عن فساد من الضمير ولا عن قلة احتفال بالتقصير . ولعل طبيعة خانت ، أو لعل علة حدثت ، أو لعل سهواً اعترض ، أو لعل شغلا منع .

خفض عليك أيها السامع فان الخطأ كثير غامر ومستول غالب ، والصواب قليل خاص ومقموع مستخفٌ . فوجه اللائمة إلى أهلها وألزمها من هو أحق بها ، فإنهم كثير ومكانهم مشهور . كنت أتعجب من كل فعل خرج من العادة ، فلما خرجت الأفعال بأسرها من العادة صارت بأسرها عجباً ، فبدخول كلها فى باب التعجب خرجت بأجمعها من باب العجب . وقد ذكر الله تعالى التعجب فى كتابه ، وقد تعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمانه ، وفى الناس يومئذ الناقص والوافر والمشوب والخالص والمستقيم والمعوج . قال الله تبارك وتعالى لنبيه « وإنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ » وقال « بلْ عَجِبْتَ ويَسْخَرُونَ » واعلم أنه لم يبق من المتعجب القائل إلا نصيب اللسان ، ولا من المستمع القائل إلا حصة

السمع . وأما القلوب فخاوية قاسية وراكدة جامدة ، لا تسمع داعياً ولا تجيب سائلا قد أغفلها سوء العادة واستولى عليها سلطان السكرة . فدع عنك ما لست منه فان فيما أورده عليك شغلا وهما داخلا .

إعلم أن الله تعالى قد مسخ الدنيا بحذافيرها ، وسلخها من جميع معانيها ، ولو مسخها كما مسخ بعض المشركين قردة ؛ أو كما مسخ بعض الأمم خنازير ، لكان قد بقي بعض أمورها وحبس عليها بعض أعراضها ، كبقية ما مع القرد في ظاهره من شبه الآدمي ، وبقية ما مع الخنزير في باطنه من شبه البشرى ، لكنه جل ذكره مسخ الدنيا مسخا متتبعاً ومستقصى مستفرغا ، فبين حاليهما جميع التضاد ، وبين معنيهما غاية الخلاف . فالصواب اليوم غريب وصاحبه مجهول . فالعجب ممن يصيب وهو مغمور ، ويقول وهو ممنوع ! فان صرت عونا عليه مع الزمان قتلته ، وإن أمسكت عنه فقد رفدته ، ولسنا نريد منك النصرة ولا المعونة ولا التأنيس ولا التعزية ، وكيف أطلب منك ما قد انقطع سببه واجتث أصله . وقد كان يقال : من طلب عيباً وجده . هذا في الدهر الصالح دون الفاسد . فان أنصفت فقد أغربت ، وإن جرت فلم تعد ما عليه الزمان . وهب الله لنا ولك الإنصاف وأعاذنا وإياك من الظلم والحمد لله كما هو أهله ، ولا حول ولا قوة إلا به ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٦

من كتاب استحقاق الامامة

قال أبو عثمان :

بعون الله تعالى نقول و إليه نقصد و إياه ندعو وعلى الله قصد السبيل :

إعلم رحمنا الله تعالى و إياك أن الشيعة رجلان : زيدى ورافضى . و بقيتهم بدد لا نظام لهم . وفى الإخبار عنهما غنى عمن سواهما

قال علماء الزيدية : وجدنا الفضل فى الفعل دون غيره . ووجدنا الفضل كله على أربعة أقسام، أولها : القدم فى الاسلام حيث لا رغبة ولا رهبة إلا من الله تعالى و إليه ، ثم الزهد فى الدنيا فان أزهد الناس فى الدنيا أرغبهم فى الآخرة وآمنهم على نفائس الأموال وعقائل النساء و إراقة الدماء ، ثم الفقه الذى به يعرف الناس مصالح دنياهم ومراشد دينهم ، ثم المشى بالسيف كفاحا فى الذب عن الاسلام وتأسيس الدين وقتل عدوه و إحياء وليه . فليس وراء بذل المهجة واستفراغ القوة غاية يطلبها طالب أو يرتجيها راغب . ولم نجد فعلا خامساً فنذكره . فمتى رأينا هذه الخصال مجتمعة فى رجل دون الناس كلهم وجب علينا تفضيله عليهم وتقديمه دونهم . وذاك أنا سألنا العلماء والفقهاء وأصحاب الأخبار وحُمّال الآثار عن أول الناس إسلاماً ، فقال فريق منهم : على . وقال فريق منهم : أبو بكر . وقال آخرون : زيد بن حارثة . وقال قوم: خَبَّابٌ . ولم نجد قول كل واحد من هذه الفرق قاطعاً لعذر صاحبه ولا ناقلا له عن مذهبه . و إن كانت الرواية فى تقديم علىّ أشهر واللفظ به أكثر وأظهر . وكذلك إذا سألناهم عن الذابين عن الاسلام بمهجهم والماشين إلا الأقران بسيوفهم وجدناهم مختلفين ، فمن قائل : على . ومن

قائل : ابنا عفراء . ومن قائل : أبو دُجانة . ومن قائل : محمد بن مسلمة . ومن قائل : طلحة . ومن قائل : البراء بن مالك . على أن لعلى من قتل الأقران والفرسان والأكفاء ما ليس لهم . فلا أقل من أن يكون علىٌّ فى طبقتهم . و إن سألناهم عن الفقهاء والعلماء رأيناهم يعدون علياً وعمر وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وأبى ابن كعب . على أن علياً كان أفقههم ، لأنه كان يُسئل ولا يَسأل ويَفتى ولا يستفتى ويُحتاج إليه ولا يَحتاج إليهم . ولكن لا أقل من أن نجعله فى طبقتهم وكأحدهم . وإن سألناهم عن أهل الزهادة وأصحاب التقشف والمعروفين برفض الدنيا وخلعها والزهد فيها قالوا : على وأبو الدرداء ومعاذ بن جبل وأبو ذر وعمار و بلال وعثمان ابن مظعون. على أن علياً أزهدهم ، لأنه شاركهم فى خشونة الملبس وجشوبة المأكل والرضا باليسير والتبلغ بالحقير وظلف النفس عن الفضول ومخالفة الشهوات ، وفارقهم بأن ملك بيوت الأموال ورقاب العرب والعجم ، فكان ينضح بيت المال فى كل جمعة و يصلى فيه ركعتين، ورقع سراويله بأدم، وقطع مافضل من ردائه عن أطراف أصابعه بالشفرة ، فى أمور كثيرة . مع أن زهده أفضل من زهدهم لأنه أعلم منهم ، وعبادة العالم ليست كعبادة غيره كما أن زلته ليست كزلة غيره . فلا أقل من أن نعده فى طبقتهم . ولم نجدهم ذكروا لأبى بكر و زيد وخباب مثل الذى ذكروا له من بذل النفس والغناء والذب عن الاسلام بالسيف . ولم نجدهم ذكروا للزبير وابنى عفراء وأبى دجانة والبراء بن مالك مثل الذى ذكروا له من التقدم فى الاسلام والزهد والفقه . ولم نجدهم ذكروا أبا بكر وزيداً وخباباً فى طبقة ابن مسعود وأبى كعب كما ذكروا علياً فى طبقتهما ، ولا ذكروا أبا بكر وزيدا وخبابا فى طبقة معاذ ابن جبل وأبى الدرداء وأبى بن كعب وعمار و بلال وعثمان بن مظعون كما ذكروا عليا فى طبقتهم . فلما رأينا هذه الأمور مجتمعة فيه متفرقة فى غيره من أصحاب هذه المراتب وأهل هذه الطبقات الذين هم الغايات علمنا أنه أفضلهم ، و إن كان كل واحد منهم قد أخذ من كل خير بنصيب فإنه لن يبلغ مبلغ من قد اجتمع له جميع الخير وصنوفه .

فهذا دليل هذه الطبقة من الزيدية على تفضيل على رضى الله تعالى عنه وتقديمه على غيره . وزعموا أن عليا كان أولاهم بالخلافة إلا أنهم كانوا على غيره أقل فسادا واضطرابا وأقل طعنا وخلافا ، وذلك أن العرب وقريشا كانوا فى أمره على طبقات . فمن رجل قد قتل على أباه أو ابنه أو أخاه أو ابن عمه أو حميه أو صفيه أو سيده أو فارسه ، فهو بين مضطغن قد دام على حقده ينتظر الفرصة ويترقب الدائرة قد كشف قناعه وأبدى صفحته . ومن رجل قد زمل غيظه وأكن ضغنه يرى سترهما فى نفسه ومداراة عدوه أبلغ فى التدبير وأقرب من الظفر ، فانما يجزئه أدنى علة تحدث وأول تأويل يعرض أو فتنة تنجم ، فهو يرصد الفرقة ويترقب الفتنة حتى يصول صولة الأسد ويروغ روغان الثعلب فيشفى غليله ويبرد ناره ، وإذا كان العدو كذلك كان غير مأمون عليه سرف الغضب وأن يموه له الشيطان الوثوب ويزين له الطلب ، لأنه قد عرف مأتاه وكيف يختله من طريق هواه ، فإذا كان القلب كذلك اشتدت حفيظته ولم يقو احتراسه وكان بعرض هلكة وعلى جناح تغرير ، لأنه منقسم الرأى متفرق النفس قد اعتلج على قلبه غيظ الثأر على قرب عهده بأخلاق الجاهلية وعادة العرب من الثأر وتذكر الأحقاد والإحن القديمة وشدة التصميم . ومن رجل غمته حداثته وأنف أن يلى عليه أصغر منه . ومن رجل عرف شدته فى أمره وقلة اغتفاره فى دينه وخشونة مذهبه . ومن رجل كره أن يكون الملك والنبوة يثبتان فى نصاب واحد وينبتان فى مغرس واحد ، لأن ذلك أقطع لأطماع قريش أن يعود الملك دولة فى قبائلها ، ومن قريش خاصة فى بنى عبد مناف الأقرب فالأقرب والأدنى فالأدنى ، لأن الرحم كلما كانت أمس والجوار أقرب والصناعة أشكل كان الحسد أشد والغيظ أفرط . فكان أقرب الأمور إلى محبتهم إخراج الخلافة من ذلك المعدن ، ترفيها عن أنفسهم من ألم الغيظ وكمد الحسد .

فصل منها : وضرب آخر من الناس همج هامج ورعاع منتشر لا نظام لهم

ولا اختيار عندهم ، أعراب أجلاف وأشباه الأعراب يفترقون . لا تدفع صولتهم إذا هاجوا ولا يؤمن هيجهم إذا سكنوا ، إن أخصبوا طغوا فى البلاد و إن أجدبوا آثروا العناد ، وهم موكلون ببغض القادة وأهل الثراء والنعمة ، يتمنون الغلبة ويشمتون بالعثرة ، ويسرون بالجولة ويترقبون الدائرة . وهم كما وُصفوا : الطغام والسفلة ، وفيهم قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فى دعائه : نعوذ بالله من قوم إذا إجتمعوا لم يملكوا وإذا افترقوا لم يعرفوا · فهولاء هؤلاء . وضرب آخر قد فقهوا فى الدين وعرفوا سبب الإمامة قد قمعهم الحق فانقادوا له بطاعة الربو بية وطاعة المحبة وعرفوا المحنة وعرفوا العدل ولكنهم قليل فى كثير ، ومختار كل زمان و إن كثروا فهم أقل عددا و إن كانوا أكثر فقها .

فلما كان الناس عند على وأبى بكر وعمر وأبى عبيدة وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار على الطبقات التى ذكرنا والمنازل التى نزلنا والمراتب التى رتبنا وبالمدينة منافقون يعضون عليهم الأنامل من الغيظ ، وفيها بطانة لايألونهم خبالا، لا يخفى عليهم موضع الشدَّة وانتهاز الفرصة وهم فى ذلك على تقية . وافق ذلك ارتداد من حول المدينة من العرب وتوعدهم بذلك فى شكاة النبى صلى الله عليه وسلم وصح به الخبر ، ثم الذى كان من اجتماع الأنصار حيث انحازوا من المهاجرين وصاروا أحزابا وقالوا منا أمير ومنكم أمير . أشفق على أن يظهر إرادة القيام بأمر الناس مخافة أن يتكلم متكلم أو يشغب مشاغب ممن وصفنا حاله و بينا طريقته فيحدث بينهم فرقة ، والقلوب على ماوصفنا والمنافقون على ماذكرنا وأهل الردة على ما أخبرنا ومذهب الأنصار على ما حكينا ، فدعاه النظر للدين إلى الكف عن الإظهار والتجافى عن الأمر، وعلم أن فضل مابينه و بين أبى بكر فى صلاحهم لو كانوا أقاموه لايعادل التغرير بالدين ولا يفى بالخطار بالأنفس ، لأن فى التهييج البائقة وفى فساد الدين فساد العاجلة والآجلة ، فاغتفر الخمول ضنا بالدين و إيثارا للآجلة على العاجلة ، فدل ذلك على رجاحة حلمه وقلة حرصه وسعة صدره وشدة زهده وفرط سماحه وأصالة رأيه . ومتى سخت نفس امرىء عن هذا الخطب

الجليل والأمر الجزيل ينزل من الله تعالى بغاية منازل الدين و إنما كانت غايته فى أمرهم أربح الحالين لهم وأعود القصدين عليهم ، وعلم أن هلكتهم لاتقوم بإزاء فرق ما بين حاله وحال أبى بكر فى مصلحتهم ، وقد علم بعد ذلك أن مُسَيْلِمَةَ قد أطبق عليه اهل اليمامة ومن حولها من أهل البادية ، وهم القوم الذين لايصطلى بنارهم ولا يطمع فى ضعفهم وقلة عددهم ، فكان الصواب مارآه على من الكف عن تحريك الهرج إذ أبصر أسباب الفتن شارعة وشوا كل الفساد بادية ، ولو هرج القوم هرجة أو حدثت بينهم فرقة كان حرب بوارهم أغلب من الطمع فى سلامتهم . وقد كان أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وفضلاء أصحابه يعرفون من تلك الآراء شبيها بما يعرفه على ، فعلموا أن أول أحكام الدين المبادرة إلى إقامة إمام المسلمين لئلا يكونوا نَشَراً ولئلا يجعلوا للمفسدين علة وسببا ، فكان أبو بكر أصلح الناس لها بعد على . فأصاب فى قيامه والمسلمون فى إقامته وعلىٌّ فى تسويغه والرضاء بولايته منة على الإسلام وأهله . فلما قمع الله تعالى أهل الردة بسيف النقمة وأباد النفاق وقتل مُسَيْلِمَةَ وأسر طُلَيحة ومات أصحاب الأوتار ونفيت الضغائن راح الحق إلى أهله وعاد الأمر إلى صاحبه .

فصل منه : وإنما ذكرت لك مذهب من لا يجعل القرابة والحسب سببا إلى الإمامة دون من يجعل القرابة سببا من أسبابها وعلة من عللها ، لأنى قد حكيته فى « كتاب الرافضة » وكان ثم أوقع و به أليق ، وكرهت المعاد من الكلام والتكرار لأن ذلك يغنى عن ذكره في هذا الكتاب ، وهو مسلك واحد وسبيل واحد ، و إنما قصدت إلى هذا المذهب دون مذهب سائر الزيدية فى دلائلهم وحججهم لأنه أحسن شيء رأيته لهم . و إنما أحكى لك من كل نحلة قول حذاقهم وذوى أحلامهم لأن فيه دلالة على غيره وغنى عما سواه .

قالوا : وقد يكون الرجل أفضل الناس ويلى عليه من هو دونه فى الفضل حتى يكلفه الله تعالى طاعته وتقديمه إما للمصلحة ، و إما للاشفاق من الفتنة كما ذكرنا

وفسرنا ، وإما التغليظ فى المحنة وتشديد البلوى والكلفة كما قال الله تعالى للملائكة « اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى » والملائكة أفضل من آدم فقد كلفهم الله تعالى أغلظ المحن وأشد البلوى إذ ليس فى الخضوع أشد من السجود على الساجد والملائكة أفضل من آدم لأن جبريل وميكائيل وإسرافيل عند الله تعالى من المقربين قبل خلق آدم بدهر طويل المقدمت من العبادة واحتملت من ثقل الطاعة وكما ملك الله تعالى طالوت على بنى إسرائيل وفيهم يومئذ داود عليه السلام وهو نبيهم الذى أخبر الله عنه كما فى القرآن بقوله تعالى « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا » ثم صنيع النبى صلى الله عليه وسلم حين ولى زيد بن حارثة على جعفر الطيار يوم مُؤتة ، وولى أسامة على أكثر المهاجرين وفيهم أبو بكر وعمر وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وسعد بن أبى وقاص ، ذوو أخطار وأقدار من البدريين والمهاجرين والسابقين الأولين .

فصل منه : ولو ترك الناس وقوى عقولهم وجماح طبائعهم وغلبة شهواتهم وكثرة جهلهم وشدة نزاعهم إلى ما يرديهم ويطغيهم حتى يكونوا هم الذين يحتجزون من كل ما أفسدهم بقدر قواهم وحتى يقفوا على حد الضار والنافع ويعرفوا فضل ما بين الداء والدواء والأغذية والسموم ، كان قد كلفهم شططا وأسلمهم إلى عدوهم وشغلهم عن طاعته التى هى أجدى الأمور عليهم وأنفعها لهم ومن أجلها عدل التركيب وسوى البنية وأخرجهم من حد الطفولة والجهل إلى حد البلوغ والاعتدال والصحة وتمام الأداة والآلة ، ولذلك قال عز ذكره : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ » ولو أن الناس تركهم الله تعالى والتجربة وخلاهم وسبر الأمور وامتحان السموم واختيار الأغذية ، وهم على ما ذكرنا من ضعف الحيلة وقلة المعرفة وغلبة الشهوة وتسلط الطبيعة مع كثرة الحاجة والجهل بالعاقبة ، لأثرت فيهم السموم ولأفناهم الخلط ولأجهز عليهم الخبط ولتوالت الأدواء وترادفت الأسقام حتى تصير منايا قاتلة وحتوفا متلفة ، إذ لم يكن عندهم إلا أخذها والجهل بحدودها ومنتهى

ما يجوز منها والزيادة فيها وقلة الاحتراس من توليدها . فلما كان ذلك كذلك علمنا أن الله تعالى حيث خلق العالم وسكانه لم يخلقهم إلا لصلاحهم ولا يجوز صلاحهم إلا بتنقيتهم ، ولولا الأمر والنهي ما كان للتنقية وتعديل الفطرة معنى .

ولما أن كان لابد للعباد من أن يكونوا مأمورين منهيين بين عدو عاص ومطيع ولي ، علمنا أن الناس لا يستطيعون مدافعة طبائعهم ومخالفة أهوائهم إلا بالزجر الشديد والتوعد بالعقاب الأليم في الآجل بعد التنكيل في العاجل . إذ كان لابد من أن يكون لكونهم مأمورين منهيين من العمل معجلا والجزاء الأكبر مؤجلا ، وكان شأنهم إيثار الأدنى وتسويف الأقصى . وإذا كانت عقول الناس لا تبلغ جميع مصالحهم في دنياهم فهم عن مصالح دينهم أعجز إذ كان علم الدين مستنبطاً من علم الدنيا وإذا كان العلم مباشرة أو سبباً بالمباشرة ، وعلم الدين غامض لا يتخلص إلى معرفته إلا بالطبيعة الفائقة والعناية الشديدة مع تلقين الأئمة ولأن الناس لو كانوا يبلغون بأنفسهم غاية مصالحهم في دينهم ودنياهم لكان إرسال الرسل قليل النفع يسير الفضل . وإذا كان الناس مع منفعتهم بالعاجل وحبهم البقاء ورغبتهم في النماء وحاجتهم إلى الكفاية ومعرفتهم بما فيها من السلامة لا يبلغون بأنفسهم معرفة ذلك وإصلاحه ، وعلم ذلك جلي ظاهر سببه متصل بعضه ببعض كدرك الحواس وما لاقاها ، فهم عن التعديل والتجوير وتفصيل التأويل والكلام في مجيء الأخبار وأصول الأديان أعجز وأجدر أن لا يبلغوا منه الغاية ولا ينالوا منه الحاجة . لأن علم الدنيا أمران : إما شيء يلي الحواس ، وإما شيء يلي علم الحواس . وليس كذلك الدين .

فلما كان ذلك كذلك علمنا أنه لابد للناس من إمام يعرفهم جميع مصالحهم، ووجدنا الأئمة ثلاثة: رسول ، ونبي، وإمام . فالرسول نبي إمام ، والنبي إمام وليس برسول ، والامام ليس برسول ولا نبي . وإنما اختلفت أسماؤهم ومراتبهم لاختلاف المقومات والطبائع ، وعلى قدر ارتفاع بعضهم عن درجة بعض في العزم والتركيب

و بتغير الزمان يتغير الغرض وتتبدل الشريعة ، فأفضل الناس الرسول ، ثم النبي ، ثم الامام . فالرسول هو الذي يشرع الشريعة ويبتدىء الملة ويقيم الناس على جمل مراشدهم إذ كانت طبائعهم لاتحتمل فى إبتداء الأمر أكثر من الجمل ، ولولا أنه فى طاقة الناس قبول التلقين وفهم الاشارة لكانوا هملا ولتركوا نشراً وحشراً ولسقط عنهم الأمر والنهي ، ولكنهم قد يفضلون بين الأمور إذا أوردت عليهم وكفوا مؤنة التجربة وعلاج الاستنباط ، ولن يبلغوا بذلك القدر قدر المستغنى بنفسه المستبد برأيه المكتفى بفطنته عن إرشاد الرسل وتلقين الأئمة ، و إنما جاز أن يكون الرسول مرة عربيا ومرة عجميا وليس له بيت يخطره ولاشرف يشهر موضعه لأنه حيث كان مبتدىء الملة ومخرج الشريعة كان ذلك أشهر من شرف الحسب المذكور وأنبه من البيت المقدم ، ولأنه يحتاج من الأعلام والآيات والأعاجيب إلى الظاهر المعقول والواضح الذى لايخيل أن يشتهر مثله فى الآفاق ويستفيض فى الأطراف حتى يصدع عقل الغبي ويضعف طبع العاقل وينقض عزم المعاند وينبه من طول الرقدة ويخضع الرقاب ويضرع الخدود حتى يتواضع له كل شرف وينحل له كل أنف ، فلا يحتاج حاله معه إلى مال ولا قدره إلى حسب . وعلى قدر جهل الأمة وغباء عقولها وسوء رغبتها وخبث عادتها وغلظ محنتها وشدة حيرتها تكون الآيات : كفلق البحر والمشى على الماء وإحياء الموتى وقصر الشمس عن جريها ، ولأن النبي ليس برسول ولامبتدىء ملة ولامنشىء شريعة ، إنما هو للتأكيد والبشارة كبشارة النبي بالرسول الكائن على غابر الأيام وطول الدهر ، وتوكيد المبشر يحتاج من الأعلام إلى دون ما يحتاج إليه المبتدىء لأصل الملة والمظهر لغرض الشريعة الناقل للناس عن الضلال القديم والعادة السيئة والجهل الراسخ ، فلذلك اكتفى بشهرة أعلامه وشرائعه من شهرة بيته وشرف حسبه ، لأنه لاذكر إلا وهو خامل عند ذكره ، ولاشرف إلا وهو وضيع عند شرفه

فصل منه يحكي فيه قول من يجيز أكثر من امام واحد :

زعم قوم أن الامامة لا تجب لرجل واحد بعينه من رهط واحد ، ولا لواحد من عرض الناس و إن كان أكثرهم فضلا وأعظمهم عن المسلمين غناء بعد أن يكون فردا في الإمامة لاثاني له . وأن الناس إن تركوا أن يقيموا إماما واحدا جاز لهم ذلك ، ولم يكونوا بتركه ضالين ولا عاصين ولا كافرين . فإن أقاموه كان ذلك رأيا رأوه وغير مضيق عليهم تركه ، ولهم أن يقيموا اثنين ، وجاز لهم أن يقيموا أكثر من ذلك ، ولا بأس أن يكونوا عجما وموالي ، ولكن لابد من حاكم واحدا كان أو أكثر على حال . ولايجوز أن يكون الرجل حاكما على نفسه وقائما عليها بالحدود . ولم يقل أحد البتة أن من الحكم والحاكم بدا ، ولكنهم اختلفوا في جهاتهم ومعانيهم وقالوا : وأي ذلك كان من إقامة الواحد والاثنين أو أكثر من ذلك فعلى الناس الكف عن محارمهم وترك الأصل والتناجي فيما بينهم والتخاذل عند الحادثة تنوبهم من عدو يدهمهم من غيرهم أوخارب يخيف سبلهم من أهل دعوتهم ، وعليهم فيما شجر بينهم إعطاء النصفة من أنفسهم بلغا مابلغ في عسر الأمر ويسره ، ، وعلى كل رجل في داره و بيته وقبيلته وناحيته ومصره إذا كان مأمونا ذا صلاح إذا ثبت عنده على أخيه أوصاحبه أوجاره أوحاشيته من خلمه حد أوحكم جناه جان عليهم على نفسه أو ظلم ركبه من غيره إقامة ذلك الحكم أو الحد عليه إذا أمكنه مستحقه ، الا أن يكون فوقه كاف قد أجزى عليه ، وعلى المجترح للذنب الموجب على نفسه الحد والمستحق له إمضاء الحكم في بدنه وماله والإمكان من نفسه ، وأن لايعوذ بقوة ولايروغ بحيلة ولا يسخط حكم التنزيل فيما نزل به وفيما هو بسبيله من مال أو غيره ، وانما يجب ذلك إذا كان على الفريقين من القيم والجاني يمكنه ما كلفه الله من ذلك ، فان أبي القيم إقامة الحق والحد على الجاني بعد استيجابه والإمكان من نفسه لإقامة الحد عليه فقد عصى الله تعالى ، ولم يؤت في ذلك الأمر نفسه ، لأن الله تعالى قد بينه له وأوجبه

عليه وقرره حين أوضح له الحجة وقرب له الدلالة وطوقه المعرفة ومكنه من الفعل وقد بسطنا العذر لذوى العجز فى صدر الكلام . وإن أبى الجانى المستحق الحكم والحد الإمكان من نفسه وماله وما هو بسبيله فقد عصى الله تعالى فى ذلك كما عصاه فى ركوبه ما أوجب عليه الحد، ولم يؤت من ربه لما ذكرنا من إيضاح الحجة وإثبات القدرة .

فصل منه : وقد علمنا أن من شأن الناس الهرب إذا خافوا نزول المكروه والامتناع من إمضاء الحدود بعد وجوبها عليهم ماوجدوا السبيل إلى ذلك . وهذا سبب إسقاط الاحكام والتفاسد . وقد أمرنا أن نترك أسباب الفساد ما استطعنا وبالنظر للرعية ما أمكننا ، فوجب علينا عند الذى قلنا أنا لو لم نقم إماماً واحداً كان الناس على ماوصفنا من التسرع إلى الشر إذا طمعوا والهرب إذا خافوا . وهذا الأمر قد جرت به عامة المعرفة وفتحت عندنا فيه التجربة - قلنا عند ذلك إن الأمامة لا تجب على الناس من طريق الظنون وإشفاق النفوس، وقد رأينا أعظم منها خطراً وقدرا ونفعا فى كل جهة على خلاف ذلك وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه الله إلى أمة وقد علم أنهم يزدادون من كفرهم من قبل ذلك الرسول كفراً بجحدهم له و إخراجهم إياه وقصدهم قتله ثم لا يكون ذلك مانعا له من الارسال إليهم والاحتجاج به عليهم لمكان علمه أنهم يزدادون فسادا وبغياً ، إذ كان قدم لهم مابه ينالون مصالح دينهم ودنياهم ، وإنما على الحكيم أن يأتى الأمر الحكيم عرف ذلك عارف أم جهله جاهل . وعلى الجواد ذى الرحمة فى جوده ورحمته أن يفعل ما هو أفضل فى الجود وأبلغ فى الإحسان وألطف فى الإنعام ، من إيضاح الحجة وتسهيل الطرق والإبلاغ فى الموعظة مع ضمان الوعد بالغاية من الثواب والدوام واللذة ، والتوعد بغاية العقاب فى الدوام والمكروه ، إلى عباده الذين كلفهم طاعته وأهل الفاقة إلى عائدته ونظره وإحسانه ، فان قبل ذلك قابل فقد أصاب حظه ، وإن أبى ذلك فلنفسه ظلم . وقد صنع الله به ماهو أصلح وإن لم يستصلح العبد نفسه

قالوا : فاذا كان الله تبارك وتعالى عالما بأن القوم يزدادون فسادا عند إرسال الرسل وكان غير صارف لهم عن الإرسال إليهم إذ كان قد عدل خلقهم ومكنهم من مصلحتهم فما بال الظن والحسبان بأن الناس يتفاسدون ويتنازعون إذا لم يقيموا إماماً واحدا يوجب فرضاً لم ينطق به كتاب ولم يؤكده خبر وقد رأينا العلم بأن الناس يتفاسدون ولا يرد به فرض . !

فصل منه: وقالوا : قد رأينا أهل الصلاح والقدر عند انتشار أمر السلطان وغلبة السفلة والدعار وهيج العوام يقوم منهم العدد اليسير فى الناحية والقبيلة والدرب والمحلة فيقيم لهم حد المستطيل ويقمع شذوذ الدعار حتى يستريح الضعيف ويأمن الخائف وينتشر التاجر ويكبر جانبهم الداعر ، وإنما صلاح الناس بقدر تعاونهم وتخاذلهم ، مع أن الناس لو تركهم المتسلطون عليهم وألجئوا إلى أنفسهم حتى يتحقق عندهم أن لا كافى إلا بطشهم وحيلهم ، وحتى تكون الحاجة إلى النعب والحراسة والعلم بالمكيدة هى التى تحملهم على منع أنفسهم لذهبت عادة الكفاية وضعف الاتكال ولتعودوا اليقظة ولدربوا بالحراسة واستثاروا دفين الرأى ، لأن الحاجة تفتق الحيلة وتبعث على الروية ، وكان بالحرى أن يصلح أمر الجميع لأن طمع الراعى إذا عاد يأساً صرفه فى البغى وكان ذاك منبها للنائم ومشحذا لليقظان وضراوة للدوا كل ومزجرة للبغاة حتى ينبت عليه الصغير ويتفحل معه الكبير .

فصل منه : وزعم قوم أن الإمامة لا تجب إلا بأحد وجوه ثلاثة : إما عقل يدل على سببها ، أو خبر لا يكذب مثله ، أو أنه لا يحتمل شيئاً من التأويل إلا وجها واحداً . قالوا : فوجدنا الأخبار مختلفة والمختلف متدافع وليس فى المتدافع والمتكافىء بيان ولا فصل ، فمن ذلك قول الأنصار ، وهم شطر الناس أو أكثرهم ، مع أمانتهم على دين الله تعالى وعلمهم بالكتاب والسنة حيث قالوا عند وفاة النبى صلى الله عليه وسلم : منا أمير ومنكم أمير . فلو كان قد سبق من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك أمر ما كان أحد أعلم به منهم ، ولا أخلق للاقرار والعمل بما يلزم الصبر

عليه منهم ، بعد الذى ظهر من احتمالهم فى جنب الله تعالى والجهاد فى سبيله والنصرة لنبيه صلى الله عليه وسلم، مع الإيواء والإيثار بعد المواساة ومحاربة القريب والبعيد والعرب قاطبة وقريش خاصة . ثم الذى نطق القرآن به من تزكيتهم وتفضيلهم بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ولقبه لهم وثنائه عليهم، وهو يقول : «أما والله ما علمتكم إلا لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع » : فى أمور كثيرة . ثم لم يكن قولهم : منا أمير ومنكم أمير . من سفيه من سفهائهم ضرى إليه أمثاله منهم ، فان لكل قوم حسدة وجهالا وأحداثا وسرعانا من حدث تبعثه الغرارة والأشر ، أو رجل يحب الجاه والفتنة ، أو مغفل مخدوع ، أو غرذى حمية يؤثر حسبه ونسبه على دين الله تعالى وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم . ولا كان ذلك القول إذ كان من عليتهم في الواحد الشاذ القليل ، بل كان فى ذوى أحلامهم والقدم منهم ، ثم كان المرشح والمأمول عندهم سعد بن عبادة سيداً مطاعاً ذا سابقة وفضل وحلم ونجدة وجاه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم واستعانة به فى الحوادث والمهم من أمره، ثم كان فى الدهم من الأنصار والوجوه والجهور من الأوس والخزرج ، فكيف يكون سبق من النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا أمر يقطع عهدا ويوجب رضا وهؤلاء الأمناء على الدين والقوام به قد قاموا هذا المقام وقالوا هذا المقال . قالوا : فان قال قائل : فان القوم كانوا على طبقات من ذاكر متعمد ، أو ناس قد كان سقط عن ذكره وحفظه ، ومن رجل كان غائباً عن ذلك القول والتأكيد الذى كان من النبى صلى الله عليه وسلم فى إقامة إمام يقدم فى أيام وفاته ، ومن رجل قدم فى الإسلام لم يكن من حمال العلم ، فاذكرهم أبو بكر وعمر فذكروا ، ووعظاهم فاتعظوا ، فقد كان فيهم الناشىء الفاضل الذى يزجره الذكر وينزع إذا بُصِّر ، والمعتمد الذى لم يبلغ من لجاجه وتتايعه وركوب ردعه ماتؤثر معه التصميم على حسن الرجوع عند الموعظة الحسنة والتخويف بفساد العاجل ، فى كثير ممن لم يكن له فى الإسلام القدر النبيه إما للغفلة وإما للإبطاء عنه وإما للخمول فى قومه مع إسلامه وصحة

عقده ، فداواهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة يوم السقيفة حين قالوا : نحن الأئمة وأنتم الوزراء ، وحيث رووا لهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الأئمة من قريش. فلما استرجعوا رجعوا . قلنا : الدليل على أن القوم لم يروا فى كلام أبى بكر وعمر حجة عليهم وأن انصرافهم عما اجتمعوا له لم يكن لأنهم رأوا أن ذلك القول من أبى بكر وعمر وأبى عبيدة بن الجراح حجة ، غضب رئيسهم وخروجه من بين أظهرهم مراغما فى رجال من رهطه مع تركه بيعة أبى بكر رضى الله عنه وتشنيعه عليهم بالشام ، وقد قال قيس بن سعد بن عبادة وهو يذكر خذلان الأنصار لسعد بن عبادة واستبداد الرهط من قريش عليهم بالأمر .

وَخَبَّرْتُمُونَا أَنَّمَا الأَمْرُ فِيكُمْ ... خِلَافَ رَسُولِ اللهِ يَوْمَ التَّشَاجُرِ
وَأَنَّ وَزَارَاتِ الْخِلَافَةِ دُونَكُم ... كَمَا جَاءَكُمْ ذُو الْعَرْشِ دُونَ الْعَشَائِرِ
فَهَلَّا وَزِيراً وَاحِـداً تَجْتَبُونَهُ ... بِغَيْرِ وِدَادٍ مِنْكُمْ وَأَوَاصِرِ
سَقَى اللهُ سَعْدًا يَوْمَ ذَاكَ وَلَا سَقَى ... عَوَاجِلَهُ هَابَتْ صُدُورُ النَّوَابِرِ

وقال رجل من الأنصار ودعاه على رضى الله عنه الى عونه ونصرته إما يوم الجمل أو يوم صفين :

مَالِي أُقَاتِلُ عَنْ قَوْمٍ إِذَا قَدِرُوا ... عُدْنَا عَدُوًّا وَكُنَّا قَبْلُ أَنْصَارَا
وَيْلٌ لَهَا أُمَّةٌ لَوْ أَنَّ قَائِدَهَا ... يَتْلُو الْكِتَابَ وَيَخْشَى النَّارَ وَالْعَارَ
أَمَّا قُرَيْشٌ فَلَمْ نَسْمَعْ بِمِثْلِهِمِ ... غَدْرًا وَأَعْجَبَ فِي الْإِسْلَامِ آثَارَا
إِلَّا تَكُنْ عُصْبَةٌ جَازُوا نَبِيَّهُمُ ... بِالْعُرْفِ عُرْفًا وَبِالْإِنْكَارِ إِنْكَارَا
أَبَا عُمَارَةَ وَالثَّاوِي بِبَلْقَعَةٍ ... فِي يَوْمِ مُؤْتَةَ لَا يَنْفَكُّ طَيَّارَا

أبو عمارة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه وقد كان يكنى أبا يعلى . والثاوى فى يوم مؤتة جعفر بن أبى طالب . وقال رجل من الأنصار من ولد أبى زيد القارى. وذكر أمر الانصار وأمر قريش — :

دَعَاهَا إِلَى اسْتِبْدَادِهَا وَحُقُودِهَا ... تَذَكُّرُ قَتْلَى فِى الْقَلِيبِ تَكَبْكَبُوا

هُنَالِكَ قَتْلَى لاتُؤَدَّى دِيَاتُهُمْ وَلَيْسَ لِبَاكِيهَا سِوَى الصَّبْرِ مَذْهَبُ
فَإِنْ تَغْضَبِ الْأَبْنَاءُ مِنْ قَتْلِ مَنْ مَضَى فَوَاللهِ مَا جِئْنَا قَبِيحاً فَتَعْتَبُوا

فصل منه : قد حكينا قول من خالفنا فى وجوب الامامة وتعظيم الخلافة ، وفسرنا وجوه اختلافهم واستقصينا جميع حججهم إذ كان على عذر لمن غاب عنه خصمه وقد تكفل بالإخبار عنه في ترك الحيطة له والقيام بحجته ، كما أنه لاعذر له فى التقصير عن إفساد مايخالفه وكشف خطأ من يضاده عند من قرأ كتابه وتفهم حجته ، لأن أقل مايزيل عذره ويزيح علته أن يكون قول خصمه قد استهدف لعقله وأضجر لسانه وقد مكنه من نفسه وسلطه على إظهار عورته، فإذا استراح من شغب المنازع ومداراة المستمع لم يبق إلا أن يقوى على خلافه أو يعجز عنه ، ومن شكر المعرفة بمعايب الناس ومراشدهم ومضارهم ومنافعهم أن يحتمل ثقل مؤنتهم وتقريعهم وأن يتوخى إرشادهم وإن جهلوا فضل من يسدى إليهم ، ولن يصان العلم بمثل بذله ، ولن تستبقى النعمة فيه بمثل نشره .

واعلم أن قراءة الكتب أبلغ فى إرشادهم من تلاقيهم إذ كان مع التلاقي يقوى التصنع ويكثر التظالم وتفرط المضرة وتنبعث الحمية ، وعند المزاحمة تشتد الغلبة وشهوة المباهاة والاستحياء من الرجوع والأنفة من الخضوع ، وعن جميع ذلك تحدث الضغائن ويظهر التباين

وإذا كانت القلوب على هذه الصفة وبهذه الحالة امتنعت من المعرفة وعميت عن الدلالة ، وليست فى الكتب علة تمنع من درك البغية وإصابة الحجة لأن المتوحد بقراءتها والمتفرد بفهم معانيها لا يباهى نفسه ولا يغالب عقله ولا يعز خصمه . والكتاب قد يفضل ويرجح على واضعه بأمور : منها أن الكتاب يقرأ بكل مكان وفى كل زمان على تفاوت الأعصار وبعد مابين الأمصار ، وذلك أمر يستحيل فى الواضع ولا يطمع فيه مع التنازع ، وقد يذهب العالم وتبقى كتبه ويفنى ويبقى أثره ، ولولا مارسمت لنا الأوائل فى كتبها وخلفت من عجيب

حكمها ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ماغاب عنا وفتحنا بها المستغلق علينا فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم وأدركنا مالم نكن ندركه إلا بهم ، لقد خس حظنا فى الحكمة وانقطع سبيلنا إلى المعرفة ، ولو ألجئنا إلى قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا ومنتهى تجاربنا بما أدركته حواسنا وشاهدته نفوسنا لقلت المعرفة وقصرت الهمة وضعفت المنة ، فاعتقم الرأى ومات الخاطر وتبلد العقل واستبد بنا سوء العادة . وأكثر من كتبهم نفعا وأحسن مما تكلفوا موقعا كتاب الله تعالى الذى فيه الهدى والرحمة والإخبار عن كل عبرة وتعريف كل سيئة وحسنة . فينبغى أن يكون سبيلنا فيمن بعدنا سبيل من قبلنا فينا ، مع أنا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا . فما ينتظره الفقيه بفقهه والمحتج لدينه والذاب عن مذهبه ومواسى الناس فى معرفته وقد أمكن القول وأطرق السامع ونجا من التقية وهبت ريح العلماء .!؟

فصل منه : واعلم أن قصد العبد بنعم الله تعالى إلى مخالفته غير مخرج إنعام الله عليه ولا محول إحسانه إليه إلى غير معناه وحقيقته ، ولم يكن إحسان الله فى إعطائه الأداة وتبيين الحجة لينقلبا إفسادا و إساءة ، لأن المعان على الطاعة عصى بالمعونة وأفسد بالانعام وأساء بالإحسان . وفرق بين المنعم والمنعم عليه ، لأن المنعم عليه يجب أن يكون شكورا ولحق النعمة راعيا ، والمنعم منفرد بحسن الإنعام وشريك فى جميل الشكر ، ولأن المنعم أيضا هو الذى حبب الشكر إلى فاعله بالذى قدم إليه من إحسانه وتولى من مساره ، ولذلك جعلوا النعمة لقاحا والشكر ولادا . و إنما مثل إعطاء الآلة والتكليف لفعل الخير مثل رجل تصدق على فقير ليستر عورته و يقيم من أود صلبه ولصرف فى منافعه ولا يكون إنفاق الفقير ذلك الشىء فى الفساد والخلاف والفواحش لينقلب إحسان المتصدق إساءة ، و إنما هذا بصواب الرأى الذى لا ينقلب و إن أنجح صاحبه ، وقد يؤتى الرجل مع حزمه ولا يكون مذموما ويخطىء بالاضاعة ولا يكون محمودا .

فصل منه : ولم يكن الله تعالى ليضع العدل ميزاناً بين خلقه وعياراً على عباده فى نظر عقولهم فى ظاهرمافرض عليهم و يسر خلافه و يستخفى بضده ، ويعلم أن قضاءه فيهم غير الذي فطرهم على استحسانه وتحبب إليهم به فى ظاهر دينه ، والذى استوجب به الشكر على جميع خلقه .

فصل منه : وإن لم يكن العبد على ماوصفنا من الاستطاعة والمقدرة والحال التى هى أدعى إلى المصلحة ما كان متروكا على طباعه ودواعى شهواته دون تعديل طبعه وتسوية تركيبه. ولذلك أسباب نحن ذاكروها وجاعلوها حجة فى إقامة الإمامة وأن عليها مدار المصلحة وأن طبع البشر يمتنع من الاخبار إلا على ما نحن ذاكروه فنقول : إنا لما رأينا طبائع الناس وشهواتهم من شأنها التقلب إلى هلكتهم وفساد دينهم وذهاب دنياهم وإن كانت العامة أسرع إلى ذلك من الخاصة فكل لا تنفك طبائعهم من حملهم على مايرديهم مالم يردوا بالقمع الشديد فى العاجل ومن القصاص من العادل ، ثم التنكيل فى العقوبة على شر الخيانة وإسقاط القدر وإزالة العدالة مع الأسماء القبيحة والالقاب الهجينة ، ثم بالاخافة الشديدة والحبس الطويل والتغريب عن الوطن ، ثم الوعيد بنار الأبد مع فوت الجنة ، وإنما وضع الله تعالى هذه الخصال لتكون لقوة العقل مادة ولتعديل الطبائع معونة ، لأن العبد إذافضلت قوى طبائعه وشهواته على عقله ورأيه ألفى بصيرا بالرشد غير قادر عليه ، فإذا احتوشته المخاوف كانت مواد لزواجر عقله وأوامر رأيه ، فإذا لم يكن فى حوادث الطبائع ودواعى الشهوات وحب العاجل فضل على زواجر العقل وأوامر الغى كان العبد ممنعا من الغى قادرا عليه ، لأن الغضب والحسد والبخل والجبن والغيرة وحب الشهوات والنساء والمكاثرة والعجب والخيلاء وأنواع هذه إذا قويت دواعيها لأهلها واشتدت جواذبها لصاحبها ثم لم يعلم أن فوقه ناقما عليه وأن له منتقما لنفسه من نفسه أو مقتضيا منه لغيره ، كان ميله وذهابه مع جواذب الطبيعة ودواعى الشهوة طبعا لا يمتنع معه وواجبا لا يستطيع غيره . أو ما رأيته كيف يخرق فى ماله ويسرع فيما أثلت له رجاله وشدت له أوائله من غير أن يرى

العوض وجها والخلف سببا فى عاجل دينه ولا آجل دنياه حتى يكون والى المسلمين هو الذى يحجر عليه ليكون مضض الحجر وذل الحظر وغلظة الجفوة واللقب القبيح وتسليط الأشكال مادة للذى معه من معرفته و بقية عقله !

فصل منه : وقد يكون الرجل معروفا بالنزق مذكورا بالطيش مستهاما باظهار الصولة، حتى يتحامى كلامه الصديق و يداريه الجليس و يترك مجازاته الكريم، للذى يعرفون من شدته و بوادر حدته وشدة تسعره والتهابه وكثرة فلتاته ، ثم لا يلبث أن يحضر الوالى الصليب والرجل المنيع فيلفى ذليلا خاضعا أو حليما وقورا أو أديبا رفيقا أو صبورا محتسبا ، وقد نجده يجهل على خصمه و يستطيل على منازعه ويهم بتناوله والغدر به فاذا عرف له حماة تكفيه ورجالا تحميه وجاها يمنعه ومالا يصول به ، طامن له من شخصه و ألان له من جانبه وسكن من حركته وأطفأ نار غضبه ، أو ما علمت أن الخوف يطرد السكر و يميت الشهوة و يطفىء الغضب و يحط الكبر و يذكر بالعاقبة و يساعد العقل و يعاون الرأى و ينبت الحيلة و يبعث على الروية حتى يعتدل به تركيب من كان مغلوبا على عقله ممنوعا من رأيه بسكر الشباب وسكر الغنى و إهمال الأمر وثقة العز و بأو القدرة . . ! ؟

فصل منه : و إنما أطنبت لك فى تفسير هذه الأحوال التى عليها الوجود والعبرة لتعلم أن الناس لو تركوا شهواتهم وخلوا أهواءهم ، وليس معهم من عقولهم إلا حصة الغريزة ونصيب التركيب ثم أخلوا من المرشدين والمؤدبين والمعترضين بين النفوس وأهوائها و بين الطبائع وغلبتها من الأنبياء وخلفائهم لم يكن فى قوى عقولهم ما يداوون به أدواءهم ويجبرون به من أهوائهم و يقوون به لمحاربة طبائعهم و يعرفون به من جميع مصالحهم ، وأى داء هو أردى من طبيعة تردى وشهوة تطغى ، ومن كان لا يعد الداء إلا ما كان مؤلما فى وقته ضاربا على صاحبه فى سواد ليله و بياض نهاره فقد جهل معنى الداء . وجاهل الداء جاهل بالدواء .

فصل منه : ولكنا نقول : لا يجوز أن يلى أمر المسلمين على ظاهر الرأى

والحزم والحيطة أكثر من واحد ، لأن الحكام والسادة إذا تقاربت أقدارهم وتساوت غاياتهم قويت دواعيهم إلى طلب الاستعلاء واشتدت منافستهم فى الغلبة . وهكذا جرب الناس من أنفسهم فى جيرانهم الأدنين، فى الأصهار و بين الأعمام والمتقاربين فى الصناعات كالكلام والنجوم والطب والفتيا والشعر والنحو والعروض والتجارة والصياغة والفلاحة أنهم إذا تدانوا فى الأقدار وتقاربوا فى الطبقات قويت دواعيهم إلى طلب الغلبة واشتدت جواذبهم فى حب المباينة والاستيلاء على الرياسة . ومتى كانت الدواعى أقوى كانت النفس إلى الفساد أميل والعزم أضعف وموضع الروية أشغل والشيطان فيهم أطمع ، وكان الخوف عليهم أشد وكانوا بموافقة المفسد أحرى و إليه أقرب . و إذا كان ذلك كذلك فأصلح الأمور للحكام والقادة إذا كانت النفوس ودواعيها ومجرى أفعالها على ما وصفنا أن ترفع عنهم أسباب التحاسد والتغالب والمباهاة والمنافسة ، وأن ذلك أدعى إلى صلاح ذات البين وأمن البيضة وحفظ الأطراف . و إذا كان الله تبارك وتعالى قد كلف الناس النظر لأنفسهم واستيفاء النعمة عليهم وترك الخطر بالملكة والتغرير بالأمة وليس عليهم مما يمكنهم أكثر من الحيطة والتباعد من التغرير ، ولا حال أدعى إلى ذلك أكثر مما وصفنا لأنه أشبه الوجوه بتمام المصلحة والتمتع بالأمن والنعمة .

فصل منه : فلما كان ذلك كذلك علمنا أنه إذا كان القائم بأمور المسلمين بائن الأمر متفرداً بالغاية من الفضل ، كانت دواعى الناس إلى مسابقته ومجاراته أقل، ولم يكن الله ليطبع الدنيا وأهلها على هذه الطبيعة و يركب أهلها هذا التركيب حتى تكون إمامة الواحد من الناس أصلح لهم إلا وذلك الواحد موجود عند إرادتهم له وقصدهم إليه ، لأن الله لا يلزم الناس فى ظاهر الرأى والحيطة إقامة المعدوم وتشييد المجهول ، لأن على الناس التسليم وعلى الله تعالى قصد السبيل . وهل رأيتم ملكين أو سيدين فى جاهلية أو إسلام من العرب جميعا أو من العجم لا يتحيف أحدهما من سلطان صاحبه ولا ينهك أطرافه ولا يساجله الحروب ، إذ كل واحد منهما يطمع فى حد صاحبه وطرفه لتقارب الحال واستواء القوى، كما جاءت الأخبار عن

ملوك الطوائف كيف كانت الحروب راكدة وأمرهم مريج ، والناس نهب ليس لهم ثغر إلا معطل ولا طرف إلا منكشف ، والناس فيما بينهم مشغولون بأنفسهم عن ملوكهم من عز بز ، مع إنفاق المال وشغل البال وشدة الخطر بالجميع والتغرير بالكل.

فصل منه : فإن قالوا: فما صفة أفضلهم؟ قلنا: أن يكون أقوى طبائعه عقله ، ثم يصل قوة عقله بشدة الفحص وكثرة السماع ، ثم يصل شدة فحصه وكثرة سماعه بحسن العادة ، فإذا جمع إلى عقله علما وإلى علمه حزما وإلى حزمه عزماً فذلك الذي لا بعده ، وقد يكون الرجل دونه فى أمور وهو يستحق مرتبة الإمامة ومنزلة الخلافة ، غير أنه على حال لا بد من أن يكون أفضل أهل دهره . لأن من التعظيم لمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يقام فيه إلا أشبه الناس به فى كل عصر ، ومن الاستهانة به أن يقام فيه من لا يشبهه وليس فى طريقته ، وإنما يشبه الامام الرسول بأن يكون آخذاً بسيرته منه ، فأما أن يقار به أو يدانيه فهذا مالا يجوز ولا يسع تمنيه والدعاء به .

فصل منه : وإذا كان قول المهاجرين والأنصار والذين جرى بينهم التنافس والمشاحة على ماوصفنا فى يوم السقيفة، ثم صنيع أبى بكر وقوله لطلحة فى عمر، وصنيع عمر فى وضع الشورى وتوعده لهم بالقتل إن هم لم يقيموا رجلا قبل انقضاء المدة ونجوم الفتنة ، ثم صنيع عثمان وقوله وصبره حتى قتل دونها ولم يخلعها ، وأقوال طلحة والزبير وعائشة وعلى رضى الله تعالى عنهم ، ليست بحجة على ما قلنا . فليست فى الأرض دلالة ولا حجة قاطعة . وفى هذا الباب الذى وصفنا من حالاتهم وبينا دليل على أنهم كانوا يرون أن إقامة الإمام فريضة واجبة ، وأن الشركة عنها منفية ، وأن الإمامة تجمع صلاح الدين وإيثار خير الآخرة والأولى .

فصل منه : وأى مذهب هو أشنع وأى قول هو أفحش من قول من قال : لا بد للشاهد من أن يكون ظاهراً عدلا مأمونا ، ولا يأمن أن يكون القاضى جائرا قطعا فاجرا ؟ وهذا لا يشبه حكم الحكيم وصفة الحليم ونظر المرشد وترتيب العالم .

٧

من رسالته فى صناعات القواد

قال أبو عثمان :

أرشدك الله للصواب ، وعرفك فضل أولى الألباب ، ووهب لك جميل الآداب ، وجعلك ممن يعرف عز الأدب كما يعرف زوائد الغنى . دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله فقلت له: يا أمير المؤمنين ، فى اللسان عشر خصال : أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق يرد به الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الأشياء ، وواعظ يعرف به القبيح ، ومعز ترد به الأحزان ، وخاصة تزهى بالصنيعة ، وملهى يونق الأسماع . وقال الحسن البصرى : إن الله تعالى رفع درجات اللسان فليس من الأعضاء شىء ينطق بذكره غيره . وقال بعض العلماء : أفضل شىء للرجل عقل يولد معه فإن فاته ذلك فموت يجتث أصله . وقال خالد بن صفوان : ما الإنسان لولا اللسان إلا ضالة مهملة ، أو بهيمة مرسلة ، أو صورة ممثلة . وذكر الصمت والمنطق عند الأحنف فقال رجل : ألصمت أفضل وأحمد . فقال الاحنف : صاحب الصمت لا يتعداه نفعه، وصاحب المنطق ينتفع به غيره ، والمنطق الصواب أفضل . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحم الله امرأ أصلح من لسانه » قال : وسمع عمر بن عبد العزيز رجلا يتكلم فأبلغ فى حاجته فقال : هذا والله السحر الحلال . وقال مسلمة بن عبد الملك : إن الرجل يسألنى الحاجة فتستجيب نفسى له بها فاذا لحن انصرفت نفسى عنها . وتقدم رجل إلى زياد فقال : أصلح الله الامير ، إن أبينا هلك ، وإن أخونا غصبنا ميراثه ! فقال زياد : ألذى ضيعت من لسانك أكثر من الذى ضيعت من مالك . وقال بعض الحكماء لاولاده : يابنى أصلحوا من ألسنتكم فان الرجل لتنوبه النائبة فيستعير الدابة والثياب ولا يقدر أن يستعير اللسان .

وقال شبيب بن شيبة إذ رأى رجلا يتكلم فأساء القول فقال : يابن أخى : المال الصالح خير من المال المضاعف . وقال الشاعر :

وَكَائِنْ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ   زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِى التَّكَلُّمِ
لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ   فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

فحض يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كل الأدب، فإنك إن أفردتهم بشىء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه . وذلك أنى لقيت حزاما حين قدم أمير المؤمنين من بلاد الروم فسألته عن الحرب كيف كانت فقال : لقيناهم فى مقدار صحن الاصطبل فما كان إلا بمقدار ما يحس الرجل دابته حتى تركناهم فى أضيق من ممرغة ، فقتلناهم وجعلناهم كأنهم أنابير سرجين ، فلو طرحت روثة ما سقطت إلا على ذنب دابة . وعمل أبياتا فى الغزل فكانت :

إِنْ يَهْدِمِ الصَّبْرُ مِنْ جِسْمِى مَعَالِفَهُ   فَإِنَّ قَلْبِى بِقَتِّ الْوَجْدِ مَعْمُورُ
إِنِّى امْرُؤٌ فِى وِثَاقِ الْحُبِّ يَكْبَحُهُ   لِجَامُ هَجْرٍ عَلَى الأَسْقَامِ مَعْذُورُ
عَلِّلْ بِجُلٍّ نَبِيلٍ مِنْ وِصَالِكَ أَوْ   حُسْنِ الرُّقَادِ فَإِنَّ النَّوْمَ مَأْسُورُ
أَصَابَ حَبْلُ شِكَالِ الْوَصْلِ يَوْمَ بَدَا   وَمِبْضَعُ الصَّدِّ فِى كَفَّيْهِ مَشْهُورُ
لَبِسْتُ بُرْقُعَ هَجْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ فِى   إِصْطَبْلِ حُبٍّ فَرَوْثُ الْحُبِّ مَنْثُورُ

قال : وسألت بختيشوع الطبيب عن مثل ذلك فقال : لقيناهم فى مقدار صحن البيمارستان فما كان إلا بمقدار ما يختلف الرجل مقعدين حتى تركناهم فى أضيق من محقنة ، فقتلناهم ، فلو طرحت مبضعا ما سقط إلا على أكحل رجل . وعمل أبياتا فى الغزل فكانت :

شَرِبَ الْحُبُّ دُسْتَجَ الْهَجْرِ فَاسْتَطْـ   لَقَ بَطْنُ الْوِصَالِ بِالإِسْهَالِ
وَرَمَانِى حُبِّى بِقُولَنْجِ بَيْنٍ   مُذْهِلٍ عَنْ مَلاَمَةِ الْعُذَّالِ
وَفُؤَادِى مُبَرْسَمٌ ذُو سَقَامٍ   بَائِنِ السُّوءِ ضَلَّ عَنِّى احْتِيَالِى

اَ . . . . . . دنَ مَابي وَجَالِينو   سَ بَاتَا مِنهُ بأَكْثَفِ بَالِ

قال : وسألت جعفر الخياط عن مثل ذلك فقال : لقيناهم فى مقدار سوق الخلقان فما كان إلا بمقدار مايخيط الرجل درزا أو درزين حتى تركناهم فى أضيق من جُرُبَّان، فقتلناهم ، فلو طرحت إبرة ماسقطت إلا على رأس رجل . وعمل أبياتا فى الغزل فكانت :

فَتَقْتَ بالهَجْرِ دُرُوزَ الهَوَى   إذْ وَخَزَتْنِى إبْرَةُ الصَّدِّ
فَالقَلْبُ مِن ضِيقِ سَرَاوِيلِهِ   يَعْثُرُ فى بَاْئكَةِ الجُهْدِ
جَشَّمْتَنِى ياطَيْلَسَانُ النَّوَى   مِنكَ عَلى سُوزَكنِى وجدِى
أَزْرَارُ عَيْنِى فِيكَ مَوْصُولَةٌ   بِعُرْوَةِ الدَّمْعِ على خَدِّي
يَا كُسْتُبَانُ القَلْبِ يَازِيقَهُ   عَذَّبَنِى التِّذْكَارُ بالوَعْدِ
قَدْ قَصَّ مَا يَعْهَدُ مِنْ وَصْلِهِ   مِقْرَاضُ بَيْنٍ مُرْهَفُ الحَدِّ
يَاحُزَّةَ النَّفْسِ وَيَا ذَيْلَهَا   مَالِى مِنْ وَصْلِكَ مِنْ بُدُّ
وَيَاجُرُبَّانُ سُرُورِى وَيَا   جَيْبُ حَيَاتِى حُلْتَ عَنْ عَهْدِى

قال : وسألت إبراهيم بن إسحٰق عن مثل ذلك — وكان زراعا — فقال : لقيناهم فى مقدار جريبين من الأرض فما كان إلا بمقدار مايسقى الرجل من سانية حتى تركناهم فى أضيق من باب وكأنهم أنابير سنبل . فقتلناهم . فلو طرح فدان ماسقط إلا على ظهر ثور . وعمل أبياتا فى الغزل فكانت :

زَرَعْتُ هَوَاهُ فى كِرَابِ مِنَ الصَّفَا   وَأَسْقَيْتُهُ مَاءَ الدَّوَامِ عَلَى العَهْدِ
وَسَرْجَنْتُهُ بالوَصْلِ لَمْ آلُ جَاهِدًا   لِيَحْرِزَهُ السِّرْجِينُ مِنْ آفَةِ الصَّدِّ
فَلَمَّا تَعَالَى النَّبْتُ وَاخْضَرَّ يَانِعًا   جَرَى يَرَقَانُ البَيْنِ فى سُنْبُلِ الوُدِّ

قال : وسألت فرجا الرُّخَّجِىَّ عن مثل ذلك — وكان خبازا — فقال : لقيناهم فى مقدار بيت التنور فما كان إلا بمقدار مايخبز الرجل خمسة أرغفة حتى تركناهم فى

أضيق من جحر تنور فقتلناهم ، فلو سقطت جمرة ما وقعت إلا على جفنة خباز .
وعمل أبياتا فى الغزل فكانت :

قَدْ عَجَنَ الهجرُ دَقيقَ الهوَى   فى جَفْنَةٍ مِنْ خَشَبِ الصدِّ
وَاختمرَ البَيْنُ فنَارُ الجوَى   تُذْكَى بسرْجِيْنٍ مِنَ البُعْدِ
وَأَقبلَ الهَجْرُ بِجرَاكِهِ   يَفْحَصُ عَنْ أَرْغِفَةِ الوَجْدِ
جَرَادِقُ الموْعِدِ مَسْمُومَةٌ   مَثْرُودَةٌ فى قَصْعَةِ الجُهْدِ

قال : وسألت عبد الله بن عبد الصمد عن مثل ذلك — وكان مؤدبا — فقال : لقيناهم فى مقدار صحن الكتاب فما كان الا بمقدار ما يقرأ الصبى إمامه حتى ألجأناهم إلى أضيق من رقم ، فقتلناهم ، فلو سقطت دواة ما وقعت إلا فى حجر صبى .
وعمل أبياتا فى الغزل فكانت :

قَدْ أَمَاتَ الهَجْرُ صِبْيَانَ قَلْبِى   فَفؤَادِى معذَّبٌ فى خَبَالِ
كَسَرَ البَيْنُ لوحَ كِبْدِى فمَا أَطْ   طمعُ مِمَّنْ هَوَيْتُهُ فى وصَالِ
رُفِعَ الرَّقْمُ مِنْ حَيَاتِى وَقَدْ أَطْلَا   قَ مَوْلَاىَ حَبلَهُ مِنْ حِبَالِى
نَقَشَ الحبُّ فى فؤَادِى لَوْحَيْنِ فَأَغْرَى   جَوَانحى بالضَّلَالِ
لَاقَ قَلْبِى مِدَادَهُ فمدَادُ العَيْنِ   مِنْ هَجْرِ مَالِكِى فى انْهِمَالِ
كُرْسُفُ البَيْنِ سَوَّدَ الوَجْهَ مِنْ وَصْلِى   فَقَلْبِى بِالبَيْنِ فى أَشْغَالِ

قال : وسألت على بن الجهم بن بريد عن مثل ذلك — وكان صاحب حمام — فقال : لقيناهم فى مقدار بيت النار فما كان إلا بمقدار ما يغسل الرجل رأسه حتى تركناهم فى أضيق من باب الأتون فقتلناهم ، فلو طرحت ليفة ما وقعت إلا على رأس رجل . وعمل أبياتا فى الغزل فكانت :

يَانُورَةَ الهَجْرِ جِلْوتِ الصفَا   لَمَّا بَدَتْ لى لِيفَةُ الصدِّ
يَامِئْزَرَ الأَسْقَامِ حَتَّى مَتَى   تَنْقَعُ فى حَوْضٍ مِنَ الجُهْدِ

أَوْقدْ أَتُونَ الوَصْلِ لِى مَرَّةً مِنْكَ بِزِنْبِيلٍ مِنَ الوِدِّ
فَالبَيْنُ مُذْ أَوْقَدَ حَمَّامَهُ قَدْ هَاجَ قَلْبِي مَسْلَخُ الوَجْدِ
أَفْسَدَ خَطْمِى الصَّفَا وَالهَوَى نُخَالَةُ النَّاقِضِ لِلعَهْدِ

قال: وسألت الحسن بن أبى قامة عن مثل ذلك — وكان كناسا — فقال: لقيناهم فى مقدار سطح الايوان فما كان إلا بمقدار ما يكنس الرجل زنبيلا حتى تركناهم فى أضيق من جحر المخرج، ثم قتلناهم بقدر ما يشارط الرجل على كنس كنيف، فلو رميت بابنة وردان ماسقطت إلا على فم بالوعة. وعمل أبياتا فى الغزل فكانت:

أَصْبَحَ قَلْبِي بَرْبَخًا لِلهَوَى تَسْلَحُ فِيهِ فَقْحَةُ الهَجْرِ
بَنَاتُ وَرْدَانِ الهَوَى لِلبِلَا أَصْبَرُ مِنْ ذَا الوَجْدِ فِى صَدْرِى
خَنَافِسُ الهِجْرَانِ أَثْكَلْنَنِى يَوْمَ تَوَلَّى مُعْرِضًا صَبْرِى
أَسْقَمَ دِيدَانُ الهَوَى مُهْجَتِى إِذْ سَلَحَ البَيْنُ عَلَى عُمْرِى

قال: وسألت أحمد الشرابى عن مثل ذلك — وكان خمارا — فقال: لقيناهم فى مثل صحن الشراب فما كان إلا بمقدار ما يصفى الرجل دنًّا حتى تركناهم فى أضيق من رطلية. فقتلناهم، فلو رميت تفاحة ما وقعت إلا على أنف سكران. وعمل أبياتا فى الغزل فكانت:

شَرِبْتُ بِكَأْسِ لِلهَوَى نَبْذَةً فَمَا وَرَقْرَقْتُ خَمْرَ الوَصْلِ فِى قَدَحِ الهَجْرِ
فَمَالَتْ دِنَانُ البَيْنِ يَدْفَعُهَا الصِّبَا فَكَسَّرْنَ قَرَّابَاتِ حُزْنِى عَلَى صَدْرِى
وَكَانَ مِزَاجُ الكَأْسِ قُلَّةَ لَوْعَةٍ وَدَوْرَقَ هِجْرَانٍ وَقَنِّينَتَىْ غَدْرِ

قال: وسألت عبد الله بن طاهر عن مثل ذلك — وكان طباخا — فقال لقيناهم فى مقدار صحن المطبخ فما كان إلا بمقدار ما يشوى الرجل حملا حتى تركناهم فى أضيق من موقد نار. فقتلناهم. فلو سقطت مغرفة ما وقعت إلا فى قدر. وعمل أبياتا فى الغزل فكانت:

يَا شَبِيهَ الْفَالُوذِ فِي حُمْرَةِ الْخَدِّ وَلَوْزِينَجَ النُّفُوسِ الظِّمَاءِ
أَنْتَ جَوْزِينَجُ النُّفُوسِ وَفِي الْآ بِنِ كَلِينِ الْخَبِيصَةِ الْبَيْضَاءِ
عُدْتَ مُسْتَهْتَرًا بِسِكْبَاجِ وُدِّ بَعْدَ جَوْذَابَةٍ بِجَنْبِ شِوَاءِ
يَا نَسِيمَ الْقُدُورِ فِي يَوْمِ عُرْسٍ وَشَبِيهَا بِشَهْدَةٍ صَفْرَاءِ
أَنْتَ أَشْهَى إِلَى الْقُلُوبِ مِنَ الزُّ بْدِ مَعَ الْأَرْسِيَانِ بَعْدَ الْغَدَاءِ
أَطْعَمِ الْحَاسِدِينَ أَنْوَاعَ غَمٍّ فِي قِصَاعِ الْأَحْزَانِ وَالْأَدْوَاءِ
قَدْ غَلَى الْقَلْبُ مُذْ نَأَتْ عَنْكَ دَارِي غَلَيَانَ الْقُدُورِ عِنْدَ الْسِلَاءِ
هَامَ قَلْبِي لَمَّا كَسَرْنَ غَضَارَا تِ سُرُورِي مَغَارِفُ الشَّحْنَاءِ
فَتَفَضَّلْ عَلَى الْعَمِيدِ بِيَوْمٍ جُدْ بِوَصْلٍ تَكَبَّتْ بِهِ أَعْدَائِي
وَتَفَضَّلْ عَلَى الْكَئِيبِ بِرَايَا وَرْدِ وَصْلٍ يَشْفِي مِنَ الْأَدْوَاءِ

قال : وسألت أطال الله بقاءك محمد بن داود الطوسى عن مثل ذلك — وكان فراشا — فقال : لقيناهم فى مقدار صحن بساط فما كان إلا بمقدار ما يفرش الرجل بيتا حتى تركناهم فى أضيق من منصة ، فقتلناهم ، فلو سقطت مخدة ما وقعت إلا على رأس رجل . ثم عمل أبياتا فى الغزل فكانت :

كَسَرَ الْهَجْرُ سَاحَةَ الْوَصْلِ لَمَّا عَثَرَ الْبَيْنُ فِي وُجُوهِ الصَّفَاءِ
وَجَرَى الْبَيْنُ فِي مَرَافِقِ رِيشٍ هِيَ مَذْخُورَةٌ لِيَوْمِ اللِّقَاءِ
فَرَشَ الْهَجْرُ فِي بُيُوتِ هُمُومٍ تَحْتَ رَأْسِي وِسَادَةَ الْبُرَحَاءِ
حِينَ هَيَّأْتُ بَيْتَ خَيْشٍ مِنَ الْوَ صْلِ لِأَبْوَابِهِ سُتُورُ الْبَهَاءِ
فَرَشَ الْهَجْرُ لِي بُيُوتَ مُسُوحٍ مُتَكَاتُهَا مِنَ الْحَصْبَاءِ
رِقَّ لِلصَّبِّ مِنْ بَرَاغِيثِ وَجْدٍ تَعْتَرِي جِلْدَهُ صَبَاحَ مَسَاءِ

قال : فضحك المعتصم حتى استلقى ثم دعا مؤدب ولده فأمره أن يأخذهم بتعليم جميع العلوم .

٨

من كتابه فى النساء

قال أبو عثمان :

إنا لما ذكرنا فى كتابنا هذا الحب الذى هو أصل الهوى، والهوى الذى يتفرع منه العشق، والعشق الذى يهيم له الإنسان على وجهه أو يموت كمداً على فراشه، وأول ذلك إدخال الضيم على مروءته واستشعار الذلة لمن أطاف بشيقته، ولم نطنب مع ذلك فى ذكر ما يتشعب من أصل الحب من الرحمة والرقة وحب الأموال النفيسة والمراتب الرفيعة وحب الرعية للأئمة وحب المصطنع لصاحب الصنيعة مع اختلاف مواقع ذلك من النفوس ومع تفاوت طبقاته فى العواقب، احتجنا إلى الاعتذار من ذكر العشق المعروف بالصبابة والمخالفة على قوة العزيمة، ليجعل ذلك القدر جُنة دون من حاول الطعن على هذا الكتاب وسخف الرأى الذى دعا إلى تأليفه والاشادة بذكره، إذ كانت الدنيا لا تنفك من حاسد باغ، ومن قائل متكلف ومن سامع طاعن، ومن منافس مقصر، كما أنها لا تنفك من ذوى سلامة متسلم ومن عالم متعلم، ومن عظيم الخطر حسن المحضر شديد المحاماة عن حقوق الأدباء قليل التسرع إلى أعراض العلماء. وإنما العشق إسم لما فضل عن المقدار الذى اسمه حب، وليس كل حب يسمى عشقاً. وإنما العشق إسم للفاضل عن ذلك المقدار كما أن السرف اسم لما زاد على المقدار الذى يسمى جوداً، والبخل إسم لما نقص عن المقدار الذى يسمى اقتصاداً، والجبن إسم لما قصر عن المقدار الذى يسمى شجاعة.

وهذا القول ظاهر على ألسنة الأدباء مستعمل فى بيان الحكماء، وقد قال عروة ابن الزبير : والله إنى لأعشق الشرف كما تعشق المرأة الحسناء. وذكر بعض

الناس رجلا كان مُدَفَّعا محروماً ومنحوس الحظ ممنوعاً فقال : ما رأيت أحداً عشق الرزق عشقة ولا أبغضه الرزق بغضه . فذكر الأول عشق الشرف وليس الشرف بامرأة ، وذكر الآخر عشق الرزق والرزق اسم جامع لجميع الحاجات . وقد يستعمل الناس الكناية وربما وضعوا الكلمة بدل الكلمة يريدون أن يظهروا المعنى بألين اللفظ إما تنويهاً وإما تفصيلا ، كما سمو المعزول عن ولايته مصروفاً ، والمنهزم عن عدوه منحازا ، نعم حتى سمى بعضهم البخيل مقتصداً ومصلحاً ، وسمى عامل الخراج المتعدى بحق السلطان مستقصيا .

ولما رأينا الحب من أكبر أسباب الشر ، اجتنينا أن نذكر أبواب السبب الجالب الخير ليفرق بينه وبين أبواب السبب الجالب للشر ، حتى نذكر أصولهما وعللهما الداعية إليهما والموجبة لكونهما . فتأملنا شأن الدنيا فوجدنا أكبر نعيمها وأكمل لذاتها ظفر المحب بحبيبه والعاشق بطليبه ، ووجدنا شقوة الطالب المكدى وغمه فى وزن سعاة الطالب المنجح وسروره ، ووجدنا العشق كلما كان أرسخ وصاحبه به أكلف فان موقع لذة الظفر منه أرسخ وسروره بذلك أبهج .

فان زعم زاعم أن موقع لذة الظفر بالعدو المرصد أحسن من موقع لذة الظفر من العاشق الهائم بعشيقته !

قلنا : إنا قد رأينا الكرام والحلماء وأهل السؤدد والعظماء ربما جادوا بفضلهم من لذة شفاء الغيظ ويعدون ذلك زيادة فى نبل النفس وبعد الهمة وعلو القدر ، ويجودون بالنفيس من الصامت والناطق وبالثمين من العُروض ، وربما خرج من جميع ماله وآثر طيب الذكر على الغنى واليسر ، ولم نر نفس العاشق تسخو بمعشوقه ولا يجود لشقيق نفسه ولا لوالد ولا لولد بار ولا لذى نعمة سابغة يخاف سلبها وصرف إحسانه عنه بسببها ، ولم نر الرجال يهبون للرجال إلا مالا بال له فى جنب ما يهبون للنساء ، حتى كان العطر والصبغ والخضاب والكحل والنتف والقص والتحذيف والحلق وتجويد الثياب وتنظيفها والقيام عليها وتعهدها مما لم يتكلفوه إلا لهن ، ولم

يتقدموا فيه إلا من أجلهن ، وحتى كأن الحيطان الرفيعة والأبواب الوثيقة والستور الكثيفة والخصيان والظؤورة والحشوة والحواضن لم تتخذ الالصون لهن والاحتفاظ بما يجب من حفظ النعمة فيهن .

فصل منه : وباب آخر وهو أنا لم نجد أحداً من الناس عشق والديه ولاولده ، ولا من عشق مراكبه ومنزله ، كما رأيناهم يموتون من عشق النساء الحرام . قال الله تعالى : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ » فقد دل تبارك وتعالى على جملة أصناف ما خولهم من كرامته ومن عليهم من نعمته ، ولم نر الناس وجدوا بشيء من هذه الأصناف وجدهم بالنساء ، ولقد قدم ذكرهن في هذه الآية على قدر تقدمهن في قلوبهم .

فان قال قائل : فقد نجد الرجل الحليم والشيخ الركين يسمع الصوت المطرب من المغنى المصيب فينقله ذلك إلى طبع الصبيان وإلى أفعال المجانين فيشق جيبه وينقض حبوته ويفدى غيره ويرقص كما يرقص الحدث الغرير والشاب السفيه ، ولم نجد أحداً فعل ذلك عند رؤية معشوقه ؟

قلنا: أما واحدة فإنه لم يكن ليدع التشاغل بشمها وبرشفها وباحتضانها وتقبيل قدميها والمواضع التي وطئت عليها ويتشاغل بالرقص المباين لها والصراخ الشاغل عنها . فأما حل الحبوة والصراخ عند رؤية الحبيبة فإن هذا ما لا يحتاج إلى ذكره لوجوده وكثرة استعمالهم له ، فكيف وهو إن خلا بمعشوقه لا يظن أن لذة الغناء تشغله بمقدار العشر من لذته ، بل ربما لم يخطر له ذلك الغناء على بال . وعلى أن ذلك الطرب مجتاز غير لابث وظاعن غير مقيم ، ولذة المتعاشقين راكدة أبداً ومقيمة غير ظاعنة . وعلى أن الغناء الحسن من الوجه الحسن والبدن الحسن أحسن ، والغناء الشهي من الوجه الشهي والبدن الشهي أشهى ، وكذلك الصوت الناعم الرخيم من الجارية الناعمة الرخيمة . وكم بين أن تفدى إذا شاع فيك الطرب

عملوكك و بين أن تفدى أمتك ؟ وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهى أن تقبله و بين أن تسمعه من فم تشتهى أن تصرف وجهك عنه ! وعلى أن الرجال دخلاء على النساء فى الغناء ، كما رأينا رجالا ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح . و بعد ، فأيما أحسن وأملح وأشهى وأغنج ! أن يغنيك فحل ملتف اللحية كث العارضين أو شيخ متخلع الأسنان مغضن الوجه ثم يغنيك إذا هو تغنى بشعر ورقاء بن زهير :

رَأَيْتُ زُهَيْراً تَحْتَ كَلْكَلِ خَالِدٍ ... فَأَقْبَلْتُ أَسْعَى كَالعَجُولِ أُبَادِرُ

أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس أو كأنها ياسمينة أو كأنها خرطت من ياقوتة أو من فضة مجلوة بشعر عكاشة بن محصن :

مِنْ كَفِّ جَارِيَةٍ كَأَنَّ بَنَانَهَا ... مِنْ فِضَّةٍ قَدْ طُرِّفَتْ عُنَّابَا

وَكَأَنَّ يُمْنَاهَا إِذَا نَطَقَتْ بِهِ ... أَلْقَتْ عَلَى يَدِها الشِّمَالِ حِسَابَا

فصل منه : فأما الغناء المطرب فى الشعر الغزل فإنما ذلك من حقوق النساء وإنما ينبغى أن تغنى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة بالنساء اللواتى فيهن نطقت تلك الأشعار و بهن شبب الرجال ومن أجلهن تكلفوا القول فى التشبيب. و بعد فكل شىء وطبقه وشكله ولفقه حتى تخرج الأمور موزونة معتدلة ومتساوية مخلصة . ولو أن رجلا من أدمث الناس وأشدهم تخليصا لكلامه ومحاسنه لنفسه ثم جلس مع امرأة لا تُرَزَّنُ بمنطق ولا تعرف بحسن حديث ثم كان يعشقها ما كان الناتج بينهما من الأحاديث والتلاقح بينهما من المعانى والألفاظ إلا ما كان يجرى بين دَغْفَل بنِ حنظلة و بين ابن لسان الحُمَّرَةِ ، و إنما هذا على قدر تمكن الغزل فى الرجل .

فصل منه : والمرأة أيضاً أرفع حالا من الرجل فى أمور، منها: أنها التى تُخطب وتراد وتعشق وتطلب ، وهى التى تُفدى وتُحمي . قال عنبسة بن سعيد للحجاج بن يوسف : أيفدى الأمير أهله ؟ قال : والله إن تعدوننى إلا شيطانا والله لربما رأيتنى أقبل رجل إحداهن .

فصل منه : وإنما يملك المولى من عبده بدنه ، فأما قلبه فليس له عليه سلطان . والسلطان نفسه وإن ملك رقاب الأمة فالناس يختلفون فى جهة الطاعة فمنهم من يطيع بالرغبة ، ومنهم من يطيع بالرهبة ، ومنهم من يطيع بالمحبة ، ومنهم من يطيع بالديانة . وهذه الاصناف وإن كان أفضلها طاعة الديانة فإن تلك المحبة ما لم يمازجها هوى لم يقو صاحبها على قوة العشق . وفى الأثر المستفيض والمثل السائر : إن الهوى يعمى ويصم . فالعشق يقتل

فصل منه : ومما يستدل به على تعظيم شأن النساء أن الرجل يُستحلف بالله الذى لا شىء أعظم منه وبالمشىء إلى بيت الله وبصدقة ماله وعتق رقيقه فيسهل عليه ولا يأنف منه ، فان استحلف بطلاق امرأته تربد وجهه وطار الغضب فى دماغه ويمنع ويعصى ويغضب ويأبى وإن كان المحلف سلطانا مهيباً وإن لم يكن يحبها ولا يستكثر منها وكانت نفسها قبيحة المنظر دقيقة الحسب خفيفة الصداق قليلة النشب ، وليس ذلك إلا لما قد عظم الله تعالى من شأن الزوجات فى صدور الأزواج

فصل منه فى ذكر الولد : وباب آخر وهو أنا لو خيرنا رجلا بين الفقر أيام حياته ، وبين أن يكون ممتعا بالباه أيام حياته ، لاختار الفقر الدائم مع التمتع الدائم . وليس شىء مما يحدث الله لعباده من أصناف نعمه وضروب فوائده أبقى ذكرا ولا أجل خطراً من أن يكون للرجل ابن يكون ولي بناته وساتر صورة حرمه وقاضي دينه ومحي ذكره ، مخلصاً فى الدعاء له بعد موته وقائما بعده فى كل ما خلفه مقام نفسه ، فمن أقل أسفا على مافارق ممن خلف كافيا مجربا وحائطا من وراء المال موفورا ومن وراء الحرم حاميا ولسلفه فى الناس محييا . وقال رجل لعبد الملك بن مروان وذكر ولداً له: أراك الله فى بنيك ما أرى أباك فيك ، وأرى بنيك فيك ماأراك فى أبيك . ونظر شيخ وهو عند المهلب إلى بنيه قد أقبلوا فقال : آنس الله بكم الاسلام فوالله إن لم تكونوا أسباط نبوة إنكم لأسباط ملحمة . وليست النعمة فى الولد المحيي والخلف الكافى بصغيرة .

فصل منه : وباب آخر ، وهو أن الله تعالى خلق من المرأة ولدا من غير ذكر ولم يخلق من الرجل ولداً من غير أنثى ، فخص بالآية العجيبة والبرهان المنير المرأة دون الرجل ، كما خلق المسيح فى بطن مريم من غير ذكر .

فصل منه فى ذكر القرابات : وأما أنا فانى أقول : إن تباغض الأقرباء عارض دخيل وتحابهم واطد أصيل ، والسلامة من ذلك أعم والتناصر أظهر والتصادق فى المودة أكثر ، فلذلك القبيلة تنزل معاً وترحل معاً وتحارب من ناوأها معا، إلا الشاذ النادر ، كخروج غنى و باهلة من عطفان ، وكنزول عبس فى بنى عامر . وما أشبه ذلك . و إلا فان القرابة يد واحدة على من ناوأهم وسيف واحد على من عاداهم ، وما صلاح شأن العشائر إلا بتقارب ساداتهم فى القدر و إن تفاوتوا فى الرياسة والفضل ، كما قال فى الأثر المستفيض : لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا فاذا تقاربوا هلكوا . وحال العامة فى ذلك كحال الخاصة

فصل منه : وقضية واجبة إن الناس لا يصلحهم إلا رئيس واحد يجمع شملهم و يكفيهم ويحميهم من عدوهم و يمنع قويهم عن ضعيفهم ، وقليل لهم نظام أقوى من كثير لا نظام لهم ولا رئيس عليهم ، إذ قد علم الله سبحانه وتعالى أن صلاح عامة البهائم فى أن يجعل لكل جنس منها فحلا يوردها الماء و يصدرها وتتبعه إلى الكلاء ، كالعير فى العانة والفحل فى الابل والهجمة ، وكذلك النحل العسالة والكراكى ، وما يحمى الحجور فى المروج إلا الحصان ، فجعل منها رؤساء متبوعة وأذنابا تابعة ، ولو لم يقم الله للناس الوزعة من السلطان والحماة من الملوك وأهل الحياطة عليهم من الأئمة لعادوا نشرا لا نظام لهم ومستكلبين لا زاجر لهم ، ولكان من عز بز ومن قدر قهر ، ولما زال الشر راكداً والهرج ظاهراً حتى يكون التغابن والبوار، وحتى تنطمس منهم الآثار ، ولكانت الأنعام طعاما للسباع وكانت عاجزة عن حماية أنفسها جاهلة بكثير من مصالح شأنها ، فوصل الله تعالى عجزها بقوة من أحوجه إلى الاستمتاع بها ووصل جهلها بمعرفة من عرف كيف وجه الحيلة

فى صونها والدفاع عنها . وكذلك فرض على الأئمة أن يحوطوها بالحراسة لها والذياد عنها ويرد قويها عن ضعيفها وجاهلها عن عالمها وظالمها عن مظلومها وسفيهها عن حليمها ؛ فلولا السائس ضاع المسوس ولولا قوة الراعى لهلكت الرعية .

فصل منه : وانفراد السيد بالسيادة كانفراد الامام بالامامة ، وبالسلامة من تنازع الرؤساء تجتمع الكلمة وتكون الألفة ويصلح شأن الجماعة ، وإذا كانت الجماعة انتهت الأعداء وانقطعت الأهواء .

فصل منه : ولسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر، ولكنا رأينا ناساً يزرون عليهن أشد الزراية ويحتقرونهن أشد الاحتقار ويبخسونهن أكثر حقوقهن ، وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الامهات والأخوال ، فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن ، ولولا أن ناساً يفخرون بالجلد وقوة المُنة وانصراف النفس عن حب النساء حتى جعلوا شدة حب الرجل لأمته وزوجته وولده دليلا على الضعف وبابا من الخور لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه فى هذا الكتاب

فصل منه : فى ذكر العشق : ورجلان من الناس لا يعشقان عشق الأعراب : أحدهما الفقير المدقع فان قلبه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه ، والملك الضخم الشأن لأن فى الرياسة الكبرى وفى جواز الأمر والنهى وفى ملك رقاب الأمم ما يشغل شطر قوى العقل عن التوغل فى الحب والاحتراق فى العشق

فصل منه : كثيرا ما يعترى العشاق والمحبين غير المحترقين كالرجل تكون له جارية وقد حلت من قلبه محلا وتمكنت منه تمكنا ولا يجتث أصل ذلك الحب الغضبة تعرض وكثرة التأذى بالخلاف يكون منها فيجد الفترة عنها لبعض هذه الحالات التى تعرض فيظن أنه قد سلا أو يظن أنه فى عزائه عنها على فقدها محتملا بيعها إن كانت أمة أو طلاقها إن كانت زوجة ، فلا ينشب ذلك الغضب أن

يزول وذلك الأذى أن ينسى ، فتتحرك له الدفائن و يثمر ذلك الغرس فيتبعها قلبه ؛ فإما أن يسترجع الأمة من مبتاعها بأضعاف ثمنها أو يسترجع الزوجة بعد أن نكحت ، فإن تصبر وأمكنه الصبر لم يزل معذباً ، و إن أطاع هواه واحتمل المكروه فهذا هو العقابيل والنكس . فليحذر الحازم الفترة يجدها فى حب حبيبه والغضبة التى تنسيه عواقب أمره .

فصل منه : قال إبراهيم بن السندى : حدثنى عبد الملك بن صالح قال : بينا عيسى بن موسى قد خلا بنفسه ، وهو قد كان استكثر من النساء حتى انقطع إذ مرت به جارية كأنها جان وكأنها جدل عنان وكأنها جمارة وكأنها قضيب فضة فتحركت نفسه وخاف أن تخذله قوته ثم طمع فى القوة لطول الترك واجتماع الماء فلما صرعها وجلس منها ذلك المجلس خطر على باله : لو عجز كيف يكون حاله !؟ فلما فكر فتر، فأقبل كالخاطب لنفسه فقال : إنك لتجلسينى هذا المجلس وتحملينى على هذا المركب ثم تخذلينى هذا الخذلان وتغشّينى مثل هذا الذل ! ولولا حيرة الخجل لاستعمل ما يقتل ، وذلك أنه حين رأى أن أبلغ الحيل فى توهيمها أن العجز لم يكن من قبله أن يقول لها : تعرضين لى وأنت تفلة ثم لا تروجين بأدبك ولا تستهدفين لسيدك ولا تعينين على نفسك حتى كأنك عند عبد يشبهك أو سوقة لا يقدر إلا على مثلك، أما لو كنت من بنات ملوك العجم لألفاك سيدك على أجود صنعة وعلى أحسن طاعة ، إذ كل رجل ينبسط للتمتع مع التفل .

فصل منه : ولم أسمع ولم أقرأ فى الأحاديث المولدة فى شأن العشاق وما صنع العشق فى القلوب والأكباد والأحشاء والزفرات والحنين وفى التدليه والتوليه ، ومتى تُسعد الدمعة ومتى يعترى العين الجمود .

فصل منه : ونحن و إن رأينا أن فضل الرجل على المرأة فى جملة القول فى الرجال والنساء أكثر وأظهر فليس ينبغى لنا أن نقصر فى حقوق المرأة ، وليس ينبغى لمن عظم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات، وكذلك الأخوة والأخوات والبنون والبنات ، وأنا و إن كنت أرى أن حق هذا أعظم فإن هذه أرحم

فصل من احتجاج للإماء: قال بعض من احتج للعلة التى من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المَهيرات أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شىء منها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة، والحرة إنما يستشار فى جمالها النساء، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلا ولا كثيراً، والرجال بالنساء أبصر، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة، وأما الخصائص التى تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك، وقد تحسن المرأة أن تقول كأن أنفها السيف وكأن عينها عين غزال وكأن عنقها أبريق فضة وكأن ساقها جمارة وكأن شعرها العناقيد وكأن أطرافها المدارى، وما أشبه ذلك. وهناك أسباب أخر بها يكون الحب والبغض.

فصل منه: وقد علم الشاعر وعرف الواصف أن الجارية الفائقة الحسن أحسن من الظبية وأحسن من البقرة وأحسن من كل شىء تشبه به، ولكنهم إذا أرادوا القول شبهوها بأحسن ما يجدون، ويقول بعضهم: كأنها الشمس وكأنها القمر. والشمس وإن كانت بهية فانما هى شىء واحد، وفى وجه الجارية الحسناء وخلقها ضروب من الحسن الغريب والتركيب العجيب، ومن يشك أن عين المرأة الحسناء أحسن من عين البقرة، وأن جيدها أحسن من جيد الظبية، والأمر فيما بينهما متفاوت، ولكنهم لو لم يفعلوا هذا وشبهه لم تظهر بلاغتهم وفطنتهم.

فصل منه: ورأيت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة. والمجدولة من النساء تكون فى منزلة بين السمينة والممشوقة، ولابد من جودة القد وحسن الخرط واعتدال المنكبين واستواء الظهر، ولابد من أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيفة، وإنما يريدون بقولهم مجدولة: جودة العصب وقلة الاسترخاء وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول. ولذلك قالوا: خمصانة وسيفانة وكأنها جان وكأنها جدل عنان وكأنها قضيب خيزران. والتثنى فى مشيها أحسن ما فيها، ولا يمكن ذلك الضخمة والسمينة وذات الفضول والزوائد، على أن النحافة فى المجدولة أعم، وهى بهذا المعنى أعرف،

وهى بهذا المعنى تحبب على السمان الضخام وعلى الممشوقات والقضاف ، كما تحبب هذه الأصناف على المجدولات . وقد وصفوا المجدولة بالكلام المنثور فقالوا : أعلاها قضيب وأسفلها كثيب .

فصل منه : كنا نحب أن يخرج هذا الكتاب تاماً ويكون للاشكال الداخلة فيه جامعا ، وهو القول فيما الذكور والإناث في عامة أصناف الحيوان وما أمكن من ذلك حتى يحصل ما لكل جنس من الخصال المحمودة والمذمومة ، ثم يجمع بين المحاسن منها والمساوىء حتى يستبين لقارىء الكتاب نقصان المفضول من رجحان الفاضل بما جاء فى ذلك من الكتاب الناطق والخبر الصادق والشاهد العدل والمثل السائر ، حتى يكون الكتاب عربياً أعرابياً وسنياً جماعيا ، وحتى يجتنب فيه العويص والطرق المتوعرة والألفاظ المستنكرة وتلازق المتكلفين وتلفيق أصحاب الأهواء من المتكلمين حتى نظرا لمن لا يعلم مقادير ما استخزنها الله من المنافع وغشاها من البراهين وألزمها من الدلالة عليه وأنطقها به من الحجة له فمنع من ذلك فرط الكبوة و إفراط العلة وضعف المنة وانحلال القوة ، فلما وافق هذا الكتاب منا هذه الحال وألفى قلوبنا على هذه الأشغال ، اجتنبنا أن نقصد من جميع ذلك إلى فرق ما بين الرجل والمرأة ، فلما اعتزمنا على ما ابتدأنا به وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثر عددها وتبعد غايتها ، فرأينا والله الموفق أن نقتصر منه على مالا يبلغ بالمستمع إلى السآمة و بالمألوف إلى مجاوزة القدر . وليس ينبغى لكتب الآداب والرياضات أن يحمل أصحابها على الجد الصرف وعلى العقل المحض وعلى الحق المر وعلى المعانى الصعبة التى تستكد النفوس وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية وللاحتمال نهاية ، ولا ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل . على أن الكتاب إذا كثر هزله سخف كما أنه إذا كثر جده ثقل ، ولا بد للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارىء وينفى النعاس عن المستمع . فمن وجد فى كتابنا هذا بعض ما ذكرنا فليعلم أن قصدنا فى ذلك إنما كان على جهة الاستدعاء لقلبه والاستمالة لسمعه و بصره . والله تعالى نسأل التوفيق

٩

من رسالته فى الشارب والمشروب

قال أبو عثمان :

سألت أكرم الله وجهك وأدام رشدك ولطاعته توفيقك، حتى تبلغ من مصالح دينك ودنياك منازل ذوى الألباب ، ودرجات أهل الثواب ، أن أكتب لك صفات الشارب والمشروب وما فيهما من المدح والعيوب ، وأن أميز لك بين الأنبذة والخمر ، وأن أقفك على حد السكر ، وأن أعرفك السبب الذى يرغب فى شرب الأنبذة وما فيها من اجتلاب المنفعة ، وما يكره من نبيذ الأوعية ، وقلت : وما فرق ما بين الجرار والسقاء والمزفت والحنتم والدباء ، وما القول فى المحتل والمكسوب ، وما فرق مابين النقيع والداذى ، وما المطبوخ والباذق ، وما الغربى والمروق ، وما الذى يحل من الطبيخ ، وما القول فى شرب الفضيخ ، وهل يكره نبيذ العكر ، وما القول في عتيق السكر وأنبذة الجرار وما يعمل من السكر ، ولم كره النقير والمقير ، وسألت عن نبيذ العسل والمقرطبات ، وعن رزين سوق الأهواز ، وعن نبيذ أبى يوسف والجمهور والملق والمسحوم والحلو وترس شيرين ونبيذ الكشمش والتين ، ولم كره الجلوس على البواطى والرياحين ! وقلت : وما نصيب الشيطان وما حاصل الإنسان ؟

وسألت عمن شرب الأنبذة أو كرهها من الأوائل ، وما جرى بينهم فيها من الأجوبة والمسائل، وما كانوا عليه فيها من الآراء وتثبتوا فيها من الأهواء ، ولأى سبب تضادت فيها الآثار واختلفت فيها الأخبار ، وسألت أن أقصد فى ذلك إلى الإيجاز والاختصار وحذف الإكثار ، وقلت : و إذ جعل الله تعالى للعباد عن الخمر المندوحة بالأشربة الهنيئة الممدوحة ، فما تقول فيما حسن من الأنبذة صفاه ، و بعد مداه ، واشتدت قواه ، وعتق حتى جاد ، وعاد بعد قدم السكون صافى اللون

هل يحل اليه الاجتماع وفيه الاكتراع ، إذ كان يهضم الطعام ويوطىء المنام ، وهو فى لطائف الجسم سار وفى خفيات العروق جار ، لايضر معه برغوت ولا بعوض ولا جرجس عضوض . وقلت : وكيف يحل لك ترك شربه إذا كان لك موافقاً ولجسمك ملائماً ، ولم لاقلت إن تارك شربه كتارك العلاج من أدوأ الأدواء ، وأنه كالمعين على نفسه إذا ترك شربه أفحش الداء . وأنت تعلم أنك اذا شربته عدلت به طبيعتك ، وأصلحت به صفار جسمك ، وأظهرت به حمرة لونك ، فاستبدلت به من السقم صحة ، ومن حلول العجز قوة ، ومن الكسل نشاطاً ، وإلى اللذة انبساطاً ، ومن الغم فرحاً ، ومن الجمود تحركا ، ومن الوحشة أنسا . وهو فى الخلوة خير مسامر ، وعند الحلبة خير ناصر ، يترك الضعيف وهو مثل الأسد فى العرين ، يلان له ولا يلين . وقلت : الجيد من الأنبذة يصفى الذهن، ويقوى الركن، ويشد القلب والظهر، ويمنع الضيم والقبر، ويشحذ المعدة ويهيج للطعام الشهوة ، ويقطع عن إكثار الماء الذى جل الأدواء منه ، ويحدر رطوبة الرأس ويهيج العطاس ، ويشد البضعة ويزيد فى النطفة ، وينفى القرقرة والرياح ، ويبعث الجود والسماح ، ويمنع الطحال من العظم، والمعدة من التخم ، ويحدر المرة والبلغم ، ويلطف دم العروق ويجريه ، ويرققه ويصفيه ، ويبسط الآمال وينعم البال ، ويغشى الغلظ فى الرئة ، ويصفى البشرة ، ويترك اللون كالعصفر ، ويحدر أذى الرأس فى المنخر ويموه الوجه ، ويسخن الكلية ، ويلذ النوم ، ويحال التخم ، ويذهب بالاعياء ويغذو لطيف الغذاء ، ويطيب الأنفاس ، ويطرد الوسواس ، ويطرب النفس ، ويؤنس من الوحشة ، ويسكن الروعة ، ويذهب الحشمة ، ويقذف فضول الصلب بالإنشاط للجماع ، وفضول المعدة بالهواع ، ويشجع المرتاع ، ويزهى الذليل ، ويكثر القليل ، ويزيد فى جمال الجميل ، ويسل الحزن ، ويجمع الذهن ، ويذهب الهم، ويطرد الغم ، ويكشف عن قناع الحزم ، ويولد فى الحليم الحلم ، ويكفى أضغاث الحلم ، ويحث على الصبر، ويصحح من الفكر، ويرجى القانط ، ويرضى الساخط

ويغنى عن الجليس،ويقوم مقام الأنيس . وحتى إن عز لم يقنط منه، وإن حضر لم يصبر عنه ، يدفع النوازل العظيمة ، وينقى الصدر من الخصومة ، ويزيد فى المساغ وسخونة الدماغ ، وينشط الباه حتى لايزيف شيئا يراه ،وتقبله جميع الطبائع،ويمتزج به صنوف البدائع : من اللذة والسرور،والنضرة والحبور . وحتى سمى شر به حصفاً وسمى فقده خسفاً . وإن شرب منه الصرف بغير مزاج تحلل بغير علاج ، وينفى الاحزان والهموم ، ويدفع الأهواء والسموم ، ويفتح الذهن ويمنع الغبن ، ويلقن الجواب ولا يكيد معه العتاب ، به تمام اللذات ، وكمال المروءات ، ليس لشيء كحلاوته فى النفوس ، وكسطوته فى الجباه والرؤس ، وكانشاطه للحديث والجلوس ، يحمر الالوان ، ويرطب الأبدان ، ويخلع عن الطرب الأرسان .

وقلت : ومع كل ذلك فهو يلجلج اللسان ، ويكثر الهذيان ، ويظهر الفضول والاخلاط ، ويناوب الكسل بعد النشاط ، فأما إذاتبين فى الرأس الميلان ، واختلف عند المشى الرجلان ، وكثر الاخفاق والتنخع والبصاق ، واشتملت عليه الغفلة وجاءت الزلة بعد الزلة ، أو سال على الصدر لعابه وصار في حد المخرمين ، لا يفهم ولا يبين . قبل دلالات النكر ، وظهور علامات السكر ، ينسى الذكر ، ويورث الفكر ، ويهتك الستر ، ويسقط من الجدار ، ويهور فى الآبار ، ويغرق فى الأنهار ويعوق عن المعروف ، ويعرض للحتوف ، ويحمل على الهفوة ، ويؤكد الغفلة ، ويورث الصياح والصيحات ، ويصرع الفهم للسبات ، فلغير معنى يضحك ، ولغير سبب يمحك ، ويحيد عن الإنصاف ، وينقلب على الساكب الكاف ، ثم يظهر السرائر ، ويطلع على مافى الضمائر ، من مكنون الأحقاد ، وخفى الاعتقاد . وقد يقل على السكر المتاع ، ويطول منه الأرق والصداع ، ثم يورث بالغدوات الخمار وتختل سائر النهار ، ويمنع من إقامة الصلوات وفهم الأوقات ، ويعقب السل ، ويعقب فى القلوب الغل ، ويجفف النطفة ، ويورث الرعشة ، ويولد الصفار ، وضروب العلل فى الأبصار ، ويعقب الهزال ، ويجحف بالمال ، ويجفف الطبيعة ،

ويقوى الفاسد من المرة ، ويذبل النفس ، ويفسد مزاج الحس ، ويحدث الفتور في القلب ، ويبطىء عند الجماع الصب ، حتى يحدث من أجله الفتق الذى ليس له رتق ، ويحمل على المظالم وركوب المآثم ، وتضييع الحقوق حتى يقتل من غير علم ، ويكفر من غير فهم .

فصل منه : وقلت : ومن الحلو في المعدة التخم وفي الأبدان الوخم ، ويولد للكرش رياحاً كمثل رياح العدس ، وحموضه تولد في الأسنان الضرس ، والسكر حسبك بفرط مرارته وكسوف لونه وبشاعة مذاقه ونفار الطبيعة عنه . وأنواع مايعالج من التمر والحبوب قشرها الداء العضال . وللمسجور والبتى وأشباهها كدورة ترسب في المعدة وتولد بين الجلدتين الحكة ، وأشباه هذا كثيرة تركت ذكرها ، لأنى لم أقصدك بالمسألة أبتغى منك تحليل ما يجلب المضرة ، ولكن ما تقول فيما يسرك ولا يسوءك ، وإذا شربته تلقته العروق فاتحة أفواهها كأفواه الفراخ محسنة للون ملذة للنفس يجثم على المعدة ويزود في العروق ، ويقصد إلى القلب فيولد فيه اللذة وفي المعدة الهضم ، وهو غسولها ونضوحها ، ويسرع إلى طاعة الكبد ويفيض بالعجل إلى الطحال وينفخ منه وتظهر حمرته بين الجلدتين ، ويزيد في اللون ، ويولد الشجاعة والسخاء ، ويريح من اكتنان الضغن ، ويعفى على تغير النكهة ، وينفى الذفر ، ويسرع إلى الجبهة ، ويغنى عن الصلا ويمنع القر ؟ وما تقول في نبيذ الزبيب المحض والعسل المازى إذا تورد لونه وتقادم كونه ، ورأيت حمرته في صفرته تلوح ، تراه في الكأس كأنه بالشمس ملتحف ، شعاعه يضحك في الأكف . وما تقول في عصير الكرم إذا أجدت طبخه وأنعمت إنضاجه وأحسن الدن نتاجه ، فإذا فض فض عن غضارة ، قد صار في لون الحمارة أو في صفاء ياقوتة تلمع في الأكف لمع الدنانير ، ويضىء كالشهاب المتقد . وما تقول في نبيذ عسل مصر فإنه يؤدى إلى شاربه الصحيح من طعم الزعفران مالا يلبس الخلقان ، ولا يجود إلا في جدد الدنان ، ولا يستخدم الأنجاس ، ولا يألف الأرجاس ، وكذلك

لا يزكو على علاج الجنب والحائض ، ولا ينقص على شيء من الأجسام لونه حتى لو غمس فيه قطن لخرج أبيض يققا ، وحسبك به فى رقة الهواء يكدره صافى الماء ، وهو مع ذلك كالهزبر ذى الأشبال المفترس للأقران ، من عاقره عقره ، ومن صارعه صرعه . وما تقول فى رزين الأهواز من زبيب الداقياذ ، إذ يعود صلبا من غير أن يسيل سلافه أو يماط عنه ثفله ، حتى يعود كلون العقيق فى رائحة المسك الفتيق ، أصلب الأنبذة عريكة ، وأصلبها صلابة وأشدها خشونة ، ثم لا يستعين بعسل ولا سكر ولا دوشاب ، وما ظنك به وهو زبيب نقيع ، لا يشتد ولا يجود إلا بالضرب الوجيع . وما تقول فى الدوشاب البستانى سلالة الرطب الجنى بالحب الرتيلى ، إذا أوجع ضربا وأطيل حبسا أعطى صفوه ومنح رفده وبذل ماعنده ، فاذا كشف عنه قناع الطين ظهر فى لون الشقر والكمت ، وسطع برائحة كالمسك ، و إذاهم على المعدة لانت له الطبائع ، وسليت له الأمعاء ، وأيس الحصر ، وانقطع طمع القولنج ، وانقادت له اليبوسة وأذعنت له بالطاعة ، وابتل به الجلد القحل ، وارتحل عنه الباسور ، وكفى شاربه الوخز ، فاذا سنح بما تلظى ورمى بشرره هل يحل أن يشعشع إذا سكن جأشه وأبل حلمه . وما تقول فى المغلق من أنبذة التمر ، فإنك تنظر إليه وكان النيران تلمع من جوفه ، قد ركد ركود الدلال حتى لكأن شاربه يكرع فى شهاب ، ولكأنه فرند فى وجه سيف ، وله صفيحة مرآة مجلوة تحكى الوجوه فى الزجاجة حتى يفهم فيه الجلاس . وما تقول فى نبيذ الجزر الذى منه تمتد النطفة ، وتشتد النقطة ، يجلب الأحلام ، و يركد فى مخ العظام . وما تقول فى نبيذ الكشمش الذى لونه لون زمردة خضراء صافية ، محكم الصلابة ، مفرط الحرارة ، حديد السورة ، سريع الافاقة ، عظيم المؤنة ، قصير العمر ، كثير العلل ، جم الهبات ، تطمع الآفات فيه ، وتسرع إليه . وما تقول فى نبيذ التين فإنك تعلم أنه مع حرارته لين العريكة ، سلس الطبيعة ، عذب المذاق ، سريع الاطلاق مرهم للعروق ، نضاح للكبد ، فتاح للسدد ، غسال للأمعاء ، هياج

الباء ، أخاذ للثمن ، جلاب للمؤن ، مع كسوف لون ، وقبح منظر . وما تقول فى نبيذ السكر الذى ليس مقدار المنفعة منه على قدر المؤنة فيه ، هل يوجد فى المحصول لشر به معنى معقول . وما تقول فى المروق والقربى والفضيخ ، ألذ المشروبات فى زمانها ، وأنفع المأخوذات فى إبانها ، أقل شىء مؤنة ، وأحسنه معونة ، وأكثر شىء قنوعا وأسرعه بلوغا ، ضمورات عروفات للرجل الوفى ، ولها أراييج على الشاة كأذكى رائحة تشم ، أقل المشروبات صداعا وأشدهن خداعا .

فصل منه : وكرهت أيضا تقليد المختلف من الآثار فأكون كحاطب ليل دون التأمل ولا اعتبار ، لعلمى بأن كلام الشك لا يجاوه إلا مفتاح اليقين .

فصل منه : قد فهمت أسعدك الله تعالى بطاعته جميع ماذكرت من أنواع الأنبذة و بديع صفاتها ، والفصل بين جيدها ورديئها ونافعها وضارها ، وما سألت من الوقوف على حدودها ، ولا زلت من عداد من يسأل ولا يبحث ، ولا زلنا فى عداد من يشرح ويفصح . إعلم أكرمك الله أنك لو بحثت عن أحوال من يؤثر شرب الخمور على الأنبذة لم تجد إلا جاهلا مخذولا ، أو حدثا مغرورا ، أو خليعا ماجنا ، أو رعاعا همجا ، ومن إذا غدا بهيمة وإذا راح نعامة ، ليس عنده من المعرفة أكثر من انتحال القول بالجماعة ، قد مزج له الصحيح بالمحال ، فهو يدين بتقليد الرجال ليشعشع الداح ويحرم المباح ، فمتى عذله عاذل ووعظه واعظ قال : الأشربة كلها خمر فلا أشرب إلا أجودها . وقد أحببت أيدك الله التوثق من صفاء فهمك وسؤت ظنا بالتغرير فقدمت لك من التوطئة ما يسهل لك سبيل المعرفة ، وذلك إلى مثلك من مثلى حرم ، سيما فيما خفيت معالمه ودرست مناهجه وكثرت شبهه واشتد غموضه ، ولولم يكن ذلك وكان قد اعتاص على البرهان فى إظهاره واحتجت فى الإبانة عنه إلى ذكر ضده ونظيره وشكله لم أحتشم من الاستعانة بكل ذلك ، فكيف والقدرة بحمد الله وافرة والحجة واضحة . قد يكون الشىء من جنس الحرام فيعالج بضرب من العلاج حتى يتغير بلون يحدث له ورائحة وطعم ونحو ذلك فيتغير لذلك اسمه ويصير حلالا بعد أن كان حراما .

فصل منه في تحليل النبيذ دون الخمر: فان قال لنا قائل : ما تدرون لعل الأنبذة قد دخلت فى ذكر تحريم الخمر ولكن لما كان الابتداء أجرى فى ذكر تحريم الخمر خرج التحريم عليها وحدها فى ظاهر المخاطبة ودخل سائر الأشربة فى التحريم بالقصد والإرادة ؟! قلنا : قد علمنا أن ذلك على خلاف ماذكر السائل لأسباب موجودة وعلل معروفة . منها أن الصحابة الذين شهدوا نزول الفرائض والتابعين من بعدهم لم يختلفوا فى قاذف المحصنين أن عليه الحد ، واختلفوا فى الأشربة التى تسكر . ليس لجهلهم أسماء الخمور ومعانيها ، ولكن الاخبار المروية فى تحريم المسكر والواردة فى تحليلها ولو كانت الاشربة كلها عند أهل اللغة فى القديم خمرا لما احتاجوا إلى أهل الروايات في الخمر أى الاجناس من الاشربة هى ، كما لم يحرجوا إلى طلب معرفة العبيد من الاماء ! وهذا باب يطول شرحه إن استقصيت جميع ما فيه من المسألة والجواب . وما ينكر من خالفنا فى تحليل الانبذة مع إقراره بأن الاشربة المسكرة الكثيرة لم تزل معروفة بأسمائها وأعيانها وأجناسها و بلدانها ، وأن الله تعالى قصد للخمر من بين جميعها فحرمها وترك سائر الاشربة طلقا مع أجناس سائر المباح ، والدليل على تجويز ذلك أن الله تعالى ماحرم على الناس شيأ من الاشياء في القديم والحديث إلا أطلق لهم من جنسه وأباح من سنخه ونظيره وشبهه ما يعمل مثل عمله أو قريبا منه ، ليغنيهم الحلال عن الحرام ، أعنى ماحرم بالسمع دون المحرم بالعقل. قد حرم من الدم المسفوح ،أباح غير المسفوح ، كجامد دم الطحال والكبد أشبههما ، وحرم الميتة وأباح الذكية ، وأباح أيضا ميتة البحر وغير البحر كالجراد وشبهه ، وحرم الربا وأباح البيع ، وحرم بيع ماليس عندك وأباح الصلح ، وحرم السفاح وأباح النكاح ، وحرم الخنزير وأباح الجدى الرضيع والخروف والحوار . والحلال فى كل ذلك أعظم موقعا من الحرام .

فصل منه : ولعل قائلا يقول: أهل مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وسكان حرمه ودار هجرته أبصر بالحلال والحرام والمسكر والخمر وما أباح الرسول وماحظره ،

وكيف لا يكونون كذلك والدين ومعالمه من عندهم خرج إلى الناس، والوحى عليهم نزل، والنبي صلى الله عليه وسلم فيهم دفن، وهم المهاجرون السابقون والأنصار المؤثرون على أنفسهم، وكلهم مجمع على تحريم الأنبذة المسكرة وأنها كالخمر، وخلفهم على منهاج سلفهم إلى هذه الغاية حتى أنهم جلدوا على الريح الخفى، وكيف لا يفعلون ذلك ويدينون به وقد شهدوا من شهد النبى صلى الله عليه وسلم قد حرمها وذمها وأمر بجلد شاربها، ثم كذلك فعل أئمة الهدى من بعده، فهم إلى اليوم على رأى واحد وأمر متفق، ينهون عن شربها ويجلدون عليها! وإنا نقول فى ذلك: إن عظم حق البلدة لا يحل شيأ ولا يحرمه، وإنما يعرف الحلال والحرام بالكتاب الناطق والسنة المجمع عليها والنقول الصحيحة والمقاييس المعينة، وبعد فمن هذا المهاجرى والأنصارى الذى رووا عنه تحريم الأنبذة ثم لم يرو عنه التحليل!؟ بل لو أنصف القائل لعلم أن الذين من أهل المدينة حرموا الأنبذة ليسوا بأفضل من الذين أحلوا النكاح فى أدبار النساء، كما استحل قوم من أهل مكة عارية الفروج وحرم بعضهم ذبائح الزنوج، لأنهم فيما زعموا مشوهوا الخلق، ثم حكموا بالشاهد واليمين خلافا لظاهر التنزيل. وأهل المدينة وإن كانوا جلدوا على الريح الخفى فقد جلدوا على حمل الزق الفارغ، لأنهم زعموا أنه آلة الخمر، حتى قال بعض من ينكر عليهم: فهلا جلدوا أنفسهم لأنه ليس منهم إلا ومعه آلة الزنا! وكان يجب على هذا المثال أن يحكم بمثل ذلك على حامل السيف والسكين والسم القاتل. فى نظائر ذلك، لأن هذه كلها آلات القتل...!؟

وبعد فأهل المدينة لم يخرجوا من طبائع الإنس إلى طبع الملائكة، ولو كان كل ما يقولونه حقا وصوابا لجلدوا من كان فى دار معبد والغريض وابن سريج ودحمان وابن محرز وعلوية وابن جامع ومخارق، وابن شريك ووكيع وحماد وإبراهيم وجماعة التابعين والسلف المتقدمين، لأن هؤلاء فيما زعموا كانوا يشربون الأنبذة التى هى عندهم خمر، وأولئك كانوا يعالجون الأغانى التى هى حل طلق على نقر العيدان والطنابير والنايات والصنج والزيج والمعازف التى ليست محرمة ولا منهيا

عن شيء منها ، ولو كان ماخالفونا فيه من تحليل الأنبذة وتحريمها كالاختلاف فى الأوانى وصفاتها وأوزانها واختلاف مخارجها ووجوه مصارفها ومجاريها وما يدمج ويوصل منها للحنجرة والحنك والنفس واللهوات وتحت اللسان من نغمها ، وأى الدساتين أطرب وأيها أصوب وما يحفز بالهمز أو يحرك بالضم ، وكالقول بأن المزج بالبنصر أطيب والسريع بالوسطى على الزير ألذ ، وعلى المثنى والمصعد فى لين أطرب ، أم المحدر فى الشدة ، لسهل ذلك ولسلمنا علمه لمن يدعيه ولم نجاذب من يدعى دوننا معرفته .

فصل منه : ولهج أصحاب الحديث بحكم لم أسمع بمثله فى تزييف الرجال وتصحيح الأخبار ، وإنما أكثروا فى ذلك لتعلم حيدهم عن التفتيش وميلهم عن التنقير وانحرافهم عن الأنصاف .

فصل منه : والذى دعانى الى وضع جميع هذه الأشربة والوقوف على أجناسها وبلدانها مخافة أن يقع هذا الكتاب عند بعض من عساه لا يعرف جميعها ولم يسمع بذكرها فيتوهم أنى فى ذكر أجناسها المستشنعةوأنواعها المبتدعة كالهاذى برقية العقرب ، وإن كان قصدى لذكرها فى صدر الكتاب لأقف على حلالها وحرامها وكيف اختلفت الأمة فيها وما سبب اعتراض الشك واستكان الشبهة ، ولأن أحتج للمباح وأعطيه حقه ، وأكشف أيضا عن المحظور فأقسم له قسطه فأكون قد سلكت بالحرام سبيله وبالحلال منهجه اقتداء منى بقول الله عز وجل « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »

وقد كتبت لك أكرمك الله تعالى فى هذا الكتاب مافيه الجزاية والكفاية ولو بسطت القول لوجدته متسعاً ولأتاك منه الدهم ، وربما كان الإقلال فى إيجاز أجدى من إكثار يخاف عليه الملل ، فخلطت لك جداً بهزل وقرنت لك حجة بملحة ، لتخف مؤنة الكتاب على القارىء وليزيد ذلك فى نشاط المستمع ، فجعلت الهزل بعد الجد جماما ، والملحة بعد الحجة مستراحاً

١٠

من رسالته فى مدح النبيذ

كتبها إلى الحسن بن وهب

قال أبو عثمان :

أنا أبقاك الله الطالب المشغول والقائل المعذور ، فإن رأيت خطأ فلا تنكر ، فإنى بصدده و بعرض منه ، بل فى الحال التى توجبه والسبب الذى يؤدى إليه ، و إن سمعت تسديداً فهو الغريب الذى لا تجده اللهم إلا أن يكون من بركة مكاتبتك و يمن مطالبتك ، ولأن ذكرك يشحذ الذهن و يصورك فى الوهم ويجلو العقل ، وتأميلك ينفى الشغل . ولا يعجبنى مارأيت من قلة إطنابك فى هذا النبيذ وقلة تلهيك بهذا الشراب . وأنت تجد من فضل القول وحسن الوصف ما لا يصاب عند خطيب ولا يوجد عند بليغ . وأنت ولو مشيت الخيلاء وحقرت العظماء وأرغبت الشعراء وأعطيت الخطباء ليكون القول منهم موصولا غير مقطوع ومبسوطا غير مقصور ، لكنت بعد مقصراً فى أمره مفرطا فى واجب حقه ، فلا تأديب الله قبلت ولا قول الناصح سمعت . سمعت قول الله تبارك وتعالى « وأما بنعمة ر بك فحدث » وقال الأول : إستدم النعمة باظهارها واستزد المواهب بادامة شكرها . بل كيف أنست بالجلساء وأرسلت إلى الأطباء ولم يكن فى قر بك ما يغنيك وفى النظر إليه ما يشفيك ، ولم ملكت نفسك دون أن تهذى ، ولم رأيت الوقار مروءة قبل أن تستخف . ولم كان الهذيان به هو الجد ، والسخف هو المروءة، والتناقض هو الصحة ؟ و إلا بأى شىء خصصت و بأى معنى أتيت ، ولم لم تخلع فيه العذار ولم لم تخرج فيه عن كل مقدار ، وأى شىء أجرب جلدك وأمات حالك وأضعف مسرتك وأوحش منك رفيقك إلا العقو بة المحضة و إلا الغضب والعقاب ، وحرمك الثواب

إلا التهاون فى أمره وقلة الرعاية لحقه ؟ وكيف صارت أمراضى أمراض الأغنياء وأمراضك أمراض الفقراء إلا لمعرفتى بفضله واستخفافك بقدره ؟ ألا ترى أنى منقرس مفلوج وأنت أجرب مبثور ، فان تبت فما أقرب الفرج وأسرع الإجابة . وسنفرغ لك إن شاء الله قريبا وتفلح سريعا ، وإن أصررت وتتابعت وتماديت أتاك والله من سفلة الأدواء وزوى عنك من علية الأمراض ما يضعك موضعاً لا ارتفاع معه ، ويلزق بعقبك عاراً لا زوال له ، ثم تتبع أشياخك السبة وتتبعهم المذمة . علم الله أنه استطرفك واستملحك واستحسن قدك واسترجح عقلك وأحسن بك ظناً ورآك لنفسه أهلا ولاتخاذه موضعاً وللانس به مكاناً ، وأنت لاه عنه زار عليه متهاون به ، قد أقبلت على ديوانك تشتغل بملازمته وتدع ما يجب عليك من صفاته والدعاء إلى تعظيمه ، بل هل كنت من شيعته والذابين عن دولته والمعروفين بالانقطاع إليه والانبتات فى حبله إلا أن يكون عندك التقصير لحقه والتهاون بأمره اللازم ونهى الناس عنه ، ولو خرجت إلى هذا لخرجت من جميع الأخلاق المحمودة والأفعال المرضية . وأحسب أنك لاتعظمه ولا ترق له ، ولو لم تتعصب إلا لجماله وحسنه ولو لم تحافظ على نقائه وعتقه لـكان ذلك واجباً وأمراً معروفا ، فكيف مع المناسبة التى بينكما والشكل الذى يجمعكما ، فان كان بعضك لا يصون بعضا وأنت لا تعظم شقيقا فأنت والله من حفظ العشيرة أبعد ولمعرفة الصديق أنكر . ولقد نعيت إلى لبك وأثكلتنى حفاظك وأفسدت عندى كل صحيح ، وقد كان يقال : لا يزال الناس بخير ما تعجبوا من العجب قال الشاعر :

وهُلكُ الفتى أنْ لا يُراح إلى النَّدَى ... وَأَنْ لا يَرَى شَيأً عجيبْاً فيُعْجَبا

وقال بكر بن عبد الله المزنى : كنا نتعجب من دهر لا يتعجب أهله من العجب . فقد صرنا فى دهر لا يستحسن أهله الحسن ، ومن لم يستحسن الحسن لم يستقبح القبيح . وقال بعضهم : العجب ترك التعجب من العجب . ولم أقل ذلك إلا لأن تكون به ضنيناً وبما يجب له عارفا ، ولـكنك لم توفر حقه ولم تعرف نصيبه ، فإن

قلت : ومن يقضي واجب حقه وينهض بجميع شكره ؟ قلنا : فهل أعذرت فى الاجتهاد حتى لا يلم إلا تعجبك ؟ وهل استغرقت الاعتذار حتى لا تعاب إلا بما زاد على قوتك ! ولولا أنك عين الجود لم نطلبه منك ، ولولا ظنك لم نحمدك عليه ، ولولا معرفتك بفضله لم نعجب من تقصيرك فى حقه . ولولا أن الخطأ فيك أقبح والقبيح منك أسمج وهو فيك أبين والناس فيه أكلف والعيون إليه أسرع لكان كتابنا كتاب مطالبة، ولم يكن كتاب معاتبة ، ولشغلنا الحلم لك عن الحلم عليك ، والقول لك عن القول فيك . وقد كنت أهابك بفضل هيبتى لك واجترىء عليك بفضل بسطك لى ، فمنعنى حرص الممنوع وخوف المشفق وأمن الواثق وقناعة الراضى

وبعد فمن طلب مالا يجاد به وسأل مالا يوهب مثله ممن يجود بكل ثمين ويهب كل خطير فواجب أن يكون من الرد مشفقاً وبالنجح موقناً . وإن كان — أبقاه الله — أهلا لأن يمنع وكنت حفظك الله أهلا لأن تبذل وجب أن يكون باذلا مانعا وسا كنا مطمئنا ، إلا أن يكون الحرب سجالا والحالات دولا . ولهذه الخصال ماوقع الطلب وشاع الطمع . فان منعت فعذرك مبسوط عند من عرف قدرك ، وإن بذلت فلم تعد الذى أنت أهله عند من عرف قدرك ، إلا أنه لا يجود بمثله إلا غنى عن جميع الناس أو عاقل فوق جميع الناس ، وكيف لا أطلب طلب الجرىء المتهور وأمسك إمساك الهائب الموقر وليس فى الأرض خلق يغتفر فى وصفه المحال غيره ، ولا يستحسن الهذيان سواه ! على أن من الهذيان ما يكون مفهوماً ، ومن المحال ما يكون مسموعاً ، فمن جهل ذلك ولم يعرفه وقصر ولم يبلغه فليسمع كلام اللهفان والثكلان والغضبان والغيران ومرقصة الصبيان والمنعظ إذا دنا منه الحلق حتى إذا استوهبك لم تهب له منه حتى تقف له وقفة وتطرقه ساعة ، ثم تستحسن وتستشير، ثم تشفق على مستوهبه وتعجب من شار به ، ثم تطيل الكتاب بالامتنان وتسطر فيه بتعظيم الإنعام ، مع ذكر مناقبه ونشر محاسنه بقدر الطاقة ، وإن لم تبلغ الغاية فاعرف وزنه وأشد بطيبه وأرخ ساعته وأشهد فى الناس يومه . وماظنك

بشيء لا تقدر أن تسرد في ذكره وتفرط فى مدحه وتقصيرك واضح فى كونه مكتوبا فى طعمه موجودا فى رائحته ، إذ كان كل ممدوح يقصر عن مدحه وقدره و يصغر فى جنبه ، ولو لم يستدل على سعادة جدك و إقبال أمرك وأن لك زى صدق فى المعلوم وحظا فى الرزق المقسوم ، وأنت ممن تبقى نعمة و يدوم شكره و يفهم النعمة و يربيها و يدرأ عنها و يستديمها، إلا أنه إن وقع في قسمك وكان فى نصيبك ، لكان ذلك أعظم البرهان وأوضح الدلالة ، بل لا تقول إنه وقع إتفاقاً وغرساً نادراً حتى يكون التوفيق هو الذى قصد به ، والصنع هو الذى دل عليه ، ولو لم تملك غيره لكنت غنيا ، ولو ملكت كل شيء سواه لكنت فقيراً . وكيف لا يكون كذلك وهو مستراح قلبك ، ومجال عقلك ، ومرتع عينك ، وموضع أنسك ، ومستنبط لذتك ، و ينبوع سرورك ، ومصباحك فى الظلام ، وشعارك من جميع الأقسام . وكيف وقد جمع أبهة الجلال ، ورشاقة الخلال ، ووقار البهاء ، وشرف الخير ، وعز المجاهدة ولذة الاختلاس ، وحلاوة الدبيب . . ! ؟

وسأصف لك شرف النبيذ فى نفسه وفضيلته على غيره ، ثم أصف فضل شرابك على سائر الأشربة كما أصف فضل النبيذ على سائر الانبذة ، لأن النبيذ إذا تمشى فى عظامك والتبس بأجزائك ودب فى جنانك منحك صدق الحس وفراغ النفس وجعلك رخى البال خلى الذرع قليل الشواغل قرير العين واسع الصدر فسيح الهم حسن الظن ، ثم سد عليك أبواب التهم وحسن دونك الظن وخواطر الفهم ، وكفاك مؤنة الحراسة وألم الشفقة وخوف الحدثان وذل الطمع وكد الطلب ، وكلما اعترض على السرور وأفسد اللذة وقاسم الشهوة وأخل بالنعمة . وهو الذي يرد الشيوخ فى طبائع الشبان و يرد الشبان فى نشاط الصبيان ، وليس يخاف شار به إلا مجاوزة السرور إلى الأشر ومجاوزة الأشر إلى البطر ، ولو لم يكن من أياديه ومننه ومن جميل آلائه ونعمه ، إلا أنك ما دمت تمزجه بروحك وتزاوج بينه وبين دمك فقد أعفاك من الجد ونصبه ، وحسن إليك المزاح والفكاهة ، و بغض إليك الاستقصاء والمحاولة ، وأزال عنك تعقد الحشمة وكد المروءة ، وصار يومه جمالا لأيام الفكرة

وتسهيلا لمعاودة الروية ، لكان فى ذلك ما يوجب الشكر ويطيب الذكر . مع أن جميع ماوصفناه وأخبرنا به عنه يقوم بأيسر الجرم وأقل الثمن . ثم يعطيك في السفر ما يعطيك فى الحضر ، وسواء عليك البساتين والجنان ، ويصلح بالليل كما يصلح بالنهار ، و يطيب فى الصحو كما يطيب فى الدجن، ويلذ فى الصيف كما يلذ فى الشتاء، و يجرى مع كل حال ، وكل شيء سواه فانما يصلح فى بعض الأحوال . ويدفع ضمرة الخمار كما يجلب منفعه السرور . إن كنت جذلاً كان بارًا بك، وإن كنت ذاهم نفاه عنك . وما الغيث فى الحرث بأنفع منه فى البدن ، وما الريش السخام بأدفأ منه للمقرور ، و يستمرأ به الغذاء ، ويدفع به ثقل الماء، ويعالج به الأدواء، ويحمر به لوا جنتان ، ويعدل به قضاء الدين . إن انفردت به ألهاك وإن نادمت به ساواك . ثم هو أصنع للسرور من زلزل ، وأشد إطرابا من مخارق ، وقدر احتياجهما إليه كقدر استغنائه عنهما ، لأنه أصل اللذات وهما فرعه ، وهو أول السرور ونتاجه ولله در أول من عمله وصنعه، وسقيا لمن استنبطه و أظهره، ماذا دبر وعلى أى شىء دل و بأى معنى أنعم وأى دفين أثار وأى كنز استخرج .!؟ ومن استغناء النبيذ بنفسه وقلة احتياجه إلى غيره أن جميع ما ساواه من الشراب يصلحه الثلج ولا يطيب إلا به ، وأول ما نثنى عليه به ونذكر منه أنه كريم الجوهر ، شريف النفس، رفيع القدر ، بعيد الهم . وكذلك طبيعته المعروفة ، وسجيته الموصوفة ، وأنه يسر النفوس ، ويحبب إليها الجود ، ويزين لها الاحسان ، ويرغبها فى التوسع ويورثها الغنى وينفى عنها الفقر، و يملأها عزاً ، ويعدها خيرا ، ، ويحسن المسارة ، ويصير به البيت خصبا ، والجناب مريعا ومأهولا مغشيا ، وليس شيء من المأكول والمشروب أجمع للظرفاء ولا أشد تألفا للأدباء ولا أجلب للمؤنسين ولا أدعى الى خلاف المتنعين ولا أجدر أن يستدام به حديثهم ويخرج مكنونهم ويطول به مجلسهم منه ، وأن كل شراب وإن كان حلا ورق وصفا ودق وطاب وعذب وبرد ونقح ، فإن استطابتك لأول جرعة منه كثير ويكون من طبائعك أوقع ، ثم

لا يزال فى نقصان إلا أن يسود مكروها و بلية إلا النبيذ ، فإن القدح الثانى أسهل من الأول ، والثالث أيسر ، والرابع ألذ ، والخامس أسلس ، والسادس أطرب ، إلى أن يسلمك إلى النوم الذى هو حياتك أو أحد أقواتك . ولا خير فيه إذا كان إسكاره تغلباً ، وأخذه بالرأس تعسفا ، حتى يميت الحس بحدته ، و يصرع الشارب بسورته ، و يورث البهر بكظته ، ولا يسرى فى العروق لغلظته ، ولا يجرى فى البدن لركوده ، ولا يدخل فى العمق ولا يدخل فى الصميم . ولا والله حتى يغازل العقل و يعارضه ، و يداعبه و يخادعه ، فيسره ثم يبهره ، فإذا امتلأ سرورا وعاد ملكا محبوراً ختاله السكر وراوغه ، وداراه وماكره ، وهازله وغانجه . وليس كما يغتصب السكر و يعتسف الغاذى و يفترس الزبيب ، ولكن بالتفتير والغمز والحيلة والختل وتحبيب النوم وتزيين الصمت . وهذه صفة شرابك إلا مالا نحيط به من نعوته بتبذل إلا ما يقبح منها الجهل به . وخير الأشربة ما جمع المحمود من خصالها وخصال غيرها . وشرابك هذا قد أخذ من الخمر دبيبها فى المفاصل وتمشيها فى العظام ولونها الغريب . وأخذ برد الماء ورقة الهواء ، وحركة النار وحمرة خدك إذا خجلت ، وصفرة لونك إذا فزعت ، وبياض عارضيك إذا ضحكت . وحسبى بصفاتك عوضا من كل حسن ، وخلفا من كل صالح . ولا تعجب إن كنت نهاية الهمة وغاية الأمنية ، فإن حسن الوجه إذا وافق حسن القوام ، وشدة العقل وجودة الرأى ، وكثرة الفضل ، وسعة الخلق ، والمغرس الطيب ، والنصاب الكريم ، والطرف الناصع ، واللسان المفحم ، والمخرج السهل ، والحديث المونق ، مع الإشارة الحسنه ، والنبل فى الجلسة ، والحركة الرشيقة ، واللهجة الفصيحة ، والتمهل فى المحاورة ، والهذ عند المناقلة ، والبدية البديع ، والفكر الصحيح ، والمعنى الشريف ، واللفظ المحذوف ، والايجاز يوم الايجاز ، والاطناب يوم الاطناب ، يفل الحز و يصيب المفصل ، و يبلغ بالعفو ما يقصر عنه الجهد ، كان أكثر لتضاعف الحسن وأحق بالكمال والحمد . و إن التاج بهى وهو فى رأس الملوك أبهى ، والياقوت الكريم حسن وهو فى جيد المرأة الحسناء أحسن ، والشعر الفاخر

حسن وهو من الاعرابى أحسن فإن كان من قول المنشد وقريضه ومن نحته وتحبيره فقد بلغ الغاية وقام على النهاية .

وهذا الشراب حسن وهو عندك أحسن، والهدية منه شريفة وهى منك أشرف. وإن كنت قدرت أنى إنما طلبته منك لأشربه أو لأسقيه أو لأهبه أو لأتحساه فى الخلا أو أديره فى الملا أو لأنافس فيه الأكفاء واختبر زيادة الخلطاء أولأبتذله لعيون الندماء أو أعرضه لنوائب الأصدقاء ، فقد أسأت بى الظن وذهبت من الإساءة بى فى كل فن ، وقصرت به فهو أشد عليك ، ووضعت منه فهو أضر بك . وإن ظننت أنى إنما أريده لأطرف به معشوقة أو لأستميل به هوى ملك أو لأغسل به وضر الأفئدة أو أودى به خطايا الأشربة أو لأجلو به الابصار العليلة أو أصلح به الابدان الفاسدة أو لا تطول به على شاعر مفلق أو خطيب مصقع أو أديب مدقع ، ليفتق لهم المعانى وليخرج المذاهب ، ولما فى جانبهم من الاجر وفى أعناقهم من الشكر ، ولينقضوا ما قالت الشعراء فى الحمد ، وليرتجعوا ما شاع لهم من الذكر ، فإنى أريد أن أضع من قدرها وأن أكسر من بالها ، فقد تاهت وتيه بها ، أو لان أتفاءل برؤيته وأتبرك بمكانه وآنس بقربه أو لأشفى به الظمآن أو أجعله أكسير أصحاب الكيمياء أو لأن أذكرك كلما رأيته وأداعبك كلما قابلته أو لاجتلب به اليسر وأنفى العسر ، أو لانه والفقر لا يجتمعان فى دار ولا يقيمان فى ربع ، ولأتعرف به حسن اختيارك وأتذكر به جودة إجتبائك أو لان استدل به على خالص حبك وعلى معرفتك بفضلى وقيامك بواجب حقى ، فقد أحسنت بى الظن وذكرت من الإحسان فى كل فن . بل هو الذي أصونه صيانة الاعراض وأغار عليه غيرة الازواج ، واعلم أنك إن أكثرت لى منه خرجت إلى الفساد ، وإن أقللت أقمت على الاقتصاد ، وأنا رجل من بنى كنانة وللخلافة قرابة ولى فيها شفعة وهم بعد جنس وعصبة ، فأقل ما أصنع إن أكثرت لى منه أن أطلب الملك ، وأقل ما يصنعون بى أن أنفى من الارض ، فإن أقللت فانك الولد الناصح ، وإن أكثرت فانك الغاش الكاشح والسلام

١١
من رسالته فى بنى أمية

قال أبو عثمان :

أطال الله بقاءك وأتم نعمته عليك وكرامته لك . إعلم أرشد الله أمرك أن هذه الأمة قد صارت بعد إسلامها والخروج من جاهليتها إلى طبقات متفاوتة ، ومنازل مختلفة :

فالطبقة الأولى عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وست سنين من خلافة عثمان رضى الله عنه . كانوا على التوحيد الصحيح والإخلاص المحض ، مع الألفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ، ولا بدعة فاشية ، ولا نزع يد من طاعة ، ولا حسد ولا غل ولا تأول ، حتى كان الذى كان من قتل عثمان رضى الله عنه وما انتهك منه ومن خبطهم إياه بالسلاح و بعج بطنه بالحراب وفرى أوداجه بالمشاقص وشدخ هامته بالعمد ، مع كفه البسط ونهيه عن الامتناع ، مع تعريفه لهم قبل ذلك من كم وجه يجوز قتل من شهد الشهادة وصلى للقبلة وأكل الذبيحة ، ومع ضرب نسائه بحضرته و إقحام الرجال على حرمته ، مع اتقاء نائلة بنت الفرافصة عنه بيدها حتى أطنوا إصبعين من أصابعها ، وقد كشفت عن قناعها ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك رادعا لهم وكاسرا من غربهم . مع وطئهم فى أضلاعه بعد موته و إلقائهم على المزبلة جسده مجردا بعد سحبه . وهى الجزيرة التى جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كفأ لبناته وأياماه وعقائله ، بعد السب والتعطيش والحصر الشديد والمنع من القوت ، مع احتجاجه عليهم و إفحامه لهم ، ومع اجتماعهم على أن دم الفاسق حرام كدم المؤمن إلا من ارتد بعد إسلام ، أو زنى بعد إحصان ، أو قتل مؤمنا على عمد ، أو رجل عدا على

الناس بسيفه فكان فى امتناعهم منه عطبه، ومع اجتماعهم على ألا يقتل من هذه الأمة ولا يجهز منها على جريح. ثم مع ذلك كله ذمروا عليه وعلى أزواجه وحرمه وهو جالس فى محرابه ومصحفه يلوح فى حجره لا يرى أن موحدا يقدم على قتل من كان فى مثل صفته وحاله .

لا جرم لقد احتلبوا به دما لا تطير رغوته ولا تسكن فورته ولا يموت ثائره ولا يكل طالبه ، وكيف يضيع الله دم وليه والمنتقم له ؟ وما سمعنا بدم بعد دم يحيى ابن زكريا عليهما السلام ، غلا غليانه وقتل سافحه وأدرك بطائلته وبلغ كل محبته كدمه رحمة الله عليه .

ولقد كان لهم فى أخذه وفى إقامته للناس والاقتصاص منه وفى بيع ما ظهر من رباعه وحدائقه وسائر أمواله وفى حبسه بما بقى عليه وفى طمره حتى لا يحس بذكره ما يغنيهم عن قتله إن كان قد ركب كل ما قذفوه به وادعوه عليه . وهذا كله بحضرة جلة المهاجرين والسلف المقدمين والأنصار والتابعين .

ولكن الناس كانوا على طبقات مختلفة ومراتب متباينة: فمن قاتل ، ومن شاد على عضده ، ومن خاذل عن نصرته ، والعاجز ناصر بارادته ومضيع بحسن نيته . وإنما الشك منافيه وفى خاذليه ومن أراد عزله والاستبدال به . فأما قاتله والمعين على دمه والمريد لذلك منه ، فضلال لا شك فيهم ، ومراق لا امتراء فى حكمهم . على أن هذا لم يعد منهم الفجور : إما على سوء تأويل ، وإما على تعمد للشقاء . ثم ما زالت الفتن متصلة والحروب مترادفة ، كحرب الجمل وكوقائع صفين وكيوم النهروان ، وقبل ذلك يوم الزابوقة ، وفيه أسر ابن حنيف وقتل حكيم بن جبلة ، إلى أن قتل أشقاها[1] على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، فأسعده الله بالشهادة وأوجب لقاتله النار واللعنة ، إلى أن كان من اعتزال الحسن رضى الله عنه الحرب وتخليته الأمور عند انتشار أصحابه وما رأى من الخلل فى عسكره وما عرف من اختلافهم على أبيه وكثرة تلونهم عليه . فعندها استوى معاوية على الملك واستبد

(١) أشقاها : هو عبد الرحمن بن ملجم

على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين فى العام الذى سموه « عام الجماعة » وما كان عام جماعة بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة ، والعام الذى تحولت فيه الإمامة ملكا كسرويا والخلافة منصباً قيصريا ، ولم يعد ذلك أجمع الضلال والفسق ، ثم ما زالت معاصيه من جنس ماحكينا وعلى منازل ما رتبنا حتى رد قضية رسول الله صلى الله عليه وسلم رداً مكشوفاً وجحد حكمه جحداً ظاهراً فى ولد الفراش وما يجب للعاهر ، مع اجماع الأمة على أن سمية لم تكن لأبى سفيان فراشاً ، وأنه إنما كان بها عاهراً . فخرج بذلك من حكم الفجار إلى حكم الكفار

وليس قتل حجر بن عدى ، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر ، وبيعة يزيد الخليع ، والاستئثار بالفىء ، واختيار الولاة على الهوى ، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة ، من جنس جحد الأحكام المنصوصة والشرائع المشهورة والسنن المنصوبة . وسواء فى باب ما يستحق من الكفار جحد الكتاب ورد السنة إذا كانت السنة فى شهرة الكتاب وظهوره ، إلا أن أحدهما أعظم وعقاب الآخرة عليه أشد .

فهذه أول كفرة كانت من الأمة ، ثم لم تكن إلا فيمن يدعى إمامتها والخلافة عليها . على أن كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره . وقد أربت عليهم نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا فقالت : لا تسبوه فإن له صحبة ، وسب معاوية بدعة ، ومن يبغضه فقد خالف السنة . فزعمت أن من السنة ترك البراءة ممن جحد السنة . !؟

ثم الذى كان من يزيد ابنه ومن عماله وأهل نصرته ، ثم غزو مكة ورمى الكعبة واستباحة المدينة ، وقتل الحسين رضى الله عنه فى أكثر أهل بيته مصابيح الظلام وأوتاد الاسلام ، بعد الذى أعطى من نفسه ومن تفريق أتباعه والرجوع إلى داره وحرمه أو الذهاب فى الأرض حتى لا يحس به أو المقام حيث أمر به ، فأبوا إلا قتله والنزول على حكمهم . وسواء قتل نفسه بيده أو أسلمها إلى

عدوه وخير فيها من لا يبرد غليله إلا بشرب دمه . فاحسبوا قتله ليس بكفر ، وإباحة المدينة وهتك الحرمة ليس بجحد ، كيف تقولون فى رمى الكعبة وهدم البيت الحرام وقبلة المسلمين ؟ فإن قلتم ليس ذلك أرادوا بل إنما أرادوا المتحرز به والتحصن بحيطانه ! أفما كان فى حق البيت وحريمه أن يحصروه فيه إلى أن يعطى بيده! وأى شىء بقى من رجل قد أخذت عليه الأرض إلا موضع قدمه! واحسبوا ما رووا عليه من الأشعار التى قولها شرك والتمثل بها كفر ، شيئاً مصنوعاً ؛ كيف تصنع بنقر القضيب بين ثنيتي الحسين رضى الله عنه ! وحمل بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم حواسر على الأقتاب العارية والإبل الصعاب ، والكشف عن عودة على بن الحسين عند الشك فى بلوغه ؟ على أنهم إن وجدوه وقد أنبت قتلوه وإن لم يكن أنبت حملوه ، كما يصنع أمير جيش المسلمين بذرارى المشركين!؟ وكيف تقولون فى قول عبيد الله بن زياد لإخوته وخاصته : دعونى أقتله فإنه بقية هذا النسل فأحسم به هذا القرن وأميت به هذا الداء وأقطع به هذه المادة ..!؟

خبرونا : علام تدل هذه القسوة وهذه الغلظة بعد أن شفوا أنفسهم بقتلهم ونالوا ما أحبوا فيهم ؟ أتدل على نصب وسوء رأى وحقد وبغضاء ونفاق ، وعلى يقين مدخول وإيمان مخروج ! أم تدل على الاخلاص وعلى حب النبى صلى الله عليه وسلم والحفظ له وعلى براءة الساحة وصحة السريرة ! ! فان كان على ما وصفنا لايعدو الفسق والضلال ، وذلك أدنى منازله . فالفاسق ملعون ومن نهى عن شتم الملعون فملعون .

وزعمت نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا أن سب ولاة السوء فتنة ، ولعن الجَوَرَةِ بدعة ، وإن كانوا يأخذون السمى بالسمى والولى بالولى والقريب بالقريب ، وأخافوا الأولياء ، وأمنوا الأعداء ، وحكموا بالشفاعة والهوى ، وإظهار القدرة والتهاون بالأمة ، والقمع للرعية ، والتهم فى غير مداراة ولا تقية ، وإن عدا ذلك إلى الكفر وجاوز الضلال إلى الجحد فذاك أضل ممن كف عن شتمهم والبراءة منهم . على

أنه ليس من استحق اسم الكفر بالقتل كمن استحقه برد السنة وهدم الكعبة . وليس من استحق اسم الكفر بذلك كمن شبه الله بخلقه ، وليس من استحق الكفر بالتشبيه كمن استحقه بالتجوير . والنابتة فى هذا الوجه أكفر من يزيد وأبيه وابن زياد وأبيه . ولو ثبت أيضا على يزيد أنه تمثل بقول ابن الزبعرى :

لَيْتَ أَشْيَاخِى بِبَدْرٍ شَهِدُوا ... جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأسَلْ
لَأَسْتَطَارُوا وَاسْتَهَلُّوا فَرَحاً ... ثُمَّ قَالُوا يَا يَزِيدُ لاَ تَسَلْ
قَدْ قَتَلْنَا الغُرَّ مِنْ سَادَاتِهِمْ ... وَعَدَلْنَاهُ بِبَدْرٍ فَاعْتَدَلْ

كان تجوير النابتى لربه وتشبيهه بخلقه أعظم من ذلك وأفظع . على أنهم مجمعون على أنه ملعون من قتل مؤمنا ، متعمدا أو متأولا . فإذا كان القاتل سلطانا جائرا أو أميرا عاصيا لم يستحلوا سبه ولا خلعه ولا نفيه ولا عيبه ، وإن أخاف الصلحاء وقتل الفقهاء وأجاع الفقير وظلم الضعيف وعطل الحدود والثغور وشرب الخمور وأظهر الفجور ..!؟

ثم مازال الناس يتسكعون مرة ويداهنونهم مرة ، ويقاربونهم مرة ويشاركونهم مرة ، إلا بقية ممن عصمه الله تعالى ذكره ، حتى قام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد وعاملهما الحجاج بن يوسف ومولاه يزيد بن أبى مسلم . فأعادوا على البيت بالهدم وعلى حرم المدينة بالغزو ، فهدموا الكعبة ، واستباحوا الحرمة ، وحولوا قبلة واسط ، وأخروا صلاة الجمعة إلى مغيربان الشمس ، فإن قال رجل لأحدهم : اتق الله فقد أخرت الصلاة عن وقتها ؟ قتله على هذا القول جهارا غير ختل ، وعلانية غير سر . ولا يعلم القتل على ذلك إلا أقبح من إنكاره . فكيف يكفر العبد بشيء ولا يكفر بأعظم منه !

وقد كان بعض الصالحين ربما وعظ الجبابرة وخوفهم العواقب وأراهم أن فى الناس بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ، حتى قام عبد الملك بن مروان والحجاج ابن يوسف فزجرا عن ذلك وعاقبا عليه وقتلا فيه ، فصاروا لايتناهون عن منكر

فعلوه . فاحسب تحويل القبلة كان غلطا ، وهدم البيت كان تأولا ، واحسب ماترووا من كل وجه أنهم كانوا يزعمون أن خليفة المرء فى أهله أرفع عنده من رسوله إليهم ، باطلا ! ومسموعا مولدا ، واحسب وسم أيدى المسلمين ونقش أيدى المسلمات وردهم بعد الهجرة إلى قراهم ، وقتل الفقهاء وسب أئمة الهدى والنصب لعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يكون كفرا ، كيف تقول فى جمع ثلاث صلوات فيهن الجمعة ، ولا يصلون أولاهن حتى تصير الشمس على أعالى الجدران كالملاء المعصفر ؟ فإن نطق مسلم خُبط بالسيف وأخذته العمد وشك بالرماح . ! ؟ و إن قال قائل : اتق الله ! أخذته العزة بالإثم ، ثم لم يرض إلا بنثر دماغه على صدره و بصلبه حيث تراه عياله .

ومما يدل على أن القوم لم يكونوا إلا فى طريق التمرد على الله عز وجل ، والاستخفاف بالدين والتهاون بالمسلمين والابتذال لأهل الحق ، أكل أمرائهم الطعام وشربهم الشراب على منابرهم أيام جمعهم وجموعهم . فعل ذلك حبيش بن دُلجة ، وطوارق مولى عثمان ، والحجاج بن يوسف ، وغيرهم . وذلك إن كان كفرا كله فلم يبلغ كفر نابتة عصرنا وروافض دهرنا ، لأن جنس كفر هؤلاء غير كفر أولئك كان اختلاف الناس فى القَدَر على أن طائفة تقول : كل شىء بقضاء وقدر . وتقول طائفة أخرى : كل شىء بقضاء وقدر إلا المعاصى . ولم يكن أحد يقول : إن الله يعذب الأبناء ليغيظ الآباء ، و إن الكفر والإيمان مخلوقان فى الانسان مثل العمى والبصر . وكانت طائفة منهم تقول : إن الله يُرى . لا تزيد على ذلك . فإن خافت أن يظن بها التشبيه قالت : يُرى بلا كيف . تفرزا من التجسيم والتصوير . حتى نبتت هذه النابتة وتكلمت هذه الرافضة فقالت جسما ، وجعلت له صورة وحدا ، وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير . ثم زعم أكثرهم أن كلام الله حسنٌ وَبيِّنٌ وحجة و برهان ، وأن التوراة غير الزبور ، والزبور غير الانجيل ، والأنجيل غير القرآن ، والبقرة غير آل عمران ، وأن الله تولى تأليفه

وجعله برهانه على صدق رسوله ، وأنه لو شاء أن يزيد فيه زاد ، ولو شاء أن ينقص منه نقص ، ولو شاء أن يبدله بدله ، ولو شاء أن ينسخه كله بغيره نسخه ، وأنه أنزله تنزيلا ، وأنه فصله تفصيلا ، وأنه بالله كان دون غيره ، ولا يقدر عليه إلا هو ، غير أن الله مع ذلك كله لم يخلقه . فأعطوا جميع صفات الخلق ومنعوا اسم الخلق .

والعجب أن الخلق عند العرب إنما هو التقدير نفسه . فلذا قالوا : خلق كذا وكذا . ولذلك قال « أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » وقال « وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً » وقال : « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ » قالوا : صنعه ، وقدره ، وأنزله ، وفصله ، وأحدثه ، ومنعوا : خلقه . وليس تأويل خلقه أكثر من قدره . ولو قالوا بدل قولهم : قدره ولم يخلقه : خلقه ولم يقدره ، ما كانت المسألة عليهم إلا من وجه واحد

والعجب أن الذى منعه بزعمه أن يزعم أنه مخلوق ، أنه لم يسمع ذلك من سلفه ، وهو يعلم أنه ليس بمخلوق ! وليس ذلك بهم ، ولكن لما كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الجوف وعلى جهة تقطيع الحروف وإعمال اللسان والشفتين ، ولما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام ، ولما كنا عندهم على غير هذه الصفة ، وكنا لكلامنا غير خالقين : وجب أن الله عز وجل لكلامه غير خالق ، إذ كنا غير خالقين لكلامنا . فإنما قالوا ذلك لأنهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه فرقا ، وإن لم يقروا بذلك بألسنتهم فذلك معناهم وقصدهم .

وقد كانت هذه الأمة لا تجاوز معاصيها الإثم والضلال ، إلا ما حكيت لك عن بنى أمية وبنى مروان وعمالهم ، ومن لم يدن بإكفارهم ، حتى نجمت [هذه] النوابت وتابعتها هذه العوام . فصار الغالب على هذا القرن الكفر . وهو التشبيه والجبر . فصار كفرهم أعظم من كفر من مضى فى الأعمال التى هى الفسق

[وكانوا] شركاء من كفر منهم بتوليهم وترك إكفارهم . قال الله عز وجل من قائل « ومن يتولهم منكم فإنه منهم »

وأرجو أن يكون الله قد أغاث المحقين ورحمهم وقوى ضعفهم وكثر قلتهم حتى صار ولاة أمورنا فى هذا الدهر الصعب والزمن الفاسد أشد استبصارا فى التشبيه من عليتنا وأعلم بما يلزم فيه منا وأكشف للقناع من رؤسائنا ، وصادفوا الناس وقد انتظموا معانى الفساد أجمع وبلغوا غايات البدع ، ثم قرنوا بذلك العصبية التى هلك بها عالم بعد عالم، والحمية التى لاتبقى دينا إلا أفسدته ، ولا دنيا إلا أهلكتها . وهو ما صارت اليه العجم من مذهب الشعوبية ، وما قد صار إليه الموالى من الفخر على العجم والعرب . وقد نجمت من الموالى ناجمة ونبتت منهم نابتة تزعم أن المولى بولائه قد صار عربيا، لقول النبى صلى الله عليه وسلم :« مولى القوم منهم » . ولقوله : « الولاء لحمة كلحمة النسب لا يباع ولا يوهب » .

قال : فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا أشرف من العرب ، ولما حول ذلك إلى العرب صارت العرب أشرف منهم .

قالوا : فنحن معاشر الموالى بقديمنا فى العجم أشرف من العرب ، وبالحديث الذى صار لنا فى العرب أشرف من العجم ، وللعرب القديم دون الحديث ، ولنا خصلتان وافرتان فينا جميعا ، وصاحب الخصلتين أفضل من صاحب الخصلة . وقد جعل الله المولى بعد أن كان عجميا عربيا بولائه ، كما جعل حليف قريش من العرب قرشيا بحلفه ، وجعل إسماعيل بعد أن كان أعجميا عربيا . ولولا قول النبى صلى الله عليه وسلم :« إن اسماعيل كان عربيا» . ما كان عندنا إلا أعجميا . لأن الأعجمى لا يصير عربيا كما أن العربى لا يصير أعجميا . فإنما علمنا أن إسماعيل صيره الله عربيا بعد أن كان أعجميا ، بقول النبى صلى الله عليه وسلم . فكذلك حكم قوله : مولى القوم منهم . وقوله : الولاء لحمة .

قالوا : وقد جعل الله ابراهيم عليه السلام أبا لمن لم يلد ، كما جعله أبا لمن ولد .

وجعل أزواج النبى أمهات المؤمنين ، ولم يلدن منهم أحداً . وجعل الجار والد من لم يلد . فى قول غير هذا كثير قد أتينا عليه فى موضعه .

وليس أدعى إلى الفساد ولا أجلب للشر من المفاخرة ، وليس على ظهرها إلا فخور — إلا قليل — وأى شىء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك ! وهو مقر بأنه صار شريفاً بعتقك إياه ؟

وقد كتبت — مد الله فى عمرك — كتباً فى مفاخرة قحطان وفى تفضيل عدنان ، وفى رد الموالى إلى مكانهم فى الفضل والنقص وإلى قدر ماجعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف ، وأرجو أن يكون عدلا بينهم وداعية إلى صلاحهم ومنبهة عليهم ولهم . وقد أردت أن أرسل بالجزء الأول إليك ثم رأيت ألا يكون إلا بعد استئذانك واستئمارك والانتهاء فى ذلك إلى رغبتك ، فرأيك فيه موفق إن شاء الله عز وجل وبه الثقة .

١٢

من كتابه فى العباسية

قال أبو عثمان :

وقد زعم أناس أن الدليل على صدق خبرهما (يعنى أبا بكر وعمر) فى منع الميراث وبراءة ساحتهما ، ترك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم النكير عليهما . . ! قد يقال لهم : لئن كان ترك النكير دليلا على صدقهما ، إن ترك النكير على المتظلمين والمحتجين عليهما والمطالبين لهما دليل على صدق دعواهم أو استحسان مقالتهم ، ولا سيما وقد طالت المناجاة وكثرت المراجعة والملاحات ، وظهرت الشكية واشتدت الموجدة . وقد بلغ ذلك من فاطمة أنها أوصت أن لايصلى عليها أبو بكر . ولقد كانت قالت له حين أتته مطالبة بحقها ومحتجة لرهطها : من يرثك

يا أبا بكر إذا مت ؟ قال : أهلي وولدي . قالت : فما بالنا لا نرث النبي صلى الله عليه وسلم ؟ ! فلما منعها ميراثها وبخسها حقها واعتل عليها وجلح أمرها وعاينت التهضم وأيست في التورع ووجدت نشوة الضعف وقلة الناصر قالت : والله لأدعون الله عليك . قال : والله لأدعون الله لك . قالت : والله لا كلمتك أبداً. قال : والله لا أهجرك أبداً . فان يكن ترك النكير على أبي بكر دليلا على صواب منعها ، إن في ترك النكير على فاطمة دليلا على صواب طلبها ؟ وأدنى ما كان يجب عليهم في ذلك تعريفها ماجهلت وتذكيرها مانسيت وصرفها عن الخطأ ، ورفع قدرها عن البذاء وأن تقول هُجراً وتَجوِّر عادلا أو تقطع واصلا ؟ فاذا لم نجدهم أنكروا على الخصمين جميعاً فقد تكافأت الأمور واستوت الأسباب . والرجوع إلى أصل حكم الله في المواريث أولى بناو بكم ، وأوجب علينا وعليكم .

فان قالوا : كيف تظن به ظلمها والتعدي عليها ، وكلما ازدادت عليه غلظة ازداد لها ليناً ورقة ، حيث تقول له : والله لا أكلمك أبداً فيقول والله لا أهجرك أبداً. ثم تقول والله لأدعون الله عليك فيقول والله لأدعون الله لك . ثم يتحمل منها هذا الكلام الغليظ والقول الشديد في دار الخلافة وبحضرة قريش والصحابة مع حاجة الخلافة إلى البهاء والتنزيه وما يجب لها من الرفعة والهيبة ، ثم لم يمنعه ذلك أن قال معتذراً متقرباً كلام المعظم لحقها ، المكبر لمقامها الصائن لوجهها ، المتحنن عليها . ما أحد أعز على منك فقراً ولا أحب إلي منك غنى ! ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنا معاشر الأنبياء لانورث ما تركناه فهو صدقة » . ؟

قيل لهم : ليس ذلك بدليل على البراءة من الظلم والسلامة من الجور ، وقد يبلغ من مكر الظالم ودهاء الماكر إذا كان أريباً وللخصومة معتاداً أن يظهر كلام المظلوم وذلة المنتصف وحدب الوامق ومقة المحق . وكيف جعلتم ترك النكير حجة قاطعة ودلالة واضحة وقد زعمتم أن عمر قال على منبره : متعتان كانتا على عهد

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متعة النساء ومتعة الحج ، أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما ، فما وجدتم أحداً أنكر قوله ولا استشنع مخرج نهيه ولا خطأه فى معناه ولا تعجب منه ولا استفهمه ؟ وكيف تقضون بترك النكير ، وقد شهد عمر يوم السقيفة وبعد ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الأئمة من قريش » . ثم قال فى شكاته : لو كان سالم حياً ما تخالجنى فيه شك . حين أظهر الشك فى استحقاق كل واحد من الستة الذين جعلهم شورى ! وسالم عبد لامرأة من الأنصار وهى أعتقته وحازت ميراثه . ثم لم ينكر ذلك من قوله منكر ولا قابل إنسان بين قوله ولا تعجب منه ! وإنما يكون ترك النكير على من لا رغبة ولا رهبة عنده دليلا على صدق قوله وصواب عمله ، فأما ترك النكير على من يملك الضعة والرفعة والأمر والنهى والقتل والاستحياء والحبس والاطلاق ، فليس بحجة تشفى ولا دلالة تضىء .

وقال آخرون : بل الدليل على صدق قولهما وصواب عملهما إمساك الصحابة عن خلعهما والخروج عليهما ، وهم الذين وثبوا على عثمان فى أيسر من جحد التنزيل ورد النصوص ، ولو كان كما تقولون وما تصفون ما كان سبيل الأمة فيهما إلا كسبيلها فيه ، وعثمان كان أعز نفراً ، وأشرف رهطا ، وأكثر عدداً وثروة وأقوى عدة ؟

قلنا : إنهما لم يجحدا التنزيل ولم ينكرا النصوص ، ولكنهما بعد اقرارهما بحكم الميراث وما عليه الظاهر من الشريعة ، أدعيا رواية وتحدثا بحديث لم يكن محالا كونه ولا ممتنعاً فى حجج العقول مجيئه ، وشهد لهما عليه مَن علته مثل علتهما فيه ، ولعل بعضهم كان يرى تصديق الرجل إذ كان عدلا فى رهطه مأموناً فى ظاهره ، ولم يكن قبل ذلك عرفه بفجرة ولا جرب عليه غدرة ، فيكون تصديقه له على جهة حسن الظن وتعديل الشاهد ، ولأنه لم يكن كثير منهم يعرف حقائق الحجج والذى يقطع بشهادته على الغيب ، وكان ذلك شبهة على أكثرهم . فلذلك

قلّ النكير وتوا كل الناس فاشتبه الأمر فصار لايتخلص إلى معرفة حق ذلك من باطله إلا العالم المتقدم ، أوالمؤيد المرشد . ولأنه لم يكن لعثمان فى صدور العوام وقلوب السفلة والطغام ما كان لهما من المحبة والهيبة ، ولأنهما كانا أقل استئثاراً بالفىء وتفضلا بمال الله منه . ومن شأن الناس إهمال السلطان ماوفر عليهم أموالهم ولم يستأثر بخراجهم ولم يعطل ثغورهم ، ولأن الذى صنع أبو بكر من منع العترة حقها والعمومة ميراثها قد كان موافقاً لجلة قريش وكبراء العرب ، ولأن عثمان أيضاً كان مضعوفاً فى نفسه مستخفاً بقدره لايمنع ضيما ولا يقمع عدواً ، ولقد وثب ناس على عثمان بالشتم والقذع والتشنيع والنكير لأمور لو أتى أضعافها وبلغ أقصاها لما اجترأوا على اغتيابه فضلا على مباداته والإغراء به ومواجهته ، كما أغلظ عُيينة ابن حصن له فقال له : أما لو كان عمر لقمعك ومنعك ! فقال عيينة : إن عمر كان خيراً لى منك ، رهبنى فاتقانى وأعطانى فاغنانى .

والعجب أنا وجدنا جميع من خالفنا فى الميراث على اختلافهم فى التشبيه والقدر والوعيد يرد كل صنف منهم من أحاديث مخالفيه وخصومه ماهو أقرب إسناداً وأصح رجالا وأحسن اتصالا ، حتى إذا صاروا إلى القول فى ميراث النبى صلى الله عليه وسلم نسخوا الكتاب وخصوا الخبر العام بما لايدانى بعض ماردوه وأكذبوا قائليه ، وذلك أن كل إنسان منهم إنما يجرى إلى هواه ويصدق ما وافق رِضاه .

١٢
من رسائله الخاصة

كتب أبو عثمان إلى أبى الفرج الكاتب فى المودة الخلطة :

أطال الله بقاءك ، وأعزك وأكرمك ، وأتم نعمه عليك .

زعم — أبقاك الله — كثير ممن يقرض الشعر ويروى معانيه ، ويتكلف الأدب ويجتبيه : أنه قد يُمدح المرجو المأمول والفتى المزور ، بأن يكون مخدوعا ،

وعمى الطرف مغفلا ، وسليم الصدر للراغبين،وحسن الظن بالطالبين ، قليل الفطنة لأبواب الاعتذار ، عاجزاً عن التخلص إلى معانى الاعتلال ، قليل الحذق برد الشفعاء ، شديد الخوف من مياسم الشعراء ، حصوراً عند الاحتجاج للمنع ، سلس القياد إذا نبهته تنبه للبذل . واحتجوا بقول الشاعر :

إِيتِ الْخَلِيْفَةَ فَاخْدَعْهُ بِمَسْأَلَةٍ   إِنَّ الْخَلِيْفَةَ لِلسُّؤَالِ يَنْخَدِعُ

فانتحال المأمول للغفلة التى تعترى الكرام ، واختداع الجواد لخدع الطالبين ومخاريق المستميحين ، باب من التكرم ، ومن استدعاء الراغب ، ومن التعرض للمجتدى ، والتلطف لاستخراج الأموال ، والاحتيال لحل عقد الأشحاء ، وتهييج طبائع الكرام .

وأنا أزعم — أعاك الله تعالى — أن إقرار المسئول بما ينحل من ذلك نوك وإضماره لؤم حتى تصح القسمة ويعتدل الوزن ، وأنا أعوذ بالله من تذكير يناسب الاقتضاء ، ومن اقتضاء يضارع الإلحاح ، ومن حرص يقود إلى الحرمان ، ومن رسالة ظاهرها زهد وباطنها رغبة ، فإن أسقط الكلام وأوغده وأبعده عن السعادة وأنكده ، ما أظهر النزاهة وأضمر الحرص ، وتحلى للعيون بين القناعة واستشنع ذلة الافتقار ، وأشنع من ذلك وأقبح منه وأفحش أن يظن صاحبه أن معناه خفى وهو ظاهر ، وتأويله بعيد الغور وهو قريب القعر . فنسأل الله تعالى السلامة فإنها أصل النعمة عليكم ، ونحمده على اتصال نعمتنا بنعمتكم وما ألهمنا الله تعالى من وصف محاسنكم . والحمد لله الذى جعل الحمد مستفتح كتابه وآخر دعوى أهل جنته . ولو أن رجلا اجتهد فى عبادة ربه واستفرغ مجهوده فى طاعة سيده ليهب له الإخلاص فى الدعاء لمن أنعم عليه وأحسن إليه ، لكان حرياً بذلك أن يدرك أقصى غاية الكرم فى العاجل ، وأرفع درجات الكرامة فى الآجل . وعلى أنى لا أعرف معنى أجمع لخصال الشكر ولا أدل على جماع الفضل ، من سخاوة النفس بأداء الواجب . ونحن وإن لم نكن أعطينا الاخلاص جميع حقه ، فان المرء مع

من أحب وله ما احتسب . ولا أعلم شيئاً أزيد في السيئة من استصغارها ، ولا أحبط للحسنة من العجب بها ، ومما يستديم الخطأ التقصير وإهمال النفس وترك التوقف وقلة المحاسبة وبعد العهد بالتثبت . ومهما رجعنا إليه من ضعف في العزم وهان ما نفقد من مناقل الحكم ، فانا لا نجمع بين التقصير والانكار . ونعوذ بالله أن نقصر في ثناء على محسن أو دعاء لمنعم، ولئن اعتذرنا لأنفسنا بصدق المودة وجميل الذكر فما يعد لكم من تحقق الآمال ، والنهوض بالأثقال : أكثر . على أنكم لم تحملونا إلا الخف ، وقد حملناكم الثقل ، ولم تسألونا الجزاء على إحسانكم ، وقد سألناكم الجزاء على ما سألناكم ، ولم تكلفونا ما يجب لكم ، وكلفناكم ما لا يجب عليكم ومن إفراط الجهل أن نتذكر حقنا في تصديق ذلك الظن . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَى أَحدٍ إِلاَّ عظُمَتْ عليهِ مُؤْنَةُ النَّاسِ » . وأنا أسأل الله الذى ألزمكم المؤن الثقال ، ووصل بكم آمال الرجال ، وامتحنكم بالصبر على تجرع المرار ، وكلفكم مفارقة المحبوب من الأموال ، أن يسهلها عليكم ، ويحببها إليكم ، حتى يكون شغفكم بالإحسان الداعى إليه ، وصبابتكم بالمعروف الحامل عليه ، وحتى يكون حب التفضل والمحبة لاعتقاد المنن ، الغاية التى تستدعي المدبر ، والنهاية التى تعذر المقصر ، وحتى تكرهوا على البر من أخطأ حظه ، وتفتحوا باب الطلب لمن قصر به العجز .

ثم أعلم — أصلحك الله تعالى — أن الذى وجد فى العبرة وجرت عليه التجربة ، واتسق به النظم ، وقام عليه وزن الحكم ، واطرد منه النسق ، وأثبته الفحص ، وشهدت له العقول ، أن من أول أسباب الخلطة والدواعي إلى المحبة ما يوجد على بعض الناس من القبول عند أول وهلة ، وقلة انقباض النفوس مع أول المخالطة ، ثم اتفاق الأسباب التى تقع بالموافقة عند أول المجالسة ، وتلاقى النفوس بالمشاكلة عند أول المخالطة . والأدب أدبان : أدب خلق وأدب رواية ، ولا تكمل أمور صاحب الأدب إلا بهما ، ولا يجتمع له أسباب التمام إلا من أجلهما ، ولا يعد

فى الرؤساء ، ولا يثنى به الخنصر فى الأدباء ، حتى يكون عقله المتأمر عليهما والسائس لها . فان تمت بعد ذلك أسباب الملاقاة تمت المصافاة وحن الإلف إلى سكنه . والشأن قبل ذلك ما يسبق إلى القلب ويخف على النفس ، ولذلك احترس الحازم المستعدى عليه من السابق إلى قلب الحاكم عليه . ولذلك التمسوا الرفق والتوفيق والايجاز وحسن الاختصار وانخفاض الصوت ، وأن يخرج الظالم كلامه مخرج لفظ المظلوم حتى يترك اللحن بحجته بعد أن تخلف الداهية كثيرا من أدبه ويغض من محاسن منطقه التماساً لمواساة خصمه فى ضعف الحيلة ، والتشبه به فى قلة الفطنة . نعم ومتى يكتب كتاب سعاية ومحل وإغراق فيلحن فى إعرابه ، ويتسخف فى ألفاظه ، ويتجنب القصد ويهرب من اللفظ المعجب ليخفى مكان حدته ويستر موضع رفقه ، حتى لايحترس منه الخصم ولا يتحفظ منه صاحب الحكم ، بعد أن لايضر بين معناه ، ولا يقصر فى الافصاح عن تفسير مغزاه . وهذا هو الذى يكون العى فيه أبين ، وذو الغباوة أفطن ، والردىء أجود ، والأنوك أحزم ، والمضيع أحكم ، إذ كان غرضه الذى إياه يرمى وغايته التى إليها يجرى ، الانتفاع بالمعنى المتخير دون المباهاة باللفظ ، وإنما كان غايته إيصال المعنى إلى القلب دون نصيب السمع من اللفظ المونق والمعنى المتخير ، بل ربما لم يرض باللفظ السليم حتى يسقمه ليقع العجز موقع القوة ، ويعرض العى فى محل البلاغة . إذ كان حق ذلك المكان اللفظ الدون والمعنى النغل . هذا إذا كان صاحب القصة ومؤلف لفظ المحل والسعاية ممن يتصرف قلمه ويعمل لسانه ويلتزق فى مذاهبه ويكون فى سعة وحل لأن يحط نفسه فى طبقة الذل وهو عزيز ، ومحل العى وهو بليغ ، ويتحول فى هيئة المظلوم وهو ظالم ، ويمكنه تصوير الباطل فى صورة الحق ، وستر العيوب بزخرف القول . وإذا شاء طفا ، وإذا شاء رسب ، وإذا شاء أخرجه عقلا صحيحاً . وما أكثر من لايحسن إلا الجيد فان طلب الردىء جاوزه ، كما أنه ما أكثر من لايستطيع إلا الردىء فان طلب الجيد قصر عنه . وليس كل بليغ يكون بتلك

الطباع ، وميسر الأداة ، وموسماً عليه فى تصريف اللسان ، وممنونا عليه فى تحويل القلم . وما أكثر من البصراء من يحكى العميان ويحول لسانه إلى صورة لفظ الفأفاء بما لايبلغه الفأفاء ولا يحسنه التمتام ، وقد نجد من هو أبسط لساناً وأبلغ قلماً لايستطيع مجاوزة مايشركه والخروج مما قصر عنه . ولولا الحدود المحصلة ، والأقسام المعتدلة ، لكانت الأمور سدى ، والتدابير مهملة ، ولكانت عورة الحكيم بادية ، ولاختلطت السافلة بالعالية .

وأنا أقول بعد هذا كله : لو لم أضمر لكم محبة قديمة ، ولم أضر بكم بشفيع من المشاكلة ، ولا بسبب الأديب إلى الأديب ، ولم يكن على قبول ولا على حلاوة عند المحصول ، ولم أكن إلا رجلا من عرض المعارف ، ومن جمهور الاتباع ، لكان فى إحسانكم إلينا وإنعامكم علينا ، دليل على أنا أخلصنا المحبة ، وأصفينا لكم المودة . وإذا عرفتم ذلك بالدليل النير الذي أنتم سببه ، والبرهان الواضح الذى إليكم مرجعه ، لم يكن لنا عند الناس إلا توقع ثمرة الحب ونتيجة جميل الرأى ، وانتظار ما عليه مجازاة القلوب . وبقدر الانعام تجود النفوس بالمودة وبقدر المودة تنطلق الألسن بالمدحة . وهذه الوسيلة أكثر الوسائل وأقواها فى نفسى بِمُحَرَّمٍ غُمْرٍ ولا بمتحل غُفُل ، ولا بضيق العطن حديث الغنى ، ولا بزمر المروءة مستنبط الثرى ، بل وصلته بحمال أثقال ، ومقارع أبطال ، وبمن ولد فى اليسر وربى فيه ، وجرى منه على عرق ونزع إليه . ولا خير فى سمين لايحتمل هزال أخيه ، وصحيح لايجبر كسر صاحبه .

وقد تنقسم المودة إلى ثلاث منازل : منها مايكون على اهتزاز الأريحية وطبع الحرية ، ومنها ما يكون على قدر فرط وسائل الفاقة ، ومنها ما يحسن موقعه على قدر طباع الحرص وجشع النفس . فأرفعها منازل حب المشغوف شكر النعمة ، وهو الذى يدوم شكره ويبقى على الأيام وده ، والثانى هو الذى إنما اشتد حبه على قدر موقع المال من قلب الحريص الجشع واللئيم الطَّبع ، فهذا الذى لايشكر

وإن شكر لم يشكر إلا ليستزيد ، ولم يمدح إلا ليستمد وعلى أنه لايأتى الحمد إلا زحفا ولا يفعله إلا تكلفا . وأنا أسأل الله الذى قسم له أفضل الحظوط فى الانعام أن يقسم لنا أفضل الحظوظ فى الشكر . وما غاية قولنا هـذا ومدار أمرنا إلا على طاعة توجب الدعاء ، وحرية توجب الثناء ، شاكرين كنا أو منعمين ، وراجين كنا أو مرجوين . ومن صرف الله حاجته إلى الكرام ، وعدل به عن اللئام ، فلا يعدن نفسه فى الراغبين ولا فى الطالبين المؤملين . لأن من يجرع مرارة المطال ولم يعد للراجى التسويف ويقطع عنقه بطول الانتظار ويحمل مكروه ذل السؤال ويحمل على طمع يحثه يأس ، كان خارجاً من حدود المؤملين . ومن استولى على طمعه الثقة بالانجاز وعلى طلبته اليقين بسرعة الظفر وعلى ظفره الجزيل من الإفضال ، وعلى إفضاله العلم بقلة التثريب وبالسلامة من التنغيص بالتماس الشكر وبالغدو وبالرواح ، وبالخضوع إذا دخل ، والاستكانة إذا جلس ، ثم مع ذلك لم يكن ما أنعم عليه ثواباً لسالف يد ، ولا تعويضا من كد ، كانت النعمة محضة خالصة ، ومهذبة صافية ، وهى نعمتكم التى ابتدأتمونا بها . ولا تكون النعمة سابغة ولا الأيدى شاملة ، ولا الستر كثيفا ذيالا ، وكثير العرض مطبقاً ، ودون الفقر حاجزاً ، وعلى الغنى ملتحفا ، حتى يخرج من عند كريم حر ثم يحتسب إلى شاكر حر . وأنتم قوم تقدمتم بابتناء المكارم فى حال المهلة ، وأخذتم لأنفسكم فيها بالثقة على مقادير ما مكنتم الأواخى ومددتم الأطناب وثبتم القواعد . ولذلك قال الأول :

عَزَمْتُ عَلَى إقَامَةِ ذى صَبَاحٍ ... لِأَمْرٍ مَّا يُسَوَّدُ مَنْ يَسُودُ

وأبو الفرج أعزه الله — فتى العسكرين ، وأديب المصرين ، جمع أريحية الشباب ، ونجابة الكهول ، ومجد السادة ، وبهاء القادة ، وأخلاق الأدباء ، ورشاقة عقول الكتاب ، والتغلغل إلى دقائق الصواب ، والجلالة فى الصدور ، والمهابة فى العيون ، والتقدم فى الصناعة ، والسبق عند المحاورة . شقيق أبيه ، وشبيه جده ، حذو النعل بالنعل ، والقذة بالقذة ، لم يتأخر عنهما إلا فيما لا يجوز أن يتقدمهما

فيه ، ولم يقصر عن شأوهما إلا بقدر ما قصرا من سنخهما . وهم وإن قصروا عن مدى آبائهم وعن غايات أوائلهم فلم يقصروا عن جلة الرؤساء وأهل السوابق من الكبراء ، ولست ترى تاليهم إلا سابقا ، ولا مصليهم إلا للغاية مجاوزاً ، ليس فيهم سكيت ولا مبهور ولا منقطع . قد نقحت أعراقهم من الإقراف والهجنة ، ومن الشوب ولؤم العجلة .

ومتى عاينت أبا الفرج وكماله ، ورأيت ديباجته وجماله ، علمت أنه لم يكن فى ضرائبهم وقديم نجلهم خارجي النسب ، ولا مجهول المركب ، ولا بهيم مصمت ولا كثير الأوضاح مقرب ، بل لا ترى إلا كل أغر محجل ، وكل ضخم المخرج هيكل . إنى لست أخبر عن الموتى ، ولا استشهد بالغيب ، ولا استدل بالمختلف فيه ، ولا الغامض الذى تعظم المؤنة فى تعرفه ، والشاهد لقولى يلوح فى وجوههم والبرهان على دعواى فى شمائلهم ، والأخبار مستفيضة ، والشهود متعاونة . وأنت حين ترى عتق تلك الديباجة ، ورونق ذلك المنظر ، علمت أن التالد هو قياد هذا الطارف . أما أنا فلم أر لأبى الفرج — أدام الله كرامته — ذاما ولا شانيا ولا عائبا ولا هاجيا . بل لم أجد مادحا قط إلا ومن سمع سابق إلى تلك المعانى ، ولا رأيت واصفا له قط إلا وكل من حضر يهش له ويرتاح لقوله . قال الطرماح :

هَلِ المَجْدُ إلاّ السُّؤْدَدُ العَوْدُ والنَّدَى ... وَرَبُّ الْجَدَى وَالصِّدْقُ عِنْدَ المُوَاطِنِ

ولكن هل المجد إلا كرم الأرومة والحسب ، وبعد الهمة وكثرة الأدب ، والثبات على العهد إذا زلت الأقدام ، وتوكيد العقد إذا انحلت معاقد الكرم ، وإلا التواضع عند حدوث النعمة ، واحتمال كَلِّ العترة ، والعقد فى الكتابة والأشراف عَلَى الصناعة . والكتاب : وهو القطب الذى عليه مدار علم ما فى العالم وآداب الملوك وتخليص الألفاظ والغوص على المعانى السديدة والتخلص إلى إظهار ما فى الضمائر بأسهل القول ، والتمييز بين الحجة والشبهة ، وبين المفرد والمشترك وبين المقصور والمبسوط ، وبين ما يحتمل التأويل مما لا يحتمله ، وبين السليم والمعتل .

فبارك الله لهم فيما أعطاهم ، ورزقهم الشكر على ماخولهم ، وجعل ذلك موصولا بالسلامة وبما خط لهم من السعادة ، إنه سميع قريب فعال لما يريد .

وكتب فى ذم الزمان :

حفظك الله حفظ من وفقه للقناعة ، واستعمله بالطاعة . كتبت إليك وحالى حال من كثفت غمومه ، وأشكلت عليه أموره ، واشتبه عليه حال دهره ، ومخرج أمره . وقل عنده من يثق بوفائه ، أو يحمد مغبة إخائه ، لاستحالة زماننا ، وفساد أيامنا ، ودولة أنذالنا . وقديما كان من قدم الحياء على نفسه ، وحكم الصدق فى قوله ، وآثر الحق فى أموره ، ونبذ المشتبهات عليه من شؤونه : تمت له السلامة ، وفاز بوفور حظ العافية ، وحمد مغبة مكروه العاقبة . فنظرنا إذ حال عندنا حكمه ، وتحولت دولته ، فوجدنا الحياء متصلا بالحرمان والصدق آفة على المال ، والقصد فى الطلب بترك استعمال القحة ، وإخلاق العرض من طريق التوكل : دليلا على سخافة الرأى . إذ صارت الحظوة الباسقة والنعمة السابغة فى لؤم المشيمة ، وسناء الرزق من جهة محاشاة الرضا وملابسة معرة العار . ثم نظرنا فى تعقب المتعقب لقولنا والكاسر لحجتنا فأقمنا له علما واضحا وشاهداً قائما ومناراً بينا ، إذ وجدنا من فيه الفسولة الواضحة والمثالب الفاضحة ، والكذب المبرح ، والخلف المصرح ، والجهالة المفرطة ، والركاكة المستخفة ، وضعف اليقين والاستنبات ، وسرعة الغضب والجراءة : قد استكمل سروره واعتدلت أموره ، وفاز بالسهم الأغلب والحظ الأوفر والقدر الأرفع والجواز الطائع والأمر النافذ . إن زل قيل : حكم ، وإن أخطأ قيل : أصاب ، وإن هذى فى كلامه وهو يقظان قيل : رؤيا صادقة من نسمة مباركة . فهذه حجتنا والله على من زعم أن الجهل يخفض وأن النوك يردى ، وأن الكذب يضر ، وأن الخلف يزرى

ثم نظرنا فى الوفاء والأمانة والنبل والبلاغة وحسن المذهب وكمال المروءة وسعة الصدر وقلة الغضب وكرم الطبيعة ، والفائق فى سعة علمه والحاكم على نفسه

والغالب لهواه : فوجدنا فلان بن فلان ، ثم وجدنا الزمان لم ينصفه من حقه ولا قام له بوظائف فرضه ، ووجدنا فضائله القائمة له قاعدة به . فهذا دليل أن الطلاح أجدى من الصلاح ، وأن الفضل قد مضى زمانه وعفت آثاره وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضده . ووجدنا العقل يشقى به قرينه ، كما أن الجهل والحمق يحظى به خدينه . ووجدنا الشعر ناطقا على الزمان ومعربا عن الأيام حيث يقول :

تَحَامَقْ مَعَ الحَمْقَى إِذَا مَالَقِيتَهُمْ ... وَلاَقِيهِم بالجَهْلِ فِعْلَ أَخِي الجَهْلِ
وَخَلِّطْ إِذَا لاَقَيْتَ يَوْماً مُخَلِّطًا ... يُخَلِّطُ فِى قَوْلٍ صَحِيحٍ وَفِى هَزْلِ
فَإِنِّي رَأَيْتُ المَرْءَ يَشْقَى بِعَقْلِهِ ... كَما كانَ قَبْلَ اليَوْمِ يَسْعَدُ بِالْعَقْلِ

فبقيت ، أبقاك الله ، مثل من أصبح على أوفاز ، ومن النُّقلة على جهاز ، لايسوغ له نعمة ، ولا تطعم عينه غمضة ، فى أهاويل يباكره مكروهها ويراوحه عقابيها . فلو أن الدعاء أجيب والتضرع سمع ، لكانت الهزة العظمى والرجفة الكبرى . فليت ، أى أخى ، ما أستبطئه من النفخة ومن فجأة الصيحة قضى فحان ، وأذن به فكان . فوالله ما عذبت أمة برجفة ولا ريح ولاسخطة ، عذاب عيني برؤية المغايظة المدمنة والأخبار المهلكة ، كأن الزمان يوكل بعذابي أو ينصب بأيامى . فما عيش من لايسر بأخ شفيق ولا يصطبح فى أول نهاره إلا برؤية من يكرهه ويغمه بطلعته ! فقد طالت الغمة وواظبت الكربة وادلهمت الظلمة ، وخمد السراج وتباطأ الانفراج .

وكتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات :

لا والله ما عالج الناس داء قط أدوى من الغيظ ، ولا رأيت شيئاً هو أنفذ من من شماتة الأعداء ، ولا أعلم بابا أجمع لخصال المكروه من الذل ، ولكن المظلوم مادام يجد من يرجوه والمبتلى مادام يجد من يرثى له ، فهو على سبب درك وإن تطاولت به الأيام ، فكم من كربة فادحة ، وضيقة مصمتة قد فتحت أقفالها ،

وفككت أغلالها . ومهما قصرت فيه فلم أقصر فى المعرفة بفضلك ، وفي حسن النية بيني و بينك ، لا مشتت الهوى ، ولا مقسم الأمل ، على تقصير قد احتملته وتفريط قد اغتفرته . ولعل ذلك أن يكون من ذنوب الإدلال ، وجرائم الإغفال . ومهما كان من ذلك فلن أجمع بين الإساءة والانكار . وإن كنت كما تصف من التقصير ، وكما تعرف من التفريط ، فانى من شاكرى أهل هذا الزمان وحسنى الحال ومتوسطى المذهب . وأنا أحمد الله على أن كانت مرتبتك فى المنعمين ، فوق مرتبتى فى الشاكرين . وقد كانت على بك نعمة أذاقتنى طعم العز وعودتنى روح الكفاية . . .

أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الانصاف ، ورجح فى قلبك إيثار الأناة فقد خفت — أيدك الله — أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء .

و بعد هذا قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وَإِنَّ امْرَأً أَمْسَى وَأَصْبَحَ سَالِمًا ... مِنَ النَّاسِ إلاَّ ما جَنَى لَسَعِيدُ

وقال الآخر :

وَمَن دَعَا النَّاس إلى ذَمِّه ... ذَمُّوهُ بالحَقِّ وَبالبَاطِلِ

فإن كنت اجترأت عليك — أصلحك الله — فلم أجترىء إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة . ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان : عمر كان خيراً لى منك رهبنى فاتقانى وأعطانى فأغنانى . فإن كنت لا تهب عقابى — أيدك الله — لخدمة سلفت لى عندك فهبه لأياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فأفعل ذلك لحسن الاحدوثة ، وإلا فأت ما أنت أهله من العفو دون ماأنا أهله من استحقاق العقوبة . فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد وتتجافى عن عقاب المصر ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر

وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك والإنعام إلا منك ، هجت عليه بالعقوبة ؟ واعلم أيدك الله أن شين غضبك على كزين صفحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرى مع اتصال سببى بك . واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم ، والسلام

وكتب إلى أحمد بن أبى دواد :

ليس عندى ـ أعزك الله ـ سبب ولا أقدر على شفيع ، إلا ماطبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذى لا يكون إلا من نتاج حسن الظن وإثبات الفضل بحال المأمول . وأرجوا أن أكون من العتقاء الشاكرين ، فتكون خير معتب وأكون أفضل شاكر . ولعل الله أن يجعل هذا الأمر سبباً لهذا الانعام ، وهذا الانعام سببا للإنقطاع إليكم والسكون تحت أجنحتكم فيكون لا أعظم بركة ولا أيمن بقية من ذنب أصبحت فيه ، وبمثلك ـ جعلت فداك ـ عاد الذنب وسيلة والسيئة حسنه ، ومثلك من انقلب به الشر خيرا ، والغرم غنما . من عاقب فقد أخذ حظه ، وإنما الأجر فى الآخرة وطيب الذكر فى الدنيا ، على قدر الاحتمال وتجرع المرار ، وأرجو ألا أضيع وأهلك فيما بين عقلك وكرمك ، وما أكثر من يعفو عمن صغر ذنبه ، وعظم حقه ، وإنما الفضل والثناء العفو عن عظيم الجرم ضعيف الحرمة . وإن كان العفو العظيم مستطرفاً من غيركم فهو تلاد فيكم ، حتى ربما دعا ذلك كثيراً من الناس إلى مخالفة أمركم ، فلا أنتم عن ذلك تنكلون ، ولا عن سالف إحسانكم تندمون . وما مثلكم إلا كمثل عيسى بن مريم حين كان لايمر بملأ من بنى اسرائيل إلا أسمعوه شراً وأسمعهم خيراً ، فقال له شمعون الصفا : ما رأيت كاليوم ، كلما أسمعوك شراً أسمعتهم خيراً ؟ فقال : كل امرىء ينفق مما عنده . وليس فى أوعيتكم إلا الخير ، ولا فى أوعيتكم إلا الرحمة ، وكل إناء بالذى فيه ينضح .

وكتب إلى إبراهيم بن المدبر :

(قال عبد الله بن جعفر الوكيل : كنت عند ابراهيم بن المدبر فرأيت بين

يديه رقعة يردد النظر إليها فقلت له : ما شأن هذه الرقعة ؟ كأنه استعجم عليك شيء فيها ؟ فقال : هذه رقعة أبي عثمان الجاحظ وكلامه يعجبني ، وأنا أردده على نفسي لشدة إعجابي . فقلت : هل يجوز أن اقرأها ؟ قال : نعم ، وألقاها إلىّ فإذا فيها) :

ماضاء لي نهار ولا دجا ليل مذ فارقتك إلا وجدت الشوق إليك قد حز في كبدي ، والأسف عليك قد أسقط في يدي ، والنزاع نحوك قد خان جَلَدِي ، فأنا بين حشا خافقة ، ودمعة مهراقة ، ونفس قد ذبلت بما تجاهد ، وجوانح قد بليت بما تكابد ، وذكرت وأنا على فراش الإرعاض ، ممنوع من لذة الاغتماض قول بشار :

إِذَاهتَفَ القُمْرِيُّ نَازَعَنِي الْهَوَى ... بِشَوْقٍ فَلَمْ أَمْلِكْ دُمُوعِي مِنَ الْوَجْدِ
أَبِي اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَنَا ... وَكُنَّا كَمَاءِ الْمُزْنِ شِيبَ مَعَ الشَّهْدِ
لَقَدْ كَانَ مَا بَيْنِي زَمَانًا وَبَيْنَهَا ... كَمَا كَانَ بَيْنَ الْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِي

فانتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه ، ونجري في مودتنا إليه في شعره هذا ، وذكرت أيضاً ما رماني به الدهر من فرقة أعزائي من إخواني الذين أنت أعزهم ، ويمتحنني بمن نأى من أحبائي وخلصائي الذين كنت أحبهم وأخلصهم ، ويجرعنيه من مرارة نأيهم وبعد لقائهم ، وسألت الله أن يقرن آيات سروري بالقرب منك ، ولين عيشي بسرعة أوبتك ، وقلت أبياتاً تقصر عن صفة وجدي وكنه مايتضمنه قلبي ، وهي :

بِخَدِّيَ مِنْ قَطْرِ الدُّمُوعِ نُدُوبُ ... وَبِالْقَلْبِ مِنِّي مُذْ نَأَيْتَ وَجِيبُ
وَلِي نَفَسٌ حَتَّى الدُّجَى يَصْدَعُ الْحَشَا ... وَرَجْعُ حَنِينٍ لِلْفُؤَادِ مُذِيبُ
وَلِي شَاهِدٌ مِنْ ضُرِّ نَفْسِي وَسُقْمِهَا ... يُخَبِّرُ عَنِّي أَنَّنِي لَكَئِيبُ
كَأَنِّي لَمْ أُفْجَعْ بِفُرْقَةِ صَاحِبٍ ... وَلاَ غَابَ عَنْ عَيْنِي سِوَاكَ حَبِيبُ

(فقلت لابن المدبر : هذه رقعة عاشق لارقعة خادم ، ورقعة غائب لارقعة حاضر ؟ فضحك وقال : نحن نتبسط مع أبي عثمان إلى ماهو أدق من هذا وألطف فأما الغيبة فاننا نجتمع فى كل ثلاثة أيام وتأخر ذلك لشغل عرض لى فخاطبنى مخاطبة الغائب ، وأقام انقطاع العادة مقام الغيبة)

وكتب معاتباً :

زينك الله بالتقوى ، وكفاك ما أهمك من الآخرة والأولى . من عاقب — أبقاك الله تعالى — على الصغيرة عقوبة الكبيرة وعلى الهفوة عقوبة الاصرار ، فقد تناهى فى الظلم . ومن لم يفرق بين الأسافل والأعالى ، والأدانى والأقاصى ، فقد قصر . و الله لقد كنت أكره سرف الرضا مخافة أن يؤدى إلى سرف الهوى ، فما ظنك بسرف الغيظ وغلبة الغضب من طياش عجول فحاش ، ومعه من الخرق بقدر قسطه من التهاب المرة الحمراء ؟ وأنت روح كما أنت جسم ، وكذلك جنسك ونوعك إلا أن التأثر فى الرقاق أسرع ، وضده فى الغلاظ الجفاة أكمل ، ولذلك اشتد جزعى عليك من سلطان الغيظ وغلبته ، فاذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه فانظر فى علته وفى سبب إخراجه من معدنه الذى منه نجم ، وعشه الذى منه درج ، و إلى جهة صاحبه في التسرع والثبات ، وإلى حلمه عند التعريض ، وفطنته عند التوبة . فكل ذنب كان سببه ضيق صدر من جهة الغيض فى المقادير ، أو من طريق الأنفة وغلبة طباع الحمية ، من جهة الجفوة أو من جهة استحقاقه فيما زين له عمله أنه مقصر به فى حقه ، مؤخر عن رتبته ، أو كان مبلغا عنه مكذوبا عليه ، أو كان ذلك جائزا فيه غير ممتنع منه . فاذا كانت ذنوبه من هذا الشكل فليس يقف عليها كريم ، ولا ينظر فيها حليم . ولست أسميه بكثرة معروفه كريما حتى يكون عقله غامرا لعلمه ، وعلمه غالبا على طباعه ، كما لا أسميه بكف العقاب حليما حتى يكون عارفا بمقدار ما أخذ وترك . ومتى وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلى البغض المحض والنفار الغالب ، فلو لم ترض

لصاحبه بعقاب دون قعر جهنم لعذرك كثير من العقلاء ، ولصوب رأيك عالم من الأشراف . والأناة أقرب من الحمد وأبعد من الذم ، وأنآى من خوف العجلة . وقد قال الأول : عليك بالأناة فانك على إيقاع ماتتوقعه أقدرمنك على رد ماقد أوقعته .

وليس يصارع الغضب أيام شبابه شيء إلا صرعه ، ولاينازعه قبل انتهائه [منازع] إلا قهره ، و إنما يحتال له قبل هيجه ، فتى تمكن واستفحل ، وأذكى ناره واشتعل ، ثم لاقى من صاحبه قدرة ، ومن أعوانه سمعا وطاعة ، فلو استبطنته بالتوراة وأوجرته بالانجيل ولددته بالزبور وأفرغت على رأسه القرآن إفراغا ، وأتيته بآدم شفيعاً ، لما قصر دون أقصى قوته . ولن يسكن غضب العبد إلا ذكر غضب الرب

فلا تقف — حفظك الله — بعدمضيك فى عتابى التماسا للعفو عنى، ولاتقصر عن إفراطك من طريق الرحمة بى ، ولكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله ، والشيطان على دنيه ، ويعلم أن للكرم أعداء ، ويمسك إمساك من لايبرىء نفسه من الهوى ، ولايبرىء الهوى من الخطأ . ولا تنكر لنفسك أن تزل ، ولعقلك أن يهفو ، فقد زل آدم عليه السلام وقد خلقه بيده . ولست أسألك إلا ريثما تسكن نفسك ، و يرتد إليك ذهنك ، وترى الحلم وما يجلب من السلام وطيب الأحدوثة ، والله يعلم وكفى به عليما .

لقد أردت أن أفديك بنفسى فى مكاتبتى ، وكنت عند نفسى فى عداد الموتى وفي حيز الهلكى ، فرأيت أن من الخيانة لك ، ومن اللؤم في معاملتك أن أفديك بنفس ميتة ، رأن أريك أنى قد جعلت لك أنفس ذخر ، والذخر معدوم . وأنا أقول كما قال أخو ثقيف : مودة الأخ التالد و إن أخلق خير من مودة الأخ الطارف و إن ظهرت مساعدته وراقت جدته . سلمك الله وسلم عليك ، وكان لك ومنك

فهرس رسائل الجاحظ

تصحيح

صفحة	سطر	
٢١٨	١١	تصحح هذه العبارة هكذا : والشعر الفاخر حسن ، وهو من فم الأعرابى أحسن ، فان كان من قول المنشد وقريضه ومن نحته وتحبيره فقد بلغ الغاية وقام على النهاية